ديديه كونفار

المثلث السري

دموع البابا

الحقائق الخفية عن الفاتيكان و"صلب" السيد المسيح وحراس الدم





المثلث السرِّي

LE TRIANGLE SECRET

المثلث السرّي

تأليف: ديدييه كونفار

ترجمة: د. سليم طنوس



للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق ٣ ـ شارع الكويت

المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308

لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى2008



1

الموكب

فيما ألسنة لهب المشاعل تفرقع في الريح، والمطر الغزير البارد يؤذن بهطول قريب للثلج. كان رجلان وامرأتان يحملان جسداً يلفه كفن أبيض، تتبعهم أشباح موكب، خاشع وصامت.

ما أن تقدم الموكب داخل غابة من السنديان، حتى توقف فجأة بإشارة من رجل طاعن في السن، كان يسير في المقدمة.

وضع حاملو الجثمان الأربعة النعش على أرض غضارية موحلة التصقت بنعال صنادلهم. أرض غنية يفوح منها الطيب.

جلس العجوز عند رأس الميت، وقدماه المتباعدتان على شكل زاوية قائمة تكادان تلامسان الكفن. على الفور، غرز رفاقه مشاعلهم في الأرض وتحلقوا حول الميت الراقد، بعضهم قابض على أيدي البعض.

كان الجميع متحدين ومتماسكين بقوة فيما كان الرجل العجوز، القادر على تحريك هذه السلسلة البشرية بيديه، يردد قائلاً:

ـ بما أن الساعة أزفت، وبلغنا السن...، لنفتتح أعمال محفلنا.

رفع الرجال والنساء أيديهم... المتشابكة عالياً ثلاث مرات متتالية ثم أنزلوها متفرقة. وأطلق العجوز العنان لكلامه.

بدأ هطول المطر يشتد، فتدفع به الريح إلى الفرجة ،مبللة المعاطف القطنية والفساتين الكتانية.

كان العجوز يخطب مؤبناً بصوت ضعيف أبح، من جراء فرط استعماله خلال آلاف المناسبات وعبر العديد من البلدان، في أناشيد الحب والأخوة.

بعد أن أنهى العجوز خطابه التأبيني، تقدم ثلاثة رجال عدة خطوات وانحنوا معاً. ثم رفعوا حلقة من البرونز، وبصوت واحد، اقتلعوا من الأرض بلاطة من الحجر انفتحت على قبر فارغ وضعوا فيه جثمان الميت.

دنا العجوز من القبر حيث رقد صديقه، وأستاذه، ثم دسّ يده تحت معطفه ليخرج منه «شيئاً» ضمّه لحظة إلى صدره.

انحنى بهدوء، وجثا بصعوبة على حافة باب القبر السوداء، وأجهش بالبكاء طويلاً؛

ثم وضع «الشيء» على صدر الميت. نهض وأعطى الأمر بإعادة بلاطة القبر إلى مكانها، ثم نزع حلقة البرونز، وقال:

ـ ليبق سرّك معك، أيها المعلّم... ملعونون أولئك الذين يحاولون سرقة كلامك لتشويهه! ليباركك الله، يا أخي، من أجل العلم الذي تركته إرثاً لنا.

قُدّمت إليه حلقة البرونز فتمنى، رغم ثقلها، لو استطاع الاحتفاظ بها بين يديه، كذخيرة..

تابع الرجال والنساء طريقهم في عمق الغابة الكثيفة مستنيرين بمشاعلهم الضعيفة اللهب.

كان العجوز يتقدمهم جميعاً. عندما أدركه شاب في مقتبل العمر، امتلأ وجهه بالدموع وماء المطر.

سأل ابنه البكر:

ـ ألم نختم أعمالنا، يا يوحنا... لماذا؟

أجاب العجوز:

ـ إن أعمالنا لن تنتهي أبداً، يا أخي... أبداً! فمحفلنا قد فُتح إلى الأبد، فُتح خارج جدران المعبد (الهيكل)، وفتح خارج الوقت. لقد بدأ عملنا منذ قليل، وسيستمر إلى الأبد..

ـ كيف سنعمل من دونه؟

ابتسم العجوز وقال:

ـ سنجدّ في إثره وسنبحث عنه، وسيكون ذلك عملنا، على مدى القرون المقبلة يا أخي.

2

الرسالة الخامسة

نظر «ديدييه موزيل» إلى المطر المنهمر على الشارع الخارجي، سانداً جبينه على الزجاج البارد ومتأملاً، لبضع ثوان، غادر بعدها النافذة وعاد إلى مكتبه المغطى بالكتب والوثائق المبعثرة، ثم أشعل سيجارة وسقط منها نفخة كاد أن يحرق بها رئتيه.

كان «ديدييه موزيل» على عتبة الأربعين. شعره أشقر طويل منسدل إلى الخلف، ذقنه حادة، طرفها مقروص بنُقرة، ووجنتاه مرتفعتان وناتئتان نوعاً. عيناه ضاربتان إلى الزرقة الفاتحة المشوبة باللون الرمادي، طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدي يرتدي قميصاً وبنطالاً لصيقاً أسودين.

قضى «ديدييه» أكثر من ساعة وهو يضع شريطاً في آلة التسجيل ويسحب آخر؛ أكثر من ساعة وهو يدخن سيجارة تلو الأخرى، ويجلس ويقف ويذهب إلى النافذة، ثم يعود إلى مكتبه ويبعثر بقدمه الكتب التي غطّت الأرض.

مرة أخرى يضع ديدييه شريطاً في آلة التسجيل ويضغط على زر التشغيل، فينتشر في مكتبه صوتٌ ضعيف وعصبي، تمزقه تنهيدة ألم.

«عزيزي ديدييه، حين تسمع هذا الشريط أكون بالتأكيد قد غادرت هذا العالم. هؤلاء الذين يطاردونني، سيلقون قريباً القبض عليَّ، ولن يبقَ لدي سوى القليل من الوقت لأروي الأحداث الأخيرة التي قادتني إلى حافة الموت... إن القتلة يجدّون في إثري منذ زمن طويل... أعتقد أن رسالتي الأخيرة قد وصلت إليك. ألم تكن هذه الرسالة لغزاً؟ هل توصلت إلى فهمها؟ تذكر... لقد قلت لك، قبل أن أغادرك بوقت قليل، إنني حصلت على خمسة مغلفات مع عنوانك، خمسة! لنتذكر المرتبة التي ترفعنا فيها إلى «رتبة رفيق» في محفلنا الأم: محفل إيلياه وخمسة! الرقم الرمزي للدرجة التي يجب على الماسوني فيها أن *يسافر*...

في ذلك المساء وبعد اجتماعنا الذي تكلمنا خلاله طويلاً... كنا نطمح إلى الانطلاق في بحث مستبعد وغير محتمل... لقد بدا ذلك، حينئذ، كرهان لمثقفين باريسيين، راغبين

بالحصول على آخر ذُرارة من الشباب. كنا نجهل أننا تجاه عمل لا طاقة لنا به، وأن ما كنا نعتقد أننا نستطيع لملمته من تقليب صفحات الكتب في المكتبات، قد تحول، في الواقع إلى بحث خطير... إن رومنسية هذه الأمسية قد تحولت إلى كابوس، وهذا السفر سيكلفني حياتي...

كنا بعيدين عن التفكير بأن دليلاً مادياً سيطل برأسه من الماضي ليعكّر علينا باعتماده النظرية الشيطانية التي كنت أتمتع باستحضارها.

كما ترى يا صديقي القديم، يا أخي... ما زلت أضيع الوقت... وأكرر الكلام عن سبب تعاستي، متجنباً التحدث عما تتلهف إلى معرفته...، معرفة ما إذا كانت نظريتي صحيحة. أليس كذلك؟

لكن أن أجد نفسي على حافة الموت، مهدداً من قِبل الذين يخفون هذا السر منذ قرون عديدة ألا يثبت ذلك أني وجدته؟

أوقف موزيل شريط التسجيل، وأطفأ سيجارته التي لم يكملها في منفضة مليئة بأعقاب السجائر: نهض عن الأريكة التي كان مسترخياً عليها ومشى قليلاً ثم عاد إلى مكتبه ليتابع الإصغاء إلى الرسالة التي حفظ مضمونها عن ظهر قلب:

«أترك بحثنا! أتوسل إليك، أغلق الكتب، احرقها جميعاً وانثر رمادها في الهواء! إنسَ كل ما قلته لك، إنسهُ تماماً! أشك في أن تتوقف عند عن ختم الطابع البريدي الممهور في آخر الرسالة. لا تكن واثقاً كثيراً! إبق خارج هذا المزاح المميت!».

مرة جديدة أوقف موزيل الشريط، بعد أن دخّن الكثير من السجائر هذا المساء، وأقسم أنه سيقلع عن التدخين. نظر لاحقاً إلى الغلاف الورقي الذي كان يضم شريط التسجيل بداخله. كان المكتوب مرسلاً عبر محطة بريد «ريمس» قبل أربعة أيام، وعنوانه مدوّن بخط صديقه «فرنسيس مارلان»، بطريقة لا يمكن التلاعب فيها عبر إمالة حرف الـ «(I) نحو اليمين:

السيد ديدييه موزيل D/D/ER MOSELE

33 جادة بورت ـ برانسيون PAR/S 75015

استأنف موزيل السماع:

« ديدييه، إنك اكتفيت بالبحوث المستقاة من الكتب، وكنت على حق. كان عليّ أنا، أن أقتنع بذلك أيضاً. عِوضاً عن أن ألقي بنفسي جسدياً في مغامرة لا قِبل لي بها.

نحن لسنا سوى أقزام أمام هذا اللغز، ديدييه..لسنا سوى أطفال مكفوفين وعاجزين، يجب أن يُهشموا لكي يدوم الكذب ويخلد.

الناس ليسوا عقلاء كفاية ليعرفوا... فالعالم يتأرجح؛ والقيم والأخلاق والشرائع

(القوانين) تصبح كلها هباءً منثوراً أمام عاصفة تغرق الإنسانية في الهاوية.

أتوسل إليك أن تتلف هذا الشريط بعد سماعه وأن لا تتحدث قط عن كل هذا لأي إنسان. باسم عهدنا كماسونيين، أطعني، أخي!

إبق خارج هذا المزاح المميت! أحرق الظرف الذي احتوى الشريط، باسم «تكريسنا» وعهدنا، لا تتبع مثالي، لا تترك شيئاً من آثاري سوى الأحرف التي يقرأها للمرة الأولى، وفي ظل المعبد، كل دنيوي يصبح ماسونياً... هذه الأحرف V.I.T.R.I.O.L التي تختصر جملة فهمت معناها الحقيقي: Visita Interiora Terrae, Rectificandoque Invenies Occultum Lapidem[1].. لا تصحح شيئاً على الإطلاق، ديدييه! لا تبحث عن الحجر ولا عن الأخ! وداعاً أخي العزيز.

صديقك التائه فرنسيس

ترك موزيل الشريط حتى توقف من تلقائه وهو يدور في الفراغ إلى أن تخلص من كل تشويشه. كان الهواء المثقل بقطرات المطر يضرب زجاج النوافذ، ضجيج مخنوق يأتي من الخارج مصحوباً بضوضاء مستمرة، ترتفع أحياناً من خلالها صفارة الشرطة أو صرير الإطارات.. إنه المساء. أمسية عادية من أمسيات الخريف.

نزع، موزيل الشريط من مسجلته ليضعه في جيب بنطاله اللصيق (الجينز)، وتناول هاتفه المحمول وطلب رقماً.. قليل من الوقت ثم:

ـ مارتن هذا أنا ديدييه. عذراً لإزعاجك في هذه الساعة، لكنني أودُّ محادثتك حالاً... نعم، في أسرع وقت.. هناك شيء مهم. أفضّل أن يكون الحديث وجهاً لوجه وليس عبر الهاتف. أرجوك، أن توافق على مقابلتي؟ أستطيع أن أصل إليك في غضون عشرين دقيقة.

أغلق ديدييه موزيل الخط من جديد وهو مرتاح، ثم غادر مكتبه لملاقاة مارتن بعد أن ارتدى معطفه وأشعل سيجارته.

في الخارج، كان المطر يهطل بغزارة، ويلفح وجهه كما السوط... حمى رأسه من المطر ورفع بأقة قميصه، ثم خرج من المبنى الذي يقطنه، وقطع الباحة بعدّة قفزات، وصل بها إلى جادة پورت ـ يرانسيون، الذي يصل الجادة الخارجية بالدوار المحيطي الخارجي.

كانت سيارته الفولف مركونة بشكل مائل بمحاذاة الرصيف، من الجهة الأخرى لقارعة الطريق. انتظر موزيل مرور سيارتين ليتسنى له عبور الطريق، من خارج الممر المخصص للمشاة؛ فجأة، وفي الوقت ذاته، انطلقت شاحنة بيضاء صغيرة، كانت متوقفة على مسافة عشرات الأمتار، بسرعة جنونية. أدار موزيل رأسه باتجاه الشاحنة مذهولاً، وفكّر كلمح البصر «هذا الشخص مجنون، إنه لا شك يريد...».

---

1 ـ عاين باطن الأرض، وعندما تصحح، تعثر على الحجر الخفي.

لم يعد لديه متسع من الوقت سوى أن يلقي بنفسه جانباً، ويتفادى بذلك أن تهشمه هذه الشاحنة التي كانت تقصده بشكل واضح. زلّت ركبتاه على الأرض ولامستا البلاط المبلّل.

انعطفت السيارة عند زاوية الجادة ودخلت زحمة السير في الشارع العام، ثم اختفت. نهض موزيل؛ لم يسعفه الوقت إلا بلمحة عابرة لرجلين داخل الشاحنة، وكان الراكب يحدق فيه. وفي خلال جزء يسير من الثانية، استطاع موزيل أن يقرأ الغيظ في عينيه، غيظ ناجم عن أن السائق أخطأ هدفه.

وصل موزيل إلى سيارته وهو يعرج عرجاً خفيفاً. فتح الباب ورمى بنفسه على المقعد سارحاً بفكره، وهو ممسك بالمقود... وأخيراً وضع مفتاح تشغيل السيارة في مكانه. ثم استنتج أن «هؤلاء الأوغاد قد أرادوا النيل مني».

تذكر أنه احتفظ بعقب السيجارة بين شفتيه. فتح زجاج السيارة، ورماه من النافذة بنقرة إصبع. كان طعم التبغ المنقوع قد وصل إلى حلقه حرّيفاً ودُهنياً، ملطخ بالزفت كالأفكار التي كانت تراوده... ذلك أن موزيل قد أدرك أن فرنسيس مارلان قد مات حقاً... فرنسيس صديقه، أخوه! فرنسيس ذو الستة وثلاثين ربيعاً. في غياهب الفراق. الكاتب المتواضع النجاح ـ ولكنه المرموق بالعديد من مؤلفاته التاريخية، الرسام المرهف الحس والماسوني الخالص... من المؤكد أنه قد اغتيل.

3

محفل إيلياه

راح شريط الذكريات يمر تباعاً في ذهن موزيل فيما هو يقود سيارته.

قبل تسع سنوات، وفي مقر محفل فرنسا الأعظم، شارع بوتو. تكرّس موزيل في محفل إيلياه برفقة شاب في مقتبل العمر، أسمر البشرة، له ملامح المراهق البشوش ذي العينين البراقتين والنظرات التي تشع فضولية من خلف عدسات نظارته التي كانت تعطيه ملامح ساهية، ودودة وذات طابع خيالي. فرنسيس مارلان، مثل موزيل، يلبس بذلة من السموكينغ، لكنه يبدو كأنه متنكر، هزيل يطفو قليلاً داخل سترته أما ربطة عنقه فكان كل ما فيها سيئاً.

بعد حفل التكريس الذي استمر أكثر من ساعتين، دعا رئيس المحفل الماسوني، مارتن هيرتز كل الأخوة للإنضمام إلى الحلقة الدائرية والمشاركة في الوليمة.

كان مارتن هيرتز رجلاً ضخماً ذا ملامح قط متوحش، سريع الانفعال والغضب رفع كأسه:

تهانينا، يا أخوتي ديدييه وفرنسيس، من الآن وصاعداً. سنناديكم بهذا اللقب أهلاً بكم في محفل إيلياه! الذي أعتقد أنكم ستسعدون فيه برفقتنا.

أضاف آخر مقهقها:

ـ بل علينا نحن أن نرتاح معكم بخاصة! لكن يبدو أن الماسونيين شديدو التحمل والتسامح، إذاً...

تذكر موزيل أنه همس في أُذن مارلان:

ـ التسامح؟ إنه مسألة وقت وعادة. أظن أن هذا شيء مكتسب!

ابتسم مارلان، بخجل، كان ما يزال تحت تأثير الصدمة التي أحس بها أثناء حفل التكريس. لكنه لم يتوقف عن تفقد كل شيء أمامه وجانبه، ماداً عنقه الشبيه بعنق العصفور، تارةً إلى اليسار وتارةً إلى اليمين، يتتبع أدق التفاصيل ووجوه الأخوة محاولاً العبور إلى الدهاليز، إلى كل شيء. هذا المكان الفسيح المؤلف من صالتين واسعتين مقوستين كان يتجول فيه النوادل والخدم مرتدين قمصاناً بيضاء. وكان دخان السجائر والسيجار يشكل ضباباً كثيفاً.

رشف مارلان من الكأس الشامبانيا بلل بها شفتيه، ثم أعاده إلى مكانه وسأل موزيل:

- إذن، إذا كنت قد فهمت فعلاً هذا الاحتفال فإن تكريسنا معاً، يجعل منا «توأماً؟».

ردَّ موزيل:

- هذا صحيح.. أعترف لك أنني لم أكن أتخيل أبداً أن أكون متأثراً ومنفعلاً ومفتوناً إلى هذه الدرجة بأي طقس، مهما كان.

كان هيرتز جالساً في الجهة المقابلة لهما فتدخل مباشرة في النقاش، مصوباً شوكته نحوهما:

- لأن هذه الوليمة ليست كأي وليمة أخرى، إنها تعرِّفك بالفضائل السرمدية في التقاليد.

لاحظ موزيل بسرعة تلك الطريقة التي استعملها هرتز معهما، وكيف انقض عليهما مظهراً مخالبه، ومخاطباً إياهما في الوقت نفسه بصوت عذب. تابع هرتز.

لا تنسيا، أبداً، أنكما قد أقسمتما اليمين تحت أنظار مهندس الكون الأعظم، وتحت نظري أنا أيضاً! سأبقى رئيس محفلكم، طوال عام أيضاً. ثم ينتهي تفويضي وأكون حينئذ عند باب المعبد أو أصبح حاجباً متواضعاً للمحفل الذي نسمّيه «الأخ الحافي» طوال ثلاث سنوات... هكذا تعلمنا الماسونية التواضع من طريق خفض المهام الملقاة على عاتقنا.

لم يصدق موزيل إمكانية أن يصبح هيرتز يوماً ما أخاً متواضعاً كما قال. لقد فهم موزيل من النظرات التي تبادلها مع هيرتز أن الأخير لم يكن مغفلاً. لديه الكثير من التبجح والزهو رغم بساطته الظاهرية وبعض الخضوع البادي في عينيه كان له طريقة خفية للهزء بالآخرين بأفكار منطقية وتحت بساط من الترهات والسخافات.

كانت الوليمة مفعمة بالحيوية والود والضجيج.

أما النبيذ فكان يلهب بعض العقول، فترتفع الأصوات وتنفجر الضحكات وبخاصة ضحكات الأخ صاحب الوجه المدوّر، والوجنتين المدورتين. إنه كاتب شرعي لم يتوقف عن شرب نخب الحضور وأكل الخبز المحمص.

بعد اكتشاف العديد من النقاط المشتركة بينهما، استغرق فرنسيس مارلان، وديدييه موزيل في نقاش بمفردهما رغم الضوضاء المنتشرة في الصالة.

بعد عشرين دقيقة من التحادث هتف مارلان:

- ملفات البحر الميت؟ هل تشتغلون بها؟ اعتقدت أنك خبير بالمخطوطات العائدة إلى العصور الوسطى وقراءة الطرس (رق ممسوح يكتب عليه ثانية).

أجاب موزيل: إنها ليست جميعها رزماً نحاسية. لقد عثرنا على العديد من المخطوطات

في خربة قمران... لكن الجرذان أعملت أسنانها فيها و قضمت ثلاثة أرباعها: أمتار وأمتار من المخطوطات الممثلة للأناجيل.

ـ وما هو عملك في هذه المشكلة؟

ـ إن المؤسسة التي أعمل فيها، تحت وصاية مدرسة القدس التوراتية، قد أوكلت إليّ مهمة ترميم الملفين المرقمين 4564Q ـ 458. تم تأريخ هذه الأوراق من قِبل عالم الوراثة هنري سكالير من جامعة روكفلر، أما تدوينها فيعود إلى بضع عشرات من السنين بعد الوفاة المفترضة للمسيح. لا يمكننا أن نتأكد بدقة من تاريخ اكتشافها الذي تم في موقع مشهور على البحر الميت فهي تقدم بما لا يقبل الجدل، فائدة لم يسبق نشرها أو معرفتها. لقد دُوِّنت بشكل غامض في سلسلة طويلة من رموز هذا الكنز اللغوي، الذي بدأ عام 1947 حيث كانت قُمْران ما تزال تحت سيطرة السلطة الفلسطينية.

ـ إنك كما لو كنت تتكلم معي عن الكأس المقدس، أليس كذلك، ديدييه!

ـ أنت حالم جداً يا فرنسيس.. إنها لا تعدو كونها صلوات دينية مطولة ومكررة أو دساتير قاسية حرّرها الآسينيون في دير قمران الشهير. لقد تخليت لفترة عن هذه الأعمال التي كرستها لترميم عمل رائع للمزامير من القرن الرابع عشر حتى أنقطع لهذه المهمة، ولا أندم عليها.

كان هيرتز يصغي باهتمام شديد إلى نقاش مفتوح وعلى يمينه أحد الأخوة في موضوع القرارات النهائية للمؤتمر. في الحقيقة كان يتابع كلامهما ملاحظاً الخلاف في كل كلمة بين موزيل ومارلان، وبخاصة عندما اقترح موزيل:

ـ إذا كان هذا الموضوع يهمك، فإنني أدعوك هذا الأسبوع لزيارة مكان عملي. لقد قرأت كتبك، هل بإمكانك مساعدتي؟ إن رأي الخبراء بالكتابات المقدسة ينوّر دربي.

ـ هل صحيح، أنك قرأت مؤلفاتي؟

ـ نعم. ومع أني لا أوفقك على كل نظرياتك، لكنني سررت كثيراً بدرسها. بعض تفسيراتك وشروحك وتعليلاتك قد جاءت في سياق وجهات نظر المؤسسة، حيث تجد بعض المؤيدين لك. أما فيما يتعلق بي فأنا لا أشاطرك الرأي في فرضياتك.. التي تبدو غير تقليدية تماماً وموحى بها من الشيطان، وقد تودي بك إلى المحرقة.

احمر وجه مارلان وقال مقاطعاً:

ـ إنها ليست فرضيات! بل حقائق ويقين: أتسمعني: هذه حقائق!

وبعد وقت طويل من التفكير والتأمل، أضاف:

ـ لم يكن يسوع هذا النجار المسكين الذي يتصورونه بلحية شقراء وبشرة بيضاء! هل تتخيلون فعلاً أن ابن الله يشبه ممثلاً مألوفاً من كاليفورنيا للأفلام التلفزيونية؟ كانت بشرته

كامدة اللون، شعره بني ولد في كنف عائلة ثرية نسبياً! آه، حتماً إن الرمز المقدس الذي نعرفه قد تلقّى ضربة قوية، أليس كذلك؟

دهش موزيل من أن رجلاً ذكياً مثل مارلان، مؤمن أيضاً بإله موحى به، لديه هذا التصميم الراسخ، يبوح بما لديه بكل جرأة وأمام الحاضرين في هذا العشاء. كان يلهو عندما تحمَّس وطلُب منه أن يبرهن صحة نظرياته في موضوع عائلة المسيح، أبنائه، وأخيه...

كان مارلان في الماضي مسيحياً متحمساً وتقياً ورِعاً قبل أن يصبح ماسونياً.

قال موزيل:

ـ من ناحيتي، يمكنني التباهي بمعرفتي الواسعة واطلاعي على الأناجيل. لقد تعلمت على يد أفضل الآباء في ليسيه خاصة في آميان التي أمضيت فيها سنوات مراهقتي. لقد جعلني كل من يوحنا ولوقا، ومتّى، ومرقص أن أُصاب غالباً بشرود الذهن وأن أستعين بمخيلتي للإفلات والهروب. تعلمت أن أعمال يسوع الباهرة كانت بسبب مآثره العظيمة. ست ساعات من التعليم المسيحي في الأسبوع! هل يمكنك أن تأتي بأفضل من ذلك، فرنسيس؟

ـ انحني احتراماً. لكن لنعد إلى عملك الحالي. بإمكانك أن تحدثني عن المؤسسة، طبعاً عن مؤسسة ماير، الأمر يتعلق بها، أليس كذلك؟

ـ نعم. إنها «معمل» ضخم ممّولة من جهات عديدة وتتلقى إعانات مالية دائمة من اليونيسكو المنظمة العالمية للثقافة، ووزارة الثقافة وثلاث مجموعات خاصة... اعترف أني لا أهتم إلا قليلاً بمعرفة مصادر الأموال. في نهاية المطاف، لديّ ميزانية تسمح لي بالحصول على أفضل التقنيين في المعلوماتية ليُعدّوا لي حاسوباً عالي التقنية ومميزاً. ساعدني كثيراً على ملء المساحات الفارغة وإيجاد الكلمات المناسبة للوحة البزل لهذه المخطوطات التي جف حبرها على مر الزمن، مختاراً الحل من بين ملايين الاحتمالات، كنت أنا وفريقي قد عمَّدنا هذه الآلة وأطلقنا عليها اسم «الرأس الكبير».

ـ لكن عملك يا ديدييه...

تابع موزيل:

ـ إنه عمل دقيق يتطلب الكثير من الصبر، عليك إيجاد مكان في سلسلة الدراسات المتقطعة التي بدأها الأب بونوا والبروفسور جون سترونيل الدومينيكي، ورولان دو فو، والدكتور ستافُورد وباحثون آخرون كثيرون ومشهورون أو مجهولو الاسم، الذين كرسوا حياتهم في إعادة التركيب قطعة قطعة للمساحات من اللفافات الممزقة، أو المبقّمة أو والمبوّبة.. من قبل القليل من المترجمين المحترمين! لديّ مكان في معملي، إذا كنت ترغب في ذلك يا مارتن.

ـ ألا تمزح، يا ديدييه؟ أتعرض عليَّ الانضمام فعلاً إلى فريقك؟

ـ أنا مدير وحدة الأبحاث أستطيع تعيين من أريد ليؤازرني في مهنتي، من اللحظة التي أرى فيها أن هناك شخصاً يمتلك الجدارة والأهلية الكاملة للعمل.

ـ موافق مبدئياً! سأوقع بدمي أي عقد على الفور! صاح مارلان. التفت هيرتز بسرعة نحو أخويه الجديدين ليقول:

ـ هذا يسمى ميثاقاً! أرأيتم، كيف أن الماسونية تبثّ معجزاتها الصغيرة. وها هي قد جمعتكما معاً هذا المساء.

قال موزيل ملاحظاً:

ـ لقد درست ملفاتنا يا مارتن، لا تتظاهر إذن بالمفاجأة. كنتَ تشك في أننا كنا سنذكر هذا الموضوع يوماً ما. كنت تعرف مهنة كل منا ومركز اهتمامه، لا أرى في ذلك أي معجزة.

ـ طبعاً، ردّ هيرتز، مع ذلك من الممكن أن يكون أحدكما غير مقبول في المحفل. وهكذا فإن هذا النقاش ما كان ليبدأ.

أجاب موزيل:

ـ أوافقك الرأي. وهذا لا يمنع أني غير معجب بمصطلح «المعجزة».

هز هيرتز رأسه الضخم وهو يبتسم بلباقة قائلاً:

ـ لا شك أنك تفضل كلمة «صدفة؟».

عبّر موزيل عن رأيه:

ـ الصدفة، نعم... فعلاً!

استعد مارتن هيرتز للرد على موزيل بطريقة عنيفة، عندما بدت نظراته مكتئبة فجأة وكأنه ضحية حزن شديد. وبدا لموزيل وكأنه عجوز طاعن في السن.

بقي هيرتز صامتاً، أما موزيل فأدار وجهه نحو مارلان ليقول له:

ـ الجمعة؟ أيناسبك ذلك؟ سأكون بانتظارك يوم الجمعة عند الساعة العاشرة أمام مؤسسة ماير ساحة آليّري. سأعرض عليك مخططاً لعملي، وأقدم لك فريق العمل الذي يساعدني... بالإضافة إلى «الرأس الكبير».

ستفاجأ، يا فرنسيس، بدونه كان الرقم 4564Q ـ 458 مجرد خربشة فاقدة لأي معنى... لقد أصبح «الرأس الكبير» بالنسبة إلينا زميلاً كامل العضوية...

قال مارلان بحماس:

ـ حقاً؟... لشد ما أنا متلهف للتعرف عليه

* * *

تم تدبير كل شيء في خلال هذا المساء... قام موزيل لتوه بالحكم على فرنسيس مارلان بالموت من جراء اقتراحه مشاطرته أعماله.

عند منتصف الليل، غادر الأخوة في محفل إيلياه تاركين الحلقة الكبيرة (الاسكتلندية) بمجموعات صغيرة. ركن موزيل سيارته في جادة باتينيول، وسار بضع خطوات برفقة مارلان وهيرتز. كان الأخير قد استرد ابتهاجه ظاهرياً واستأثر بالكلام، مبدياً عدم المبالاة بالمطر الذي يسيل على رأسه الأصلع... استطرد قائلاً:

- ستَرون، مع مرور الزمن، أن المسارّة ستفتح أمامكم أبواباً وفُرصاً كثيرة للإستبطان. بالنسبة إليكما لن يكون لهذه الأمسية أي نهاية. لقد تكرست منذ اثنين وثلاثين عاماً. لكن ذلك يبدو وكأنه جرى بالأمس!

عقّب موزيل قائلاً:

- أعتقد أنني فهمت...

حيًّا هيرتز أخويه وعانقهما ثلاث مرات.

- لقد ركنت سيارتي في المرآب.

قال ذلك، ثم ابتعد. ظل موزيل ومارلان ينظران إليه حتى توارى عن نظرهما، كان يمشي بمرونة مدهشة رغم وزنه الثقيل.

قال مارلان:

- يبدو لي إنه محام. هل كنت تعرفه من قبل؟

- لقد رأيته مرتين.

- لقد عرفني به، إشبيني السنة الفائتة وتناولنا الفطور معاً في شهر حزيران.

- عقّب موزيل:

هل تشدّد معك كما فعل معي؟

تم تناول كل شيء في خلال ما يزيد قليلاً على ثلاث ساعات، مرّ: حياتي، قراءاتي، هواياتي... هذا الرجل يملك موهبة (جعلك تعترف بكل شيء).. بالمناسبة، هل أنت متزوج، يا ديدييه؟

- يمكن القول أنه كانت لدي تجارب فاشلة. وأنت؟

- نعم: اسمها إيميلي.

أكمل الرجلان حديثهما لعدة دقائق ثم افترقا محددين موعداً جديداً للقاء. تعانقا، وقد بدا هذا طبيعياً، ثلاث مرات ... مع ثلاث قبلات أخوية، ذات طابع طقسي..

4

مؤسّسة مِاير

يوم الجمعة التالي، حضر فرنسيس مارلان إلى مؤسسة مِاير. كانت الساعة العاشرة تماماً عندما عرّف عن نفسه لدى موظفة الاستقبال، في البهو، أعطي شارة الزائر نادت عاملة الاستقبال على البروفسور موزيل بواسطة المقسم. وبانتظار وصول صديقه انطلق مارلان، على عادته يتفحص المكان. بهو حديث، لا طابع له، جدران بيضاء وخضراء، نباتات ضخمة كثيفة الأوراق في آنية من الصلصال الرملي، مصعدان يحرسهما شخص. باب يوصل إلى الدرج.

خرج موزيل من أحد المصعدين واجتاز البهو بخطى واسعة ليستقبل زميله. أشار إلى ساعته بسبابته اليمنى مبدياً إعجابه باحترام صديقه للوقت.

ـ صباح الخير، فرنسيس، ما هذه الدقة في المواعيد! هذا خلاف جوهري في أطباعنا.

ـ قلت لك، إنني حازم، زوجتي يقلقها هذا الموضوع. سأروي لك فيما بعد..

ركبا المصعد، ضغط موزيل على زر الطابق الرابع.

بدأ مارلان الحديث:

ـ حارسك الليلي، في الأسفل، بدا مارلان خزانة من جليد. إن هذه المؤسسة محميّة جيداً كما مصرف فرنسا.

ـ إنها «متلازمة جنون الإرتياب» لدى مديري المؤسسة. كل هذا لأننا تلقينا رسائل تهديد من مجهولين صادرة، دون شك، من بعض الأصوليين البلهاء. ابتسم، إنك تتصور الآن! أشار موزيل على آلة تصوير موجودة في إحدى زوايا المصعد وأضاف:

ـ إن المؤسسة مليئة بكاميرات كهذه. إنها مغطاة أمنياً ومحمية.

وصلا إلى الطابق الرابع وسلكا ممراً طويلاً يقود إلى عدّة صالات زجاجية مضاءة بنور خفيف يعمل فيها رجال ونساء يرتدون ملابس بيضاء، وقبعات، وقفازات من البلاستيك الأبيض.

قال مارلان مازحاً:

ـ هل هذه غرف عمليات؟

ـ تقريباً. إنها غرف «التفحص». هنا تُبسط وتُفتح اللفائف 4564Q ـ 458، وترمم وتعطى أرقاماً ورموزاً بعد تصويرها إلكترونياً بواسطة الماسح (السكانر). ترسل هذه النسخ على الفور، إلى مخبري الخاص المكلف بإعادة تركيب القطع الناقصة.

اقترب مارلان من الحاجز الزجاجي. في الجهة الأخرى، كان عاملا المخبر منكبيَّن على شريط من لُفافات الرَّق المهترئة وهما يحاولان وضعها داخل لوحتين من الرقائق الزجاجية ويبذلان جهدهما كي لا تنكسر. أعمال دقيقة وبطيئة، تحتاج إلى وقت طويل كالجراحة تماماً.

تابع موزيل ومارلان سيرهما.

ـ كان عليَّ، خلال مرحلة أولى، أن أدقق وأصنف النصوص السابقة لـ 458 ـ 4564 .L إنه عمل مرهق، لقد توصلت مع الفريق الذي أديره إلى أن ثمة لفافتين مرقمتين 238Q ـ 239 قد اختفتا.

ـ اختفتا؟ هل تريد القول أنهما، غير موجودتين حتى في مدرسة القدس التوراتية؟

ـ هذا على الأقل ما أجابتني به السلطات المسؤولة في المدرسة التوراتية:

إن اللفافتين: 238Q ـ 239 قد تبخرتا! وليس من طريقة للحصول على نسخة منها. رغم أنها ذُكرت في النسخة الحديثة لمُدوَّنة المخطوطات. عليّ أن أتدبر أمري بنفسي دون اللجوء إليهم.

ـ هذا مقلق...، همس مارلان:

عقب موزيل قائلاً، فيما كان يجعل صديقه يتخذ شعبة جديدة من الرواق:

ـ ليس بقدر ما هي عليه ـ البروفسور موستنييه، جاءتنا تتغاوى في مشيتها، بتخلّع مترنح جذاب قال ذلك، ثم أشار من طرف خفيّ إلى فتاة شقراء تتقدم نحوهما. كانت تتبختر في مشيتها، وترتدي ثوباً مؤلفاً من سترة متصالبة يحملها زران كبيران أبيضان وتنورة مستقيمة مقصوصة على مستوى الركبتين.

قال مارلان:

ـ كنت أظن أن هذا النوع من المخلوقات غير موجود إلا في السينما، أو في ذكريات أحلامي أيام المراهقة.

قدم موزيل صديقه إلى المرأة الشابة التي هتفت بلهجة ألمانية خفيفة قائلة:

ـ فرنسيس مارلان؟.... مارلان الدفاع عن الدين واللاهوت السحري؟

قال المؤرخ مندهشاً:

ـ عجباً هل قرأت هذا الكتاب؟

وأسرع موزيل يقول:

ـ لقد نبهتك إلى أنك ستحصي الكثير من المعجبين بل في مؤسستي.

ـ ومع ذلك تابع مارلان: الدفاع عن الدين ليس في الواقع «مسلياً» كثيراً إنه مجموعة كانت جزءاً من عهدي الجامعي... أليست شيئاً مشوشاً؟

البروفسور موستيه لم تشاطره هذا الرأي. فهي نادراً ما قرأت شيئاً أكثر جاذبية! بسرور وابتسامة وردية وعسلية، عَبرتْ عن تمنيها مناقشة الموضوع يوماً ما مع فرنسيس مارلان. وعندما أخبرها موزيل أنه سيصبح قريباً جداً من فريق عمله، أقسمَتْ أن ذلك أفضل خبر سمعته ثم عادت على أعقابها بكعبها العالي ومشية شبيهة بمشية عارضة أزياء تمشي على منصة. ابتعدت تاركة مارلان تحت تأثير الصدمة.

ـ هيلين موستيه، إنها تتجاوز الحدّ نوعاً ما، هل لاحظت ذلك، فرنسيس؟

ـ قليلاً، نعم... وهذا، دون شك يضفي عليها نوعاً من السحر.

وصل الرجلان أمام باب أحمر. بينما جميع الأبواب الأخرى مطلية باللون الأخضر. أدهش هذا اللون مارلان، ما اضطر موزيل أن يفسّر قائلاً:

ـ أحب أن أكون فريداً ومميزاً، وأنا أعشق هذا اللون الأحمر... وقد وافقت الإدارة على بعض أطباعي الغريبة. انتبه، هل أنت جاهز؟

قال مارلان مستغرباً:

ـ ماذا ستفعل؟

ـ هيا بنا إقطع نفسك، سندخل إلى مكتبي! قال موزيل ذلك، ثم فتح الباب الأحمر.

5

المكتب

أطلق فرنسيس مارلان صفرة طويلة، عندما رأى غرف التفحص. ولاحظ مظهرها السريري، لكنه لم يكن يتوقع أن يجد المكان مشوشاً على هذا النحو. ولم يستطع الاستيعاب مباشرة: هناك الكثير من التفاصيل للتمحيص والتحليل.

أولاً: كرسي من الجلد، ثم صوفا (كنبة طويلة) رثّة، بالية تجاورها مجموعة حواسيب من أحدث طراز، وكذلك آلات أخرى قديمة مدعمة. وأسلاك كهربائية ممدّدة في كل مكان باتجاه عدد لا يحصى من الكتل والمآخذ الكهربائية، سواعد للحركة. كتب مكدّسة، فوق دعامات ومبعثرة... بعضها مفتوح. أطنان من الأوراق، المصنفات، والوثائق، والمغلفات... أجهزة تصوير، جهاز تلفزة، مضربين لكرة المضرب، إناء للغلي، فناجين. كل هذه الأشياء موضوعة على طاولة العمل، أو في أسفلها في خزائن مفتوحة أو على طول رفوف محمّلة بالأغراض والحاجيات.

هناك، وسط هذه الفوضى من الركام تبرز جمجمة ملساء، متوجة بشعر مستعار رمادي. رجل صغير محزوم بشكل سيء بالصوف والمخمل، وكأنه معلّق بها. ينتصب ليبرز وجهاً مجعداً شبيهاً بوجه الناسك المبتسم، مُغضّن، وعينين منتفختي الجفون خلف نظارتين سميكتين.

ـ صباح الخير قال الرجل العجوز. أنا أدعى سوفير نوبرت سوفير وأنت السيد مارلان من دون شك.

ـ هذا صحيح.

التفت مارلان نحو موزيل:

ـ هل تستطيع أن تهتدي إلى ما تريده في هذا الكهف؟

ـ طبعاً! بفضل حارسَيّ هيكلي... الأول: «نوبرت سوفير» الذي تعرفت عليه للتو، والثاني هو «الرأس الكبير»!

حرّك موزيل يده بطريقة مسرحية ايمائية. فهم مارلان منها أن «الرأس الكبير» أشبه بآلة ضخمة متوهجة. لم تكن سوى شاشة يقف أمامها نوبرت سوفير. أدرك موزيل خيبة أمل صديقه فأوضح حالاً:

ـ بالواقع، أن «الرأس الكبير» مخلوق ذو لوامس يقبع في رطوبة أقبية الطوابق السفلى للمؤسسة، حيث نتواصل معه من طريق نهائيات الحاسوب الأكثر صبراً والذي لم أر مثله، والأكثر دقة، وثقافة في العالم! إنه يعرف كل اللغات: الآرامية، اليونانية، اللاتينية... يعرف منها أكثر مما يعرف نوبرت تقريباً، وهذا ما يقال.

ربت سوفير على شاشته وقال:

ـ هذا لا يمنع «الرأس الكبير» أن يتسبب لنا بأزمة عصبية فهو تعثر مع نص تقويمي مثقوب مثل جبنة غروبير، مخفقاً في أن ينظم تركيبة مترابطة.

بدأ موزيل يشرح لمارلان:

ـ إننا نحاول حالياً إعادة ترميم «شريط» نصائح مدروسة في متتالية شيطانية A 516 ـ 517 ... وهذا حتى A698 أكثر من نصف النصوص أكلته الجرذان في المغارة الرابعة في قمران. في الحقيقة نحاول إضفاء صيغة ما على شكل الكتابات التي نحن في صدد شرحها، وتعليلها اليوم يتطلب الكثير من الصبر، صبر بلا حدود!

قال مارلان: إنه نتاج عمل خارق، عليك الأخذ بعين الاعتبار حل رموز شهادات الأسينيين، الذين كان بعضهم معاصراً للمسيح.

عملاق أشقر خرج من خلف الحاجز قاطعاً الحديث.

دمغة نملة ـ منهكة وصعبة! أنت مارلان؟

ـ موزيل هذا العضو الثالث في فريقي، دعامتنا في ركبي (لعبة الركبي) روغترز.

ـ كان روغترز فارغ القامة يقارب طوله المترين، وعمره يناهز الأربعين عاماً، حليق الشعر، ولحية قصيرة تشبه لحية المقاتل، ذقن حاد، أما الشيء المميز فهو قبضة يده التي حطمت أصابع فرنسيس مارلان لقوتها.

تغضّن وجه المؤرخ وهو يحاول رسم ابتسامة مجاملة.

ـ موزيل أما شريكي الرابع، فقد التقيت به منذ قليل في الرواق، معجبتك! إذ لم يعد أمامك سوى الانضمام إلى الفريق يا فرنسيس.

ـ لنفترض أنني وافقت، لا شيء سيعجبني أكثر من هذا! سأعطي كل شيء مقابل لمس مخطوطات البحر الميت. كل شيء... حتى روحي!

ـ قال موزيل: لا تغالي هكذا أعطِ جلدك ولكن ليس روحك.

ـ روغترز: لم تستطيع العلوم برهنة شيء حتى الآن يا بروفسور.

هذا الأربعاء، فرنسيس مارلان، متأنق فوق العادة. قال: يجب بذل المزيد من الجهود حتى نتقاسم المكتب بين موزيل وشركاه. لقد كان جاهزاً حتى لأكبر التضحيات. لقد بدأ حلم حياته يتحقق.

6

الشاحنة الصغيرة البيضاء

ركن موزيل سيارته «الغولف» بموازاة الرصيف، وعلى بضعة أمتار من منزل مارتن هيرتز. لم يتوقف الرذاذ المتراص لحظة خلال المسير.

نزل موزيل من سيارته وأغلق الباب خلفه. اتجه نحو المصبَّغة المتعطشة لطبقة كاملة من الطلاء توقف أمام الانترفون ودق الجرس؛ جاء صوت هيرتز عبر الانترفون وكأنه مواء: أدخل، إنه مفتوح. دخل موزيل واجتاز حديقة صغيرة وصعد السلم المكون من ست درجات من الحجر حتى وصل إلى مصطبة مغطاة بالحصى.

كانت مصاريع الطابق الأرضي موصدة. غير أنه يمكن رؤية الضوء عبر الفواصل.

قال موزيل في سره؛ الراهب البوذي العجوز: «إنه في مكتبه، ينتظرني».

عند الطرف الآخر من الطريق توقفت شاحنة صغيرة بيضاء ركنت في مكان غير بعيد عن غولف موزيل. ترجل منها رجل مزود ببندقية ذات منظار. اقترب بدوره من مصبَّغة الدخول الذي بقي مفتوحاً قليلاً.

داخل الشاحنة الصغيرة، تكلم السائق بالإيطالية من ميكرو صغير معلق في رقبته: لورنسو في إثر موزيل الذي سيدخل مكتب هيرتز». في سيفر، 7 شارع جاكار. نعم، نعم... سيسجّل لورنسو حوارهما. ما من مشكلة.. نعم، عذراً... لقد أخطأناه عندما خرج من منزله... سنفعل كما قررت.. عندما يخرج من منزله. إننا ننتظر الآن معرفة ما يعلم موزيل...

ثم أخرج السائق سيجارة وتثبت في مقعده ينتظر، وزخّات المطر تتساقط.. نفخ في سيجارته وهو يفكر في فرنسيس مارلان وموزيل.

تنهد وهو ينفث غيمة من الدخان الأزرق، وفكّر... ماذا يفعل؟ ماذا عليه أن يفعل أسوأ من ذلك؟ أو أكثر فظاعة، من ذلك؟ سوف يفعل من دون ندم وبأسلوب متقن، ومهنية عالية لكي لا يتمكن أحد من المعرفة... إطلاقاً.

«إطلاقاً!، تمتم السابق بهذه الكلمات، لأن مستقبل الكنيسة على المحك».

7

وصية المجنون

ـ تفضّل! لنذهب مباشرة إلى مكتبي سنرتاح فيه أكثر ولا نخاطر بإيقاظ «ليَا» من نومها.

ـ أطلب منك أن تعذرني.. أعرف أنها ليست الساعة المناسبة لِ......

ـ إنسَ عادة تقديم الاعتذار فيما يتعلق بكل شيء. أعطني معطفك.

ـ قلت لي أنه باستطاعتي مكالمتك في حال الضرورة، فكرت على الفور أن من واجبي أن أكلمك عن فرنسيش مارلان... عن اختفائه.

ـ اختفاؤه؟ ألم يغادر إلى القدس، اعتقدت أنك أرسلته في مهمة إلى رئيس المدرسة التوراتية!

جلس موزيل على الكرسي الكبيرة التي أشار له عليها الرجل الضخم، الذي يفضل الجلوس على كرسي لا يلبث أن ينكسر تحت ثقل وزنه.

كان مارتن هيرتز يرتدي برنساً من المخمل المدعوك ذا ألوان صارخة، قطعة قديمة ترافقه منذ زمن، صارت بمثابة جلد أو غطاء آخر مريح حيث يرغب الشخص بالتغلغل فيه لاستنشاق رائحة جلده.

ـ سأل هيرتز:

هل تريد أن تشرب شيئاً؟ كونياك، ويسكي؟ لدي أصناف لا بأس بها في هذا البار الصغير.

أجاب مارتن:

ـ نعم، ويسكي، لو سمحت.

ـ أنت تعتذر وتشكر في كل وقت! هل تعتقد أنك تزعج أصدقاءك؟

تنهّد موزيل متصنعاً ابتسامة خفيفة. هل يمكن القول لمارتن هيرتز ما مدى تأثير الشعور الأخير؟. في كل لقاء، كان لديه إحساس أنه مستنسخ عن والده! كان يرى كل الأشياء صغيرة أمامه، يفقد جزءاً هاماً من قدراته العقلية، عبر فكرة ساذجة بأن هيرتز يملك عقلاً استثنائياً. أو أن الخجل الذي يحس به، هو السبب، لأن مارتن هيرتز، هو الجليل في محفل إيليا، وهو من كرّسه وأعلنه في الماسونية مع مارلان؟

ـ لا أزعجك إن دخنت هذا السيجار الرائع البارتاغاس كورونا. إن درجة اهتمامي تصبح أكبر وأعلى تركيزاً حين أشعل سيجاراً بعقب آخر. تظاهر بأنه يسأل إن كان يدخن وهو يخرج بشكل لا يفسَّر علبة جلديّة من أحد جيوب مبذله.

ـ أرجوك.

ـ طقس شعائري لتدخين السيجار. لا يشرع هيرتز أبداً بالدخول في أي مناقشة ذات أهمية دون أن يكرّس بعض الوقت لهذا النوع من المقدّمات حيث يبدو أنه لا يعير اهتمامه سوى «لدثاره الكولورادو» والعطر الكامد والملمس الرائع لسيجاره الكورونا.

أما هيرتز فإنه هادئاً، فبقي مركزاً على انشراحه الخاص، ولم يشعل سيجاره إلا حين انتهى من الارتباط به بمعرفة وثيقة.

وسّع هرتز مابين ساقيه القصيرتين، وأغمض عينيه محنياً رأسه إلى الأمام، ثم أسند ذقنه السمين إلى صدره كضفدع ضخم على وشك النوم، وقال:

ـ أنا استمع إليك!

في الحقيقة، إن ما يفعله جيد. إنه يصغي، يصغي بكل كيانه وجوارحه ويستوعب ليس فقط الكلمات التي تُقال له، بل والأحاسيس والانفعالات التي تبدو على محدّثه، آخذاً في الاعتبار أقل همسة، أو تأتأة ذات مغزى أو توقف عن الخطاب غير مألوف أو غير لائق.

بدأ موزيل روايته:

بينما كان موزيل يتكلم، ويسترجع شريط الأحداث التي قادت مارلان إلى موت محتمل، كان شاخصاً بعينيه إلى وجه هيرتز الممتلئ، لكن هذا الأخير لم يكن ليحرك ساكناً، ولم يكن هناك ما يدفعه إلى القيام بأي ردة فعل أو إيماءة.

* * *

بلغت الساعة الثانية تقريباً.

كان مكتب مارتن هيرتز مضاءً بضوء خافت ضعيف الإنارة، وكان سيجاره الذي لا ينتهي متروكاً في منفضة السجائر. بعد أن أتم موزيل حديثه كان بانتظار ردات فعل أستاذه العجوز.

رفع هيرتز ذقنه، مثبتاً عينيه السوداوين الصغيرتين في وجه صديقه؛ كانت نظرته تحمل الكثير من المودة وقال:

ـ إنه إذن قد يكون تسبب في موته؟ هو... إنه هو من يكون قد أعطى الأمر بقتل فرنسيس..؟

ـ أعتقد ذلك، مارتن أن.. السرّ يخصّه!

نهض هيرتز من على كرسيّه بصعوبة وتوجّه نحو المكتبة التي تشغل أحد الجدران، كانت على شكل خزانة إنكليزية رائعة. فتش هناك بضع ثوان، ثم تناول كتاباً مجلداً بجلد أسمر ملطّخ في عدة أماكن.

اتجه هيرتز نحو موزيل وهو يقلب صفحات الكتاب برفق وهمهم قائلاً:

- السر! كنت أفضل أن تتعرف عليه خارج هذه الخرافة، يا صديقي!

- لا تتلاعب بالكلمات، أنت تعرف تماماً وتوافق بكل كفاءة على أنها ليست خرافة. جلس هيرتز على الكرسي التي قرقعت.

- إن الأسطورة تبقى أسطورة طالما لم يتم البرهان على أنها حقيقة. أتيت لتعطيني رواية عن مغامرة أعتبرها حلقة من مسلسل شعبي إن كنت لا تعلم. مع ذلك، فالعديد من النقاط التي أثرتها في قصتك مؤكدة في هذا الكتاب الصغير، خذه بيدك. أستطيع أن أعرفك بشكل دقيق على كل ما يدور. تصفح الكتاب بعناية: لم يعد في ريّق الشباب لذلك لم أجد من طريقة أفضل من وضعه بشكل واضح بين كتب أخرى.

أخذ موزيل بدهش واستغراب، هذا الشيء الذي لا يحمل أي عنوان. فتحه لعدة ثوانٍ لفك أحرف الجملة المزخرفة في الصفحة الأولى ثم صفّر قائلاً:

- هذا غير ممكن! كلا هذا الكتاب لم يعد موجوداً... لقد أحرقه فيليب لوبل!

- الأسطورة، إنها الأسطورة يا ديدييه، أرادت بأن يُتلف هذا الكتاب! بالفعل، تؤكد الأسطورة المتداولة أن فيليب لوبل إثر المحاكمة الظالمة بحق جاك دو مولاي، أمر الجلاد بإحراق هذا الكتاب مما أدى إلى هلاك أحد كبار أساتذة محافل المعبد.

تصفح موزيل قراءة الصفحة الأولى واستغرق في قراءتها ومفككاً فوراً رموز النص اللاتيني.

- حاول موزيل أن يستعلم فقط. كيف...؟

- كيف وصل هذا الكتاب إليّ؟ أو كيف لم تلتهمه ألسنة النيران كما أراد الملك فيليب؟

- نعم، كيف ولماذا جامع الأناجيل هذا «نيكولا وآنيان دو بادو»، ما زال موجوداً حتى أيامنا هذه؟ إنني أحمل بين يدي شيئاً ملعوناً، إنه كتاب العقيدة الهرطقية المسماة وصية المجنون!

- في الواقع أطلقنا هذا الاسم على الكتاب، يعجبني إطلاعك ومستوى معرفتك، يا ديدييه. القليل من الناس فقط يمكنهم أن يذكروا وصيّة المجنون التي ألفها الراهب نيكولا دوبادو ونشرها أخوه آنيان.

- أخوه؟ هل تسخر مني يا مارتن؟ إنك تلعب لعبة القط الذي كان ماكراً أكثر من الداهية نفسه!

ـ آه؟ قال هيرتز وهو يتناول سيجارةً الجديد ليضعه بين أسنانه.

استأنف موزيل:

ـ في الواقع آنيان كان عشيقه، هذان الرجلان يخفيان حبهما لبعضهما خلف واجهة الأخوّة.

قال هيرتز:

أصفق لك أنت تدهشني! لذلك أودُّ أن أعرف ردودك. أنت مؤرخ مشهور تعرف كل ما يتعلق من قريب أو بعيد بالمخطوطات العائدة إلى هذه الحقبة، لا تترك شيئاً يمر هكذا دون أن تعرفه، أعترف لك أنك أضعفت كبريائي.

ـ المعذرة.

ـ لا تعتذر أبداً أمامي! لا تكن شديد التواضع لدرجة تمحو فيها ذاتك. إن ما رويته لي في هذه الليلة، والنظرية التي وضعها مع مارلان، واكتشافاتكما التي تجاوزت ظلال الأسطورة إنك على دراية بذلك مثلي تماماً. تذكر مقولة أرسطو الشهيرة: «لكي تكون حقيقة ما مقبولة كمعرفة علمية، يجب أن تكون مستقرأة بواسطة حقائق أخرى» إن جامع الأناجيل هذا، كما تسمونه، يمثل إحدى هذه الحقائق التي تتيح لنا إعادة بناء واقع الماضي. أما العبارة اللاتينية In Furorem versus التي أعطت عنوانها إلى هذا المؤلف، فإننا نعثر عليها في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس للقديس جيروم المستوحى من أسفار مرقص:
Ce que ses parents ayant appris, ils vinrent pour se saisir de lui car, disaient - ils, il avait perdu lesprit[1]
كل ما عشناه كان خاطئاً؟ نحن ورثة اليهودية والمسيحية سنكون مجرد ممثلين لخرافة؟ هل يمكنك أن تعطيني سبباً واحداً لهذا المبدأ؟

ـ قال هيرتز وهو يلوك سيجاره المطفأ. أنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل؛ أنا أكتفي بمساعدتك لأنك جئت وطلبت ذلك مني. وقد اتفق أني تمكنت من الحصول على هذه المخطوطة.

ـ بأي عملية سحرية حصلت على هذه الأعجوبة؟ كنت أعتقد أنه لم يبقَ منها سوى نسخة واحدة في الفاتيكان.

أوضح هيرتز قائلاً:

ـ المكتبة البابوية تحتفظ فعلاً بنسخة مماثلة بكل تفاصيلها، كتبها نيكولاس وآنيان دو بادو. لقد كان هناك دائماً كتابان اثنان من وصية المجنون! سأشرح لك فيما بعد بأي طريقة أصبحت مالكاً لهذه الجوهرة.

(1) كل ما تعلمه أهله، جاؤوا ليستولوا عليه منه لإنه كما قالوا فقد عقله

ـ حسناً، سأنتظرك إذن. أنت رجل الغموض والأسرار، يا مارتن. لقد ذكر فرنسيس مارلان مرة هذه المخطوطة. وكان قد أتى على ذكرها له شخص يدعى بونتيفليون أثناء لقاء بينهما خلال لقاء بين ماسونيين جرى في البندقية.

ـ البروفسور ارنستو بونتيفليون؟ لي به معرفة غير عميقة؛ لقد تبادلت معه الرسائل، وعرفت أنه كان يبحث عن نسخة وصية المجنون من أجل عمل كلفه به الفاتيكان.

ـ هل أعطيته هذه النسخة؟

ـ أعطيته فقط بعض الصفحات المصورة، كتلك الموجودة أمام ناظرك... والتي تصوّر الله الخالق يقيس الأرض بواسطة فرجار. كان آنيان فناناً كبيراً، أليس كذلك؟ ماذا تعتقد بشأن هذه الصورة؟

ـ نحن بعيدون جداً عن دستور فيندوبونونسيس [1] في القرن السادس عشر، الذي قدّم صورة مشابهة تقريباً، باستثناء الأرض المصورة على هيئة حبة بطاطا مشوّهة وبعد ثلاثة قرون، رسم آنيان الأرض مدورة!

بعد مرور برهة من التفكير، قضاها وهو يعاير عقب سيجاره، قرر المحامي العجوز أن يضعه في المنفضة، ثم صالب يديه فوق بطنه.

ـ أنت مؤرخ موهوب، يا ديدييه، مع ذلك أعتقد أنه باستطاعتي أن أُعلمك بالأصل الحقيقي لوصية المجنون.

ـ ذلك يدعو إلى الاعتقاد أنك سافرت عبر الزمن! لا أحد يمكنه ادّعاء معرفة هذا الكتاب، إن الرجال لا يعمرون طويلاً بما يكفي للحفاظ على بعض الأسرار؛ غير أن المجتمعات والأنظمة المسارية، والأخويات تصون الأعراف والحقائق! اتبعني داخل الماضي يا ديدييه: سأروي كيف ظهرت هذه المخطوطة إلى الوجود.

(1) codex vindobonensis

8

موت إيزابيل

نحن في عام 1190. كان ريتشارد قلب الأسد قد أقنع الملك فيليب أوغست بأن يرافقه إلى الأرض المقدسة ليخلص قبر المسيح. الإمبراطور فريدريك بربروس ومحاربوه الصليبيون كانوا قد سبقوهما... لكن في السنة ذاتها، كانت إيزابيل، ملكة فرنسا، على وشك أن تضع مولودها. عانت الإمبراطورة البائسة كثيراً، منعزلة على سرير الولادة، ومحاولة عبثاً دفع جنينها الميت خارج بطنها.

كانت راهبتان من حولها تعتنيان بها، وتمسكان بها من معصميها لمساعدتها ومؤازرتها في ولادتها. وكانت القابلة، من جهتها، تحاول جاهدة في إخراج رأس الجثة الصغيرة، متضرعة إلى الله.

و كانت الراهبتان تساعدانها بالصلاة والدعاء! أمّا الميت الصغير فكان يبدو متشبثاً بأمه.

استطاعت القابلة أخيراً إخراج الطفل الميت من رحم أمه. لكنها وجدت أن الملكة كانت تحمل طفلاً آخر، فانطلق العمل من جديد بواسطة ملاقط الجنين. صراخ وصياح من الألم... أُخرجت جثة طفل آخر من هذا الغشاء المخاطي المدمى.

ـ يا مريم العذراء! هتفت إحدى الراهبتين. حاولت الملكة أن تمسك بطفليها لكنها توقفت عن التنفس!

تم إبلاغ الملك بالأمر وكان ينتظر بعصبية بالقرب من الموقد بصحبة اثنين من المقربين له: الفارسان هنري وبنوا.

ـ قالت الراهبة: يا صاحب الجلالة.. الملك فيليب! لم يرد الله أبداً أن تلد الملكة من جديد! كانت حاملاً بتوأم لكنهما ماتا، وروح أمهما ذهبت إليهما. شحب وجه الملك الشاب وأحس بالدوار وكاد يسقط أرضاً وهو يتعثر بكلامه «إيزابيل.. إيزابيل حبيبتي!».. أمسكه هنري من ذراعه، وأرغمه على الجلوس، أما بنوا فقد سكب قليلاً من النبيذ في كأس. أخذ فيليب جرعة ساعدته على أن يتماسك ويتفادى النحيب.

ـ يا مليكي، إنه اختبار قاسٍ من السماء. لقد تحطمت قلوبنا وليس بوسع أي كلمة أن تهوّن عليك المصيبة. قال هنري ذلك وهو يربت على كتف الملك.

قال الملك وعيناه تفيضان بالدموع:

ـ أعرف ذلك. يا صديقي. أنتما المخلصان لي في الأفراح والأتراح. ها أنا منذ الآن جاهز بقوة لأذهب إلى الأرض المقدسة موكلاً عرشي إلى ابني لويس الذي لم يتجاوز الثلاث سنوات. القدس في يد صلاح الدين ويجب أن يندحر منها.

شدد بنوا من قمة عزمة قائلاً:

ـ والدتك آديل دو شامباني، وشقيقها غيوم سيكونان الأوصياء على لويس.

أنا لا أثق بحزب الشامبانوا بالرغم من أن والدتي ستكون الضامنة. لن أكون مرتاحاً لدى مغادرتي تراب فرنسا إلا بعد أن أفرض وصاية سليمة.

ـ يمكن لهذا المشروع أن ينتظر دون شك.

ـ كلا، الموت ضَربَ بيتي ويمكن أن أكون ضحيته المقبلة في هذه البلاد الغربية حيث سنذهب ونحارب.

الكرسي الشاغر يصبح لقمة سائغة للطامعين.

أوضح بنوا قائلاً:

ـ يا صاحب الجلالة، ثمة تدابير ونصوص صارمة وقواعد علمية، منطقية يجب أن يصار إلى إقامتها. إن عرشاً شاغراً تحدث عن بعض الكَفْليين رغبة شديدة بالخطاب! (أي سرعان ما يصبح لقمة سائغة للطامعين!).

ـ من المؤكد، أنني سآخذ على عاتقي مهمة لجم الطامعين. إن آلامي وأحزاني تشكل عبئاً ثقيلاً، لا أريد أن أثقل نفسي بهذه الهموم السياسية قبل أن يتم استرجاع الأراضي المقدسة.

9

جنود الهيكل

كانت القاعة الواسعة تعج بحشود الحكّام والبورجوازيين والقضاة والوجهاء، كان فيليب شاحباً، جالساً على كرسي عرشه المصنوع من الخشب، والذهب الدقيق والمتقن الصنع والمخمل. والى يمينه كانت تجلس أمه أديل، التي ناهزت الأربعين متكبرة، متعالية، والى يساره، خاله غيوم، رئيس أساقفة ريمس، قصير بدين ومترهل، كان يبدو نَيِساً متناعساً، لكن عينه التي تشبه عين العظاية تلمع أحياناً تحت جفن ثقيل.

كان الملك فيليب يصغي إلى قهرمانه وهو يقرأ نصاً كتبه على الجلد المدبوغ وفي الوقت نفسه يفكر بإيزابيل التي وريت الثرى مع طفليها الأسبوع الفائت، وعيونه تذرف الدموع الحارقة.

تردّد القهرمان ثم قرأ:

- باسم الثالوث المقدس الذي لا يتجزأ، فيليب بنعمة الله، ملك فرنسا يأمر:

ثم تنحنح القارئ، ورفع عنقه وتكلم بصوت خفيض، يتلاءم مع المناسبة ثم تابع:

- يعطي قضاتنا لكل ولاية أربعة رجال عقلاء وشرفاء، لتخضع لهم شؤون المدن، وهؤلاء يشكلون مجلساً للعدل والحكمة.

يمنع منعا باتاً على كان أي القيام بعزل قاض، إلا في حالات القتل أو الخطف أو الخيانة الواضحة . سترفع ثلاثة تقارير إلى الملك فيليب كل عام.

في الحشد، التفت حاكم بدين ممتلئ نحو حاكم آخر شبيه بالديك وهمس:

- فيليب ثعلب ماكر! إنه يقص جوانحنا.

- يشتم من ذلك وحي هيكلي، أجاب الآخر. أنظر، ثمة «صليب أحمر» يسهر في الظل.

بإشارة سريعة ومحتقرة من ذقنه أشار الرجل إلى صورة ظلية جامدة قرب دِعام، حيث كان يقف شبح منزوياً على انفراد، مرتدياً معطفاً أبيض مدموغاً بصليب أحمر على كل من كتفيه وصدره، أما القبعة فكانت تغطي وجهه.

وقف فيليب وبارك المجتمعين، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء المؤتمر.

- لقد أعربت لكم عن إرادتي. لتكن بمثابة وصية... آمين.

احمرَّ وجه الحاكم البدين غضباً، وقال متذمراً:

- ها قد أصبحنا حكاماً وقضاة دون سلطة!

أضاف الآخر:

ـ هكذا يكون فيليب قد استطاع كمّ فاه الملكة الأم. في الوقت ذاته، لقد كان الملك مناوراً ماهراً.

ـ في الواقع، لا أحد يعرف كم من الوقت سيمكث في فلسطين. هذا لا يمنع من أن الماكر سيُبقى في قبضته.

بدأت القاعة تفرغ شيئاً فشيئاً.

غادرت أديل كرسيها دون أن تنظر إلى ولدها، نهض رئيس الأساقفة غيوم بصعوبة، ماراً أمام ابن أخته، وقال:

ـ لن أتوقف عن الصلاة من أجلك، يا سيدي، أطلب أن يمنحك الله الراحة والشجاعة دائماً طوال عملياتك في الأراضي المقدسة.

لكن الصوت العذب والخشن لم يكن له أي صدى، كان فيليب مسروراً بإحناء رأسه أمام خاله الأسقف ليتسنى للأخير رسم إشارة الصليب بإبهامه على جبين الملك.

نظر الرجلان نظرة تحدٍّ، لكن أية عاطفة لم تظهر على الأسقف، لا شيء سوى البروده واللامبالاة.

جاء الفارسان هنري وبنوا ليحيطا بالعاهل ويساعداه. في ارتداء معطفه. الآن القاعة خالية تماماً. عبرها الثلاثة للخروج إلى فِناء مربع متواضع.

قال هنري:

ـ إنه ينتظرك.

أجاب الملك:

ـ نعم.

كان فيليب ينظر إلى قامة جندي الهيكل وهو يجتاز الساحة المبللة بمياه المطر الذي تساقط منذ برهة، توقف الرجل عن السير ورجع إلى الوراء، ملتفتاً. حضور غريب، هادئ ساذج طيّر الهواء الغطاء الأبيض عن كتفيه التقى الرجل بـ فيليب فيما بقي هنري وبنوا يمشيان على مهل متراجعين للخلف.

توجّه الرجال الأربعة إلى الاسطبلات، بهدوء، ثم امتطوا جيادهم وغادروا القصر كمسافرين عاديين، بينما كان فيليب يغطي وجهه بقلنسوة كبيرة.

* * *

اجتاز الرجلان المدينة تحت المطر المنهمر، البارد واللاذع، كانت السماء رمادية حزينة والمطر متقطعاً.

أحس بنوا بالقلق عندما ترجل الملك فيليب عن ظهر جواده:

ـ أنت مبلل يا سيدي، انظروا كم أنتم ترتعشون.

ـ هذا ليس شيء، أطمئنك. أنت تعرف أنني متضايق وأرتعش بهذا الشكل منذ وفاة إيزابيل؛ أجهل ما إذا كان ذلك سيُقلع عني يوماً ما.

ـ لا تتكلم عن هذا الآن. فالحياة ستأخذ مجراها، مع مرور الزمن ستمضي فترة الحداد وسيعود السلام إلى حياتك.

بعد تسلق خمس درجات من الحجر، وصل الملك ومرافقيه إلى درج المدخل وهذا الأخير هو عبارة عن بوابة كبيرة، من السنديان المتين والثقيل، فتحه جندي الهيكل مستعيناً بمفتاح ضخم أخرجه من تحت معطفه. كانت البداية غرفة معتمة بمصراعين مقفلين من الخارج. وكانت رائحة العفن منبعثة من الخشب المسوّس.

قال الملك لفارسيه:

ـ انتظراني هنا.

توارى فيليب عن الأنظار وراء الظلمة إلى جانب جندي الهيكل الذي أمسك بيد الملك. قال جندي الهيكل:

ـ يا صاحب الجلالة، بما أن الساعة أزفت ولدينا العمر، لنفتتح أعمالنا.

ـ إني أتبعك، رينو.

كان الظلام عنصراً من العناصر الشعائرية. أدرك فيليب ذلك منذ الوهلة الأولى، لحظة إعلان مبادرته. إنه يثق كل الوثوق بجنود الهيكل الذين، عندما تكون أيديهم متصلة بمحبة، تساعده على السير بخطى وئيدة.

سبق للملك أن جاء إلى هذا المكان أربع مرات. تذكر ذلك من المسافة التي قطعها للوصول إلى باب يكتفي جندي الهيكل بدفعه لكي يفتحه. ومن الدرج اللولبي الذي يجب أن يتم النزول عليه بحذر. ومنه إلى الكهف ذي الأرض الموحلة... ثم إلى باب جديد الذي يجب على الملك أن يقرعه ثلاث مرات قبل أن يسمع صوتاً خلفه.

ـ من يقرع باب المعبد؟

يجيب الفارس:

ـ إنه الملك فيليب بحمايتي وتحت إشرافي، وهو يأمل بملاقاة إخوته في المحفل الأول.

قال الصوت آمراً:

ـ فليدخل!

فُتح الباب ، دخل فيليب وفارسه قبو الكنيسة، حيث توجد مجموعة من عشرة جنود الهيكل مرتدين معاطف بيضاء، وقبعاتهم على رؤوسهم.

ثلاثة أعمدة تحمل القبة المؤلفة من دبش كبير وبلاطات عريضة تغطي الأرض التي رسم عليها مربع شبيه برقعة الضاما مؤلفة من مربعات سوداء وبيضاء. ثلاث شمعدانات خافتة الإنارة لهبها قصير يميل لذي أخف نسمة.

ما أن دخل الملك حتى شكّل الرفاق الهيكليون بأيديهم سلسلة ضمت فيليب والفارس رينو.

قال أحد الهيكليين:

- أهلاً وسهلاً بك يا فيليب في سلسلتنا! غداً في سان - دنيس سيسلمك الوكيل الراية ذات الصليب الذهبي، باسم القديس كلو والقديسة إيبين ستكون محارباً صليبياً.

أوضح فيليب:

- وسأصبح أيضاً جندياً للكنيسة لأذهب إلى القدس.

قال أحد الهيكليين:

- لا تذهب بعيداً ستسلمّ القدس إلى ريتشارد قلب الأسد وبربروس.

انتفض فيليب قائلاً:

- هل ستتركونهما ينقذان «سان سبيلكر» لوحدهما؟ أين سيصبح شرف قيامي بالحرب الصليبية؟

بصوت هادئ ناعم وجمل بطيئة وصافية، تشدّق أحد الهيكليين وقال:

- لقد حان الوقت لإخبارك بسرّنا الكبير، يا صاحب الجلالة. إنه سرٌّ يجب أن يجهله حتى البابا «كليمنت» نفسه هل تمنحنا نعمة أن تثق بنا؟

أجاب الملك قائلاً:

- لقد وافقت دائماً على الإصغاء إليكم، إن الحذر والفطنة والذكاء الذي تتسم به نصائحكم وفّرت علينا الكثير من المصائب.

قال صوت عذب: ثمة إنجيل مكتوب على ثلاث لفات من الرق. الجزء المركزي من اللغز الذي تكلمنا عنه في اجتماعنا السابق.

قال الملك مندهشاً:

- إنجيل خامس؟ ليس من نص يشير إلى ذلك. أليس ذلك هرطقة تأخذها على محمل الجد؟...

- كلا، يا صاحب الجلالة، قال الصوت الهادئ. إنه موجود بالتأكيد على الأقل النسخة المكتوبة بيد الكاتب نفسه.

بدوره انطلق رينو مشتركاً في النقاش:

إن اللفائف موجودة في عكا في كهف تحت بناء يسمى «البرج الملعون». إنه في قعر كهف حيث وضع كاتب هذا الإنجيل الخامس ثروته قبل إبحاره.. سأصطحبك إلى الأرض المقدسة وستكون أنت المرشد.

قال فيليب منذهلاً:

- إن مهمتي إذن ترتكز فقط على القيام بهذا الدور وحسب؟ أي أن عليّ فقط أن أجلب هذه اللفافات الجلديّة؟

تابع رينو:

- إنها ذات أهمية عالية جداً، يا صاحب الجلالة ما قلناه لك، هذه النصوص هي مفتاح السر

الذي لا يوصف. إننا لا نستطيع المخاطرة في أن يُكتشف من قبل الغير لأننا لسنا الوحيدين الذين يبحثون عنه.

أضاف الصوت البطيء:

يجب أن تحتل عكّا، ستكون أنت مهندس سقوطها وستدخل المدينة لتكون الأول في التنقيب تحت أركان السور الملعون. نحن نعرف وفق تقاليدنا أين نتحرى؟

بعد برهة قال فيليب:

ـ رغم أنني أتحرك من أجل أهداف المحفل الأول إلا أنني مازلت أشك في صحة اقتراحاته وهذا لا يكفيني لكي أحصل على ثقتكم؟

ـ لا يا صاحب الجلالة، همس رينو. إن ثقتنا بك مطلقة وخالصة، ونحن نتقبل الشكوك التي هي جد طبيعية. إن التعليم الديني الذي تلقيته هو السبب. القليل القليل منا يصل إلى معرفة الحقيقة.

استدار الملك فيليب نحو الفارس رينو الذي كان الجزء السفلي من وجهه يظهر خلف ظلال القبعة. فمه ناعم ورقيق، لحيته رقيقة على شكل عقد نحيف. ابتسامة ودّية، وأخويّة.

قال الملك:

ـ هذه الحقيقة، بالضبط، تحرق روحي بقدر العذاب الذي أشعر به من جرّاء فقدي لزوجتي وطفلي. إنها حقيقة مربكة جداً!

قال الصوت البطيء والهادئ:

ـ لنعلق أعمالنا، يا إخوتي.

رفع الهيكليون سلسلة أذرعهم ثلاثة مرات وأنزلوها ثلاثاً قبل تفريقها ثم وضع الفارس رينو يده على كتف فيليب.

ـ تعال، يا صاحب الجلالة، لنصعد.

كان يحدث هذا في كل مرة. مرافقة الملك لدليله، ارتقاء الدرج اللولبي اختراق القاعة الغارقة في الظلام بالاتجاه المعاكس... واللقاء مع هنري وبينوا. لم ينبت الرجال الثلاثة ببنت شفه. سوى إيماءة برأس رينو قبل إغلاق الباب الكبير خلف الملك.

توقف المطر. وظهر قرميد السقوف كأنه مضاء بنور فضي معلّق على الضوء... رفع فيليب نظره إلى السماء اللبنيّة المظهر وتنفس الصعداء. كان يفكّر بالسر، يفكر بما علموه إياه الرفاق الهيكليون الشهر الماضي. يفكّر بموت إيزابيل وطفليه، ويخشى من اللعنة.

ـ كم هو جميل هذا الضوء، تمتم أمام دهشة صديقيه! إنه يحملني كما الصلاة الورعة.

لكن فيليب مجنب الاعتراف بأنه لا يصلّي... منذ أن عرف... منذ أن استقبله الهيكليون في أحضان المحفل الأول قبل أن يعلموه أن الكنيسة بنت إمبراطوريتها، على خداع وغِش وعلى أشنع أنواع الكذب!

10

المجزرة

وصل الملك فيليب وجيشه إلى عكا في العشرين من نيسان 1191 كان الملك برفقة صديقيه الفارسين هنري وبينوا ومعهم جندي الهيكل رينو.

استُقبِل الملك فيليب من قِبَل أسقف بوفيه، «فيليب دو درو» ونبلاء فلاندر.

قال الأسقف:

آه، ابن عمي، لقد فقدنا الأمل من أن نراكم إلى جانبنا. أرأيت، كان لا ينقصنا إلا أنت والملك ريتشارد لنزعزع هذا المعِقل.

أجاب فيليب دودرو:

وفريدريك؟ ألم يلتحق بكم بربروس؟

- غرق الإمبراطور في مياه نهر سيدنوس (جنوب شرق تركية). جميع محاربيه الصليبيين انسحبوا منذ ذلك الوقت ولم يعد لديهم الشجاعة الكافية ليقاتلوا. لقد فرّ معظمهم إلى عرض البحر.

قال الملك:

- شيء مؤسف، يجب أن نعتمد فقط على قوات هذا المتبجح ريتشارد. لقد جلبت معي نجّارين مهرة لبناء المنجنيقات.

جهّز فيليب معسكره في الحال ودعا مهندسيه المعماريين إلى الاستعداد لصنع معدات الحرب. أقام العمال الجسور، والبكرات والحبال، وبنى الحدادون أفراناً من التراب بهدف صنع الأغطية الواقية لحماية أبراج الإنقضاض.

في السابع من حزيران، أُخطر الملك فيليب بوصول الملك ريتشارد على ظهر سفينة أعلن فارس الهيكل رينو:

- على قوله، إنه متلهف للالتحام بالمدافعين عن عكا..

قال فيليب معلّقاً:

ليس هذا مستغرباً.. إن أمله بالنصر أقوى من إيمانه...إنه في الواقع مجبول بالعجرفة

والخُيلاء. ما أن وصل ريتشارد حتى أسرع يرفع ملك فرنسا الشاي بين ذراعيه ويضمُّه بشدّة إلى صدره في عناق رجولي ساذج.

ـ فيليب ! فيليب المهيب والصارم، لنعانق بعضنا.

ـ قلب الأسد، لقد تمهلت في الطريق. المهاجمون والمحاصرون بدأوا يعانون من المجاعة.

أمسك ريتشارد بذراع فيليب وطلب إليه زيارة معسكره دون انتظار.

تعرّف الإنكليزي على معدات آلات الحرب التي أنجزها الفرنسيون واعترف بطيبة خاطر بجودة ونوعية هذه الأعمال. لقد وقف مندهشاً أمام منجنيق «المالفوازيني»، والبرج الذي يعلو حتى مستوى أسوار المدينة، برج من أربعة طوابق من الخشب، والرصاص والحديد.

ـ لقد صنع رجالك عملاً جباراً، سندك القلعة دكاً وسنقوم بالهجوم معاً.

ـ قال فيليب: طبعاً، أحدنا في الشرق والآخر من الجنوب. لقد درسنا الأسوار، أعتقد أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار هذين القطاعين بالأولوية.

حدد فيليب أسوار مدينة عكا، وأشار بإصبعه إلى جميع الأبراج واحداً بعد الآخر، وإلى الطرق المؤدية إليها والأماكن من القلعة التي تبدو أكثر ضعفاً وأقل ارتفاعاً من بقية الأسوار.

ـ انظر، ريتشارد.. إن الدفاعات أقل سماكة هنا وهناك سنركز قوانا على هاتين النقطتين الضعيفتين، سيفتح لنا المنجنيق ممراً بقصف السور بحجارة كبيرة.

هذه هي الخطة التي تناسبني، ميزاتها أنها بسيطة. فالحرب يجب أن لا تكون دائماً معقدة، من يكن شجاعاً وقوياً يجب أن ينتصر، هذا بديهي.

ـ إن محتالاً صغيراً يستطيع أن يضع على الأرض خصماً ذا قوة!

ـ انفجر الإنكليزي ضاحكاً وقال بطريقة لاذعة لحليفه:

ـ هذا من السياسة، يا فيليب! وكل شيء، في أوانه.. غداً سنفتك، وسنقتل... سنشعل حرباً شاقة، لكنها ستؤدي إلى نصر إلهي.

الأسبوع اللاحق كان مليئاً بالعنف. تطلّب الأمر عدة هجمات للإستيلاء على عكا وامتلاء الأزقة بالجثث وبجداول من الدم، لكي يخرج الملك فيليب من الكابوس ويقدر مدى فظاعة المجزرة بعد أن اجتاح على رأس أفواجه، القلعة المدمرة الأبواب؛ ولكي تهز رائحة الموت المقززة مشاعر الأحياء حتى التقيُّؤ؛ ولكي يُجرّ الأسرى، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم، مرعوبين ومذعورين، كأشباحاً بلهاء لا تفهم... إهانات المنتصرين وترهاتهم... ولكي يتمكن الفرنسيون من رفع راية الصليبيين فوق كومة الأجساد المتشابكة والموثوقة الأيدي والأرجل. في موت فاحش، مُخِلّ بالحياء، نصف عراة ممزقين ومحطمين، وملطخين.

ـ كل هذا الدم... تمتم الملك فيليب.

أجاب الفارس هنري مطمئناً:

ـ من أجل المسيح يا صاحب الجلالة.

ردد الملك فيليب:

ـ المسيح؟ لكنه استدرك عندما رأى الهيكلي رينو قادماً نحوه وهو يوسع الخطى ليمر من فوق الجثث المدماة.

كان سيف الفارس مغطى بالدم حتى مقبضه، وكان يبدو منهكاً وقلنسوته والحرارة بادية في عينيه مثل الجمر. جلس رينو أمام قدمي الملك أخذ نفساً عميقاً ثم قال:

ـ القتال يا للشيطان! متعب جداً يا صاحب الجلالة. من المفيد أن، تعتاد بسرعة على كيفية التعامل بخفة مع السيف حين تقتل أحداً.

ـ سأتجاهل أيضاً أن ذلك سيكون حقيراً وبشعاً.

عقّب رينو:

بشع جداً، أكان السبب عادلاً أو خادعاً، يبقى القتل عملاً مرعباً، لأنه يحرك فينا غرائز مريعة، تسكن داخلنا جميعاً، فيما كنا نعتقد أنها نامت إلى الأبد.

ـ إنها مهمة حيوانية، قال الملك متنهداً. وهو يحيد مبتعداً عن الجثث الهامدة الجامدة أحياناً في أوضاع متناثرة وبشعة، بالإضافة إلى جرحى صليبيون يوضعون على نقالات وسط أصوات النحيب والألم والنداءات والتذمر.

نزل فيليب إلى المعسكر، مجتازاً أنقاض بقايا السور الذي دمرته المنجنيقات «المالفوازية» وحوّلته إلى بقايا. رأى ريشاردد قلب الأسد يسكّن ظمأً بعض فرسانه لكنه رفض دعوة الانضمام إليهم.

فيليب يرتعش ، لحمه، وعظامه كلها ترتعش كمن أصيب ببرد قارس. امتدت يد إلى كتفه. فهدّأ هذا الحضور من روعه وسمع صوتاً خفيضاً يقول له:

ـ سنذهب ما أن يحل الظلام، يا صاحب الجلالة عندما يشبع الرجال.

ـ نعم، أيها الفارس رينو. سنذهب ونبحث عن تلك اللفافات الورقية من جلد الرق. أعرف قيمتها من الآن وصاعداً.... وهو ثمن كل هذا الدم المُراق.

ـ المزيد أيضاً سيدي! هذا ليس شيئاً ولا يساوي حتى الحرف الأول من المخطوطة الأولى.

تابع الرجلان سيرهما، أبقى الهيكلي يدي على كتف العاهل الذي كان يجد صعوبة في المشي دون أن يترنح.

11

اللفافات الثلاث

هذا هو البرج الرئيسي في الحصن الذي يسمى البرج اللعين، يا صاحب الجلالة؛ الطريق ممهدة حرّة.

- لنسرع... أشعر أنني متعب وأن دمي يسخُن.

- إنها دون شك الرُّحضاء (عَرق يتصبّب بسبب الحُمّى)، وليس مستغرباً أن تصاب بالحمى في هذه المناطق.

دخل فيليب ورجل الهيكل من باب سري لبناء مظلم.

استدار رينو نحو الملك ماداً إليه يده.

- لعمري، إن يقيني صحيح، أنت تكاد تلتهب من الحمّى!

أقبل الليل وأصوات الأنين والبكاء وعويل النساء الثكالى، واللواتي اغتصبن ممزوجاً بقهقهات الصليبيين المخمورين.

فتح الهيكلي الطريق بواسطة مشعل ممسكاً يد الملك ليساعده على نزول درج ضيق درجاته غير ظاهرة ومتباعدة، غارقاً بالرطوبة ورائحة العفونة.

في أسفل الدرج، سرداب طويل وأنبوب مغروس في أرض مرصوصة حيث لا يستطيع أحد المرور إلا بعد خفض الرأس.

- انتبه يا صاحب الجلالة، السقف ينخفض تدريجاً كلما اتجهنا نحو الداخل سنسير هكذا حوالي عشرين خطوة وسنختار ممراً من بين ثلاثة.

- كيف ستعرف أي ممر من هذه يجب أن نسلك، أيها الفارس؟

أجاب رينو مبتسماً، أنظر، مشيراً بمشعله إلى إشارة منحوتة على الجدار. سمكة مؤسلبة (مرسومة بخطوط موجزة بهدف الزخرفة) بواسطة سكين أو نصل. وقد جعلت هذه الخطوط غليظة.

لاحظ الملك:

- إنها إشارة التعرّف لدى المسيحيين الأوائل.

- في الواقع يا صاحب الجلالة. هذه السمكات ستقودنا إلى مدفن في قلب الكنيسة حيث سنجد ما جئنا لنبحث عنه.

ـ كل هذا، وفق ما أرى، لا يخلو من معجزة.

ـ كلا، يا صاحب الجلالة! الأمر لا يتعلق بالسحر، في كل أنحاء العالم، يقوم عملاء الهيكل بإعلام مراكز الآمر. هل تعلم أننا نقوم ببعض التحقيقات منذ زمن طويل. لقد حفظت التقاليد المعلومات المتعلقة بهذه الأماكن على مر القرون.

قال فيليب:

ـ هل هذا النوع من الأسرار هو الذي أوصل الأخوة الأوائل إلى اجتماعاتهم؟

ـ نعم، يا صاحب الجلالة ذاكرة شعبية غير مدونة نحرص على نقلها دون خيانتها.

وصل الملك وجندي الهيكل إلى مفرق. بفضل السمكة المنقوشة على الصخرة، يستطيع الزائران بكل ثقة أن يدلفان إلى واحد من السراديب. تقدم الرجلان داخل السرداب لعدة دقائق، الظهر منحني، الأكتاف تلامس الجدران، أحذيتهما في الوحل. حتى وصلا أخيراً إلى قبو صغير محفور بضربات معول قوية في صخرة كبيرة مدعومة بابتذال بواسطة حجارة دبش رصفت فوق بعضها على عجل.

ـ همس الهيكلي ها قد وصلنا، توقف تاركاً يد الملك الذي كان يسحبه خلفه مثل طفل خائف.

نهض فيليب بدوره رافعاً قامته الفارعة وهو يشكو من ظهره؛ ما جعل الهيكلي يبدي ملاحظته:

ـ كنت تتصرف مثل شيطان أثناء القتال، ترفع سيفك فوق رأسك وتغرسه كمدقة الحبوب التي تهرس القمح.

أوضح فيليب:

ـ صحيح أنني أبدتُ العديد من المقاتلين... كسرت الجماجم! وبترت الأطراف! وبقرت الصدور والبطون!

كان رينو يكنس الجدران بواسطة مشعله.

ـ إنه هنا، صرخ فجأة وهو يشير إلى دبشة تحمل صورة سمكة. هذه المرة، كان يعلوها صليب.

ـ من الذي وضع هذه الإشارات رينو؟ ومتى؟

ـ أنت تعرف ذلك جلياً، فيليب. رجل حكيم منذ اثني عشر قرناً، إحمل هذا المشعل وسلّطه عليّ باستمرار.

أخرج رينو خنجره من غمده وشرع بنزع الحجر. خدش الإسمنت الصلصالي وحوّله إلى غبار. العمل طويل والملك قد نفذ صبره، والحمى تحرق جسده وتثلج عظامه.

قال رينو بصوت ناعم:

ـ صبراً، يا مولاي، ما أن تعود إلى المعسكر، سأستدعي الصيدلاني الذي يعمل لديك فيصف لك علاجاً، يعيد إليك دماً نقياً.

ـ هل تعرف أيضاً في الطب، أيها الفارس؟ أية معرفة لا يدركها عقلك؟

أجاب رينو مبتسماً وهو يتابع عمله: أزاول الرياضيات، الفلسفة وأجهد نفسي في تطوير الفضائل اللاهوتية: الإيمان، الأمل والإحسان.. أفتخر بمعرفة الكواكب الرئيسية ومساراتها.. في الحقيقة، هذه هي بعض خصالي إلى جانب إتقان استعمال السيف مع دورة أو دورتين من السحر اللتين أحققهما بعيداً عن أفراد الكنيسة. آه، لقد نسيت...

ـ نعم؟ قال الملك مازحاً.

ـ أنا أقرأ وأتكلم بطلاقة حوالي عشر لغات بالإضافة إلى مختلف أنواع اللهجات العامية المحلية والإقليمية.

تنهّد فيليب:

ـ أشعر بالغباء إلى جانبك وأخشى أن لا أعرف الكثير في هذه الحياة لبلوغ واحد بالمائة من معارفك.

ـ لست سوى بيدق متواضع على رقعة جلالتك، بيدق على الرقعة التي تتربع فيها على عرشك. لست بحاجة أبداً لترهق نفسك وذهنك بهذه الأحمال الثقيلة، طالما أن البعض سيحضرها لك على الرقعة، يضحي البيدق بنفسه في سبيل الحفاظ على ملكيه.. الجندي هو من يحمل المتاع يا مولاي... الجندي! لا مليكه.

كان خنجر رينو قد أزال كامل الاسمنت (الطين) الذي يشد ويثبت الحجر في الجدار. وأصبح باستطاعته أن يمرر أصابعه في الفجوات الجانبية التي صنعها ليسحب الدبشة إلى الخارج.

ـ ابتعدْ، يا مولاي.

سقطت الحجرة على الأرض الموحلة ولطّخت ساقي الملك.

مدّ رينو ذراعه وغاص عميقاً في الفتحة التي أحدثها، واستخرج أول لفافة من الجلد (الرق).

ـ هذه واحدة، عاد يدخل ذراعه من جديد، وينحني مفتشاً بحركة مفاجئة في هذا الصندوق المعتم.

سلّط عليّ الضوء، فيليب!

انحنى الملك، ومدّ يده ملوحاً بالمشعل. اذهب وأبحث في فم الجدار.

في اللحظة التي كاد فيها صبر الملك أن ينفذ، صرخ رينو:

- إنها معي.. نعم، هاهما اللفافتان الباقيتان! في كيسين من الجلد.. لم يترك عليهما الزمن أي أثر على الأرجح.

قال الملك مقترحاً:

- ألا تريد التأكد من ذلك؟

- لا الوقت ولا المكان مناسبان يا صاحب الجلالة. إنه ذلك يعني المخاطرة بإخراج هذه اللفافات من أغلفتها. يجب أن نفعل ذلك حسب القواعد، أعرف أياد خبيرة تقدر على معالجتها بعناية ورفق.

عقّب فيليب، ودون أن يخفي خيبة أمله.

- لعمري، بعد أن قطعت كل هذه المسافات وقتلت الكثير من الناس المساكين وجازفت بروحي لأعود دون معرفة ما تحتويه هذه اللفافات! تخيّل أنني متّ هنا بفعل هذه الحمى.

- لن تموت، يا صاحب الجلالة. قلت لك، سنعالجك. هيا، لنخرج من هذا القبر، هل باستطاعتك أن تسير أنت في المقدمة، هذه المرة؟ لأن ذراعي مربوطة بهذه الرزمة التي أحملها أمام صدري.

- طبعاً، أنت الجندي الذي يحمل المتاع، أليس جيداً هذا؟

- وأنت مليكي فيليب الذي يحمل الآن النور.

- أليست هذه حكمة تجبرني بها وتثقفني.

لم يجب رينو، لقد كان سعيداً من تلقاء نفسه، ضاماً إلى صدره اللفافات الثلاث التي يخفيها تحت معطفه، كان يفكر بمن غطى رقائق الجلد (المخطوطات) بكتابته. فدعا إليه بصلاة (امتنان) بالجميل، كأخ كبير.

12

مرض فيليب

استقر الملك فيليب طوال الأسبوع التالي، تحت خيمة أُسدلت أغطيتها بعناية، وكان الظل فيها يصارع الحرارة والرطوبة. كان الفارسان بينوا وهنري يحرسان المدخل كمدربين على الفروسية، يجلسان طوال النهار في المكان عينه، يتكلمان قليلاً، ويلتحفان ليلاً بغطاء سميك وينامان بصحبة كلاب الحراسة، الأصدقاء المخلصون. يتألمون لرؤية سيدهم مريضاً يراقبون أقل دمدمة تصدر عنه، مستفسرين دائماً من رينو الذي يوزع دواءه صباحاً، وظهراً ومساء، بمساعدة صيدلاني وكاهن.

كان الملك ريتشارد قلقاً على صحة العاهل الفرنسي. وكان رينو يحضر شخصياً إلى معسكره في نهاية كل أسبوع ليعلمه بحالة فيليب.

ـ حسنا: هل تحمل لي أخباراً سعيدة؟

ـ أبداً، سيدي! لقد هزل ملكي، وفقد شعره وأظافره وعينه اليمنى. كما أن جلده بدأ يتقرح. إن النظر إليه في هذه الحالة يثير الشفقة!

بدا ريشارد منزعجاً تماماً... أضاف رينو:

أعترف أنني عاجز أمام هذا الداء، ولا أستطيع أن أخفف من آلامه بالعقاقير التي تنومه ولا تشفيه. كان يضعف ساعة بعد ساعة، ويهذي أحياناً، متحدثاً عن زوجته المرحومة وطفليه الميتين.

ـ نعم أفهمك، فهمت جيداً أيها الفارس رينو فأنت أتيت لتحضرني إليه.. لقد عرفت نواياه، يريد أخذ موافقتي على السماح له بالعودة إلى فرنسا؟

هزّ رينو رأسه مضيفاً:

ـ سيكون هذا أفضل قرار يؤخذ يا صاحب الجلالة..

خرج ريشارد بسرعة من خيمته.

ـ أرغب أن أتحقق بنفسي من حالته.

مشى رينو والملك ريشارد بخطوات كبيرة، مارين من فوق أجسام الصليبيين الممدّدة في حالة من الراحة، مخبولين بفعل الحر، ومنهكين من المعركة الأخيرة والإفراط بالطعام الذي لحق بهم.

ما أن وصل إلى مقصورة فيليب، حتى فتح ريشارد نصف الأغطية المسدلة رغم تحذيرات الفارسين بينوا وهنري اللذين اغتاظا من تعكير نوم سيدهما.

كان فيليب ممدداً على فراشه، شاحباً، أصفر اللون، عينه اليمنى مغطاة بضماد، شعره مبعثر، والعرق يتصبب منه، نفسه ضيق، زائغ البصر. مشهد عجزه وضعفه أثار مشاعر ريشارد الذي اقترب منه دون أن يلحظ وجود القس، الجالس في الظل، وكتاب الصلوات على ركبتيه.

قال ريشارد:

أيها المبارك فيليب! أقرّ أنك الآن بين يدي طبيب دجال لا يستطيع أن يداوي كلباً أجرب مقمّل!

كان صوت المريض المختنق الخامد والمبحوح لا يكاد يصل إلى أذني قلب الأسد الذي كان عليه الانحناء ليسمع كل الكلمات.

- لست مصاباً بالجرب، ريشارد، إن ثمة بعضاً من السم القاتل يسيل في عروقي.

- انحنى ريشارد أكثر أمام المريض متفحصاً جلده.

- هل تشعر بالآم في رأسك، يا ابن عمي. من له مصلحة في موتك؟

- عندما يقاتل ملكان معاً، يوجد دائماً واحد لا حاجة إليه. القدر هو المسؤول الوحيد عن حالتي، متمنياً أن تكون أنت وحدك من سيكمل بحثنا وإعادة القبر المقدس.

تدخل رينو:

- كما ترى سيدي ريشارد، جلالته يفضل العودة إلى بلاده في القريب العاجل.

فكّر الانكليزي للحظة، ثم نظر إلى المريض الذي تدعو حالته للرثاء، وجهه المتشنج بالألم ويداه ترتجفان. هيكل عظمي هزيل برائحة العرق الحادة، والبول وبعض سوائل الجسم الأخرى، التي تجعلها حرارة الخيمة لا تطاق.

رفع فيليب يداً محمومة، واضعاً إبهامه على صدر الملك العملاق الضخم ثم قال:

- اذهب ريشارد.. أحمل قلبك قلب الأسد نحو القدس. كبت ريشارد تقززه، مجبراً نفسه على وضع يده على جبين المريض الملتهب:

- عندما أقبّل ترابها، سأفكر بك بكل جوارحي وسأصلي لشفائك. وأضيف حرارة استرحامي التي أضمن لك بها أنك ستبرأ من مرضك.

- تلجلج فيليب: أنا متأكد الآن.. أرجو منك أن تتركني لوحدي مع الفارس رينو، أنت أيضاً أبتِ أخرج للحظة.

ترك الكاهن طاولته مدمدماً ببعض الصلوات باللاتينية، ثم انسحب، ليتسنى للملك

ريشارد بالخروج أولاً. ألقى الأخير نظرة على الفارسين الصديقين المخلصين لفيليب، بينوا وهنري، ملقياً عليهما التحية فيما كانا منشغلين جداً بمرض سيدهم.

حاول فيليب جاهدا الجلوس في سريره، فأسرع رينو لمساعدته بوضع وسادة خلف ظهره.

ـ ألم يكن مرضي مرتبطاً بما فعلناه في البرج اللعين؟

ألم نخرق حرمة المعبد؟

طمأنه الهيكلي:

ـ أنا من أخذ اللفافات ولم أتعرض لأي نوع من السحر! أكرر لك، سيدي، أنت مصاب بحمى قوية لم تتحملها بنيتك الهزيلة الناتجة عن الحزن الذي حلّ بك. يلزمك بعض الوقت لتستعيد قواك، إن العلاج الذي أقدمه لك سوف يتغلب على الحمى.

ـ بانتظار ذلك، سيذهب ريشارد ليقطف غار النصر وشرف الاستيلاء على القدس.

ـ المدينة المقدسة ليست إلا قربة جوفاء، قلت لك ذلك يا صاحب الجلالة لنترك الإنكليزي في أحلامه بالنصر والهيمنة، لندعه يغرق في الرمال. ما دام هنا فلن يطمع أبداً في مملكتك.

ـ هل هناك من شيء مهم في اللفافات التي ذهبنا للبحث عنها؟

ـ ستعرف ذلك قريباً. إن جند الهيكل سيسلمون هذه اللفافات إلى ناسخين اثنين، «آنيان ونيكولا دوبادو»، من أبرشية أوربيني، عالمان إكليركيان هما من يقومان بترجمتها إلى اللاتينية، إنهما رجلا علم ومعرفة كما أنهما باحثان، متقلبان ولوطيان يقولان عن نفسيهما أنهما أخوة، لكنهما ليسا سوى مجنونين.

ـ أصيب فيليب فجأة بنوبة سعال، سارع رينو على الفور بإعطائه كأس ماء ممزوج بالعسل. بدا العاهل على وشك ابتلاع جرعة صغيرة مما أدى إلى سعاله بقوة كان صدره مصابا بتشنجات عنيفة. قطعة من الدم الداكن والأسود انبثقت من بلعومه ولطخت الثوب الأبيض يرتديه الهيكلي، خارت قوى الملك، وخرج من شفتيه زبد أحمر ثم شخصت عيناه.

ـ هنري، بنوا! إليّ بسرعة! صاح جندي الهيكل.

اندفع الفارسان حالاً إلى الخيمة، لاكتشاف حالة فيليب وأطلقا صراخاً وسباباً... أعاد رينو المريض إلى سريره ونظف شفتيه مستعيناً بقطعة قماش مبللة.

ـ قال الملك بصوت معذب: إذا كان علي أن أموت، فليكن ذلك في فرنسا، قرب ولدي. لنعجل انطلاقنا!

ـ لن تموت، لم تأت ساعتك بعد، لن تموت يا أخي!

نظر الفارسان بينوا وهنري إلى بعضهما نظرة تساؤل. لقد سمعا جندي الهيكل ينادي الملك: بأخيه!

13

القتل المزدوج

لدى عودته إلى فرنسا، استقرت حالة الملك الصحية فيليب خلال عدة أسابيع، هذا التحسن الملحوظ في صحته أدخل الطمأنينة نوعاً ما إلى أقربائه بينما كان الفارسان هنري وبينوا يقومان دون كلل أو ملل بالمشي مائة خطوة والمراقبة جيئة وذهاباً أمام باب غرفة المريض وهما يصبران على مزاجه السيء بسبب قلقهم عليه.

ـ قال أحدهم: الآن وقد مضى أكثر من شهر والملك فيليب لم يخرج من غرفته.

ـ قال الآخر: إن جندي الهيكل رينو أوكله إلى طبيب يعطيه عقاراً سحرياً مجهولاً ويصف له علاجات غامضة غريبة، واعداً بترياق سحري.

فُتح الباب. وخرج الطبيب من الغرفة وهو يحمل وعاءً مليئاً بمخاط الملك ركض الرجلان يستعجلان الطبيب ليسألوه:

ـ كيف حال فيليب هذا الصباح، سيد أوتون.

ابتسم لهما الطبيب، وردّ بصوته المطمئن:

ـ أفضل! لقد استعاد شكله البشري ولن يخشى على ابنه لويس من الآن فصاعداً من زيارته أبداً. يبدو أن صحبة الفارس رينو قد ساهمت في تماثله للشفاء من مرضه.

عاد السيد أوتون إلى الخيمة، تاركاً الفارسين في استيائهما، فهما، الصديقان المخلصان يمنعان أحداً من الدخول إلى الغرفة في حين الـ«الصليب الأحمر» كان يمر بكل بساطة وفي أي وقت!

داخل شقة فيليب، كان رينو يقوم بدور الخادم بكل تواضع، يبدّل ثياب الملك، يساعده على الاستحمام وتناول الطعام، يجدد هواء الغرفة، يقرأ للملك، يحرك بانتظام الجمر داخل المدفأة الكبيرة بسبب رطوبة الشتاء.

ـ هل يتقدم الراهبان العالمان في ترجمتهما يا رينو؟

ابتسم جندي الهيكل، لقد كان ينتظر من فيليب أن يطرح عليه أخيراً هذا السؤال...

ـ نظراً لشدة إخلاصهم وتكريس أنفسهم لهذه المهمة، فهما لا ينامان إلا بالكاد... وإنه، هو نفسه يعتقد بأنه الملك لم يعد يشعر بأي قلق أو خوف وهمي من جراء ذلك.

قال العاهل وهو يحاول إسناد ظهره على وسائد سميكة:

ـ جيد... أنا متلهف لقراءة هذه النصوص. إذا مولتُ جزءاً من هذه الحملة الصليبية، فهذا يعني أنها ذات أهمية كبيرة، أليس كذلك؟

ـ في الحقيقة سيكون خطيراً إذا حاول الملك ريشارد وضع اليد عليها صدفة.

ـ لكن لم تتكلم معي عن المال، أيها الفارس...

ـ إن العرش سيعيد عليك مبالغ طائلة، قال فيليب بعد أن وجد الوضعية الجيدة على وسائده أنا مدين لك.

ـ سدنة الهيكل ليسوا مرابين. سننتظر قبل أن نسترد أموالنا.

ـ هذا يعني أن حصارنا أعطى لكم ثماراً إضافية غير القطع النقدية الرنانة. أحب أن أقرأ في داخلك، رينو... لأعرف لأي وبأي طريقة تتحركون الآن.

اعتبر أن هذا من أجل صالح المملكة سيدي.

* * *

الشهر المقبل، بعد أسبوعين طويلين من الثلوج، امتطى خمسة فرسان، جيادهم بسرعة كبيرة على طريق غير واضحة المعالم يحدها صفين من أشجار الصفصاف. اتجهوا نحو دير صغير يجثو تحت ضباب كثيف. دق جرس الكنيسة الصغير معلنا الساعة التاسعة عشرة.

نزل الفرسان عن ظهر جيادهم بحركة واحدة. الريح القوية أزاحت القبعة عن رأس أحد الرجال، إنه رينو.

قرع الباب حسب شيفرة معروفة. أما بقية الفرسان فوقفوا خلفه، فيما علق الأربعة أحدهم أعنّة الخيول إلى حلقتين مثبتتين في الجدار.

فُتح الباب على رئيس الدير العجوز الذي كان يضع شالاً على كتفيه. كان محدودب الظهر، كل شيء فيه مخالف، يحمل قنديلاً من الزيت ليتحقق من وجه رينو.

آه... لقد عرفت شفرتكم، أيها الأسياد.. ادخلوا بسرعة، من هذا البرد القارس فهو يجمد نخاع عظامكم.

دخل الفرسان الخمسة إلى الدير، بدا أمامهم رواق يؤدي إلى ثلاثة أبنية متواضعة هي: مَقرّ الكاهن، المكتبة، والكنيسة.

قال رينو موجهاً حديثه إلى الرجل العجوز وهو يأخذ الفانوس من يديه:

ـ يمكنك أن تدعنا لوحدنا، أيها الكاهن، عد إلى صلواتك.

ـ إنه في الحقيقة وقت النوم يا بني في سرير دافئ، أنا لست بقوة الشابين المخلصين آنيان ونيكولا، انسحب الأحدب بينما همّ الفرسان الخمسة بالدخول عبر ممر يصل إلى المكتبة. كان الضوء يتسلل عبر درفات النوافذ الضيقة.

قال رينو وهو يعطي الفانوس إلى واحد من رفاقه:

- سأدخل وحدي. انتظروني وكونوا جاهزين.

فتح جندي الهيكل الباب الخشبي ودخل إلى غرفة صغيرة حيث موقد الجمر الذي كاد أن ينطفئ دون تدفئتها جيداً. كان هناك رجلان جالسان إلى مكتبهما، أدارا رأسيهما معاً. كانا أشبه بعصفورين هزيلين عنق كلّ منهما شديد النحول وعيونهما مدورة قلقة. أما عمر كل منهما، فمن العسير تقديره.

يرتديان ملابس من قماش سميك بُنّي اللون، وحبل صغير معقود حول خصرهما، وشال على الكتفين، وقفازات صوفية (بلا أصابع) في اليدين: إنهما «نيكولا وآنيان دو بادو».

نهض آنيان عن كرسيه تاركاً المخطوطة موضوعة على مقرئه الذي تتكدّس عليه لفافات سميكة من الورق. فبدت خلفه مباشرة على طاولة، والجيوب الجلدية، حافظة اللفائف التي عُثر عليها في عكا.

قال المترجم الأول بصوت شفاف ناعم كالطفل:

- أيها الفارس رينو، لقد انهينا عملنا الذي كلفتنا به في التاريخ المحدد.

أجابه رينو متفحصاً الكتاب السميك، الذي أشار إليه آنيان بحركة مبالغ فيها من يده:

- لم يسبق لي أن شككت في خدماتكم.

الكتاب موضوع على مِقْرَأ للتراتيل.

أخذ جندي الهيكل يرتعش. من البرد؟ لا، ليس من البرد فقط. إنها هذه العبارات التي يقرأها، دون تسلسل، وهو يقلّب بتوتر صفحات المخطوطة.

تمتم نيكولا:

- كان الأمر يبدو أحياناً صعباً، فاللغات المستعملة كانت ثلاث، بينها الآرامية... و الحاصل...

استأنف آنيان وهو ينفخ على أصابعه ويتمايل من قدم إلى أخرى:

- لقد فهمنا أن هذه النصوص كانت مكتوبة من قِبَل... أنتم تعرفون...

طوى رينو الكتاب، واضعاً أصابعه على الغلاف الجلدي ومبديا إعجابه بعمل رجليّ الدين هذين.

تحدث أنيان بكبرياء:

- لقد اعتنينا جداً بطوي الأوراق يا سيدي، قابلنا النصوص بدقة تامة قبل أن نشدها بقبضات ونمررها عبر المصفّحة[1] لإعطائها المرونة. هذا ما يجعل الدفاتر مزعجة قليلاً.

(1) آلة لتصفيح الورق

أضاف نيكولا بتفاخر:

ـ لقد استعملنا لخياطة هذه الدفاتر خيوطاً رفيعة صُلبة من الكتان أخفينا نتوءاتها في الظهارة (تظهيرة التجليد) بهذا الجلد الناعم الذي يتحمل عوامل الزمن.

ـ قال رينو معجباً: وهو يضع، راحة كفه على جلد الغلاف، حيث نقش الراهبان سمكة بخطوط مؤسلبة. حاملةً صليباً قصيراً على ظهرها.

نعم هذا غلاف جميل. هل قمتما بإنجاز نسخة أخرى، كما طلبت إليكما؟

أخرج آنيان عن الرف نسخة أخرى.

ـ إليك النسخة المطابقة، يا سيدي. نسخة طبق الأصل، دون إنقاص أي كلمة، وكذلك الصورة المثبتة انطلاقاً من النصوص: الله يخلق العالم مستعيناً بفرجار... الفرق الوحيد، الذي تمنيته أنت، ليس ملحوظاً بالعين المجردة على الإطلاق.

أظلم خيال ناظري رينو. بقي وقتاً طويلاً صامتاً وهو ينظر إلى المخطوطات، ثم استدار موجهاً كلامه إلى نيكولا وآنيان دو بادو قائلاً:

ـ أودّ البقاء وحيداً لأ تفحص هذه المخطوطات.

ـ قال آنيان بصوته الطفولي: طبعاً، سنتركك، ستلقانا في الكنيسة.

خرج الكاتبان الإكليريكيان من المكتبة مارّين أمام الفرسان الأربعة بعد أن أدوا لهم التحية عبر حركة بالرأس، ثم أسرعا بخطاهما بسبب البرد القارس الذي حل على الدير، ودخلا الكنيسة.

في المكتبة، اقترب رينو من موقد الجمر، وإحدى المخطوطتين بين يديه. فتحه، وتوقف عند الصفحة الثانية، تأمل بالرسم الذي نفذه آنيان ونيكولا وتلا بصوت مرتفع الجملة الموضوعة تحت الصورة: In Furorem versus ثم ردّدها ثانية.

تابع رينو فيما بعد واقفاً قراءة المخطوط، حتى بدأت قدماه ترتجفان وجف بلعومه وتقطع تنفسه.

* * *

لم يخرج الفارس من المكتبة إلا بعد مضي أكثر من ساعة، شاحباً، وهو يحمل الكتابين تحت معطفه، ضاماً إياهما إلى صدره.

قال أحد الفرسان ملاحظاً:

ـ كم أنت شاحب، رينو! أنك أشبه بشبح.

ـ وقال فارس آخر: هل قرأته؟ هل قرأت إنجيله؟

ـ نعم، أجاب رينو بصوت محطّم. لا أحد يجب أن يعرف، باستثناء الملك ماذا تحتويه «الوصية الأخيرة للمجنون».

لكن.. «آنيان» و«نيكولا» يعرفان المحتوى!

- دمدم رينو: ليسامحنا الرب. افعلوا ما عليكم فعله، يا أصدقائي. وأن لا يكون هذا عملاً وحشياً.

- سيكون ذلك سريعاً، يا رينو. نعدك بذلك.

ترك الرفاق الأربعة رينو أمام باب المكتبة، استل مرافقوه الأربعة سيوفهم واتجهوا نحو الكنيسة، ودخلوا إليها.

«نيكولا» و«آنيان دو بادو» كانا جاثيين على ركبتيهما أمام المذبح، نسمة هواء جليدي لسعت على الفور جسدهما. أبقى الجند الهيكليون الباب مفتوحاً. دنا الراهبان إلى بعضهما وأمسك أحدهما بيد الآخر متقوقعين على نفسيهما مثل عصفورين هزيلين مرتعدين من وقع الخطى وراءهما، وقع أصوات أحذية جند الهيكل المغروسة بالوحل تقرع البلاط الرّملي. طرف نصل سيف يصدم أحد المقاعد... الصوت المعدني... الصوت الكامد للخشب. الخطى.

- نيكولا ها قد حان موتنا.

- لن يكون غير ذلك، شدَّ على يدي بقوة، فأنا أشعر ببعض الخوف.

- يدك باردة جداً.

- يدك دافئة تجعلني أطمئن.

عمل واحد فقط يجب إنجازه دون انفعال. أغمد الهيكليون سيوفهم دفعة واحدة في رقبة وصدر كل من الراهبين. بدأ دمهما يتدفق بغزارة بينما كانا ينهاران ويهويان ببطء، دون صراخ، أو شهيق ودون أن يفلتا يديهما.

نظر أحد الفرسان إلى الصليب الخشبي البسيط المعلق على الجدار خلف المذبح، وهمّ ليرسم إشارة الصليب، وقلبه يكاد يوقف حركته، لكنه تراجع رافعاً كتفيه لم يستطع أن يمنع نفسه عن القول آمين.

عاد الهيكليون الأربعة إلى رينو. كان الأول في المجموعة يحمل قنديل الزيت، واثنان يعمدان سيفيهما ثانية. أما الأخير فقد توقف لفترة، من الوقت عائداً إلى الكنيسة وهو يشعر بالأسى على فعلته، كان سيفه معلق خلف ذراعه، ملطخاً بدم الراهبين الكاتبين.

توجه رينو إلى حامل الفانوس قائلاً:

- النار يا «تييري»... يجب أن يختفي كل شيء الآن.

- ليلة رهيبة، في الحقيقة! لكنها ثمن السِرّ.

رمى الفارس «تييري» القنديل على باب المكتبة. انتظر الرجال الخمسة لبعض الوقت حتى احترقت الغرفة وعادوا من حيث جاءوا.

عاد تساقط الثلج بغزارة، قوياً قارساً الجلد من تحت المعاطف.

ركب الفرسان الهيكليون ظهور خيولهم. رينو يشد على المخطوطات تحت ثوبه معطفه لحمايتها. بينما هم سائرون من جديد على الطريق المحاط بأشجار الصفصاف، شاهدوا السنة اللهب الضخمة ترتفع فوق الدير، تابعوا سيرهم مختفين وسط الظلام دون أي كلمة متوارين عن الأنظار.

14

القاصد الرسولي

في الرابع عشر من آب عام 1193، تزوج فيليب من إنجيبورج، أخت كُنوت السادس ملك الدانمارك. لكنها أرغمت على الطلاق بسرعة لأن الملك الآن يريد الزواج من آنييس دوميراني، ابنة دوق بافاريا، وسط ازدراء لأوامر الفاتيكان. في عام ألف ومئتان، أعلن البابا إينوسنت الثالث فرض تحريم ديني على فرنسا.

حاول القاصد الرسولي «بيير دو كابو» للمرة الأخيرة التوسط فاتجه إلى قصر فيليب أوغست.

ـ «سيدي»، جميع الكنائس مقفلة ولا أحد يقبل عليها. إن مملكة فرنسا غارقة في الظلمات، بسبب فعلتكم الضارة وهي زواجك بامرأتين.

ـ أين وجدتَ الظلمات، يا سيادة الأسقف؟ هل لديك سوء رؤية؟ إن النور يفيض بغزارة على هذه الغرفة وأجد الحرارة لطيفة، هذا الصباح.

ـ مع ذلك فإنني أرى الظلام. لا يمكن للأموات أن يستريحوا في أرض راسخة القداسة، فالآباء لن يعودوا مباركين، والأرواح لم تعد تفترق. بدأ القاصد الرسولي يعدد وهو يتحرك في مقعده الذي يطقطق تحت وزنه الثقيل.

ـ تساءل فيليب أوغست: هل أضحت فرنسا ملجأ للشيطان بسبب إرادة البابا فقط؟

لقد شاخ الملك، وهزل جسمه، والمرض أطفأ نور عينه اليمنى إلى الأبد وترك المرض أيضاً بقعاً وتجعدات على بشرة وجهه.

ـ أتوسل إليك يا سيدي: لا تعاند ولا تكابر! لقد أوكل لي الحبر الأعظم مهمة إعادتك إلى رشدك. لا تجعل محاولتي مستحيلة. تعرفون جيداً أنكم لا تستطيعون حرمان مملكتكم من حماية الله وتجعلوا البابا عدواً لكم. أتوسل إليك، أن نفتش معاً على طريقة للصلح ترضي الطرفين معاً.

بعد وقت قال فيليب:

ـ أتمنى حقيقة أن أستعيد رحمات ونعم الأم المقدسة الكنيسة.

نهض القاصد الرسولي بصعوبة عن كرسيه. فيما بدا جسمه متعباً من ثقله. مشى بعض

الخطوات الصعبة ليقترب من الملك، ينفخ ويصر أسنانه، مخفضاً صوته، ويقول:

ـ البابا يتجه إلى فتح مجال المصالحة ورفع التحريم المفروض على مواطنيك، شرط أن تعود إلى الزوجة التي رهنتها في الدير كسجينة، و...

ـ و..؟

استعاد بيير دو كابو نَفَسهُ.

ـ يُشاع في الخفاء في روما أنك مالك لوصية هرطقية. ربما إذا عدت للحبر الأعظم فإنه سيرفع عن دربك هذا الحقد، وستكون الضربة أقل ثقلاً.

ـ إن جواسيسكم يتمتعون بآذان ثاقبة السمع يا سيدنا، قهقه الملك وأضاف في قرارة نفسه: ها قد وقعت في فخ نصبه لك الهيكليون الذين سيضعونك أنت والبابا في وضع سيء.

ـ انتظر القاصد الرسولي بعد أن مرت ثوان طويلة قبل أن يلتفت فيليب نحو الرجل البدين الذي يتصبب عرقاً ليقول له:

ـ سيحدث كل شيء حسب إرادة الحبر الأعظم ستسلمه المخطوطة بنفسك شرط أن يلتزم الصمت حيال محتواها.

ضحك القاصد الرسولي صاحب الوجه المليء بالكتل اللحمية وقال:

ـ لا أشك في ذلك، ومن ثم، فإن هذه الوصية ليست سوى نسيجاً من الأكاذيب.

كان القاصد الرسولي راضياً، فقد تكللت مهمته بالنجاح: وصية المجنون ستكون من الآن وصاعداً ملكاً للكنيسة ومضمونها لن يشيع به أبداً «لقد فعل فيليب جيداً توريطه في مشاكله العائلية، فقد كانت هذه الطريقة هي الفضلى لإرغامه على التفكير والعودة إلى الصواب.

حين ترك الملك «بياردوكابو» يرتاب في أنه يحمل معه نسخة عن المخطوطة غير المكتملة ولكنه أيضاً لم يكن يرتاب في وجود نسخة ثانية أيضاً.

15

شرق ـ أصل

دقت الساعة الجدارية في مكتب مارتن هيرتز معلنة الرابعة، ثم عاد الصمت من جديد.
تأمل القاضي العجوز عقب سيجاره المطفأ منذ وقت طويل، ملتفتاً بين الحين والآخر نحو الكأس الزنبقي الشكل والذي ملأه بالكونياك مرات عديدة خلال كتابته النص.

أغمض عينيه برهة، شأن سلحفاة ضخمة تبدو وكأنها على وشك أن تغفو، وسرعان ما يعود ويفتح جفنيه مجدداً وهما يشعّان ببريق مازح في نظرته، ثم فكّر مستخلصاً:

ـ هكذا يكون البابا قد حصل على واحدة من الأحجار المؤلفة لقاعدة السرّ.

ـ لطالما أدهشتني مواهبك الخطابية في المحفل، مارتن. لكنك هذه الليلة تفوقت على نفسك! بأي أعجوبة علمت بهذه الحادثة التاريخية التي لا توجد بأي كتاب؟

حاول هيرتز النهوض لكن الأمر صعُب عليه. من الضروري أن يستند على مقعد يشدّ مؤخرته الضخمة إلى الأعلى محاولاً الوصول إلى التوازن المناسب الذي تلاشى لابتلاعه جرعة كبيرة من الكونياك.

ـ أتظن أن هذا النص لا يعتمد على قاعدة ثابتة؟ كان باستطاعتي تخيله من خلال المخطوط! ألا توافقون أن آنيان ونيكولاس دي بادو عاشا حقاً؟

قبل موزيل بذلك:

ـ أنا مستعد لأن أصدق أن هذه المغامرة قد حصلت فعلاً، وأنا حاضر لتقبلها. لكن أنت، أنت يا أخي كيف علمت بها؟

رفع هيرتز كتفيه متنهداً وقال:

ـ يا لك من فضولي اكتفيت الآن بقطعة العظم هذه من المعلومات... ربما تساعدك في بحثك. من المحتمل أن فرنسيس لا يزال حياً يرزق...

ـ لا داعي للكذب! فرنسيس قد قتل، نحن متأكدون من ذلك، أنت وأنا مشيراً إلى موزيل وهو يشعل سيجارة وينظر بإمعان وانزعاج إلى المنفضة المليئة بأعقاب السجائر.

دخل الرجل البدين بخطى وئيدة إلى مكتبه، ثم فتح درج الطاولة وقال:

ـ لقد قرأت هذه المخطوطة أكثر من ألف مرة، واستنتجت أنها لا تشكل الدليل الذي تبحثون عنه لكنها واحدة من الأدلّة! لقد كرست أنت وفرنسيس النظريات الوهمية وعلمت ما اكتشفه مارلان. أنتم أيضاً تعلمون بطبيعة الحال.

هل ترغبون بالاحتفاظ بوصية المجنون؟

نهض موزيل قائلاً:

ـ أتهديني إياها أتريد التخلص منها؟

ابتسم هيرتز، فتش في درج مكتبه، أخرج منه ملفاً ضخماً سميكاً وقال:

ـ كلا ليس الأصلي، حرصت أن أصنع منه نسخة مشابهة. سيخولك دون شك اكتشاف بعض الألغاز التي عجزت عن توضيحها. ستسهل مهمتك بسبب الملاحظات والترجمات التي كتبتها على الهوامش. ستلاحظ أن فرسان الهيكل قد استعانوا منه ببعض الكلمات.

ـ شكراً، مارتن، أنا أشكرك من كل قلبي! قالها الشاب بحماس وهو يأخذ الملف من أخيه الأكبر.

همس هيرتز:

إني طاعن في السن وبدين وغير قادر على عمل ما يقوم به فرنسيس يمكنك أن تقوم أنت بذلك! ولكن كن على حذر؛ فإنه غالباً ما لجأ إلى القتل... وسيقتل مجدداً في سبيل الحفاظ على السر.

ـ يمكن للحقيقة أن تربكه!

ثم وضع هيرتز يده على كتف صديقه مبرزاً ابتسامته العريضة ليبدو مضحكاً في مبذله البوذي الغريب؛ لكنه ليس سوى رجل وقور.

ـ اختفت ابتسامته فجأة لتتحول إلى تعبير عن حزن ممزوج بتعب كبير. بدا وكأن حجابا أغلق عينيه

ـ ثم عاود الكلام، كأنه يكلّم نفسه: الحقيقة... يجب أن نعثر على القبر لاكتشافها. أجل القبر... كم من الرجال والنساء قضوا وهم يحاولون اكتشافه؟

والآن دور فرنسيس مارلان...

دفع هيرتز موزال بلطافة الأب لابنه وأخرجه من الغرفة المليئة برائحة دخان السجائر ممسكاً به من عنقه. كانت يده دافئة رطبة، وكان ضغط أصابعه على عنقه يبعث على الاطمئنان، أصبح الرجلان في الرواق. ظهر ظلٌ خفيف على عتبة الدرج.

ـ مارتن؟

ـ التفت هيرتز وموزيل نحو الظل الضعيف القابل للتحطيم بمجرد نفخة خفيفة. سارا خطوتين ودخلا في النور. قميص نوم وردي شاحب تنتعل خفّين رماديين، وتبدو كعصفور ذي فم صغير: عجوز تعبة متجعدة الوجه، لم يبق من شبابها وجمالها سوى تلك العينين الجميلتين الواسعتين والغائرتين. إنها زوجة مارتن هيرتز النقيض الكامل لزوجها المزعج والراعد.

ليًا! قلت لكِ أنكِ قد تتعثرين بالتجوال هكذا في العتمة! صرخ القاضي العجوز بعنف وجهد.

ـ استيقظت ولم أجدك.. لكن هذا ديدييه! أية مكيدة تدبران في الليل؟

اقترب موزيل ليصافح ليا مبتسماً ومظهراً تجاعيد وجهه.

ـ قال ميوزيل: ليا هذه خطيئتي، جئت استشير مارتن بأمر يحيرني. لقد تفضل زوجك باستقبالي بصفته محامياً.. إنها مشكلة بند دقيق يتعلق بحقوق التأليف، كنت على وشك المغادرة. أنا اعتذر على إيقاظكم.

نعم، نعم، تمتمت ليا بنبرة تدل على عدم أخذها على محمل الجدّ، أي كلمة فما قيل لها.

نصحها هرتز:

عودي إلى الفراش وحاولي النوم من جديد، خذي دواء.

ـ الأدوية! تعلفونني بالأدوية، أدوية للنوم، أدوية للنهوض، أدوية للشهية... أليس هناك أدوية لاستعادة الشباب؟ صاحت ليا.

رافق هيرتز موزيل حتى بداية الحديقة.

ـ لا تنس أن تتوخى الحذر، ديدييه، أراك في الجلسة القادمة، أليس كذلك؟

ـ نعم، الأسبوع القادم. يوم الخميس. شكراً مجدّداً مارتن.

عاد ديدييه موزيل إلى سيارته بعد أن تحقق من توقف هطول المطر؛ ولأن التعب قد أنهكه رمى بنفسه على المقعد الأمامي. شعر بحرقة تؤلمه في بلعومه ومذاق التبغ المتبقي على لسانه، في أنفه. «أكثرت التدخين مرة أخرى».

أجرى اتصالاً ثم انطلق دون الانتباه إلى الشاحنة البيضاء الصغيرة المطفأة الأنوار والمركونة بعيداً.

من جهته دخل مارتن هيرتز، أمام دهشة زوجته، من جديد إلى مكتبه.

ـ ألن تخلد إلى النوم؟ ستستيقظ صباحاً بمزاج كريه كما كل يوم.

قال متذمراً:

ـ سألحق بك، لدي بعض الأعمال.. سوف لن أتأخر، أعدك!

أغلق هيرتز باب المكتب، وتوجه نحو الهاتف الثابت. دقّ رقماً وانتظر بضع ثوان، حاملاً السماعة على أذنه صدر صوت من الطرف الآخر للخط:

ـ ألو: قال هيرتز بصوت منخفض، أعرف عن نفسي: أصل ـ شرق؛ أعتذر عن الاتصال في هذا الوقت المتأخر، لكن من الضروري أن أكلمك من جديد عن... موزيل، ديدييه موزيل... نعم صديق فرنسيس مارلان.

16

بيت لحم تشع

دخل موزيل ديدييه إلى مكتبه في الساعة الثامنة والنصف، كان «نوربرت سوفير» منكباً على نسخ بعض أوراق حاسوبه. استلقى موزيل على فراشة ثلاث ساعات من فرط التعب، رغم احتسائه أكواباً مركزة من القهوة لإبعاد شبح النوم، والكم الكبير من السجائر التي أحالت طعم القهوة إلى مرارة العلقم. ورغم ذلك لم تتمكن القهوة المركزة التي تناولها من إزالة المذاق الشديد للسجائر التي دخنها بلا انقطاع وهو يصغي إلى مارتن هيرتز الذي يروي له أصول آخر وصية للمجنون.

كانت أكداس الكتب والمعاجم والموسوعات وصور اللفائف السابقة في لـ 456Q4 ـ 458 مبعثرة داخل المكتب.

سأل موزيل نوربرت! ألا يمكنك الاستغناء عن لارجهيد؟ في الورشة هذا الصباح؟

ـ عمت صباحاً ديدييه... ثمة ما كان يزعجني ليلة البارحة.. لقد انتهيت منه للتو.

أثار اهتمام موزيل إحدى الأوراق، قذفتها الطابعة في الهواء... فأسرع والتقطها..

ـ ما هذا؟ من أين أتى هذا؟

ـ لقد نجحنا، أنا ولارجهيد في ترجمة القطعة A530 حتى A698. لقد ملأت الجهاز إلى نهايته يوم أمس، والآن تخرج لي ثانية كل ما تبقى من ترجمة للقطعة A538.

قرأها موزيل: **قم بزيارة إلى داخل الأرض، وبالتصحيح، ستجد الأخ السرّي...**

ـ بعد ذلك؟ سأل المترجم العجوز، ما رأيك بهذا؟ ذلك ما يفكر فيه.. لم يرد موزيل. كرر قراءة الجملة عدة مرات. لم يقدر على التفكير بها بمقارنتها بالحكم الماسونية (المبدأ الأساسي):

قم بزيارة لباطن الأرض، وبالتفتيش ستعثر على الحجر السري. الحجر وليس الأخ!

هذا هو الفرق الوحيد والفريد بين الجملتين. لكن جملة القطعة A538 كتبها الأسينيون، منذ ألفي عام!

اندفع روغترز كالإعصار إلى المكتب، وما كاد ينجح في التخلّص من ممطره المبلل حتى انصرف إلى كومة الأوراق التي يتابع لارجهيد طبعها بعصبية ثم أخذ بيديه المبللتين بعض الأوراق وتفحصها بسرعة.

ـ يا للطقس الرديء! عندما أفكر أن فرنسيس يتمتع بشمس القدس الدافئة! على فكرة متى سيعود من المدرسة التوراتية، ديدييه؟

أكدَّ موزيل كلامه: قريباً... نعم، قريباً، دون شك.

ـ في جميع الأحوال، موزيل بخيل بالمعلومات، لا مكالمة هاتفية منذ أسبوع، لاحظ صوفير الذي صب لنفسه كوباً من الشاي ولم يلحظ أن موزيل قد شحب لونه فجأة.

ـ حسناً... نوربرت، ما الأمر؟ قال روغترز وهو يشير إلى مئات الأوراق.

أجاب سوفير:

ـ أنظر... إنها ليست مزامير، إنها بالأحرى صلوات موجهة إلى الله. لا... لا، ليست صلوات: أردت أن أقول إنها أسئلة.

أعاد روغترز سؤاله:

ـ مزامير أو صلوات..

ـ إنه يشبه إنجيل القديس يوحنا، سِفر الرؤيا... تابع المترجم العجوز. تختلف النصوص من جرّاء أن مؤلفها ينادي الله شخصياً!

«هيلين موستييه» التي أغلقت الباب خلفها للتو، انضمت فوراً إلى الفريق الذكري. وضعت معطفها الرمادي على ملف «شيسترفيلد»، غير مبالية بأن يبلل ذلك خمسة أو ستة قواميس كانت ملقاة على الوسادة.

سألت:

ـ مثير للاهتمام؟ أيمكنني رؤية ذلك؟

أجاب موزيل:

إذا كانت لكِ في ذلك رغبة، فمن العسير عليّ أن أتقبل، في الصباح، القاعدة الصارمة للآسينيين.

ـ لم تنم جيداً أليس كذلك؟ تأكدت هيلين من ذلك عندما لاحظت شحوب مديرها، وتقعُّر خديه، والسواد المحيط بعينيه.

تابع سوفير، متحمساً، وعلا صوته تدريجاً وهو يقول:

ـ أنظروا.. هذا المقطع مدهش. إنه يحوي عتاباً موجهاً إلى الله. حكيم خبير في قمران يؤنب العالي السامي!

اسمعوا ما هو غير مألوف: **«مولاي، لماذا لم تُرد أن يقال لهم؟ مولاي: لماذا كذبت على اللاويين والكهنة؟ مولاي: قل لنا، لماذا الأخ لم يكن الأخ الحقيقي؟ لماذا لم يكن النبي؟ لماذا أخونا الذي ‹أعطاهم الأسماء› لم يكن المسيح؟»**.

أمسكت هيلين الورقة من يدي سوفير، وبدا أنها تتهيّأ لتقول شيئاً ما عندما رنّ جرس الهاتف.

ـ عفواً: إنه هاتفي المحمول، أخرج موزيل هاتفه من جيبه وألصقه على أذنه بعيداً عدة خطوات عن مساعديه.

صوت أنثوي في الجهاز، إيميلي!

ـ ديديه.. ديدييه، يجب أن ألقاك بسرعة. عدت لتوي من التزلج على الجليد وكان ضمن البريد، بطاقة من فرنسيس.. تفيد بتعرّضه للمصاعب.

ـ هل أنت متأكدة بأن البطاقة منه؟ وهل تحمل خطه؟ أنا.. سأصل على الفور.

ـ أنا انتظرك.. أرجوك تعال بسرعة، أنا خائفة.

ـ كرَّر موزيل: سأصل. وأغلق هاتفه المحمول بينما كان جسده يرتجف بشدة.

ـ تساءل روغرز: ماذا دهاك، أيها العجوز لو تنظر إلى وجهك!

غمغم موزيل:

ـ آسف، إنها زوجة فرنسيس، عليَّ الذهاب إليها. سأشرح لكم لاحقاً، وفيما هو متجه نحو الباب تجنب قلب هرم من الكتب كان يسدّ طريقه.

سأل سوفير:

ـ هما مفترقان... هل سيطلقان، كلا؟

غير أن موزيل كان قد سبقه إلى البهو وأسرع نحو أحد المصاعد. «بطاقة من فرنسيس، ماذا جاء فيها لتثير الرعب لدى إيميلي إلى هذه الدرجة؟ ولماذا يكتب إليها؟ متى؟ يا إلهي، متى وضع الرسالة في البريد؟».

* * *

استغرق موزيل ثلاثة أرباع الساعة ليعبر باريس بعد خروجه من الشارع الرئيسي المزدحم بالسيارات. ثلاثة أرباع الساعة مضت وهو يكرر الجملة المترجمة من سوفير ولارجهيد: « **قم بزيارة باطن الأرض وبالتصحيح ستجد الأخ السري أو الحجر السري**». كان يصب اللعنات لضعف إرادته بالتوقف عن التدخين. سؤال جال في خاطره ألف مرة عن السبب الذي جعل فرنسيس يكتب إلى زوجته. فرنسيس ميت بالتأكيد. منذ أن خانه صديقه قبل عام... مع إيميلي.. إيميلي الجميلة.. المؤثرة بملامحها التي تشبه ملامح فتاة صغيرة تائهة، وشعرها الأسمر القصير، وعيناها كحبتي بندق تلومتان إلى آخر المدى.

24 شارع ريفاي، لوفاللوا ـ بيري. ضغط على الانترفون. «أدفع الباب» صوت إيميلي متوترة.

تجاوز الباب الأول للبهو، الذي قطعه بخطوتين.

دفع الثاني، قاصداً الدرج الذي يوصله إلى الطابق الأول، كانت إيميلي واقفة عند عتبة باب شقتها فارتمت في أحضانه، عانقها بعفة، ثم أغلق الباب وراءه.

حقائب، محفظة سفر وزلاجتان في وقائهما المركون على جدار المدخل. رسائل فُتحت لتوها على الإسكملة (طاولة صغيرة). فواتير، بطاقات بريدية، بطاقات إعلانية.

تذكر موزيل: تشتمل الشقة على غرفة واسعة هي بمثابة غرفة طعام مع مطبخها الأميركي.

وصالون استقبال بالإضافة إلى غرفة ومكتب.

ـ تعرف أننا، فرنيسي وأنا، منفصلان منذ أكثر من أربعة أشهر، لكننا ما زلنا محتفظين بعلاقات صداقة!

أبعد موزيل الذكرى التي تقضُّ مضجعه وتثقل ضميره، وقال بطريقة عفوية:

ـ لم آخذ بفكرة الطلاق بينكما على محمل الجدّ، أبداً.

ـ هل تريد قهوة؟

ـ بكل سرور... حقاً أنا بشوق لاحتسائها... لم يغمض لي جفن طوال هذه الليلة.

ـ دون سكّر... كالعادة؛

تذكرت تفصيلاً لا دلالة له... تماماً كمثيلاته...

ـ دون سكر. لقد ذكرت لي أنك استلمت بطاقة بريديَّة.

أعطته إيميلي البطاقة... لم يتوقف ديديه موزيل طويلاً على منظر القدس. تأمّل البطاقة، تأكد من الختم الطامس وتحقق أنها مرسلة منذ عشرة أيام... أي أن فرنسيس كان ما يزال في القدس حتى ذلك التاريخ... ثم قرأ ثلاث عبارات ملغّزة

Bethleém Rayonne! unanimes les ébouissements tangibles ordonnent un tout dernier élan! mais on idéalise!

وترجمتها:

«بيت لحم تُشع ! بالاجماع، الإبتهالات الحقيقية تتطلب اندفاعاً أخيراً! غير أنه يصار إلى التأمثُل»

ـ حضرت إيميلي القهوة خلف طاولة المطبخ الأميركي... وعندما نظرت إلى ديديه، قرأت على وجهه تعبيراً ارتيابياً فيما كان يقرأ الجمل الثلاث بصوت مرتفع:

ـ ماذا دهاه؟. هتف ديديه متعجباً، هل من عادته أن يكتب لك دائماً قصائد مبهمة من هذا النوع؟

أشعلت المرأة الشابة النار تحت إبريق القهوة، وانطلقت مفسّرةً:

عندما كنا يافعَيْن، تعرفت بفرنسيس وأنا في سن الخامسة عشر... عندما بدأنا نعاشر بعضنا، أخذنا نستخدم شيفرة لتبادل كلمات الحب المخفية في جمل بريئة. وكان أهلنا يقرؤوها دون أن يلاحظوا الخداع... هذا ما كان.

ـ وضع موزيل سبابته على الأحرف الأولى من كل كلمة. أخذ حرف الـB من Bethleem، وحرف الـR من Rayonne، ثم حرف الـU يا إلهي! هذا «سيعطي»: (Brûle Tout de Moi) أي إحرقي كل شيء مني». انضمت إليه إيميلي ، وجلست إلى جانبه على مقعد سكري اللون. قريباً جداً منه لدرجة الالتصاق به، ثم تساءلت:

ـ ماذا يعني هذا؟ ممَ يخاف؟ لماذا هذا الأمر؟

واحدة من ألعابكم القديمة المشابهة لألعاب الكشافة؟ شيفرة ماسونية؟ ما معنى: أحرقي كل شيء! أتلفي كل شيء يخصه. إنه يعيش في الفندق كما تعرف عند واحد من إخوتك، لكنه ترك معظم وثائقه وحاسوبه في مكتبه هنا.

ـ أرني أغراضه.

رافقت إيميلي موزيل إلى الغرفة الصغيرة التي حوّلها مارلان إلى مكتب في آخر الرواق. غرفة مغلقة مظلمة أشبه بخزانة جدارية. ما زالت تفوح منها بقايا رائحة العطر، رائحة منفضة السجائر الشقراء التي أشبعت الكتب، والدفاتر المكدسة على الرفوف، والتي غطت الجدران أيضاً.

انحنت المرأة الشابة لتلتقط ورقة بيضاء سقطت على السجادة. أعادتها إلى مكانها على كومة الأوراق قرب الطابعة المتصلة بالحاسوب. فكّر موزيل: لم يسبق لي أن دخلت إلى مكتب فرنسيس، أشارت إيميلي نحو الباب المغلق «كان يعمل هنا عندما لا يكون في المؤسسة، وأضافت أما موزيل فقد تخيّل صديقه منكباً على الكتب والبطاقات، متخيلاً كيف يجسّد فرضيته.

قالت إيميلي:

ـ سأذهب لأحضر القهوة، بإمكانك التصرف كما تشاء. جلس موزيل على الكرسي المخملي، وأدار الحاسوب. بعد وقت قصير من الانتظار أضاءت الشاشة. حضرت على شاشة الحاسوب جملة صمّمها المبرمجون بحضورها على الشاشة عند بدء كل جلسة عمل جديدة.

تعرّف موزيل إلى مزاح صديقه. لكنه لم يشعر بأي رغبة بالابتسام. ترك الجملة تمر من اليمين إلى اليسار: «**ليكن النور، فكان النور**»، ضغط موزيل على أزرار اللوح أخذ علماً بطريقة تصنيف دليل الملفات، وبدأ يستعرض المواد أمامه على الشاشة.

عادت إيميلي حاملة فنجاني القهوة ووضعتهما على المكتب.

ـ ماذا يجري، يا ديدييه؟ أشعر أنك تخفي شيئاً ما. ألا تعلم أنك أرسلت فرنسيس في مهمة إلى القدس وإلى روما؟ قال لي: إنه سيمضي فيهما بعض الوقت للتسلية والتنزه.

ـ سأشرح لك... لا أريد أن أسبب لك القلق دون سبب. صبراً..

حمل موزيل فنجانه إلى شفتيه، ورشف جرعة صغيرة من القهوة الساخنة، مُرَّة ومقززة كما يحبها. «التفاصيل لا يمكن نسيانها. لقد أمضينا الأمسية في شرب القهوة والتدخين قبل أن...». لكنه تخلى عن حلمه، مركزاً اهتمامه على الشاشة.

ـ قبل السفر، أجرى اتصالاً هاتفياً غريباً. قال لي أنه على وشك أن يتبع أثراً وأن ذلك سيحدث ضجة!؟ سألت إيميلي: عما يتكلم؟

ـ تأخذين هذا نوع من الهزل. قصة انقلاب عظيم عبر القرون.

انحنت إيميلي فوق موزيل. وبصورة آلية وضعت يدها على كتفه، ونظرت إلى البطاقة التي خرجت لتوها: (M.M.M, Eliah, J.B, Compata, Historique, Biblio, Internet)

- لماذا تضرب على الملف M.M.M؟ ماذا يعني هذا ؟

- أجاب موزيل وهو يعرض أمامه أعمدة الكلمات: Manuscrits de la Mer Morte (مخطوطات البحر الميت).

سألت إيميلي:

- هل حصلت على ما تريد؟

- هم Sauvire..Pannus14... وهنا

Triangle de payns. les chêneen son temple... la lionne en lumiére... lac loge aux chévres...bailly2...parfait élevé par t:1247

- سأقوم بطبع هذه الوثيقة Panus كلمة لاتينية تعني شرشف أو غطاء سرير. أتصور أن هذه المتتاليات من الكلمات والأسماء، والأرقام والأحرف تشير إلى كتابات مثل الأناجيل، والتوراة. كان فرنسيس يملك ذاكرة غريبة القدرة على تسجيل أعداد خيالية من المعلومات مستخدماً طرقاً شخصية في إحضار ما يريد من ذاكرته. أما بالنسبة إلى هوج دو بايان؟ مؤسس منظمة سدنة الهيكل التي كلّمني عنها في رسالته الأخيرة عندما كان في منطقة ترويس (مدينة على 158 كم جنوب شرق باريس).

أعاد موزيل نظره إلى الشاشة ليقرأ بالنظر ما على الرفوف التي تغطي جدران الغرفة الصغيرة.

- لا أرى دفاتره الحمراء الفاخرة. التي كتب فيها جميع ملاحظاته. وهي المرشد الوحيد التي ستوضح كل شيء.

- حسب اعتقادي أنه حملها معه إلى فندق لومارلي. أطفأ موزيل الحاسوب، ثم طوى الورقة التي أخرجها من الطابعة. ووضعها في جيبه وأمسك إيميلي من معصمها قائلاً:

- رافقيني. دون دفاتره فإننا نخاف من التردد في العمل لساعات دون نتيجة. أعرف جيداً مارك لورو مدير فندق مارلي، فسيسمح لنا بالدخول إلى غرفة فرنسيس.

لَبِسَت إيميلي معطفها الشفاف فوق كنزة وبنطلون الجنز، ولبست قبعة صفراء صغيرة على رأسها.

بدا موزيل مستاءً من الطقس، أدخل رأسه بين كتفيه وأرغم المرأة الشابة على السير بخطى واسعة وسريعة للوصول إلى السيارة.

17

فندق لو مارلي

مدير الفندق أخ من محفل إيليا. إنه من الدرجة المتوسطة، لكن صاحبه مارك لورو، يشعر دائماً بالفخر عندما يحافظ على طابع عراقته، مقتنعاً أن السياح الأميركيين سيقدرون هذا الطابع.

استقر فرنسيس مارلان منذ أن افترق عن زوجته، في الطابق الثاني، حيث أقام مركز عمله، في غرفة واسعة جداً.

استقبل لورو إيميلي وديدييه بالحرارة التي تميز بها. دون أن يثير نظرة فضولية لوجودهما سوية. لكن عينه كانت تتحرك بفضولية لا مثيل لها.

ـ مرحباً مارك. أقدم لك إيميلي، زوجة فرنسيس أظن أنكما لا تعرفان بعضكما.

ـ لقد تقابلنا مرة واحدة خلال وليمة في دير القديس يوحنا. لم يأت فرنسيس. عليك أن تعرف ذلك ديدييه.

ـ نعم، لقد اتصل بي هاتفياً، متمنياً عليّ الحضور إلى غرفته واسترجاع ملف، فكرت إيميلي بأخذ غرضين أو ثلاثة. أعطنا المفتاح.

ـ آه؟ حسناً... لقد احتفظ بمفتاحه، لكن لدي نسخة ثانية، عندما سيعلمني عن عودته.

نظر إليهما لورو مرتبكاً وهما يدخلان المصعد، فقد خاب ظنه لأنه لم يتمكن من إطالة الحوار معهما. وأمل نفسه بتدبير الأمر عند نزولهم. اندفع بهم المصعد.

ـ غرفة 21!

قالت إيميلي فيما كان المصعد يرتفع:

ـ أنت كذّاب، يا ديدييه! أن تمرّغ أخاً في الطين كما فعلت فهذا تصرف سيء!

ـ لا شيء يعادل ظرافة لورو إلاّ فضوله: فهو ملك الثرثرة!

وصلا الطابق الثاني. خرج موزيل وإيميلي من المصعد، وسلكا ممراً ضيقاً مفروشاً بالأوراق المنقطة بالأزهار البيضاء، والمزخرف برواق من الرسوم المائية التافهة الممثلة للأبنية الأثرية في باريس.

الغرفة 21. أدخل موزيل المفتاح في القِفْل، وأداره مرة واحدة، فتح الباب على إثرها، ووقف جانباً ليسمح لإيميلي بالدخول.

ملأ صياح المرأة الشابة غرف الفندق، صياح طويل حاد، ومن شدة ذعرها، انهارت على الأرض تئن بصوت مخنوق، مجهشة بالبكاء.

هرع موزيل إلى داخل الغرفة بينما إيميلي تمسك بإطار الباب شاحبة، وأطرافها ترتجف.

اشتم موزيل رائحة مقرفة مقززة، رائحة جسد بدأ يتفسخ ويتفكك.

فرنسيس مورلان ممدَّد على سريره، جسمه عار، هزيل، وقد تحولت جثته المتجمدة من كائن ذي لحم وجسد إلى تمثال من الرخام.

- وجنتان غائرتان، شفتاه مشدودتان على أسنانه وهو يبتسم بتكشيرة ساخرة.

- أسراب من الذباب تطنّ حول الميت.

صاح موزيل وهو يقترب من السرير:

- هذا مستحيل.

كل شيء بدا له كصورة فوتوغرافية ظهرت فجأة. ذراع فرنسيس مارلان الأيمن تدلى خارج السرير. يده مفتوحة. الكأس التي كان يحتسي منها سقطت على الموكيت. أنبوب فارغ من عقار الباربيتال على الطاولة بجانب السرير. أقراص منوّمة، لم يبق منها سوى قرصاً واحداً. ملابس مارلان نظيفة مطوية ومرتبة على الكرسي. هذا إفراط. كل شيء مخرج بشكل يفوق الوصف. نعم، هذا هو: إنه مُخرج!

خطت إيميلي خطوتين في الغرفة، وقد غطت بيدها أنفها وفمها. من هذه الرائحة المنفِّرة والكريهة.

- لقد... لقد انتحر.. هذه خطيئتي! كان منهاراً عصبياً، منذ انفصاله عني و....

- أرجوكِ، إيميلي، أخرجي من هنا! من غير المفيد أن تنظري إليه في هذه الحالة.

غادرت إيميلي الغرفة وجلست على الكرسي، تبكي بهدوء وشهيق خفيف. وفجأة ظهر مارك لورو وهو يتصبب عرقاً، لقد صعد الطابقين سيراً على الأقدام، كاد نفسه ينقطع، ووجنتاه حمراوان.

- سمعتُ صراخاً، ألستِ أنتِ؟ ماذا يجري؟

- أشارت إيميلي: هناك في الغرفة.

ركض لورو نحو الغرفة.

- تباً! فرنسيس! متى عاد؟ لم أره.

- لقد قلت لي إنه احتفظ بمفتاحه؟

ـ نعم، لكن كان عليه أن يتصل بي عشية عودته...

ـ هل ابتلع كل هذه الأشياء؟

ـ هذا ما سيكشفه تشريح الجثة. أخبر الشرطة فوراً يا مارك.

ـ معك حق.. الشرطة، طبعاً.. آه، تباً!

غادر لورو الغرفة، ماراً أمام إيميلي، توقف عدّة ثوانٍ متسائلاً عمّا سيقوله لها، وعندما لم يجد شيئاً، تابع طريقه وهو يبصق، ويقسم.

لحق موزيل إيميلي إلى عتبة الباب. فارتمت المرأة الشابة بين ذراعيه وهي تجهش بالبكاء، ضمها بحرارة إلى صدره وقالت:

ـ كم كان بائساً وتعيساً ليفعل هذا! عمل يؤسف له، كان عليه ألا يكلمني عبر الهاتف و..

ـ اصمتي! لستِ في شيء مما حصل. لست في شيء مما حصل، لست في شيء. صدقيني.

18

رجل الفاتيكان

جلس الرجل منتصباً في الناحية الأخرى من مكتب سيدنا غيليو. تأمل يدي الأسقف الضخمتين والنظيفتين والناعمتين، واللتين ترتفعان في الهواء بهدوء، بحركة جميلة، راسمة بعض الحركات في الفضاء. ثم تنخفضان للحظات طويلة على راحتيهما، كأنهما مشلولتان.

انتظر الرجل، بينما الكاردينال صامت وكأنه يفكر.

ـ أعتقدُ أن البروفسور موزيل سيسبب لنا المشاكل كالتي سببها مارلان من قبل.

ـ نحن نتابع كل وقائعه وتحركاته يا سيدنا. فهو محط مراقبة وتقفي أثر دائمين.

ـ لكن عملاءكم في فرنسا تصرفوا بصورة فظّة بمحاولتهم اغتياله. كنت أظن أن حراس الدم هم أكثر فاعلية في هذا النوع من العمليات، وأكثر براعة أيضاً!

ـ من أجل هذا سأطير إلى باريس صباح الغد، يا سيدنا. سأشرف شخصياً على كل عمل مستقبلاً.

اليدان توقفتا عن الحركة، حتى ولا ارتجاف بسيط. بالمقابل فإن الكاردينال مسمّر في الغرفة شبه المظلمة... وكأن لا شيء ينبض فيه سوى صوته الرزين، الموسيقي. تابع يقول:

ـ لم نجد ما كنا نبحث عنه قرب فرنسيس مارلان. دفاتره الحمراء الصغيرة اختفت. ونحن نعرف من طريق عملائنا علاقته بموزيل، وبأنه لم يخبر هذا الأخير عن مكان القبر.

ـ بالعكس. فقد حاول إقناع صديقه بإعادة التحقيق من جديد. اكتشفنا ذلك ونحن نتجسس على العمارة التي يسكنها المحامي المتقاعد، مارتن هيرتز.

ـ أعرف.

فجأة سرت الحركة بيديه، فور الكلام عن مارتن هيرتز.

عقّب الكردينال: لقد عرفنا أن مارتن هيرتز يملك النسخة الثانية من وصية المجنون، يجب التحرك والعمل انطلاقاً من هذه المعلومة. قريباً... يجب إرخاء الخيط جيداً لكي يأتي

السمك إلى حافة النهر. كل همومنا الحديثة تأتي من ملفات البحر الميت، هذه الـ 456QA ـ 458 اللعينة التي أيقظت فضول مارلان!

نهض الكاردينال، رافعاً قامته العملاقة. عندها أدرك الرجل، أن الحديث أُقفل. فنهض بدوره.

ـ يجب علي مقابلة البابا يوحنا. أجابه غيلليو، حالته الصحية هشّة جداً، في هذه الفترة.

ـ ليحمه الله!

ابتسم غيلليو ابتسامة صغيرة سريعة.

ـ آه، الله؟ كنت سأراهن بطيبة خاطر على الطب.

19

دموع البابا

في هذا المساء. استلقى العجوز في سريره، مستنداً بين وسادتين بدا كأنه نائم بينما هو مازال صاحياً. لم يبق منه سوى بشرة آدمية، جافة، مُجَرَّعة، فأقل حركة، أو تنفس يسببان له الألم. اختصاره في الكلام والحركة يبعدانه ثانية واحدة عن الموت الذي يقضُّ مضجعه. بدأت معركته القاسية أكثر من عام، بإشراف طبيبه الخاص وفريق من الأخصائيين، والراهبات الممرضات والرهبان الشباب المخلصين.

عصا البابا يوحنا الرابع والعشرين XXIV على الموت. كان يخاف القيام بهذه الرحلة نحو المجهول، العدم، قبل أن ينجز عملاً خاصاً به. بقي متمسكاً بسريره المبلل، هذا الحطام الرطب.

أبقى البابا عينيه مغمضتين، ولكنه كان على معرفة بمن يدخل الغرفة.

إنه يحصي خطواته الثابتة على البساط السميك. العدد ذاته دائماً على السجادة السميكة فترة من الصمت، ثم صوت الكرسي الثقيل لحظة تحريكه، وكتلة المونسنيور غيلليو التي تهوي، بجانب السرير على الخشب. فترة سكوت أخرى، ثم صمت خلال فترة أطول.

يقول البابا لنفسه:

ـ سيسعل الآن موهماً أنه يريد إيقاظي، فهو يعرف أنني لا أنام مثل كل مساء!

خلال السعال القصير. يفتح العجوز عينيه ودون أن يلتفت برأسه ـ وينطق الجملة المعتادة:

ـ هذا أنت غيلليو.

هذا ليس سؤال أو تحقق من وجود. بل مقدمة لأغنيته اليومية.

ـ هذا أنا. يا صاحب القداسة.

يتنهد البابا يوحنا طويلاً دلالة التعب. هذه المرة، يحني رأسه كعادته لينظر إلى محدّثه، يبقى غيلليو في الظل، لا يتحرك، واقفاً بقامته الرياضية تاركاً يديه ممدودتان على فخذيه.

ـ لقد اكُتشف، يا صاحب القداسة.

ـ هذا ما كنت تتمناه، طبعاً؟ سأل البابا بصوت منخفض.

ـ نعم، كان على أهبة الطلاق، يعيش منفصلاً عن زوجته. إنهما أصدقاء ديدييه موزيل

الذي كلمتك عنه.. واللذان وجداه في غرفته في الفندق، عارياً. لقد أكد التحقيق المعتاد أنه انتحر بعد أن تناول جرعة كبيرة جداً من الباربيتويك (مادة منومة).

ـ لماذا أراد فرنسيس مارلان، أن يعرف؟

هزَّ غيلليو كتفه وتابع مسار أفكاره.

ـ لقد أضعناه وهو في سبيله لتحديد مكان القبر. لم يعثر عليه الحرس إلا في ريمس صدفة. كان يسلم السيارة التي استأجرها إلى وكالة المحطة. هناك نشأ وتربىّ....

أغلق البابا يوحنا عينيه وراح لبضع ثوان في تأمل عميق.

لاحظ المونسنيور غيلليو حركات خفيفة لشفتي الحبر الأعظم قائلاً:

ـ حدثني عن موزيل.

ـ وضعناه تحت المراقبة. فقد تأكدنا أن مارلان اتصل به عدّة مرات. بالمقابل مازلنا نجهل مدى تقدم أبحاثه.

ـ ليكن قدره أقل قساوة من قدر صديقه ويتخلى عن أبحاثه قبل أن يكملها! هذا سيجنب حراس الدم التدخل من جديد. أفضل هذا الحل. أنت ألا تفترضه أيضاً، غيلليو؟

ـ تقرير موت رجل ليس تمريناً محبباً، لقداستك. مع ذلك، يجب أن لا نُخفي أن هذه المغامرة لم تنته. ذهب موزيل إلى منزل مارتن هيرتز، حيث تحدثا عن القضية.

ـ نفخ العجوز وهو يقوم بإشارة بيده كما لو أنه يفعل لإبعاد شيء ما في الظلمة ويقول: هؤلاء الماسونيون!

تابع الأسقف غيلليو:

ـ ليس محفل إيلياه من يخلق لنا المشاكل. إنه محفل أزرق يعمل على الطقس الاسكتلندي القديم والمقبول بطريقة تقليدية. يجمع إخوته في أول وثالث خميس من كل شهر ليفتح رمزياً ثلاثة مستويات للماسونية: درجات المبتدئين، الرفيق، والمعلم كلانا يعرف أن مارتن هيرتز ينتمي في الواقع إلى محفل آخر. هذا ما يجب أن نخشاه. الإخوة الإثنا عشر الذين يؤلفونه يعرفون بوجود حراس الدم. هؤلاء هم أعداؤنا!

ـ منذ زمن طويل! قال البابا.

ـ بالحقيقة، إنها حرب قديمة، لم يمحُ الزمن أوارها الذي نقوده بعضنا ضد البعض الآخر.

ـ لماذا لم نتمكن أبداً من التسلل إلى محفل مارتن هيرتز؟ بينما نجح أعداؤنا التدخل في كل تنقلات السلطة الرهبانية التي تغطي العالم. هذه الحفنة من الأشخاص فقط تمكنت من رقابنا!

دبت الحياة في الحبر الأعظم، جلس بصعوبة وسط وسائده. وهرع المونسنيور غيلليو إلى مساعدته على الجلوس في راحة تامة.

عادت الساعة الجدارية لتدق الساعة التاسعة بضربات تصم الآذان.

ـ أمسك البابا يوحنا بذراع أمين سره بيد لم يبق منها سوى الهيكل والتي تشبه القائمة الخلفية لعصفور صغير.

ـ شرع بالقول: صديقي، سأموت قريباً. يخلفني هذا الكاردينال الذي تتكلم عنه كل الإدارة البابوية، مونتسبا! فهو ينتظرني لآخر نبضة قلب ليعتمر تاج البابوية. هذا مقرّر مسبقاً. يجب أن لا تخدعنا نتائج التصويت، إنها السياسة! هذه الغرغرينا التي تفرز سمها في شرايين مؤسستنا! تريد السياسة أن يصبح مونتسبا سيد الكنيسة وإنها تتحرك بطريقة مدهشة، مع أنني لم أكن غائباً مُنَوّماً بفعل حساء المساء السميك! هل يجب أن تكون الأيام القليلة الباقية من حياتي نافعة لهؤلاء المتآمرين الدسّاسين!

ـ إنهم يتآمرون، قداستك! لقد دخلوا في حرب وتصدّت لهم بعض المقاومة. جميع الكرادلة ليسوا مع قضيتهم!

ـ قال غيللو: بقي معنا بعض الأصدقاء، إنهم قلائل...

ـ ما يكفي لحفظ السر ودفنه نهائياً حيث لا أحد سيتمكن من معرفته.

شدّ البابا يوحنا كثيراً على ذراع محادثه وقال:

ـ لا، لا.. ستظهر الحقيقة ذات يوم. لأن هذا السرّ: جثة قديمة ترفض التعفن في الأرض حيث دفنت. سيظهر مارلان آخر، موزيل آخر، هيرتز آخر.. سيظهر أحدهم، تدفعه فضوليته الزائدة إلى شمّ رائحة القصة كما يفعل كلب الصيد. المئات حاولوا في هذا المجال، الآلاف! حاربتهم الكنيسة. لقد حوّرنا الحقيقة، أقمنا المحارق، حشدنا الجيوش، سجنا، ذبحنا الأبرياء.. دائماً بحجج المحافظة على السرّ! مونتسبا هو من سيرث ذلك. هل يعرف أي خراج سأتركه له؟ الكنيسة جثة مرعبة منتنة تتقيأ دماً أسود.. هذا المخلوق المكروه مونتسبا يجب أن يتزوج هذه المخلوقة الكريهة، الشأنة التي لم تستطع البقاء على قيد الحياة إلا بالخيانة والمكر والقتل!

أرخى البابا يوحنا ذراع الأسقف غيلليو. بينما جسده الضعيف يرتجف وأسنانه تصطك.

ـ هل تريد قداستك قليلاً من الماء؟

ـ نعم.. أعطني الماء... الماء، بينما أنا أستحق الخل.

قال غيلليو بينما كان يقدم له الماء:

ـ الأفضل أن تخلد إلى النوم، إذا كنت راغباً في ذلك، سأحضر صباح الغد لتقديم العناية لك.

ـ لا تذهب يا صديقي، لدينا الكثير لنقوله.

شرب البابا الماء بجرعات صغيرة، وبصعوبة بالغة، ثم أعاد الكأس إلى غيلليو الذي وضعه على الطاولة الصغيرة قرب السرير. واستأنف البابا القول:

ـ لم تتكلم عن مؤسسة ماير:

ـ سأصل إليها. حسب مصادر معلوماتي، قام فريق من الباحثين بجمع وترميم قطع 456Q4 ـ 458. مارلان بمفرده تجاوز الحدود التي يجب عليه البقاء ضمنها. فالخطر يأتي من واقع أن مارلان وموزيل كانا مربوطين برباط الماسونية. لو لم يكن سوى مارلان لكانت المسألة قد انتهت...

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟ سأل الحبر الأعظم.

ـ لن أترك البروفسور موزيل يفلت من رقابتي آخذاً بالحسبان أنه سيفهم كيف تمت تصفية صديقه، وهذا سيمنعه من الانسياق في عمل يعرضه للمصير نفسه، وبهذا سيلتزم الصمت ولن يتحرك أبداً.

ـ فرضيات! قال البابا يوحنا. فرضيات كثيرة جداً. غيلليو! حسب اللوحة التي رسمتها لي عن ديدييه موزيل لا أعتقد أنه يختبئ في حجر فأرة. بالعكس فأنا أفكر أنه سيبذل قصارى جهده ليكشف ما الذي حصل لأخيه. ولا تنس هيرتز! لن يدخل المشهد علانية، فهو ليس من هذا النوع، إنه من طينة الإخوة من محفله المشهور لكنه سيرشد موزيل على الطريق إلينا.. حتى القبر!

لفظ البابا يوحنا آخر كلمة له ضمن تنهد عميق. بعد قليل من الوقت، تابع كلامه بصوت يخنقه التعب، لكن نبرات صوته توحي في بعض اللحظات بقوة السلطة والنفوذ.

قال غيللو: هيرتز وأتباعه هم ورثة الإخوانية القديمة جداً. تعرف هذا جيداً. لنسمهم بأسمائهم: الإخوة الأوائل. هكذا يُدّعَون أليس كذلك! عصابة من الثعالب! من المتآمرين! حتى أنه يمكنني التكهن بذلك، هذا ما قاله المحامي لموزيل. إنها ليست أكاذيب، طبعاً، وليست الحقيقة كاملة!

هذه الأسطورة الأزلية تطل برأسها الذي يشبه رأس الأفعى في كل قرن! لن نتوصل أبداً إلى خنق ودفن هذه الهرطقة اللعينة؟ فهل يجب علينا أن نمارس القتل أيضاً؟

ـ لن نقتل، يا قداسة الحبر الأعظم، ليس هذا هو التعبير الذي يجب أن تستعمله.

ـ نقتل! ليست أيدينا التي تفعل لكنها إرادتنا التي تأمر. حراس الدم ليسوا سوى أدوات. نحن نمارس القتل منذ أن أصبحت الكنيسة دولة شبيهة بكل دول العالم. سلطتنا مبنية على أكوام من الجثث.

تنهّد غيلليو وهزّ كتفيه، راسماً ابتسامة صغيرة وقال:

ـ أنت تفكر بالمانويين، سدنة الهيكل... لا تحمل وزر أفعال أسلافك الذين كان من واجبهم الدفاع عن الكنيسة ضد أعدائها المتكالبين عليها.

قال البابا: تنتابني كوابيس كثيرة يا غيلليو. نعم في هذه الليالي الأخيرة من حياتي. أنام قلقاً مضطرباً، الكوابيس لا تفارقني. لا شك أن السبب هو العقاقير العديدة التي وصفها لي أطبائي، لكن لا يمنع أن ما أتعرض له في هذه اللحظات من الحمى هو رهيب! أعلم أنك لا تؤمن بالأحلام. وأعرف أنك تتمتع بذهن ديكارتي، قروي. أعلمك أنه عندما تصل إلى عمري فإن تحولات غريبة تحدث لك كما في داخلي. الذاكرة المحمومة تقوم بأدوار وتشوه إلى أقصى الحدود، الذكريات المتراكمة، المنسية، لتضعها أمامك. أحلامي أصبحت مستنقعات منفرة مقرفة تطفو على سطحها أجساد متفسخة. جميع هؤلاء الموتى الذين يحاولون العودة إلى الحياة من خلالي، هم من البابوات الذين سبقوني! جميعهم، يا صديقي، يخرجون من الوحل الأسود وأفواههم أضحت ثقوباً فاحشة مخلة بالحياء، يئنون كالكلاب من ألمهم، لأن الله رفضهم ولعنهم! إنهم أشبه بالمومياءات التي نهشها الدود وهم مُضحكون في ثيابهم الكهنوتية المعفنة، وقلنسواتهم ذوات الهالة المنطفئة. أنا يوحنا الرابع والعشرين أفهم استغاثتهم، أصغي إليهم وهم يعترفون بكل الجرائم التي أمروا بتنفيذها، وبالأكاذيب التي لفقوها، وبالخيانات التي ارتكبوها كل ليلة، ترتسم القائمة الطويلة من هؤلاء البابوات الملعونين أمام مخيلتي... كل ليلة تصعد إلى أنفي رائحة العفن الكريهة، كما ترهق هذه التأوهات وهذا البكاء أذني. أشعر بوخزة في صدري إنها مخلب الموت واللعنة الأبدية..

يجب أن يتوقف الحبر الأعظم فهو متعب منهك، جبهته تقطر عرقاً. رسم المونسنيور غيلليو إشارة الصليب، بصورة آلية. علامة للرأفة بالمصير. ذكرته هذه بجدته عندما كان طفلاً متحدراً من عائلة فقيرة من نابولي. كانت تلك المرأة العجوز الخرافية تبصق مئة مرة يومياً على من كانت تسميه شيطانه. ظلٌّ فريد على جدار كلسي، غيمة منخفضة وداكنة، أحدب يسير في الطريق، غراب ينعق في السماء، درفة شباك يتلاعب بها الهواء، أمام كل هذه المظاهر كانت الجدة العجوز ترسم فجأة على صدرها الضامر إشارة الصليب، ثم تبصق خلف كتفها.

تمتم غيللو للحبر الأعظم: هل أنت تدرك ما تقول؟

- ينفخ العجوز وهذا ليس بشيء! إذا ما قارنته بما سأفصح به إليك الآن.

- أليس من الأفضل أن أحضر الكاهن لتعترف أمامه؟

ستكون أذناه جاهزتين للإصغاء لمثل هذا النوع من الكلام أكثر من أذن سياسي مثلي!

ردّ البابا: كلا.. لا تغادر غيلليو. أنت الوحيد الذي أستطيع أن أعترف له بما يقلقني ويعذبني. والوحيد الذي يجب عليَّ الكشف له، ولا يمكن أن يعرفه أحد غيرك قبل أن أفارق الحياة. السمّ الذي يفسدني ويضجرني هو ما يسيل في عروقك.

تنهد غيلليو من جديد ووضع راحتي يديه على فخذيه البدينتين منتظراً. جلس البابا يوحنا

في السرير الذي تفوح منه رائحة العرق، شبيهاً بالأموات الذين أتى على وصفهم، لقد سبق أن لحقهم بعجزه.

استمر الكلام بصوته الضعيف:

ـ هل تتذكر ما جاء في إنجيل القديس لوقا... هذا المقطع الذي أحفظه عن ظهر قلب يتعلق بخروج المسيح كعادته إلى جبل الزيتون، بعد خروجه تبعه تلامذته. ما أن وصل إلى هذا المكان قال لهم: **صلوا، لكي لا تتعرضوا للتجربة، ثم ابتعد عنهم مسافة قصيرة، ركع على ركبتيه وصلى قائلاً: «أبتِ! أبعد عني هذه الكأس... مع ذلك، لتكن مشيئتك وليس مشيئتي».** عندئذ ظهر ملاك الرب في السماء ليقوي عزيمته.

ـ توقف الحبر الأعظم قليلاً. وأشار برأسه إلى كأس الماء على الطاولة الصغيرة قرب السرير طالباً من غيلليو أن يقدمها له بسرعة.

رطّب البابا فمه، متابعاً كلامه:

قال غيلليو: كان يسوع وحيداً، لقد «**تركه الجميع وهربوا**».. هذا ما يؤكده إنجيل مرقص. هل أتابع أو أنك ترغب بتلاوة ما تبقى؟ لكن لو اخترت أن تكون ضدي فأعطني إذن الكلمات الحقيقية. لا الكلمات التي ترجمت من الناسخين الأوائل للأناجيل!

أومأ المونسنيور غيلليو برأسه موافقاً، لفظ ببطء ما كان ينتظره منه الحبر الأعظم.

ـ تبعه فتى، لا يملك على جسده سوى ثوبٍ أشبه بالكفن. قبض عليه، لكنه تخلى عن كفنه وهرب عارياً في الليل.

ـ قال البابا شكراً، ثم أغلق عينيه لعدة ثوان.

ـ لماذا تشكرني قداستك؟

ـ أرغب في أن تشاركني لحظة من هذه الرؤية. وهي رؤية المسيح الذي تركه تلامذته في بستان الزيتون، منتظراً أن يأتي الجنود ليقبضوا عليه. لقد اصطحب المسيح الشاب، الهزيل مرتدي الكفن معه بعد موته. قاطعه الكاردينال:

ـ نحن الاثنين نعرف من هو هذا الشاب.

ـ ليست النية في هذا القصد يا غيلليو. هذا الشاب الميت يمشي في خطى المسيح، هذه الجثة الواقفة، التي ظهرت لي هذه الليلة! رأيتها! أقسم لك أنني رأيت وجهه كما أراك الآن.

ـ لم يكن ذلك سوى حلم الحبر الأعظم. أنت قلت بنفسك: العقاقير التي يجبرونك على تناولها تؤجج خيالك، وخلال نومك النادر يُنتج ذهنك هذه الرؤى، وهذا أمر طبيعي. تشعرني بالاعتقاد بالتقليد الشعبي في حين نعرف نحن، المدرّبين منذ نشوء الكنيسة، أن كل هذا ليس سوى غشاوة تعمي حقيقة الأحداث.

- البابا: أنت لا تفهمني غيلليو، أحاول أن أترجم لك أحلامي. أنا أعيش غروب شمس حياتي، سأغادر الحياة قريباً مع السر الذي سيُنقل إلى خلَفي عبر الحراس.

وسيوارى جسدي جانب أسلافي كما تقضي التقاليد. بموتي، سيوضع الختم على السر مرة أخرى أيضاً! ولدى مثولي أمام الديان العادل يجب عليّ الاعتراف والإقرار إضافة إلى الجرائم التي ارتكبتها، جرائم الآخرين بيير، ي، كليمنت، أدرمين وغيرهم!

انحنى المونسنيور غيلليو على سرير الحبر الأعظم. بصوت منخفض وقال له:

- لقد عبرت الكنيسة قروناً شبيهة بسفينة، الحبر الأعظم.. هذه الصورة مستعارة منك.

- سفينة اندفعت على محيط من الدم! اسمع نهاية هذا الحلم السقيم الذي ظهر فيه الشاب. شعرت بأنني تقمصت شخص المسيح، كنت في داخله، في جسده، في ذهنه. التفتُّ ببطء نحو الشبح الذي كان يتبعني بصمت. أصبت بوعكة لدى رؤية وجهه الكامد وعيناه الغائرتان والصارمتان. لا شيء يتحرك من حولنا. صمتت الريح في أوراق أشجار الزيتون. لم تعد هناك أي علامة للحياة. تعرفت فوراً على قسمات وجه من كان أمامي، الذي لم يعد يتحرك. «أنت شوّهت اسمي»، ثم قال بوضوح: «أنت اغتصبت هويتي، رجل قليل الإيمان من يقول لك أنه ابن الإنسان»! لا يمكنك أن تكون رجلاً، لأنك خنثت باليمين! تقدم ثلاث خطوات مقترباً مني. أضاف: «أنظر: إنني عار تحت هذا الكفن، لأنك عريتني. إحمل هذا الكفن لأنك قتلتني!».

- ينفخ المونسنيور غيلليو، مظهراً من جديد علامات توتر: يا إلهي!

- هل تدرك الآن مدى رعبي وهلعي؟ في هذا الحلم، كنتُ الدجّال! والشاب ذو الكفن، يدينني كما أدان الأول من بيننا... ثم الثاني... وكل الآخرين! جعلني أدرك أنه لم يتوقف عن الحياة خارج الكنيسة، في ظلها بطريقة سريّة. ذلك، بفضل من رسله الذين زوّرت أناجيلهم، وبفضل من إرسالياته الموجهة إلى كافة أنحاء العالم والذين حرَّفنا رسائلهم، بفضل بولس الذي محونا معظم رسائله... تابع وهو يتقدم نحوي كنت تعتقد أنك دفنتني. وأنت متأكد أنك دفنتني، تابع وهو يتقدم نحوي. كنت متأكداً أنني لن أنهض أبداً في حين لدي السلطة في تحدي الموت والزمن لأقف أمام كل أولئك الذين سيفرضون الخداع كقاعدة!» أصبح قريباً جداً مني لدرجة أنني شعرت بتنفسه... كنت خائفاً كما لو أنني لم أخف أبداً في حياتي. هذا القلق الذي لا يمكن التحكم به والذي يشل أطرافك... «قبلني! هكذا طلب مني. قبلني للمرة الأخيرة أخي». عندئذ وضع شفتيه الباردتين على شفتي. كان لقبلته طعم القبر. صدره العاري لاصق صدري وشيء ما ساخن، لزج بلّل ثيابي ولامس جلدي. إنه دمه! دم الجراح التي سببتها له من قبل. دم أخي! «أتريد ثيابي الملكية، قال لي ذلك بعد أن توقفت القبل. خذها! إنني أهبك إياها بطيبة خاطر! سترتديها حتى نهاية الأزمنة!» خلع كفنه الذي وضعه على كتفيه بحركة هادئة وأخوية. لكنه ابتسم. «هل تسمعها؟» تلفظ بهذه الكلمات وهو يرجع إلى الخلف.

«سيحضرون وسيأخذونك ليضعونك على عرش ستبقى عليه إلى الأبد!» أصغ... بدأت الحركة تدب فجأة في سكون الليل، ريح ساخنة تهز أشجار الزيتون. أصغِ.. عرفت أنهم العصابة أو الجنود الذين جاؤوا لتوقيفي، أنا، المسيح... أنا الدجّال! ثم اختفى الشاب. اعتقدت أنني أسمع وقع أقدامه وهو يجري بين الأشجار ضاحكاً! بدأت بالصراخ من شدة الخوف. ناديته طالباً المساعدة. نعم ناديت أخي... لم أكن قادراً على الاستيقاظ، غيلليو. كنت أعلم أنني نائم، وكل ذلك لم يكن سوى حلم. تابعت الصراخ ومناشدة العفو والمغفرة من الأخ المغدور والمجروح! أحاط بي الجنود الرومان وقبضوا علي واقتادوني بقسوة هازئين شاتمين.

ارتخت ذقن الحبر الأعظم على صدره الفارغ. بدا العجوز منهكاً. يبكي وينتحب بشدة، وبسخرية تثير الشفقة.

ـ غيلليو هل ينجح أيضاً في الكلام، تصرّف بشكل مستور وخفي!

ـ سأسهر على ذلك، أبانا المقدّس.

ـ «الشاب»...

ـ نعم؟

ـ أن لا يتمكن من الخروج من قبره! ليس بعد هذه القرون! ليس الآن! عندئذ تصرّف الكاردينال، كما يتصرف مع طفل، نهض، ووضع يده على جبين الحبر الأعظم، يلامسه ليريحه. بكى العجوز بصمت، غرقت عيناه الكبيرتان بالدموع وهما محدقتان نحو الصليب الذهبي المعلق في الجدار المقابل والذي يصله النور المنعكس.

ثم قال: لن يخرج من التراب، سننهي عمل البابا كليمنت ومن ثم، كل من سيؤمن بالحقيقة؟

رفع يده عن جبهة البابا الساخنة وعدّل وضع الوسائد التي تسند جسده المتداعي.

حيّاه الأسقف غيلليو باحترام خافضاً رأسه، وتوجه نحو باب الغرفة الكبير المتقن الصنع.

في الغرفة الصغيرة المجاورة يوجد كاهن جالس باستمرار، يأخذ دفعة كبيرة من الهواء، متباهياً بقامته المتناسقة، يرسم على وجهه ابتسامة موجهة للأختين اللتين تسهران على راحة البابا.. ثم يعبر الغرفة بخطى واثقة.

يوحنا الرابع والعشرون قابع في غرفته يراقب الظلال التي لا يمكن لبصره الضعيف أن يساعده في ترجمتها. ينتظر في كل لحظة أن يتحرك واحد من تلك الأشكال، ويأتي شبح أبيض ليقف أمامه ويناديه. أو أن يقدم له الشبح الذي سمّاه مُرقص: الشاب الذي سيهديه كفنه...

20

التوأم

«لا تصحح شيئاً، يا ديدييه! لا تبحث عن الحجر ولا عن الأخ! وداعاً أخي العزيز الغالي.

صديقك التائه فرنسيس».

يدور الشريط المغناطيسي في الفراغ. حدّقت إيميلي بآلة تسجيل الانتظار خاصة ديدييه موزيل، الموضوعة على طاولة الصالون المليئة ببقايا السندويتش، وقصبات الكوكا التي أكل جزءاً منها، كؤوس الوسكي وقطع الجليد الذائبة جزئياً. أخيراً قرر الشاب الكلام بعد الصمت:

ـ قلت لك كل شيء إيميلي، كل ما أعرفه. أنا متأسف... لقد تركت فرنسيس يلعب بالنار وأشعر بنفسي مسؤولاً عن موته.

ـ ردّت إيميلي: إذاً، هو لم ينتحر؟ وإذا ما اتبعك جيداً، هل يمكن أن... لا! وهذا لن يكون... إنه أمر غير معقول!

ـ جرى تمويه الجريمة على أنها انتحار. هل رأيت: لم يجد المفتشون أي وثيقة في مكتبه. دفاتره الحمراء الصغيرة اختفت جميعها.

ـ سألت إيميلي التي تفوقعت على الكنبة: لماذا عرّوه من ثيابه؟

ـ عُرِّي لأنه من المحتمل أن يكون قد غسل! لمحو أدلة تقود البوليس إلى اكتشاف الجريمة.

قال موزيل:

ـ بينما كان واقفاً، يشرب ثالث كأس من الوسكي، وإيميلي تهتم بالمغلفات المرسلة من فرنسيس: لم يكن فرنسيس سوى مؤرخ يقوم بواجبه. ثم أخذت إيميلي المغلفات ونظرت إليها دون أن تطلع ما بداخلها.

تابع موزيل:

ـ حقاً، فقد أوشك أن يصل إلى الحقيقة، إلى ذلك السر الذي تدافع عنه الكنيسة منذ قرون.

ـ لم تقدم رسائله الكثير من المعلومات. نعرف فقط، أنه سافر إلى القدس ثم إلى روما.

ـ ثم إلى تروي، وأخيراً إلى ريمس! الختم الموجود على رسالته الأخيرة، يشير إلى ذلك.

من المؤكد أنه ألقي القبض عليه في شامبانيا، إذا ما وثقنا بالتواريخ، انظري، يعرض موزيل وهو يعود ليجلس قرب المرأة الشابة.

- نعم، لقد وضع الظرف (المغلّف) في البريد في محطة ريمس، منذ أربعة أيام. نظر موزيل إلى ساعته، لاحظ شحوب قسمات وجه إيميلي المشدودة فاقترح عليها أن تأخذ غرفته، وتخلد إلى النوم، لأنها منهكة من التعب.

- الوضع ملتبس، ألا تجد ذلك؟ فرنسيس مات لتوه، وترغب أنت أن أنام في بيتك!

هزّ الشاب كتفيه، فأخذها من يدها ليساعدها على النهوض عن الكرسي وقادها إلى غرفته. فارتمت فوراً على السرير وبدأت خلع حذائها. وشرعت تتقلب على الفراش لتأخذ الوضعية الجنينية في محاولة للنوم.

ذهب موزيل ليغلق الباب. ولدى وصوله العتبة، قال:

- لا تهتمي للمظاهر إيميلي. كنت أحب فرنسيس، أحبه حقاً.

- أنا أيضاً، ديدييه. أحبه على طريقتي.

- أغلق موزيل الباب بهدوء وعاد إلى مكتبه وجلس، مع السجائر والويسكي، تناول النسخة المصورة عن الوصية الأخيرة للمجنون وبدأ بدراستها. «إذا كان هذا الثعلب العجوز مارتن قد وضع تعليقات وشروح على النسخة، ذلك لأنه كشف عن بعض الأشياء (أخرج الأرانب من أوكارها)…. وعليَّ اقتفاء أثره.

تصفح الملف. «ربح! نفسه من أجرى الترجمة إلى اللاتينية…».

حضّر حاسوبه وبدأ كتابة المقاطع الشعرية وهو يقرؤها بصوت عال:

«من الفوضى المفرطة

نور المشرق

الروح القدس بطبيعتيه الممزوجة».

- بوضوح سيعطي هذا: نور الشرق الذي سيولد من الفوضى اللامتناهية، الروح القدس من الطبيعة المادية..

أمر مهم… أن تشم رائحة الرؤيا بملء الأنف! لنضع الباقي في الشكل المطلوب.

«أنا يوحنا أحد الأخوة الاثني عشر

نفيت إلى باتموس بسبب حبي ليسوع

احتفظت بسرّه

«الأخ الأول

ابن النور والمهندس المعماري

تقدم إلي

كان حياً وليس ميتاً

مثلما كان يظن الشعب

قبّلني ثلاثاً

«ابيضّ شعر رأسه

كالصوف الأبيض

كالثلج

«من له أخ يُعطى الحياة

والموت يسلبه

دائماً في كل مكان

من صليبه تولد الحقيقة

ومن كفنه يعود للحياة.

- الكفن! يا إلهي، كلمة بانوس لا تدل على الشرف أو اللباس الداخلي، بل إلى الكفن، بالمقابل في الآية التالية، يستعمل آنيان ونيكولا دو بادو كلمة «سندون» (sindon).

يحلل موزيل رموز أرجل الذبابة التي رسمها هيرتز على الهامش. لقد وضع خطاً تحت بعض الكلمات.

رشف جرعة وسكي، وأشعل سيجارة جديدة وتابع قراءة الوصية الأخيرة للمجنون.

«في بستان الزيتون يرقد الأخ داخل كفنه

توجه الاتهامات إلى توأمه الخائن

يلعنه إلى قرون وقرون

كذبتُ على الشعب

وفي السر بنى الإثني عشر المعبد

سيندون هي العبارة التي تناسب الكفن. كان فرنسيس محقاً، إنهم يخدعوننا منذ ألفي عام!».

يلاحظ أيضاً تعليقات مكتوبة بيد أخرى وخط مختلف، دون شك يد أحد جنود الهيكل. فهل كان هيرتز هو من روى القصة إلى رينو؟ نتساءل هنا: لأي سبب أقدم رينو أو أي ناسخ آخر راغب في إكمال هذه القصيدة الطويلة؟

«من الطائفة الصليبية

سيولد الشرق والغرب

وفي غابة المشرق

يستريح الأخ في معبده

وسيوارى في التراب إلى الأبد...

صوت إيميلي. يبدو منهكاً، عيناها مليئتان بالدمع. شعرها مشمث على شكل سنبلة. قالت:

ـ لم أتمكن من النوم يا ديدييه. لم أتوصل إلى إبعاد صورة فرنسيس، فرنسيس الميت على سرير في غرفة الفندق، ومن ثم تلك الرائحة التي تكاد تخنقني لدى تصورها.

لكن موزيل لم يسمعها.

صرخ موزيل بحماس: إيميلي، لقد كان فرنسيس مصيباً! أجهل كيف تمكن من كشف ذلك دون أن تكون لديه الوصية الأخيرة للمجنون. نظريته كانت الأفضل. يسوع ليس هو من علّق على الصليب! وليس هو من أوقفه الجند على جبل الزيتون.

اقتربت إيميلي من المكتب، وألقت نظرة على أكوام الورق والملاحظات، ثم على شاشة الحاسوب. بينما يتابع موزيل فك رموز الإضافات التي وضعها المحرّر الثاني:

ـ في دعواهم الكاذبة سيكون أسياد الدين خونة! إنه أخوه! الذي يشبهه والذي أسماه آنيان ونيكولاس دو بادو باسم «ديديم»! هذان الناسخان احتفظا بالكلمة اليونانية لأن كلمة «ديديم» في اليونانية تمني «توما»!

ـ أنت مجنون! لا أحد سيصدق شيئاً من هذا القبيل!

.. على عرش ملعون

يقوده إلى الموت

ويلقى به مثل جيفة

البابوات هم أساتذة الدين وعلى دجال بنت الكنيسة عقيدتها.

خداع تحاول الحفاظ عليه منذ قرون! يلوح موزيل وهو يضرب على النسخة المصورة للوصية الأخيرة للمجنون.

ـ مات فرنسيس بسبب ذلك! لأنه اكتشف أقدم كذبة أو خدعة في العالم؟

ـ لا، ليس حقاً... لشيء آخر: إنها الحقيقة المرعبة؛ رجال حاولوا عبثاً طوال قرون البحث عنها.

ـ أتعرفها، ديدييه؟

ـ لقد عثر فرنسيس على قبر المسيح! نعم وجده، إيميلي هل تفهمين؟ لقد عثر على قبر يسوع الذي لم يمت على الصليب! كل ما روته النصوص الرسمية لم يكن سوى هراء... وصية المجنون هي وصية يسوع! مجنون لأنه لم يجرؤ أحد أبداً على تصديقه.

21

الدفن

في ليلة الخميس الجمعة.

ما زال مارتن هيرتز في مكتبه. والساعة تشير إلى الواحدة وخمسة عشر دقيقة. المطر ينهمر بدفقات على درفات الشبابيك. لم يبق سوى مصباح كهربائي واحد مضاء ينشر نوره الأصفر الدائري على الطاولة التي يجلس عليها المحامي العجوز.

أخرج علبة معدنية صغيرة من صندوقه الحديدي، بدأ بفتحها وتفحص داخلها كطفل رضيع وهو يمص سيجاراً نوع بارتاغاس كورونا. وصية المجنون إلى جانب المنفضة.. الباب مفتوح إلى نصفه. دفعت ليا الباب دون ضجة ودخلت الغرفة. ارتبك هيرتز وهو يغلق العلبة الصغيرة المعدنية مثل صبي فوجئ وهو يفعل أمراً ما.

ـ عليك أن تأتي لتنام، مارتن. لقد مرت ليالي عديدة ولم تنم كفاية. ومنذ زيارة ديدييه موزيل، على ما أعتقد...

ـ سآتي في الحال ليا.

كان صوت الرجل البدين الضخم خفيفاً وحزيناً. نهض بهيكله الضخم فظهر أكثر انحناء من المعتاد، لاحظت ليا إنه شاخ بسرعة، في هذه الفترة!

ـ سأضع قليلاً من النظام في رتابة حياتك. إنه هوس العمر! نفخ وأعاد العلبة الصغيرة إلى أحد رفوف خزانته المعدنية.

بقيت ليا جامدة في مكانها، امرأة بسيطة، ضعيفة الشخصية والبنية أصبحت في أواخر حياتها، تعبت من الحياة، من كل شيء. لكنها غير مخدوعة بما يريد أن يوهمها زوجها به والذي تعرفه جيداً.

لقد كذب علي، لكي أحمي نفسي من كل شيء، حتى من الحياة. سألته:

ـ أنت تفتش دائماً، وتبحث دائماً، أليس كذلك؟

دُهش هيرتز، وتوقف قليلاً قبل أن يغلق بانزعاج الخزانة الحديدية.

تنهد بعمق قائلاً: كلا، ليس صحيحاً.

ـ هل نذهب إلى دفن مارلان، هذا الصباح؟ سيكون وسط احتفال ماسوني؟

ـ كلا، ليس في المقبرة. ستنظم جنازة في الأسبوع القادم في جلستنا مع بعضنا... بعد قليل سيدفن مدنياً.

وضع المخطوط داخل مكتبته.. من كان يتصور أن كنزاً من هذا النوع يوجد مدسوساً ومموهاً وسط كل هذه الكتب؟

ـ تلك العلبة... هذا المخطوط.. أنت تخبئها عني كما لو أنني أجهل ما بداخلها. لا فائدة من هذا، مارتن!

ـ عزيزتي، أريد تجنيبك الغرق معي وسط هذا الإناء. إن ذخائر القديسين هذه، لم تجلب سوى الآلام والمآسي. لكن ليس من حقي إتلافها! تعرفين هذا جيداً.

تبعها، وحضنها بذراعه الخشن، وبدت بين يديه هزيلة ضعيفة للغاية.

ـ أنت محق، لنذهب وننام، فهل تناولت أدويتك؟ وابتسمت له... السؤال المعتاد، ونفس المقدمات!..

ـ نعم بكل تأكيد، حتى ولو أنها لا تؤثر بي.

مارتن، إننا لا نشفى مما نحن مصابون به.

ـ آه؟ وما هو داؤنا؟

ـ الشيخوخة.

* * *

توقف المطر عن السقوط عند الخامسة تقريباً. لم يغمض لهيرتز جفن طوال الليل. استيقظ عند الثامنة صباحاً دون إيقاظ ليا، وأخذ حماماً بارداً، تناول إفطاره، كوباً من الشاي وقطعتين من البسكويت، البطن متشنج، ومذاق الصفراء المر في بلعومه. ارتدى السواد.. سيوزع لامبرت الورود عند مدخل المقبرة.. كما يظن. خرج من إيوانه نحو سيارته وسار بها مدة ساعتين على طول الشارع الخارجي لإضاعة الوقت. وبصورة مناقضة فقد خفف الضجيج والتوقف الفجائي في زحمة السير من توتره.

وقف مثل معظم النساء والرجال المرتدين السواد أمام نعش فرنسيس مارلان المسجّى على حاملين أسيء تغطيتهما بالسواد مع أطراف مذهبة.

كلّف لامبرت، الأخ المضيف لمحفل إيلياه بتوزيع الورود التي اشتراها من الليلة الماضية بهدوء إلى إخوته القادمين لحضور الدفن. عادة لدى الماسونيين تقضي بوضع وردة على نعش أخيهم عندما يوارى في القبر. حركة رمزية لا يمكن أن تصدم المشاعر الدينية لأفراد عائلة المتوفي أو أقربائه.

بما أن الاحتفال كان مدنياً، كان لامبرت وحده يترأس موكب الدفن وينظم مراسم الاحتفال.

* * *

تجمع الناس جماعات حول النعش، قدمت إيميلي ذراعها إلى رجل مسنّ يقارب الستين سنة

الشبيه بمارلان. تجمع إلى جانبها العمات، الأعمام، بنات وأبناء العم. مجهولون ذوو وجوه خافضة خاشعة، ينفّون في مناديل بيضاء. ظن موزيل، أن فرنسيس لم يكن لديه أقرباء غير إيميلي، فاكتشف وجود إخوته ومساعديه في مؤسسة ماير. لماذا لم يتكلم عنهم أبداً؟ لماذا ظل كاتماً للسر؟ نعم: أعتقد أنه تكلم عن أبيه لمرة واحدة أو مرتين.

قد يكون أخوه ذلك الرجل الذي يشبهه كثيراً، والذي أعطته إيميلي ذراعها. أمه متوفاة بمرض السرطان وهو في الثانية عشرة من عمره. لم يتزوج والده بعدها أبداً.

لم أكن أؤمن أبداً أن فرنسيس من الرجال الذين يندفعون إلى الانتحار... لاحظوا، يقال دائماً، أن هذا يحصل بعد صدمة!

التفت موزيل نحو نوبرت صوفير.. الرجل القصير القامة الهزيل مثل جلد المخطوطات يغرق داخل بذّة من المخمل الأسود المكوي لتوه. مع ربطة عنق زرقاء بحرية تطوّق رقبته الهزيلة، واحدة من أطراف قبة قميصه تخرج مقوّسة..

لم يتمالك موزيل نفسه وابتسم قليلاً.

ـ أنت محق، نوبرت، فرنسيس كان يحب الحياة، لم أعرف أبداً شخصاً بهذه الفضولية حول كل شيء.

أضافت هيلين موستييه مع نوبات من البكاء:

ـ كان مثقفاً جداً، مثيراً للاهتمام نوعاً ما.

ثم، استدركت بعد ثوان:

من الأفضل أن ألزم الصمت! لست موهوبة فيما يتعلق بالمدح الجنائزي. إننا لا نتلفظ إلا بالتفاهات في مثل هذه المواقف.

وافق روغترز بحركة من رأسه، عيناه محمرتان لكنه استطاع لجم البكاء مثل صبي صغير، فهو في هذه اللحظة يشبه صبياً ضخماً، عيناه منتفختان من الحزن وقلبه محطّم.

ـ يمشي خلفهم، مدير مؤسسة ماير، مع بعض أعضاء مجلس الإدارة وممثلون مجهولون لوزارة الثقافة، واقفين داخل مشمعاتهم المظلمة أو معاطفهم السوداء، جاهدين بإظهار مشاعر التأثر بإخلاص.

قال هيرتز في نفسه: سيكون النهار جميلاً، مع سماء صافية شفافة. وإذا كان موت مارلان كان خسارة رهيبة، فهو المسؤول عن ذلك، تذكر... لكن كل شيء بدأ مثل آلة جهنمية وأن الباحث الشاب تمزق بآلته. وقطّع إرباً إرباً!

نظر هيرتز إلى إيميلي وإلى إخوته، وذلك الرجل الوقور الذي يشبه فرنسيس ـ الأب ـ ديدييه موزيل ومساعديه، وأصدقائه، وجيرانه. الجَمع كله حزين. يا للخسارة!

لن يغفر المحامي العجوز لنفسه أبداً.. وها هو موزيل الذي سلمه نسخة عن وصية المجنون يأتي لزيارته.. «ليا على حق أن أبحث عنه دائماً. لم أتوقف أبداً بالبحث عنه طوال حياتي...».

أنزل النعش إلى القبر. يجب على موزيل أن يضحي في طقس التعازي. توقف قليلاً أمام إيميلي ووالد زوجها.

ـ أقدم لك ديدييه موزيل، حماتي العزيزة.

مارلان الأب له الصوت نفسه الذي لابنه، لكنه منخفض قليلاً. وهذا يمزق قلب موزيل. ويصعّد الدموع إلى عينيه.

ـ لقد كلمني فرنسيس عنك مراراً، أنتما تتقاسمان الهوايات ذاتها، على ما أعتقد. وأنت من أدخله مؤسسة ماير أليس كذلك؟

لم يكن موزيل قادراً على الإجابة، شدَّ بارتباك على اليد الممدودة له وأدار نظره.

مشى وحيداً، ونظره هائم، تبع بصورة لا شعورية سلسلة من الأشخاص الذين يذهبون مثله بعد تقديم تعازيهم مجاملة إلى أرملة ووالد فرنسيس.

قال ديدييه: ليس من العدالة أن نتجرع كأس الحزن لوحدنا، لنتقاسمه.. لحق به مارتن هيرتز وسار معه باتجاه المخرج، مروراً بين القبور التي تملؤها نقاء السماء وصفاؤها نوراً.

مارتن: إذا لم يكن هناك سوى الحزن، أنت تعرف جيداً بماذا أفكر وهذا ما يقطع أنفاسي. الجميع هنا يعتقدون أن فرنسيس قد انتحر من تلقاء نفسه.

ـ لو نطقت بكلمة مثله، لكانت حياتك في خطر. عليك الحذر واليقظة والاستعداد لأي طارئ.

ـ أعرف. أنه في هذه الحالة، جميع مصالحي معرضة للخطر. كذلك جميع أولئك الذين يعملون في مخطوطات البحر الميت المرقمة 456Q4 ـ 458. لأنه من المؤكد أن يكمن مفتاح السر في القطع التي تترجمها المؤسسة حالياً.

ـ ليس هنا المكان المناسب للكلام عن ذلك. سنتناقش يوم الخميس، بعد جلستنا. اعتذر لمغادرتي، فقد تركت ليا مترنحة بفعل العقاقير المنوِّمة. تقول إنها لا تنام أبداً، بل تبقى في السرير ممددة كل الفترة الصباحية. حبوب العقاقير ذات مفعول متأخر.

بعد مصافحة صغيرة بالأيدي، دخل هيرتز سيارته.

ـ هل تعود إلى المكتب ديدييه.

ظهر سوفير لتوه، مثل عفريت أسود ذو عينين كبيرتين كعيون السمك مندهشة حائرة بشكل دائم.

نعم؟ هل آخذك معي نوبرت؟ تعال سيارتي مركونة في مكان قريب.

ـ كنت واحداً من الذين ألقوا وردة حمراء على قبر فرنسيس... هذا غريب! ستكلمني عنها في يوم من الأيام؟

ـ دون شك. هذه عادة الأصدقاء القدماء الأعزاء القريبين من بعضهم لدرجة أنهم يشكلون عائلة واحدة تقريباً.

بعيداً عن مكان مراسم الدفن، اختبأ رجلان خلف الكنيسة وأخذا صوراً عديدة بواسطة الكاميرا البعيدة لكل المشاركين، يمكنهم الآن العودة من المكان مكتفين بأداء واجب التعزية.

22

غابة الشرق

الباب الأحمر الذي لن يتجاوزه فرنسيس مارلان إلى الأبد. الباب الأحمر ومكتبه، مع الفوضى المعتادة فيه. رغم أنه فارغ من حضور أي صديق.

موزيل كعادته الصباحية التي فرضها على نفسه واحترمها هي تفحص الرسائل الموضوعة في بريد الساعة التاسعة. وتصنيفها حسب أهميتها بصورة آلية.

أعلنت الساعة الحادية عشرة والنصف. دخل سوفير، وإبريق القهوة في يده:

- قهوة للجميع؟

موزيل:

- وثائق، وثائق و.. خذ! رسالة من روما... من إرنستو بونتفليون.

نزع موزيل الختم عن الرسالة متذكراً أن البروفسور بونتفليون ورد على لسان مارتن هيرتز خلال ليلة الاثنين إلى الثلاثاء الشهيرة. يمكن القول أنه مضى عليها قرن من الزمان!

ملأ صوفير الفنجان الذي أعاده له روغتير. شكره العملاق بإيماءة من رأسه، وفكيه المشدودين.

جلس موزيل خلف طاولته وبدأ يقرأ:

«صديقي العزيز.

لقد علمت برحيل فرنسيس مارلان المأساوي من طريق الصحافة.. علي أن أجهد نفسي لأصدق ذلك، نظراً لأن ذكراه تبقى حاضرة في مخيلتي. لقد قضينا سوية خمسة أيام في روما. كان عائداً من المدرسة التوراتية في القدس.

تكلمنا طويلاً عن طبيعة أبحاثكم الحالية.. وقد تبين لي أن فرنسيس كان مهتماً بدراساتي الخاصة حول الموضوع. أعلمني أنه لديه النية بالعودة إلى منطقة تروي ويعرج على ريمس حيث ذهب قبل ذلك وألحّ على مقابلتي. سأكون قريباً في باريس. أعتقد أن فرنسيس قد أعلمك بنظريته، أدعوك لأكبر قدر ممكن من الكتمان.

- ليتر القهوة اليومي، يا ديدييه؟

- هل تعرف البروفسور بونتفليون، نوربرت؟

ـ من ناحية الشهرة نعم. لكن ليس شخصياً. قرأت بعض أعماله رجل واسع الاطلاع والمعرفة يؤيد طروحات مبتكرة! قد تكون أصلية جداً بالنسبة للدراسات العليا.

مضى النهار دون روح، وبصمت غير عادي.

انكب كل من هيلين موستييه، روغتر وسوفير على شاشات الحاسوب. تناولوا وجبة الساعة الثالثة عشر بسرعة. في الرابعة عشرة والنصف، كانوا مدعويين إلى اجتماع في الجمعية مع أعضاء الخدمة لانجاز عملية الجرد.

غادر موزيل المكتب عند الساعة السادسة مساء نزل إلى موقف السيارات ليصعد سيارته نوع غولف. كان يشكو من صداع لم يغادره منذ الدفن دون أن يتمكن من طرد صورة جسد مارلان العاري والهزيل من مخيلته وهو على فراش الموت.

ـ لدى عودته إلى منزله، تناول الشاب كأساً من الكوكا وقرصين من الإسبرين، دون إشعال السيجارة. خفقان خفيف في صدغيه، نبضات مؤلمة في فمه. ورغبة لا تقاوم في البكاء وتسليم نفسه للحزن. لكن بالرغم من حرقة عينيه، فقد بقيت شحيحة بالدمع.

لم يشعر بالجوع، دخل إلى مكتبه، وفتح الدرج الذي يحتوي الرسائل والشريط المغنط الذي أرسله مارلان، في الأسابيع الأخيرة، من مهمته السرية. هكذا سمى فرنسيس رحلته.

فتح موزيل الرسالة الرابعة والأخيرة، التي سبقت الشريط.

العزيز ديدييه:

بالأمس غادرتُ بلدي. أنا في وسط منطقة مؤسس سدنة الهيكل هوغيس دو بانيس.. وتعرف جيداً أن السر متعلق بسدنة الهيكل! أعتقد أنني خطوت خطوة كبيرة نحو النور، عزيزي. لكن وأنا أعبر ترويس، لاحظت أنني مطارد من جديد. سابقاً أثناء إقامتي في القدس، لاحظت أن رجلين كانا يتبعاني.

تركت الوطن لأتوجه نحو كورترانج. لقد ترك حراسي الأشداء فاصلاً بين سيارتهم وسيارتي، لكنهم لم يفارقوني.

بحثت عن المانوي الشهير! الذي كلمتك عنه بإبهام، في رسالتي السابقة. مانوي وسط منطقة سدنة الهيكل...

سألت أحد المكاتب فأشار لي في الحقيقة أنه كان هناك نصباً لفارس ليس بعيداً عن جيرودوت، ومن الصعوبة العثور عليه عبر طرق معترضة في غابة لاريفور.

حدَّد لي أنه في تلك المنطقة، نصب كان يسمى الرجل الأخضر.

ساعدتني بطاقتي كعضو في هيئة القيادة بشكل خاص بالرغم أنه توجب علي سبر العديد من المسالك، في نهاية المطاف وصلت إلى مانوي! لأنه باستطاعتي التأكيد لك،

ديديه أن الأمر يتعلق فعلاً بـ مانوي. نعم، في شامبانيا - آردين! وسأعطيك قريباً سببا لوجوده المحيّر في تلك الغابة.

أظن مع مرور الزمن اتخذ النصب اسم الرجل الأخضر. بسبب نمو الطحالب بكثرة... تساءلت أين ذهب الجواسيس الذين يتعقبونني.

أخذت بعض الصور وأنجزت رسماً مائياً، المقبول لديّ نوعاً ما والذي سألصقه في أحد دفاتري الحمراء العزيزة.

أتلهف لأحدثك عن الكثير.

أتمنى لك صحة جيدة أخي العزيز جداً

فرنسيس

نهض موزيل، وسار بضع خطوات باتجاه النافذة، ملصقاً عليها جبهته متأملاً. لقد حدّثني فرنسيس مراراً عن تلك المنطقة، التي عمل الهيكليون على تجفيف مستنقعاتها وتنظيف الغابات. وأنشأوا فيها معامل صهر المعادن والآجر. فهل من وراء ذلك منفعة سرية للاستثمار فيها، لتبقى آهلة عامرة؟ إذا أخذنا في الاعتبار نظرية فرنسيس السيئة!

عاد موزيل إلى طاولته، بدأ يتصفح دليل الطرق الذي سبق أن استخدمه مرات عدة. أستدل على صفحة منطقة شامباني، المشار إليها ببرزخ. فرنسيس في كورترانج، في غابة لاريفور، لكنه... تذكر الكلمات المقروءة على شاشة حاسوب مارلان، مفتشاً بطريقة فوضوية بين ملاحظاته وكتبه، عثر على الوثيقة التي طبعها، وبدأ يتصفحها بعصبية: لوح ..14. كفن... وهنا: «مثلث باينس. السنديانة في هيكله... اللبوة في النور.. بحيرة..... محفل الماعز... القاضي [1]» تصفح النسخة المشابهة لوصية المجنون الأخيرة. مركزاً بشكل أساسي على الملاحظات الهامشية التي أضافها المحرر الثاني:

من جماعة الصليب

سيولد الشرق والغرب

بينما في غابة المشرق

سيرقد الأخ في هيكله

في الأرض سيطاله النسيان...

أشعل سيجارة رغم قسمه على الإقلاع عنها. عاد إلى الخارطة الطرقية، مشيراً بسبابته إلى جزء من منطقة تروي.

- غابة المشرق! طبعاً! واضح تقريباً. أوضح من النهار... غابة المشرق، هي غابة الشرق! وهناك محفل بابلي، محفل الماعز، وبحيرة الهيكل!

(1) كل ما تعلمه أهله، جاؤوا ليستولوا عليه منه لأنه، كما قالوا «لقد فقد عقله».

أخذ موزيل هاتفه المحمول.

ـ آلو، إيميلي؟ أنا ديدييه. أيمكنني المرور لمقابلتك؟ لقد وصلت لتوي إلى اكتشاف رائع انطلاقاً من ملاحظات فرنسيس وملاحظات الهيكليين المكملة لوصية المجنون الأخيرة. إنها على علاقة بإقامة فرنسيس في تروي.

ارتدى موزيل بذلته الرياضية وتأبط محفظة وثائقه، وأسرع خارج شقته. نقترب... نقترب من القبر، إذا حدث أننا اكتشفناه؟ وإذا ما علم العالم؟

صعد إلى سيارته المركونة قبالة منزله، من الناحية الأخرى للشارع. فكر من جديد بالشاحنة الصغيرة التي أوشكت على الإطاحة به أرضاً، مساء يوم الاثنين. وبمن أراد أن يرميه أرضاً.

وفي أقل من نصف ساعة، فتحت إيميلي بابها. المرأة الشابة الحزينة الوجه، هندامها غير مرتب. عيناها البندقيتان محمرتان من الدموع.

ـ أنا سعيدة لقدومك، يا ديدييه. لقد سافر حماي لتوه وأشعر أنني وحيدة. متعبة.

ـ حدثني قلبي بذلك، لقد كان نهاراً مخيفاً.

اجتاز ديدييه الصالون. وفتح وثائقه على الطاولة بحركات سريعة وعصبية.

ـ بالنسبة إلى فرنسيس وأنا، كانت بداية هذا البحث شبيهة بلعبة. تركته يتصرف وحيداً.

ـ ألم تكن تعتقد فعلاً بتفكراته الضبابية. اعترف!

صبّت إيميلي القهوة على طبق صغير: فناجين، إبريق القهوة، السكر. تابع ديدييه إفراغ محفظته وفرش أوراقه وثائق مخطوطة ومطبوعة، أطلس، مخططات، مقتطفات من ملاحظات.

اعترف موزيل:

ـ أنت محقة. كنت أجد كل هذا رومانسياً قليلاً. غير أن هذه الجهة الحالمة هي التي كنت أقدرها فيه.

ـ هل ما اكتشفته مهم جداً؟

قدّمت إيميلي القهوة. ديدييه بدون سكر. أما هي فوضعت ثلاثاً منها.

جلست مسندة مرفقيها على الطاولة، وذقنها مستندة على يديها، تنظر مثل تلميذة عاقلة ومنهكة.

فتح موزيل أطلس الطرق على صفحة «منطقة شامباني آردين» وأشار للمرأة الشابة على منطقة غابة الشرق قائلاً لها:

ـ تتضمن الوصية الأخيرة للمجنون تعليقات وشروح في أحد هوامشها، نص طويل خطُّه

نيكولاس وآنيان دو بادو، هذه الوصية مكتوبة بخط مختلف. إنهم سدنة الهيكل الذين علقوا وشرحوا على المخطوط بغية إخفاء المعطيات التي تحدد موقعها. انظري إلى هذه الخارطة.

أخرج موزيل ورقة نسخ كبيرة من محفظة وثائقه، مع قلم رصاص.

ـ وضع ورقة النسخ على الخارطة واصلاً بين الأسماء التي قرأها على المخطوط وكذلك التي في وثائق فرنسيس: لبؤة، اقطاعية، ماعز...

ـ قيل إن هذه الأماكن المذكورة قد دُعيت محافل. صدفة؟ في الحقيقة، إن الماسونيين يجتمعون على شكل محفل؟

ـ بالحقيقة! محفل، هيكل... أجمع بين الأسماء الثلاثة لأشكل مثلثاً. قد يكون مثلث باينس المشار إليه في ملاحظات فرنسيس؟ هناك نصب (مانوي! مانوي ضائع زاره فرنسيس. حتى أنه رسمه. هل تتذكرين أنه تكلم عنه في واحدة من رسائله؟

ـ مات فرنسيس من أجل هذا: نصب لا من عدد من الحجارة والعظام وقطع من الرقائق؟ هذا غير معقول...

انهارت إيميلي، ورأسها بين ذراعيها مُجهشة في البكاء دون توقف... رغم ذلك كنت أحبه. تلفظت بذلك وهي تبكي وصوتها المخنوق. هل تعلم أني أحبه كأخ كبير، لا كزوج ولا حتى كعشيق. تعارفنا ونحن صغار جداً... لن أراه أبداً، لن أسمعه مطلقاً وهو يروي لي قصصه التي لا نهاية لها...

لم يستطع موزيل قول أي شيء، شعر بغصّة في بلعومه، تسارع نفسه وعاوده الصداع، ليلسع مؤخرة عنقه. «الذباب، عاد وفكر بذلك الذباب الذي يطن حوله. والابتسامة المكشرة التي كانت تشوه وجهه!».

23

في ليلة الجمعة إلى السبت

ـ ثلاث نداءات من كواشف السيارة: إنه هو. دخلت سيارة في شارع جاكوارد. شاحنة صغيرة البيضاء مركونة قريباً جناح مارتن هيرتز، نزل منها شخصان. انتظرا قرابة عشر دقائق تحت مطر عاصف. الساعة تشير إلى نصف الساعة بعد منتصف الليل. في صباح الأربعاء، وصل رئيسهما إلى باريس قادماً من روما وسبق للرجلين أن قابلاه مرتين ليخططوا لمهماتهم القادمة.

ـ هذا الشخص يجمد دمائي، خلف مظهره كموظف. إنه أفعى حقيقية. وها هو يريد أن يشرف على كل شيء شخصياً!

ـ إنها غلطة ارتكبناها؛ فلو أننا لم نخطئ موزيل...

وقفت السيارة على مسافة عشرين متراً. نزل منها الرجل، وسار باتجاه العميلين بخطى بطيئة، يداه في جيوب مشمعه ذو القبعة المرفوعة. ما أن وصل مستواهما حتى اكتفى بطرح سؤال صامت وبحركة بسيطة من ذقنه.

ـ قال الحارس الأول مشيراً إلى منزل هيرتز مساء الخير سيدي، جميع الأنوار مطفأة منذ ساعة في مقر المحامي.

تماماً، أريد أن أعلن عن أخبار سارة خلال الاجتماع الذي سيتم الأسبوع المقبل. ستكون هيئة حراس الدم تقريباً بكامل أعضائها في هذا الاجتماع.

ـ غرفة هيرتز وزوجته موجودة في الطابق الأرضي. هوذا مخطط الطابق الأرضي مع مكتبه.

فتح الحارس الثاني ورقة بلّلها المطر تحتوي على مخطط مختصر وأسندها على هيكل السيارة الأمامي.

ألقى الرجل نظرة عابرة على المخطط وقال:

ـ أنا أثق بكما. هيا! يجب أن لا نضيع الوقت.

* * *

ـ هل تريد قهوة مرة أخرى؟

وافق موزيل دون أن يرفع عينيه عن خارطة الطرق.

ـ سألته إيميلي وهي تملأ فناجين القهوة: ذلك الأخ الذي حدثتني عنه أنت وفرنسيس وهو مارتن هيرتز والذي يملك واحدة من النسختين عن الوصية الاخيرة للمجنون، هل تثق به؟

موزيل: ليس لدي أي سبب حالياً لأحذَرَهُ. سادني شعور مبهم بأنه يعرف أكثر مما يقول.

ـ في لحظة التعازي، في المقبرة، شعرت أنه راغب في التحدث إليّ، أقسم لك أنه تمالك نفسه عندما شاهد والد فرنسيس.

ـ دون شك كان يريد أن يظهر لك حزنه العميق. هل تعلمين إنه دب كبير، وأنه يجد صعوبة في إظهار مشاعره لقد اعتدت على ذلك مثل باقي أخوة المحفل.

ضربت إيميلي على البطاقة، بإصبعها ستغادر أليس كذلك؟

ـ سأطلب إجازة ليوم الاثنين، من مديري ونهار الجمعة أو السبت المقبلين وسأذهب إلى شامباني! لدي بعض أيام عطلة إضافية. أرغب الاستفادة منها وعليَّ أن لا أعود قبل يوم الاثنين إلى المؤسسة. القبر هناك في داخل محيط هذا المثلث. قبر واحد من توأمي جبل الزيتون... الرجل الذي يحمل الكفن!

ـ أنت مجنون، ديدييه.. لقد حاول أحدهم قتلك في المرة الأولى وستذهب إلى هناك ثانية!

* * *

تجاوز الرجلان الشبك المعدني وبلغا باب جناح عائلة هيرتز. بقي الرجل بعيداً في الحديقة.. ويديه في جيوب معطفه ويشرف على العملية. في نهاية المطاف سوف تجري القضية بسرعة! بعدها، يمتني بأمر موزيل. لقد حُلَّت قضية مارلان دون مشاكل. انتحار. في هذه الليلة، محام عجوز وزوجته سيتم القضاء عليهما ببساطة.

ابتسم الرجل بمفرده، بينما رجلا الأمن يركّزان على القفل. سحب الرجل يده بسرعة من جيبه لينظر إلى ساعته اليدوية. يجب أن يكون الباب مفتوحاً خلال دقيقة. هذا يسليه أن يحدد الزمن اللازم لتنفيذ مهمة الرجلين حارسي الهيكل.

الرجلان يرتديان بزات عمل سوداء ونظارات تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

في أقل من دقيقة، فُتِحَ الباب، نظر الرجل إلى العميلين باطمئنان وهما يدخلان الجناح.

* * *

كانت ليا جالسة على مرفق واحد.. تغط في نوم هادئ دون أن يُسمع لها أي ضجة إلا إذا كان مصدرها الأحلام صوت نومها أشبه بوقع نعل الحذاء على غرفة البهو، أو بلاط المطبخ.

أما مارتن هيرتز فينام على الجهة اليمنى، أشبه بفقمة ضخمة جانحة، جسد ميت دون

تنفس. تستغرب ليا كيف أن هذا الصندوق الكبير لا يصدر عنه أي شخير. ما يبدو لها أنه غير طبيعي زوجها يغط في نومه كأنه في حالة سبات.

ـ مارتن.. مارتن، همست ليا في أذنه، استيقظ! استغرق هيرتز عدة ثواني ليستجيب ويتحرك. سمعت ليا صوتاً آخر آت من الطابق الأرضي. شبيهاً بالصوت الأول. وقع خطوات. خطوات كانت تحاول كتمها حذاء مطاطي خفيف لا يحدث ضجة نعم، خطوات.

ـ استيقظ: أحدهم يمشي في الأسفل!

همست، لأن هناك خوف في صوتها.

فتح هيرتز عينيه على الغرفة المليئة بكتل من الظلال المكسَّرة من نور مصباح جداري بعيد يتسلل بين شباك النوافذ.

ـ أؤكد لك مارتن.. أحدهم في الطابق الأرضي.

أصغىّ هيرتز وأصغى جيداً ثم أوقف تنفسه للتنصت.

ـ لا أسمع شيئاً.

مع ذلك مال نحو الطاولة قرب السرير وبأدنى ضجة، فتح الدرج. وأمسك بيده اليمنى مسدساً مسطحاً.

ـ تمتم وهو يحاول الخروج من السرير دون صدور صرير المفرش قائلاً: الحقيقة أن سمعي أصبح خفيفاً في هذه الأيام الأخيرة من حياتي.

* * *

تقدّم حارسا الدم واجتازا البهو وتهيآ لفتح باب مكتب مارتن هيرتز. فهما يعرفان أن وصية المجنون مخبأة فيه. توجها لدخول الغرفة عندما أشار أحدهم بيده إلى الدرج. حدثت قرقعة خفيفة.. من لوح خشبي في الأرضية. وهناك، على قاعدة الدرج، ظهر ظل ضخم، عال ثقيل وسميك، يتحرك ببطء داخل نظارات المحامي العاملة بالأشعة تحت الحمراء!

نهضت ليا بدورها من سريرها لحظة بدء زوجها بفتح باب الغرفة ليذهب إلى مسطحة الدرج. كانت تفضل بقاءه في الغرفة دون الخروج منها، وتلوم نفسها لأنها أيقظته. فهي مرعوبة من أجله، لكن كل شيء تم في صمت مطبق، لم تُحدث قدما مارتن هيرتز العاريتان أي ضجة خلال سيره على السجادة الرقيقة. توجه نحو الباب الكبير المفتوح على مصراعيه، لم يقع شبح مارتن ضمن مجال رؤيتها وهذا الغياب عن نظرها تهديد لها، الأمر الذي جعلها ترتعد خوفاً. والقرقعة التي كانت تسمعها أشبه بسحق عظام صادرة عن مئة وعشرين كيلوغراماً وضعها زوجها على أرضية المسطحة.

عند وصولها إلى عتبة الغرفة فوجئت بلمعان ضوء وصوت طلق ناري.

سحقاً! صرخ هيرتز.

طلقة أخرى. «هل هو من يطلق النار؟ فهي تجهل الصوت الذي يعطيه مسدسه، لم يسبق لها أن سمعته، لماذا عليها أن تسمعه؟» صرخت في ذهنها مارتن! لأن الحدث يجري مثل كابوس فهي تريد الكلام، والصياح، والنداء، لكن لا شيء يخرج من بلعومها المكلّس. بدا الوقت أنه ممزوج بمستنقع من المشاعر اللامترابطة التي تتلاطم، تتمزق وتُضْمِر في الذهن.

ـ لمعان جديد وصوت طلق ناري. صوت تحطم إناء، أصوات ترتفع، أصوات باللغة الإيطالية، أصوات غير راضية.

بصورة آلية، بعيداً عن الواقع، خرجت ليا من الغرفة للبحث عن مارتن، ولتتحقق من وقوفه وليس ممدداً على المسطحة، أو مضرجاً بالدم.

ـ لا، ليا! ابقي في الغرفة، يا إلهي، لا تتحركي! إنه هو من يصرخ، إذن حي. «شكراً لك يا إلهي!». حاول ذراع مارتن القوي منعها، لكنها ألقت بنفسها إلى الخلف. لتتلقى اللمعان والانفجار وسط صدرها.

ألقت نظرة دهشة على زوجها، انحنت من الألم الذي يقطع (وسطها)، سقطت ووجهها على الأرضية الخشبية للغرفة. شعرت برائحة الورنيش اللذيذة. من عسل وكستناء، ثم غاصت في فراغ دون قرار، مليء بالظلمات.

* * *

خرج حارسا الدم من الجناح، فأسرع الرجل متلهفاً للقائهما ولسماع النتيجة.

ـ لقد فاجأنا المحامي!

لم ينطق الرجل بأي كلمة. فكّاه مشدودان، عينان منقبضتان، ينتظر نهاية الكلام.

ـ لقد أطلق النار علينا، تعاملنا معه بالمثل.. بصورة لا إرادية.. أصبنا زوجته.

ارتدّ الثلاثة على أعقابهم جرياً وسط الحديقة.

ـ صاح الرجل مجانين! إذا كان عليكم قتل أحد فهو هيرتز وليس زوجته! محاولة سرقة سيئة بدلاً من قتل المالك قتلتم إنسانة بريئة.

عاد حارسا الدم إلى شاحنتهما، وقبل أن يعود الرجل إلى سيارته، قال لهم:

ـ اهربوا، اختبئوا في المنزل المملوك وسألقاكما فيه. عاد الرجل من حيث أتى، يداه في جيوبه: المطر يخطط وقع خطاه القصيرة. هذه المرة يسرع الخطى.

* * *

ـ لا تتحركي يا عزيزتي. سأستدعي جان كلود؟ وهو سيعرف ما عليه فعله. لا تتحركي، عزيزتي ليا.

لكن ليا لم تسمعه، أشبه بجثة هامدة، منطوية إلى نصفين. مع ذلك مازال نبضها يعمل، لكن بشكل ضعيف. أما هيرتز فقد بني أمله على هذه النبضات الضعيفة.

جرى بغير وعي وهو يهبط الدرج بسرعة رغم ثقل وزنه.

هاتفي المحمول، لماذا علي أن أتركه في الأسفل كل مساء؟..

كاد يسقط في البهو، لاحظ أن باب المدخل ظل مفتوحاً على الحديقة. تدخل منه رائحة العشب تحت المطر. أخذ هاتفه، وضغط على الذاكرة. «حراس الدم! لا يمكن أن يكون سواهم..».

جان كلود دورست يشرف على عيادة في آنطوني إنه أخ في محفل إيلياه، واحد من أقدم الأصدقاء.

ثلاث، أربع رنات. شريطة أن لا يكون مشغولاً هيرتز ينظر إلى الساعة الجدارية.

عند الرنة الخامسة تتبع كلمة ألو إنه نائم.

ـ جان كلود، أنا مارتن، أعرف أنني أوقظك! ساعدني أرسل سيارة إسعاف إلى البيت، تعرضت ليا إلى اعتداء، إنها مصابة بجروح.. ساعدني، أيها الصديق! محاولة سطو، نعم! «لا يمكنني أن أشرح لك، إنهم قتلة من الفاتيكان أطلقوا النار على ليا».

أغلق الخط. «الآن، أطلب البوليس». ريثما يطلب رقم الشرطة، فكرّ بأن زوجته يمكن أن تموت بين ثانية وأخرى. أصيب بدوار ورغبة بلقاء ليا حبيبته صديقته القديمة.

ـ آلو. أنتم طلبتم الشرطة؟

الرائحة المحمضة للعشب في الحديقة، دخلت لتوها إلى البهو تحملها نسمة ريح. عطر عشب مجزوز وتراب رطب شبيه برائحة القبر.

24

رؤيــا

السبت الساعة التاسعة.

جلس موزيل على مقعد من فرو الخلد متصفحاً مجلة دورية قديمة منتظراً صديقه. كانت لديه رغبة شديدة للتدخين تشد بلعومه. فقد استعاض عن نقص التبغ بتناول ثلاثة فناجين قهوة من الموزع الآلي.

خرج مارتن هيرتز من أحد الغرف. متقدماً الطبيب الذي غادره وهو يربت على كتفه.

نهض موزيل، الذي اطمأن لحركة الطبيب دليلاً على زوال الخطر وتقدم للقاء صديقه الذي لم يسبق أن رآه في حالة تثير الشفقة. كان العملاق منهاراً، فاقداً بضع سنتمرات من طوله. كتفاه محنيان، قسمات وجهه مشدودة وتجاعيده غيبت وجهه عادة، دالة بقسوة على عمره. حلقات بنفسجية تحلقت حول عينيه الحزينتين المحمرتين.

ساعده موزيل على ارتداء مشمعه الذي كان يشده بلا اكتراث على صدره.

ـ سأل موزيل كيف حالها؟

يبدو أن العملية تكللت بالنجاح كما أعلمه دوريست منذ دقائق.

في هذه اللحظة شرح لي طبيب مقيم أنهم سيبقوها في حالة سبات. يمكنك رؤيتها.. مع أكياس الدم التي ينقلونها لها، ووجهها الصغير المزرق، بسبب سقوطها على الأرض.

ـ مارتن هذا مذهل، أنت تعرفه جيداً.

وصل الرجلان إلى المصعد. حدّق هيرتز بقوة أمامه لكنه لم يرَ شيئاً، عندما تأكد موزيل أن هيرتز لا يرى أمامه، أخذه بذراعه ليساعده في الصعود إلى حجرة المصعد.

ـ مارتن لماذا هاجموك، لقد علمت الفاتيكان أنك تحتفظ بالنسخة الثانية لوصية المجنون؟ لكن هل يتعلق الأمر فعلاً بالفاتيكان؟

يبدو أن هيرتز عاد طبيعياً، وعادت عيناه للسطوع بلهبها المعتاد. وقال:

ـ لقد جاء الوقت الذي أحدثك فيه عن حراس الدم، يا ديدييه إنهم يطاردون المخطوط منذ قرون.

ـ أجاب موزيل متعجباً، حراس الدم؟.. إنها أسطورة كُتِبَ حولها الكثير من الحماقات!

أومأ هيرتز برأسه وحرَّك خديه الثقيلتين مثل شدق كلب أبطم.

ردّ منتقداً:

ـ مع ذلك فهم موجودون، نسيج الافتراءات الرومانسية التي أحيطوا بها سمحت لهم البقاء في الظل، مختبئين خلف ستار من الدخان.

وصل الاثنان إلى الطابق الأرضي، ولدى مغادرتهما المصعد. لا حظ موزيل خطوات هيرتز المتثاقلة.

قال موزيل:

ـ إنهم يشكلون منظمة سرية (إخوانية) مرتبطة بالفاتيكان!

عقّب هيرتز: بالحقيقة، هذه الجمعية مكلفة بمنع اكتشاف السر. تحاول إيجاد القبر لإخفائه عن وجه الأرض. هذا هو هدفها الوحيد، ومعركتها الوحيدة منذ قرون!

اجتازا رُدْهَة وهما صامتين وغادرا من مشفى القسم الجراحي وصولاً إلى شارع بروفيدانس حيث ركنا سيارتهما..

رفع المحامي العجوز عينيه نحو السماء الصافية، والتفت نحو موزيل قائلاً:

ـ هذا الخريف مضطرب لا استقرار فيه.

ـ وأضاف أنا متعب، يا ديدييه، متعب جداً.

سأرقد قليلاً قبل مروري على المفوضية حيث ينتظرونني في نهاية الفترة الصباحية.

ـ قال موزيل وهو يتأبطه: أرغب في البداية أن أطلعك على شيء ما، ومن ثم تعطيني رأيك به، لن يستغرق هذا طويلاً.

ـ آه؟

فتش موزيل في جيب محفظته وأخرج منها رسالة مطوية أربع طيات وأعطاها فوراً إلى هيرتز.

ـ أنظر إلى هذه الرسالة.

ـ من فرنسيس أليس كذلك؟

بسط هيرتز الرسالة، وبدأ يتفحصها ببطء، وانتباه شديدين.

ـ يبدو أن فرنسيس كان شديد من الاهتمام بنصب مانوي في غابة الشرق، بين كورتران ولوزيني، القريبتين جداً من تروي حسب تدقيق موزيل، ألا يعني هذا لك شيئاً؟

تنهد هرتز وزفر تعباً:

ـ ستكون خاسراً لو أجبتك بالنفي، هل باستطاعتنا مناقشة الأمر لاحقاً؟

ـ طبعاً: لكن، اعتباراً من يوم الاثنين سأطلب من إدارتي إجازة سأذهب خلالها إلى تروي.. لرؤية هذا النصب المانوي عن قرب.

أعاد هيرتز الرسالة إلى موزيل فأعاد طيّها بانتظام.

رجاه المحامي بأن لا يرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه فرنسيس.

ـ لا يمكنني التراجع مطلقاً، لقد أحرقت وصية المجنون أصابعي وأنت تعرف بعض الأشياء التي يمكنها أن تساعدني، مارتن؟

ـ كن حذراً، يا بني. هذا المخطوط لا يحرق الأصابع فقط وخير مثال فرنسيس الذي غامر بالتجربة المريعة.

ـ أعتقد أنك لم تعطني عن عبث نسخة عنها، فقد قرأت ملاحظاتك وتفسيراتك وفهمت أنك تبحث أنت أيضاً عن القبر، ما هو دورك الحقيقي، مارتن؟

وجه هيرتز نظره لحظة إلى موزيل وأجاب:

ـ دور صديق، وأخ.

استقل مارتن سيارته، بينما ظلّ موزيل، المتوجه نحو سيارته، غارقاً في التفكير: «هناك شيء آخر، أيها الأخ العجوز، أنت تسحب الخيوط وأنا أريد معرفة الدمية في الطرف الآخر. هل هو أنا؟».

أقلع هيرتز وهو يقود بيد واحدة، بينما يضغط على أزار جهازه المحمول باليد الأخرى. ولما حصل على الخط، قال:

ـ أعرّف عن هويتي: أصل ـ شرق... آه، هل سبق وعرفت ما يخص ليا؟ نعم.. لكن فيما يخص ديدييه موزيل... إنه يقترب، سيعثر قريباً على الكنيسة الصغيرة... بفضل النصب المانوي!

* * *

أمضى موزيل نهار السبت غارقاً في قراءة وصية المجنون، أو على الأصح في عشرات من القراءات، ناسخاً معظم الجمل الهامشية التي أضافها الهيكليون: «الظل يمشي خلفه» حيث «الملاوي في غابته، يعود القهقرى سيقطع المثلث حتى يصل الظل...».

هذا المانوي... دائماً موجود هذا المانوي!

اتصل مرتين بـ إيميلي مستغرقاً باتصاله في الهاتف، تكلم عن فرنسيس، شخصيته، مهارته كرسام مائي، موهبة منسية قليلاً، حماسه...

فرض موزيل على نفسه ساعة كاملة من التمارين الجسمانية مساءً في صالونه، ثم استحم بماء بارد، وحضّر وجبة طعام التهمها أمام التلفاز.

استسلم إلى النوم عند الحادية عشرة. وأثنى على خاصته لأنه لم يدخن سوى سبعة سجائر.

قضى ليلة يتخللها فترات من الكوابيس القصيرة، مقاطع من الألم المبهم، الرعب، الحزن، شعور بالذنب لا يمكن تجاوزه أثقل صدره مثل ورم، يسحق قلبه.

حلم أنه في غرفة إيميلي.. الغرفة المظلمة، الشبيهة بالقبر، مستلقياً إلى جانب المرأة الشابة عارية. وبشرتها شاحبة على نحو غير واقعي.

تمنى ضمها بين ذراعيه، ومعانقتها بشدة، لكنه لم يتمكن من الحركة من جراء المسامير الضخمة المغروزة في قدميه ويديه بينما ينظر إليه فرنسيس، من عتبة الباب مغموراً بحزن لا متناه. أشبه بشاهدة القبور. يظن أنه يتألم لصديقه المصلوب، والمثير للشفقة في عذابه الأبكم دون أنين.

صباح الأحد، نهض موزيل باكراً جداً على مذاق موحل في حلقه، ومقاطع من الصور المرعبة تطفو على ذهنه: تناول قهوة سوداء قوية، وأكل ثمرتين وقرر الذهاب للجري في ملعب برانسيون.

بينما كان خارجاً وبطريقة لا إرادية، تأكد من عدم وجود أي شاحنة صغيرة بيضاء. أثناء الطريق، اتصل بإيميلي بواسطة جهازه المحمول، تأسف ظناً منه أنه أيقظها من نومها. تكلما لبضع دقائق، وتبادلا كوابيسهما. لم يتمكّن من عدم إثارة المشهد الذي وجد فيه نفسه مصلوباً.

لزمت إيميلي الصمت لدى إثارة ذلك المشهد متحفظة بعدم إحياء وتأجيج ذكرياتها.

ما أن وصل إلى الملعب، حتى بدأ موزيل بالدوران حول مضماره إلى أن يشعر بالإعياء. ليقينه أن التعب الجسدي سيطرد في وقت ما تلك الليلة المعلّة التي التصقت بقلبه. عاد موزيل إلى شقته، أخذ حماماً ساخناً، ثم تناول الغذاء وأغلق على نفسه مكتبه مع النسخة المصورة طبق الأصل عن وصية المجنون، الرسالة، والشريط الممغنط اللذين كانا بحوزة مارلان.

- اتصل هاتفياً بمارتن هيرتز فأُعلم أنه ذاهب إلى ليا. ورغم طمأنة دوريست من جديد. فقد ظل، هيرتز مقتنعاً بسوء صحتها، وقلقاً على حالتها، حاول موزيل طمأنته والتخفيف عنه بقدر الإمكان مدركاً أنه من الصعب إقناعه.

كان موزيل يحاول النوم عند منتصف الليل، فإن كوابيس جديدة من الخوف تصبّ عليه وتجعله في قلق دائم.

لم يعد يتذكر أحلامه عند الصباح، هذا ما طمأنه وأعاد إليه الشعور أنه نام بما فيه الكفاية واستعاد ما يكفي من الطاقة ليبدأ أسبوعه الجديد بالعمل.

«الخميس مساء، سأكون في محفل إيلياه لرثاء فرنسيس. وفي نهاية الأسبوع، سأغادر مباشرة إلى شامباني، باتجاه غابة الشرق!».

أدرك موزيل أنه تجاوز ساعة استيقاظه المعتادة، لم يسمع جرس المنبه.. هذه هي المرة الأولى التي أتأخر فيها عن المؤسسة!.. رغم ذلك لا داعي للسرعة نتيجة حرصه على تحضير كوب من القهوة السوداء.

بينما كان موزيل يعبر الباب الأحمر لمكتبه متأخراً ساعة كاملة عن العادة، اكتشف فريقه الصغير وهو يتخبط بحمل أحضانٍ من الورق خرجت لتوها من الطابعات. روغترز يشبك الأوراق ويقدمها إلى هيلين موستيبه، وبدورها ترتبها وسط المصنفات، بينما كان سوفير منهمكاً في الضرب على أزرار لوحة حاسوبه.

ـ توقف موزيل قليلاً. متأملاً المشهد بلمحة بصر. وقف مشدوها. أكواب من القهوة مزروعة في كل مكان، بقايا الشاي مبعثرة على الملفات، سلال مهملات تفيض بالأوراق المجعدة.

ـ باسم الله! هل حدث انفجار؟ تعجب موزيل وهو يخطو فوق المعاجم التي تعج بها الأرض.

ـ سلام، أيها العجوز! قالها العملاق دون التوقف عن جمع أوراقه. منذ ساعة ونحن نتخبط مع هذه الكيلومترات من الورق.

ـ أنت يا نوربرت سبب هذه المصيبة مرة أخرى، لم أرَ أبداً آلة ثرثارة بهذا القدر. شرحت هيلين موسيبه التي كانت ترتدي ثوباً بلون فاتح مع تنورة قصيرة.

ـ أعاد روغتزر القول بأن نوربرت اكتشف لؤلؤة في 456Q4 ـ 458, نحن الآن عند الصيغة الألف الممكنة لترجمته. أتساءل فيما إذا كان صديقنا مهووساً خطيراً!.

ـ لقد اكتشفت مقطعاً لا علاقة له بالصلاة أو أي مبدأ أخلاقي من النظام الإسِّيني، نوه المترجم العجوز رافعاً بكل أسف عينيه عن الشاشة.

ـ علّق موزيل على حديث نوربرت هذه ليست المرة الأولى.

فتح صوفير مصنفاً، أخرج منه ورقة وبدأ القراءة:

ـ اسمع، يا ديديه: «**أبناء النور يجتمعون حول الأخ متحدين. الأخ الذي لم يكن أي جرح في يديه، أو أي جرح في كاحله، يقول لهم سيأتي يوم لن تكره فيه الأمم بعضها بعضاً**». الباقي هو باللهجة نفسها، هل تدرك هذا ديديه؟

«لا جراح في اليدين، لا جراح في الكاحلين...» يؤكد المؤلف أن الأمر يتعلق بأخ لم يُصلب!

علق موزيل قميصه على المشبك، مغفلاً بإرادته، الأهمية التي يثيرها في داخله هذا الاكتشاف. فقال:

ـ اهدأ يا نوربرت. يجب أن لا نحتدَّ بسبب بضع كلمات.

ركّز سوفير نظارته الضخمة على أنفه موجها إلى موزيل من فوق إطار النظارات، نظرة ساخطة غاضبة، وانتصب واقفاً خارج كرسيه:

ـ هل من أجل بضع كلمات؟ نقتل أنفسنا من أجل هذه اللفافات المهمة من الجلد المخطوطة المهترئة والتي جاء بعضها دون شك معاصراً للمسيح، ومن ثم تقوم بمسح المقطع بطرف يدك! آه لو كان فرنسيس ما زال حياً!

ـ أعلم إلى ماذا تلمح إليه، يا نوربرت، لكن يسوع لم يكن المحكوم الوحيد الذي صُلِبَ في ذلك الوقت.

تنهد سوفير، ونهز كتفيه وبدأ يقلّب كومة المصنفات المتعددة الألوان التي أنجزتها هيلين موسييه.

ـ قال: هذا ليس كل شيء وأمسك بورقة جديدة رفعها مثل غنيمة. لقد لاحظت بنفسك، يا ديدييه أن كل النصوص الأخيرة التي زودتنا بها «لارجهيد» يوحنا. أتكلم طبعاً هنا عن يوحنا الإنجيلي. كثيرون الذين يخلطون بين شخصين باسم يوحنا.. هنا أولاً يوحنا المعمدان، الذي نحن متأكدون أنه أحد تلامذة الآسينيين ويوحنا الإنجيلي، المسمى أيضاً نسر باتموس ويمثّل عادة بنسر وكرة أرضية عند قدميه.

ـ عقّب موزيل: الحقيقة، أنه يحمل صليباً رمزاً للرسالة التبشيرية المسيحية، لكن: إلى أين تريد الوصول يا نوربرت؟

ـ اسمع النص الذي ترجمته: «إلهي، لماذا لم ترد أن يقال لهم؟ أيها الإله، لماذا كذبنا على اللاويين والكهنة؟ قل لنا، أيها الإله». إذاً لم يكن يوحنا المسيح؟ لماذا لم يكن نبياً؟ لماذا يعمّد إذا لم يكن إيليا؟ لماذا إلهي، أخونا الذي «كان يمنح الأسماء» لم يكن المسيح؟ وهكذا من خلال لائحة مطالب وصلوات طويلة!

هذا في 456Q4 ـ 458 ، لفافة (رزمة) المخطوطات المكتشفة في قمران. المكان المحصّن للآسينيين!

لا أجد هنا ما يثير المفاجأة، يا نوربرت، نحن نعرف أن إنجيل يوحنا يتضمن الكثير من التعابير الإسينية، وليست هي المرة الأولى التي تذكر مخطوطات البحر الميت في عمل هذا الإنجيلي (المبكر)، الذي كان مكوناً ومهتماً بالأفكار الآتية من قُمران.

ـ ديدييه إنها أشياء تافهة!

توقف كل من روغترز وهيلين موستييه عن تصنيف الأوراق، وفوجئوا بتبادل الحجج والبراهين بين الرجلين.

تحدث موزيل بصوت عال: في نهاية كل نقاش لن تحصلا على شيء الإنجيل حسب القديس يوحنا يتأرجح في حركة دائمة بين الظل والنور، بين الحقيقة والكذب، ملاك النور

وملاك الظلمات! الفكر الآسيني كان في ذلك الوقت منتشراً بكثرة ويتلاعب بهذه التناقضات.

تنهد صوفير للمرة الثانية، وقد بدت ملامح الأسف على المحاور المميز فرنسيس مارلان. إلا إذا كان موزيل يتسلى في القيام بدور الساذج؟

قال نوربرت: ليكن، لو استطعت التعبير بهذه الطريقة. طبعاً لقد ذكرت لتوك بذلك: ظل ـ نور، خير ـ شر، الخ. هذا يا صديقي من التفاهات ولغط الكلام. من جهتي ما أحاول إثباته لك هو هذا التشابه المدهش بين ما أتيت على قراءته لك وبداية نص القديس يوحنا فقرة أول عيد فصح.

ـ لا أفهم دائماً، ولا أتتبع أفكارك! لكن موزيل يكذّب كل ما يكتشفه سوفير الشديد الحماس.

أعاد نوربرت وضعَ الورقة على مكتبه وأمسك بكتاب التوراة الكبير الذي لا يفارقه أبداً. لم يجد أي صعوبة في فتحه على أول الفصح، إشارة تدل إلى رقم الصفحة يقول:

ـ ما صدمني، هو روح هذه القطعة 456Q4 ـ 458, لدينا الشعور أن مؤلفها يوجه لوماً (توبيخاً) إلى الله. تذكروا، سبق أن لاحظنا ذلك في القطعة A530 - A538 المؤلف هنا يقتبس بالضبط جمل يوحنا الإنجيلي لكنه يقلبها بطريقة يعبر فيها عن الشك. الشك يا ديدييه!

حكيم متدرب في قمران يوبخ الله ويشك فيما اتفق على التفكير به.! حتى الآن، كل مخطوطات البحر الميت، وخاصة تلك التي بين أيدينا، ولنا الحق بالاطلاع عليها أخذت جميعها الاتجاه نفسه!

أوافقكم أن إنجيل يوحنا موجود على لوحة. أتقنت ألوانها! يجب عدم تكرار ذلك... ألا يزعجك هذا الشريط المأخوذ من 456Q4 ـ 458 يا ديدييه؟ هل تجده طبيعياً، تافهاً، من نفس ماء الكل، أقول كل ما تعرفه عن كتابات قمران؟

لقد محى موزيل كل شيء عن شسترفيلد وترك نفسه يسقط عليه.

ردّ، سوفير مندهشاً بسبب التعب الذي بدّل فجأة ملامحه. أقدّر، أظن، مدهش...

جلس الرجل العجوز بدوره صامتاً، ثم قرأ مقطعاً من التوراة:

ـ إليكم شهادة يوحنا: **عندما أرسل اليهود إلى القدس كهنة وخدمة المعبد من (لاويين) ليسألوه: «من أنت؟» اعترف: «أنا لست المسيح» سألوه: من تكون إذن؟. هل أنت النبي؟ أجاب: «كلا».**

توقف سوفير، من النظر إلى موزيل وأوغل أبعد من ذلك في التفسير: طرحوا عليه أيضاً هذا السؤال: **«لماذا إذن تتعمّد، إذا لم تكن لا المسيح أو إيليا أو النبي؟».**

أغلق سوفير الكتاب الضخم، بيديه الملطختين باللون البني ورسم إشارة الصليب على جلده البالي. بهذه الحركة المضادة رسالة إلى أنه يريد الحفاظ على كل تعابير الكتاب المقدس ليتجنب الشك بها. يبقيها في صندوقهم مربوطة ببعضها البعض، كما فرضت ذلك أجيال بشرية كثيرة.

لكن الـ 456Q4 ـ 458 جاءت وغيرت التسلسل.

لم تعد الكلمات تعبّر أبداً عما طالبوا به منذ ألفي عام. تبدو كأنها متناقضة.

نهض الرجل العجوز وصبّ لنفسه فنجاناً آخر من القهوة. ويداه ترتجفان. أعاد موزيل التفكير من جديد بفرنسيس مارلان. صوت صديقه نبراته المرعبة لا تغادر مخيلته. لم تتوقف عن لومه لأنه لم يستأنف البحث، أو لم يتبنى جنونه؟

كيف يمكن منع سوفير الثعلب من التساؤل يومياً في المؤسسة حول السر الذي تكشف عنه القطعة 456Q4 ـ 458؟

وحراس الدم.. وإذا كانوا موجودين فعلاً، كما يؤكد ذلك هيرتز.. بأي طريقة يجب التصرف لتجنب قيام فضولي برفع شاهدة القبر؟

«قبر الأخ... الأخ الأول!».

ـ سألت هيلين موسييه بصوتها الدافئ والمتصنع، العذب ذي اللهجة الالمانية الظاهرة بشكل لافت: هل هدأت العاصفة؟

عدّل نوربرت سوفير وضع نظارته ذات العدسات السميكة، محركاً رأسه الكبير المجعد،وسط ابتسامة مصطنعة: ثم قال معتذراً.

ـ لقد هدم موت فرنسيس كياني، أعترف أنني فقدت أعصابي. أُعذرني أيها الرئيس.

ـ طمأنه موزيل: وهو يصب لنفسه فنجاناً من القهوة: أنت معذور يا نوربرت وأضاف لنفسه: «أوقفوا كل شيء، أحرقوا كل شيء، يجب إتلاف كل ما نعرفه: هذا ما كان علينا فعله، كما أمرني به فرنسيس، وكذلك إيميلي.. كم توسَّل إلينا ليحمينا! لكن بعد فوات الأوان.

25

الجلسة الجنائزية

الخميس، الساعة التاسعة عشرة وخمساً وأربعين دقيقة، شارع بوتو، المقر الباريسي للمحفل الكبير في فرنسا. دخل موزيل البهو الصغير، مرتدياً مشمَّعاً رمادياً، بِزَّة رمادية داكنة وربطة عنق فراشة سوداء، محفظة وثائقه تحت إبطه، وبصوت منخفض، مثل كل الإخوة الذين يدخلون البناء، يجب أن يهمس «بكلمتي نصف السنة» في أذن الأخ المُسقِّف المكلف بإبعاد الزوّار غير الماسونيين.

بعد أن خلع مشمّعه في غرفة الألبسة، سار نحو الساحة الداخلية وهي عبارة عن بهو واسع مربع الشكل، أبيض، يشعّ فيه نور هادئ، يستقبل عادة معارض رمزية شهرية، تحده أربعة أعمدة، أثاثه مقاعد معدنية معدّة لانتظار الأخوة ريثما تعقد جلساتهم.

جميع الرجال الحاضرين يرتدون اللون الغامق الداكن. محفل فرنسا الكبير ليس مختلطاً، الحضور هم من الرجال فقط.

لمح موزيل، مارتن هيرتز متوجهاً نحو الدرج النازل إلى النادي الاسكتلندي، البار- المطعم حيث تنظم فيه الموائد التقليدية بعد الجلسة، هيرتز مصحوباً برجل طويل القامة، هزيل الجسم، يقارب الستين عاماً شعره طويل أبيض، يرتدي بزّةً رائعة مفصلة على مقاسه، ويحمل محفظة صغيرة من الجلد في يده اليمنى.

اقترب موزيل من الرجلين فاستطاع عندئذ التمييز بوضوح ملامح المجهول (الغريب). مظهر طوعي، ذقن منتفخة بالرغم من هزال شبحه. أنف ناعم، أقنى قليلاً. شفتان ضيقتان وشاحبتان، عينان زرقاوان خلف نظارات بأطر معدنية. وجه ذكّره موزيل بشخص ما. صورة طبق الأصل؟ نعم لقد سبق له أن رأى لوحة لهذا الرجل في مجلة أو على التلفاز.

- هتف هيرتز بحرارة. آه ديدييه! كنا ننزل لنحتسي كأساً في النادي؟ نحن متقدمون على الموعد. الإخوة المتمولون يحضرون الهيكل من أجل الجلسة الجنائزية.

- مساء الخير، مارتن.

وضع هيرتز يده على كتف الرجل الضعيف البنية وقدّمه إلى موزيل:

- هوذا الأخ أرنستو بونتفليون. الذي حدثتك عنه سابقاً فهل تتذكر؟ فقد وصل يوم أمس من روما.

ابتسم البروفيسور بونتغليون إلى موزيل وأحتضنه بين ذراعيه ليتبادل معه ثلاث قبلات أخوية. وبلغة فرنسية سليمة موسيقية قليلاً، قال:

ـ لقد سمحت لنفسي بأن أتكلم بالهاتف مع مارتن الذي أعلمني أن الجلسة الجنائزية في ذكرى فرنسيس ستتم هذا المساء وستكون طبعاً حاضراً فيها.

ـ أنا سعيد بلقائك إرنستو، لقد تلقيت الرسالة التي أرسلتها لي في المؤسسة.

سلك الثلاثة الدرج ووصلوا إلى النادي الاسكتلندي المليء بدخان السجائر، حيث معظم الإخوة يتكلمون ويشربون ضمن جماعات صغيرة. يختارون طاولة خالية دون نسيان توجيه التحية على طريقة مسرحية إلى الإخوة من معارفهم.

ـ حضر خادم ليدوّن طلباتهم: ويسكي لهيرتز، قهوة لموزيل وبونتغليون.

ـ أعتقد أن ليا ستلومك لو عرفت أنك تشرب الويسكي في مثل هذه الساعة، سخرَ موزيل وقال في الواقع، لقد رأيتها هذا اليوم؟

أومأ هيرتز برأسه، مخفياً بسرعة مزاجه المرح وأجاب:

ـ نعم، ثم ألقى نظر ملحاح على موزيل، وأضاف:

ـ لقد روَيتُ إلى أرنستو المأساة التي حصلت لنا. ذلك السارق الذي فاجأته ليلة الجمعة... وطلقة الرصاص التي أصابت ليا مسببة جروحاً في البطن.

قال بونتغليون: لقد آلمني هذا الخبر الرهيب. طلبت من مارتن فيما إذا كان جناحه مجهزاً بنظام أمني، أجابني بالنفي.

قضت الصدفة أنه في اللحظة نفسها، كان جان كلود دورست يجتاز صالة النادي الواسعة. توقف لحظة أمام طاولتهم وتبادل بضع كلمات مع هيرتز بعد أن قدم له البروفسور بونتغليون دون إعطائه السبب الحقيقي لزيارته محفل إيلياه.

ـ سأجدك في الهيكل، قال دورست وهو يتوجه أولاً نحو البار.

حضر الخادم ليقدّم المشروبات، وقبض التكاليف. عاد بونتغليون ليتحقق من أنه بعيد بما يكفي عن الحضور ليتكلم بأمان:

ـ أعلمني مارتن أنه سلّمك نسخة عن وصية المجنون. بفضله درستُ مطوّلاً بعض مقاطعها..

ـ لا بدّ أنك أخبرت فرنسيس بنتائج دراساتكم؟

ـ أنا آسف لذلك، أعتقد أنني أتحت له دعم نظريته. أنت تعرف إلى ماذا ألمح، أليس كذلك؟

وافق موزيل:

ـ طبعاً.

تابع بونتغليون:

ـ كنت أخبرته أنا أيضاً عن الأعمال التي أنجزتُها لحساب الفاتيكان في عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانون. وهي سلسلة من الدراسات المنجزة انطلاقاً من تلك التي أجراها «رايت بيكر» من جامعة مانشيستر. والحقيقة أنني راجعت ترجمات بيكر الذي استطاع حل رموز ملفات من النحاس مصدرها قمران ومؤرخة في القرن الأول بعد المسيح.

ترجمة هذه اللفافة لم يكن بالأمر السهل، نظراً إلى اللغة المستعملة في كتابتها. كانت نوعاً من اللغة العامية البعيدة عن العبرية الفصحى.

لاحظ موزيل صمت هيرتز. رشف المحامي العجوز كأس الويسكي، العينان منتفختان من التعب الشديد، يبدو ظاهرياً بعيداً عن الإصغاء لحديثهما. لكن موزيل كان يشك أن ذهنه المشابه لذهن القط لن يضيِّع أي فتات من المحادثة. ذلك يذكره بلحظة مشابهة قبل تسع سنوات، وبينما كان مع مارلان فقد أسرًا له أنهما انتسبا إلى الماسونية وأنهما شرعا بالكلام عن مخطوطات البحر الميت.

وضع بونتغليون يده على ذراع موزيل، وانحنى فوق الطاولة ليهمس بقناعة مؤثرة:

ـ أحدهم اغتصب هوية المسيح وكان ضحية لعبته: أحدهم يشبهه لدرجة أنه يقدم البديل! هل فهمت ذلك، يا ديدييه.

تنحنح هيرتز، رافعاً كأس الويسكي إلى مستوى عينيه متأملاً للحظة لونها العنبري، ثم رشف ما تبقى دفعة واحدة، لكنه لم ينطق ببنت شفة فيما كان موزيل وبونتغليون يتوقعان ردة فعله.

تناول بونتغليون شيئاً من محفظته، وأعطاه إلى موزيل: إنه مغلف، بداخله ورق الكرافت المستعمل للصر.

ـ تفضل لقد أودع فرنسيس هذا المغلف لديّ. من الطبيعي أنه يعود إليك.

فتح الشاب المغلف وأخرج منه مفكرة صغيرة حمراء.

ـ إنها إحدى مفكراته!

ـ أوكلني إياها فرنسيس في روما للتفكير حول بعض النقاط. إنها ليست سوى بعض الملاحظات والمخططات... رسوم مائية، خاصة. قام بها عند مروره الأول في غابة الشرق حيث كان يبحث عن النصب المانوي، أنظر إليها، لقد رسم بقايا كنيسة صغيرة مع هذه الحروف على الهامش V.I.T.R.I.O.L وكذلك إحداثيات موقعها.

أخذ موزيل وقته في تأمل رسوم صديقه. مخططات ورسوم رائعة مرسومة بشكل واضح

على الصفحات، واضحة وعصبية. مخططات، بعض الجمل في الهوامش. تواريخ. لغة خفية مخصصة للاستعمال من قبل صاحبها.

ـ قال موزيل بصوت مخنوق: شكراً أرنستو.

نظر هيرتز إلى ساعته وأشار إلى أخوة محفل إيليا الذين يتوجهون نحو الدرج.

ـ لقد حانت ساعة الصعود.

ودون انتظار، رفع نفسه خارج مقعده. أما موزيل فقد دسّ مفكرة مارلان الحمراء في حاملة الوثائق.

عاد الرجال الثلاثة وصعدوا الدرج الذي يقود إلى البهو الموصل إلى هياكل الطابق الأرضي.

* * *

المصابيح النواسة تنشر على المارة حزماً من النور البرتقالي الشاحب. بعضهم من يتابع فيلماً على شاشته الشخصية الصغيرة، بينما معظمهم يغفوفي أوضاع غير مريحة.

المطر يضرب النوافذ الصغيرة تاركاً آثاراً بيضاء طويلة تشق ظلمات السماء. أحياناً يهتز المحرك، تقفز الطائرة، ويصرصر هيكلها، وتهتز المقاعد. هناك طفل خائف، أمه تطمئنه وتهمس في أذنه. رجلان يتكلمان بصوت منخفض.

ـ أنت لا تنام سيدنا؟ حضرة الأسقف؟

ـ أنا لم أعد أنام كثيراً في هذه الفترة، هل تعرف لماذا؟

ـ نعم، أعرف أن قضية موزيل تزعجك، لكن هل تظن أنه سيجد ما لم يتوصل أحد إلى اكتشافه منذ زمن طويل؟ نحن نفتش بأنفسنا، وننبش المكان ومع ذلك مازلنا في الظلمة.

أمين سرّ نيافته أراد أن يكون مطمئناً.

يا له من تناقض عجيب. الكنيسة تجتهد في جعل العالم أكثر روحانية وأفضل حالاً مما هي عليه، لكنها يجب أن تناضل للحفاظ على السرّ!

رفع نيافته يده اليمنى ليوجه كلامه. لوحظ في اصبعه الخامسة خاتم الشعارات الكبير المزخرف بحجر ياقوت أحمر يلمع مثل جمرة.

ـ لا تخاطر كثيراً، سيدنا؟ يمكن لحبرنا الأعظم العجوز أن يعرف أن..

ـ يعرف ماذا؟ أنني ذاهب مع أمين سرّي الخاص إلى السفارة البابوية في باريس؟ هذه الزيارة عادية وممتادة كيف يمكنه تصديق أنني أعارضه؟

ـ قال السكرتير: يمكنه الشك في ذلك، إنه رجل مريض، لكنه فائق الذكاء.. وغيلليو يزوره كل يوم.

وضع نيافته راحتيه على المسندين، تارة ينظر عبر الكوّة إلى المطر الذي يدفع بالليل إلى الحلول مسرعاً وتارة يلتفت إلى سكرتيره ويقول:

ـ نعم، البابا... أنا أحب البابا رغم كل شيء، إنه يجهد في المحافظة على وحدة الكنيسة ومحو آثار خطايا أسلافه السابقين البعيدين. إنه وريث معركة قديمة. أحبه وأشفق عليه.

ابتسم، وهو يفكر بمارتن هيرتز، مارتن الذي ينتظره. بسيجاره، ومشروبه المفضل من الكونياك. وبـ ليا التي بين الحياة والموت... معركة قديمة، منذ عشرين قرناً! معظم ضحاياها من الأبرياء!

* * *

الهيكل رقم 7 يلبس وشاحاً أسود بهذه المناسبة في وسطه، منصّتان عليهما لوحٌ من الخشب يمثل نعشاً، ملفوفا بغطاء أسود يصل إلى الأرض. في وسطه، وردة حمراء وضعت بعناية.

كل شيء أسود. أضواء خافتة: أضواء الشموع فقط.

ـ قال موزيل: هذا النعش... حتماً، لم أعتد أبداً على هذه الاحتفالات الجنائزية.

ـ هذا ليس سوى رمز، يا ديدييه. «الأخ الميت» وسط المعبد. إنه فرنسيس، أنت، أنا... وحيرام[1].

الجميع بلون أسود. لقد ساد الصمت عندما أغلقت الأبواب. عدا صوت المعلم الجليل الذي أخذ مكانه على المنبر.

ـ إخوتي، عندما تحين الساعة ونبلغ من العمر ما بلغنا، فإننا سنفتح أعمالنا في الدرجة الأولى من الطقس الاسكتلندي القديم والمقبول.

عندئذ فتح الأخ سيد الاحتفالات الكتاب المقدس على الصفحة الأولى إنجيل يوحنا، ثم وضع فوقه زاوية قائمة ومفتوحاً بطريقة تمثل رمز الدرجة الأولى للطقس.

ثم طالب المعلم الجليل بأنه على الأخوة أن ينصرفوا لعملهم بكل طمأنينة، تاركين العالم الدنيوي على باب المعبد سالكين الطرق المفتوحة أمامهم.

تكلّم عن المأساة التي أصابتهم. فقد آثر أن يعطي الكلام إلى توأم عزيز المأسوف عليه فرنسيس مارلان. نهض موزيل من مقعده، مرتدياً قفازاً أبيض، أخرج من جيبه ورقة مطوية، فتحها بهدوء ثم شرع بالقراءة:

«المعلم الجليل، أخوتي جميعاً، بالحقيقة وبما أنني رُسمت في الأمسية ذاتها مع فرنسيس،

(1) مهندس يقال أنه بنى هيكل سليمان، رمز أساسي في الأسطورة، الماسونية (من كتاب سيرة الماسونية)

فقد أصبحت توأمه من طريق الماسونية. تبعنا معاً الطريق ذاتها، صعدنا سوية إلى مرتبة رفيق ثم إلى درجة سيادة في الوقت نفسه. إلى ذلك، كنا صديقين من ناحية الاهتمام لبعض المواقع، صداقة حقيقية تولدت بيننا. استعمل عن قصد كلمة صداقة أكثر من أخوة التي نفضل نحن الماسونيين استعمالها. هذه الصداقة أيها الأخوة نبنيها في كل جلسة من طريق الطقس، الرمز، العمل. الصداقة، النابعة عن هذه المسلّمات.. لكن فرنسيس وأنا كنا قد أصبحنا صديقين حتى و لو لم تجمعنا الماسونية.

لن أقدم في هذا المساء رثاء (رثاءه). بل أريد أن أقول لكم ببساطة، إخوتي، كم كان فقدان هذا الصديق مؤلم لي.. كان فرنسيس جزءاً مني، كما كنت جزءاً منه. مع هذا الفرق الصغير كان أكثر ثقافة، أكثر شجاعة وبراعة مني. موته جعلني أنانياً. لدرجة أنني ألومه، لأنه سرق جزءاً مني واختار بلوغ الشرف الأزلي..

تأثر مارتن هيرتز أمام هذه الكلمات رافعاً رأسه. بينما موزيل يراقبه، بنظرة واحدة، محاولاً إفهامه أنه سيبقى ضمن إطار ما يمكن قوله. ثم تابع القراءة:

- وجدته على سرير غرفته، في فندق أخينا مارك، كنت بصحبة زوجته، تعرفون جميعاً أنه كان على أهبة الطلاق.. مررنا عليه بناء على طلبه بغية استرجاع بعض الوثائق المتعلقة بأعماله التي بدأناها في مؤسسة ماير. إننا نجهل دائماً السبب الذي دفع فرنسيس لوضع نهاية لأيامه.

بدأ صوت موزيل ينكسر. طوى الشاب ورقته وأعادها إلى جيبه قبل العودة إلى مكانه.

فتّش من جديد عن نظرة هيرتز، لأنه لم يكذب وهو يلخص الاكتشاف الذي قام به فرنسيس. غير صحيح: هذا ما أشار إليه المحامي من طرف لا يمكن ملاحظته. تعبيرٌ وجهه يوحي بالراحة، بينما يخفي بداخله ارتياحاً لا ينمّ عن حقيقته.

لاحظ بونتفليون الإشارات الغامضة المتبادلة بين الرجلين، لم يتفق معه عن احتمال أن يكون حراس الدم قد اغتالوا فعلاً مارلان مموهين القتل على شكل انتحار. لم يحاول أبداً الكلام عن الطريقة التي تم بها القتل، لكنه راض عن وجهة النظر الرسمية.

استمر الاحتفال. ولم يتمكن موزيل من تركيز تفكيره. صورة صديقه الممدد على السرير، ميتاً، مجمداً، تلاحقه. ذاكرته لا تتوقف عن تذكيره بطنين الذباب المشؤوم، تلك الذبابات الثلاث أو الأربع الضخمة السوداء التي كانت تحوم حول الخشبة... عرف أنه سيحتفظ بموسيقاها المشؤومة في ذاكرته طوال أيام حياته. وأنه لن يتوصل أبداً إلى محو صوتها من ذاكرته.

26

زيارة نيافته

الجمعة صباحاً.

نظر هيرتز إلى ساعته، لن يتأخر أبداً. دائماً يصل في الموعد المحدد ونحن نحتسي قهوة سوداء وندخن السيجار... أيضاً رمز شعائري!..

أخرج المحامي العجوز فنجانين مع طبقيهما من الخزانة، ووضعهما على طاولة المطبخ مع ملعقتين والسكر. بدا هيرتز معجباً بهذه الغرفة التي تذكره بمرتع طفولته. أدوات المطبخ، مجموعة الطناجر النحاسية، طناجر الضغط من الصلب، سكاكين مرتبة بعناية في شباكها، سماط من قماش فيشي مربعات حمراء وبيضاء. مزهرية مع باقة من الورد الأصفر القصير، رائحة التوابل التي لا يمكن تحديدها، العسل، العطور التي تحتفظ بها ليا في آنية الطين.

ليا توحشه كثيراً. ينقصه حضورها الصامت. غياب هذا الحيوان الرقيق الشعور يوخز عينيه، ويشد على قلبه. لم يتصور أبداً، في أنانيته، أن صديقته القديمة العجوز كانت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. ومن جهة أخرى تجعله الأنانية أن يتمنى عودتها سريعاً لتشاركه وجوده. لكن أليس هذا هو الحب الحقيقي؟ ذلك الشعور بالفراغ الذي يتركه الآخر، هو الذي يحزنك، كما عبر عنه موزيل، عشية الجلسة.

توقف المطر لوقت قصير، ريح رطبة تجتاح شارع جاكوارد، جارفة معها أولى أوراق الدلب الميتة المتساقطة. سيارة سوداء أتت ووقفت أمام الجناح الذي يسكنه هيرتز. ترجل منها رجل، مرتدياً معطفاً طويلاً وقبعة سوداوين. طويل القامة، صعد الدرجات الحجرية التي تؤدي إلى الحديقة التي أحزنها الخريف بخطوات واسعة. بستان الخضار الصغير مهمل حزين، نباتات بندورة ذبلت وماتت.

وصل الرجل أمام باب المدخل، لاحظ أن القفل قد بُدِّل حديثاً. رفع يده وقرع الجرس، ظهرت الجوهرة على خاتمه الضخم بلمعانها المضيء.

فتح مارتن هيرتز الباب، فاستنار وجهه لدى رؤية الزائر. قال الأخير «شرق ـ أصل»، بلهجة إيطالية ظاهرة.

ـ هل ضرورية كلمات التعارف بيننا، سيدنا؟ دُهش هيرتز في الحال وهو يغضن حاجبيه مبتسماً.

ـ قال نيافته: إن كلمات التعارف تربطنا بتقاليدنا القديمة وتسمح لنا بإلقاء التحية باحترام أليس كذلك؟

ـ ادخل، يا صديقي. لقد أعددت القهوة واخترت لكلينا سيجارين رائعين.

دخل نيافته إلى البهو تقدم هيرتز وأخذ معطفه وقبعته ليريحه منهما.

ـ متى وصلتم؟

ـ لقد حطت طائرتي مساء البارحة عند الساعة الواحدة والعشرين وأقمت في السفارة البابوية. كانت سفرة سيئة جداً، عواصف واضطرابات جوية.

دخل الرجلان إلى المطبخ، حيث مكان لقائهما المفضل وهذه الزيارة النادرة لنيافته التي يزور فيها هيرتز. في هذا المكان المتواضع والمريح.

أنا آسف فيما يخص زوجتك، صرّح الأسقف وهو جالس إلى الطاولة. صدقاً أنا حزين! لم يكن على حراس الدم أن يتصرفوا هكذا كما لو كانوا في العصور الوسطى! سيكونون قريباً غير منضبطين.

قال هيرتز معاتباً: وهو يسكب القهوة في أحد الفناجين إنهم كذلك وأنتم لا تتجاهلونهم.

هز نيافته رأسه.

ـ نعم، هم في موضع ذعر ورعب. التحقيق الذي كان يجريه فرنسيس مارلان أيقظ قلقهم ومخاوفهم.

أمسك هيرتز بعلبة السيجار التي أحضرها وتركها تنتظر على مشرب المطبخ. فتحها وقدمها إلى صديقه الذي انتقى بحركة بطيئة سيجار بارتاغاس، مطبوعة بالاحتفالية، حملها إلى أنفه، حكم عليه بتعبير العارف وقطعها من طرفها بواسطة قاطع السيجار.

تصرف المحامي العجوز بطريقة مشابهة. قريباً نفثات ملتفة من الدخان، ثقيلة تملأ جو المطبخ، مزيلة لوقت قصير الروائح المعتادة.

ـ سأله نيافته: المخطوطة؟

ـ لقد وضعته في مكان آمن هذه الليلة بالذات، لا خوف عليه من هذه الناحية.

ـ أجاب نيافته إن ديدييه موزيل هو من يسبب لي المشكلة، هل أنت متأكد بأنك تسيطر عليه كلية، يا مارتن؟ ألا يمكنه العودة في المستقبل ليصل إليَّ أو..؟

ـ إنه يجهل كل شيء عنك سيدنا.. بالمقابل قرر الذهاب غداً صباحاً إلى تروي بصحبة أرملة مارلان. لقد أخبرني بمشروعه مساء أمس، بعد الجلسة الجنائزية التي تمت في ذكرى فرنسيس مارلان.

ـ ها! البروفسور الصغير أحرز تقدماً في أبحاثه، هل أخبرت أو حذرت الأول؟

طبعاً، اتصلت معه البارحة. قلت له إن ديدييه موزيل سيقوم بخطوات عملاقة عندما سيكتشف نصب المانوي والكنيسة. إضافة لذلك فهو يملك مفكرات فرنسيس الحمراء التي سلمه إياها أرنستو بونتغليون.

ـ تنهد نيافته بعمق بونتغليون، إنه المُطْلِق والمسبب لهذه القضية سابقاً عندما كان مكلفاً بالدراسات في الفاتيكان، فقد وضع فرضيات مقلقة استنفرت وأقلقت حراس الدم. ذلك لم يوصل إلى نتيجة، لأن افتراضاته لم تتجاوز الحلقة الضيقة لها المكونة من حفنة من المتشددين للنظريات السرية. واحدة من الكثير كما قال المؤرخون الجديون. استغنى الفاتيكان بسرعة عن أعمال ذلك الرجل الذي حسبه الكثيرون أنه مشعوذ.

قال هيرتز:

ـ كانت استنتاجاته جزءاً كبيراً من الحبكة المسرحية، ذلك ما أغرق بعض الحقائق التي كان باستطاعتها إثارة اهتمام الجمعية العلمية.

قال مارتن:

ـ كانت الحال أفضل بهذا الشكل، لكن مارلان كان من طينة أخرى، أكثر خطورة من ناحية نوعية معارفه وصلة ملاحظاته بالموضوع. حن أنفسنا كنا قد وثقنا به... وها هو ديدييه موزيل ينزلق ويمشي على خطى صديقه. يجب أن لا يفارق هذا الشاب قيد خطوة.

أجاب هيرتز وهو يسقط رماد سيجارته في فنجان القهوة:

ـ أظن أنه يجب أن نطلب من الأول أن يفتح المخطط.

ـ هذا سابق لأوانه. ما زال لدينا هامشاً ضيقاً من المناورة التي تمكننا الاستفادة منه لصالحنا. أنت على اتصال دائم مع موزيل الذي يخبرك عن كل تحركاته وأفعاله: إنه أمان ثمين. ألم يتوصل حتى إلى الشك بأنك تراقبه؟

ـ لا أظن. يتخيل، طبعاً أنني أعرف أكثر مما أقوله له؟ مع ذلك، لا أعتقد بشكل خاص أنه يشك بي، لقد جاء إلي يطلب المساعدة بكل ثقة.

صمت نيافته قليلاً قبل أن يقول بصراحة:

ـ أتساءل ما إذا كان موزيل سبق وأصدر الحكم عليه. إنه يبحث عن النور، وها هو الظلام ينتظره. لقد فقدنا مارلان، هل سنفقده هو أيضاً؟ لم يجب هيرتز بل استغرق في مراقبة سيجاره، وجهه يعبر عن كآبة عميقة. عيناه المقطبتان تتركان حزماً من النظرات المظلمة والبعيدة.

27

الكنيسة الصغيرة

السبت صباحاً.

خلال السفر، لم تتوقف إيميلي عن تقليب صفحات مفكرة فرنسيس الحمراء، معجبة ومفتونة بمهارته في الرسم المائي، وقدراته على إيضاح الفروقات بين الأوراق، لون الحجارة، شفافية ونقاوة السماء في مزيج من الألوان الرطبة، الحرة بها. أطلال الكنيسة، مع الإشارات المحددة الدقيقة للعثور عليها في غابة لاريفور. كتلة اللبلاب المتسلقة على الجدران المهدمة. العُلّيق الكثيف والأخضر الداكن.. الأحرف الهجائية السبعة لـV.I.T.R.I.O.L، المرسومة (المكتوبة) بالحبر الأسود. النقش الضئيل البروز لفارسين يمتطيان حصاناً واحداً.

سيارة موزيل «الغولف» سلكت تحويلة الخروج للوصول إلى تروي.

- لقد حجزت غرفتين.

- اثنتان، هذه المرة؟

- أرجوكِ، إيميلي، ليس الوقت المناسب لتتذكري هذا النوع من الأمور.

- هل تعلم أني أفكر به دائماً! حصلت المرة الأولى، في شقتي، ثم...

هو أيضاً، هو أيضاً يفكر مثلك، مع ذلك، يرفض الكلام، هذا الصباح. ذاكرته خداع مليء بالأسف والندم، واللوم.

وجد مكاناً «للغولف» في موقف سيارات «مانوار دي زو»، نزل منها موزيل وإيميلي وأخرجا من صندوقها الخلفي أكياس السفر وتوجها نحو البناء، مزرعة قديمة مبنية بألواح خشبية متفرقة مُلئت فراغاتها بالآجر أو الجص وجرى ترميمها بعناية.

سنسمح لأنفسنا باستراحة لمدة نصف ساعة ثم نذهب لنحيي «رجلنا الأخضر» قبل أن نجد الكنيسة. كلاهما غير بعيدين عن بعضهما أكثر من خمسة إلى ستة أمتار ذلك ما كان يجهله فرنسيس قبل اكتشافه نصب المانوي. هل يناسبك البرنامج؟

- نزهة صغيرة كالرعيان؟ تروق لي.

بعد أن تقدما إلى مكتب الاستقبال وأخذا المفاتيح ثم غادر كل واحد غرفته المجاورة للأخرى. أفرغ موزيل في غرفته، محتوى محفظة وثائقه التي وضعها على السرير:

الملاحظات مأخوذة من بطاقة كمبيوتر مارلان، الأحرف الأربعة والشريط المغنط مع المسجلة، خريطة من قيادة أركان المنطقة.

لم تمض ربع ساعة حتى قرع على بابه.

ـ نعم، قال دون أن يرفع عينيه عن الوثائق.

ـ ديدييه.

إيميلي ادخلي، كان وجهها مبللاً بالدموع، الشفتان مغضنتان، قفز ديدييه من أسفل واحتضنها بين ذراعيه.

ـ ماذا دهاك؟

ـ كيف تفعل؟ أنا، لم أتوقف عن التفكير بفرنسيس بك وبي.

شعر بنفسه أنه أخرق بهذا الجسم الرفيع والهزيل، الفاتر المغموم على صدرها. بهذه النظرة المخضلة تنادي نظرته، وتتوسله.

ـ لو لم يمت فرنسيس، كنا مطلقين.... وهي تدمدم وتنفخ. تطلقنا وتهمهم وتنفخ.

رغم طلاقنا فقد احتفظنا بسرِّنا الصغير، قال موزيل. نعم، أنت وأنا، ولكن بقينا أصدقاء. لا شيء غير هذا.

ـ كذبنا عليه، لو كان قد علم...

ـ لو أدرك أن أخاه يخونه بممارسة الحب مع زوجته. مُتُّ من الخجل. أنا أموت بسبب ذلك، الآن وهو ميت.

ـ هل بسبب ذلك أنت تريد بإنهاء ما بدأه؟

ـ صمت لحظة وقال: لا أعرف، إيميلي. أقسم لك أنني أجهل ذلك.

ـ قد يكون... في نهاية المطاف.

* * *

ليس من السهل الكشف عن الطريق داخل الغابة الذي يوصل إلى فتحة سماوية حيث أركن موزيل سيارة «الفولف»، وليس من السهل أيضاً اكتشاف الدرب المغطى بالأعشاب الباسقة الذي يقودهما إلى نصب المانوي.

لا يتجاوز عُلّو الفارس المتر والثلاثون سنتيمتراً. نحت بصورة غير دقيقة في صخرة رمادية مقطعة جزئياً بطبقة من الطحلب والنباتات المتسلقة التي محت معظم ملامحها.

دار موزيل حول النصب دورة كاملة وهو يمد شفتيه معرباً عن خيبة أمله. كان ينتظر أن يحصل على شيء أكثر أهمية وروعة. لكنه لم يلق سوى شبحاً معدنياً ونباتياً ذو نظرة فارغة.

ـ علامة حدود، تمتم في دخله، وحي مفاجئ أخذ به. نعم علامة حدود! أعتقد أن..

فتح محفظة وثائقه التي أخذها معه، أدخل يده فيها وأخرج منها ورقة. صاح موزيل

ـ كان فرنسيس يبحث عن هذه العلامة الحدودية منذ زمن طويل!

ـ في حافظة البطاقات التي نسختها من حاسوبه، يوجد عنصر يعود إليها والذي تركه في الباب الأرضي، انظري إيميلي اقتربت لتقرأ من فوق كتفه.

اللبوة في نور، البحيرة... محفل الماعز... بايلي، تماماً مضروبة بـ:..T:1247 حسناً؟ سألت.

ـ كامل مرفوع بـT:1247 هكذا كان المانويون يدعون في شرح موزيل. هذا الكامل أو التام كان مرفوعاً من سدنة الهيكل (الهيكليون في عام 1247).

ـ ألسنا بعيدين قليلاً عن منطقة لانغدوك؟

ابتسم موزيل قائلاً:

ـ بالحقيقة أننا بعيدون جداً، لكن 1247، فيما لو كانت ذكرياتي جيدة، ذلك كان بعد سقوط مونتسيغور بوقت قليل، وهو آخر معقل مانوي سقط في أيدي صليبيي البابا، أدفع ثمناً غالياً لكي أعرف تاريخ هذا الكامل الضائع وسط منطقة شامباني، الذي التهمه الطحلب! وخاصة لماذا أعطاه الهيكليون هذه الأهمية.

ـ اقترحت إيميلي وهي تنظر إلى الغيوم المشؤومة الجاثمة على قمم الأشجار. قريباً سنبتل بماء المطر هل تسنح لنا الفرصة بالذهاب إلى الكنيسة؟

ـ أعتقد ذلك. يجب أن نجدها إذا ما سلكنا هذا الاتجاه نحو الشرق. لكن أخشى أن لا يكون الطريق أسهل من الذي سلكناه. فعلتِ جيداً بأنك لا ترتدي فستاناً قصيراً. مدَّ لها يده وقادها في الدغل متتبعاً خريطة رئاسة الأركان، ظاهرياً متحمساً بهذه اللعبة لعبة المسالك (الدروب).

* * *

كان الرجل أول من ترجل من السيارة، وسار عدة خطوات في الفسحة وسط الغابة، اقترب من سيارة الغولف، ملقياً نظرة على الداخل ثم التفت نحو عميليه اللذين يلحقا به. تعقباً موزيل وأرملة مارلان لم يطرح عليهم أي سؤال لصعوبة القضاء عليهما عندما يكونان قد بلغا الكنيسة.

سوف لن يسبب لهم مشاكل أخرى. الكنيسة، حراس الدم زاروها مرات عديدة تكاد لا تُحصى من المرات، ويعرفون كل حجرة فيها، كذلك الكتابات التي تحويها. هذه الأحرف السبعة ادعى الماسونيون ملكيتها. لكن موزيل يملك دون شك الآن معلومات يمكن أن تسمح له الذهاب بعيداً، حتى القبر.

أشار الرجل إلى أخدود الأعشاب النائمة داخل إلى الغابة. قال بارتياح وهدوء أن مهمته ستنتهي قبل الظهر، شعر مسبقاً باللذة التي سيشعر بها عندما سيعلن للكاردينال دوغيلليو أن ديدييه موزيل وأرملة مارلان سوف لن يتدخلا أبداً في شؤونه وعلى البابا يوحنا الرابع والعشرون XXIV أن ينام بسلام.

* * *

تفجرت الغيوم وتساقط المطر بغزارة على الغابة، أسرع موزيل وإيميلي بخطاهما، خائفين للحظة أن يكونا قد ضلاّ الطريق. لكن بعد تقدم صعب عبر الأشجار النائمة المكسرة بفعل عاصفة سابقة اكتشفا أطلال الكنيسة الصغيرة المرتفعة على تلة موحلة وقليلة الارتفاع.

هذه التلة رسمها مارلان في وضح نهار مشمس، هذا الصباح تنتصب في الظل، بائسة مهدمة ترشح بالماء. اختفى سقفها كلية تقريباً، مع بقاء بعض العوارض الخشبية، ألواح الأرضية عفنة نخرها السوس، كتل من الحجارة تكدست، غلفتها الأعشاب، والطحالب أو حزاز الصخر، زبد مخضر تعَفن على ما تبقى من الجدران.

ثلاث نوافذ حافظت على الآثار البعيدة للرصاص لكن لم يبق شيء من زجاجها، باستثناء القائمة الداخلية التي تقسم النافذة إلى أقسام. والتي غطاها العفن.

اقتربا من الجدار الغربي، بعد العودة إلى رسوم مارلان المائية، فاكتشف موزيل نقشاً قليل البروز المميّز أكثر من رؤية لمعانه الأخضر الرمادي. يمثل صورة الشعار الهيكلي. فارسان يمتطيان الجواد ذاته يعلوهما الأحرف .V.I.T.R.I.O.L علقت إيميلي بقولها: يجب أن تكون هناك أطلال أخرى غير هذه في غابة الشرق.

ـ نعم، لكن انظري، ما حيَّر فرنسيس، خاتم سدنة الهيكل الذي يرمز إلى ميلهم للفقر.

فارسان على جواد واحد. الفاسدون منهم يفسرونه أيضاً بمثابة العلامة الواضحة للوطيتهم! وهناك V.I.T.R.I.O.L فوق حلقة الربط، للحكم عليها انطلاقاً من الآثار المتروكة في الصخر، يجب أن تكون هناك حلقة.

ـ من كان يطلب وجود ممر سرّي؟ تجعليني أفكر بطفل، ديدييه.

ـ باب... يطل على الخارج؟ كلا، إنه خزانة في الجدار، لم لا؟ في كل الأحوال، يجب أن نقر أنه من المدهش العثور صدفة على كلمة موجزة للمبدأ الأساسي الماسوني قرب هذه الأرضية وهذه العلامة القوسية.

ـ أوافق عليه. هذا لا يمنع: مع ذلك نحن لا نتقدم.

تفحص موزيل الأرض التي بللها المطر وأشار بإصبعه إلى آثار خطى.

ـ أقسم أن هذه الكنيسة تعرضت لزيارة منذ وقت ليس بالبعيد.

ـ لا مثيل له في الطبيعة: هذا يشكل ملاذاً مثالياً للعشاق.

بالضبط، لدي شعور أن لدينا زواراً، تبدو كنيستك أنها مكان تلاقٍ باستمرار.

أرشدته إلى شبح يقطعه الممر عمودياً، شكل يتقدم ببطء وبشكل منهجي، باتجاههم. ثم شبح آخر يظهر خلفه تماماً. ضجة صماء، قرقعة، قطعة من الحجر تتكسر قرب وجه المرأة الشابة.

ـ تراجعي، إيميلي، إلى الملجأ فوراً..!

دون مواربة شد موزيل إيميلي إليه، وانزويا على الجدار. الماء البارد يسيل على ظهريهما.

ـ إنه طلق ناري، أليس كذلك؟ يطلقون النار علينا؟

سألت بخوف.

انزلق موزيل بحذر ملتصقاً بالجدار تمكن من الوصول إلى إحدى النوافذ الثلاث التي من خلالها يستطيع إلقاء نظرة على الخارج.

ـ أرى اثنين منهما على الأقل. هيرتز كان محقاً، الآن وقد عضنا حراس الدم في ساقينا، فإنهم لن يدعونا بسلام.

ـ هؤلاء الأفراد هم قتلة الفاتيكان الذين كلمتني عنهم؟ ابتعد موزيل عن النافذة ونظر إلى الثقب في الجدار الشرقي.

دفع إيميلي برفق من كتفها، حرصاً على بقائها بعيداً عن متناول القتلة.

ـ هكذا يمكن رؤيتهم... اكتفى بالجواب.

أخفضا جسميهما أحدهما خلف الآخر، وتسلقا تلة الحجارة المنزلقة.

أشار موزيل:

سنحاول الخروج من هذه الناحية.

قفزا فوق الأكمة، ثم بين العشب، في اللحظة التي وُجهت إليهما طلقة نارية أخرى.

ـ خطأ، إنهم أكثر من اثنين، لنسرع في الهرب!

دوي انفجار آخر سُمع مع صوت تساقط المطر.

ـ هؤلاء السفلة متضايقون من المطر، لكنهم سيصطادوننا كالأرانب، ومع مرّ الوقت.. اركضي! إيميلي! اركضي.

دخلا الغابة فانطلقا بلا تروٍ داخل الدغل، سمعا أصواتاً تنادي خلفهما. أوامر تعطى بصوت عالٍ. وهما يجريان دون وجهة معينة، مرعوبين، يتوقعان في كل لحظة أن يقضى عليهما.

كان موزيل يسحب إيميلي، عندما تسقط، لا يتوقف عن التحدث معها وحضها على الجري، فقط الجري!

يمشيان الآن في الوحل على أطراف المستنقع الذي يصل إلى الغابة، يتقدمان في الطمي، وسط لسع شوك نبات الجولق.

وصلا إلى تلة من العشب المغطى بالطحالب، المزروعة بأشجار باسقة سوداء ذات أغصان منخفضة ومعقوفة، وفي الوقت الذي كان يدفع فيه إيميلي لتتسلق بسرعة كان موزيل يلتفت إلى الوراء لتقدير المسافة التي تفصلهما عن مطارديهما.

احتفظ موزيل بمحفظة وثائقه، وقال مقتنعاً: من الغباء الموت في هيئة وملامح المدرس، على تلة موحلة، بصحبة أرملة أفضل أصدقائه. الموت هو دائماً غبي، فكر بذلك وهو يرى الأشباح الثلاثة تعود وتتشكل عبر ستار من المطر.

شعر أن إيميلي قد تعلقت بذراعه وشدتها إليها لدرجة جعلته يشعر بالألم، إنها ترتجف من البرد وترتعد من الخوف، وتحاول الكلام، لكن الصوت يرتجف فيجعل كلامها غير مفهوم.

حراس الدم ليسوا مستعجلين من أمرهم؟ موزيل وإيميلي هما في مكان مكشوف ويمثلان هدفاً مثالياً.

ـ قال موزيل: سيقتلوننا عن كثب، عمل مهنيين، اعذريني إيميلي، اعذريني عن كل شيء، أغمضي عينيك واقتربي مني.

أصبحت طفلة صغيرة مذعورة التصقت بجسم الرجل الذي أحبته والذي لم تعد تحبه مع ذلك فهي تفكر بفرنسيس صديقها.

ـ ماذا يفعلان هل تتمكن من طلب الدعاء؟

ـ اقتربوا، اجتازوا المستنقعات.

تنتظر إيميلي، تصلي بأن لا يكون هذا طويلاً جداً.

* * *

لم يكن الرجل يبتسم من السادية، بل بداعٍ من روح الصرامة والدقة والرضى عن العمل المنفذ بالشكل المناسب، وبالمهمة المنفذة.

ـ أترون، يعلن لعميليه اللذين ينتشران لإحاطة التلة من اليسار واليمين. فقد علما أن أي هرب من الآن فصاعداً أمر غير مجدٍ.. يبدو هذا سهلاً جداً.

أسف الرجل لأنه ضحى بزوج من الأحذية من جلد الماعز ولام نفسه لأنه لم يكن متبصراً

أفضل. عميلاه، من ناحيتهما، يتحضران للمناسبة.. غير أنه يعذر نفسه بقوله أنه ليس فعلاً رجلاً ميدانياً. سيعود في الحال إلى مهامه في إطار جهاز حراس الدم وسيجهد لنسيان هذا النهار البائس، وهذه الرغبة القذرة.

لا الرجل ولا مساعدوه يسمعان من يتبعهما في الوحل. المطر ينهمر بغزارة لدرجة أن ضجيج أحذيتهم امتزج بهدير الماء إنه يشبه صياداً، بديناً، يرتدي سترة طويلة واقية من المطر وبنطال فضفاض، وجزمتين من المطاط وقبعة من اللباد الأخضر التي تضفي على قامته مظهراً غريباً مضحكاً غير لائق به.

هيأ الصياد بندقية منذ وقت طويل أمسكها من أخمصها وضمها إلى بطنه، ماسورتها نحو الأمام. تساءل ببساطة أي حارس دم سيقتله أولاً.

كتلته الضخمة تبعد تلقائياً حاجز الشوك.

* * *

لم يسمع الرجل طلقة النار، بسبب المطر...؟ أحد العميلين الذي كان يمشي إلى يساره قُذِفَ إلى الأمام وخرّ في الوحل متخضباً بدمه.

أدرك عندئذ أن النار أطلقت عليهم من الخلف، التفت باحثاً عن الهدف، ومسدسه في يده.

نظر العميل الثاني، مندهشاً، إلى صديقه الذي ابتلعه الخُث.

ـ صاح الرجل وسط الأعشاب الشوكية العالية!

ـ مع بندقية.

ـ طلق ناري آخر، يرغمه على الانحناء. أصبح القناصون فرائساً (طرائداً). يطلقون النار جزافاً ليغطوا انسحابهم، سائرين بخطوات واسعة في الطين، هاربين باتجاه الغابة حيث يمكنهم التواري عن الأنظار.

وجد الرجل صعوبة كبيرة في اللحاق بعميليه، لكن الخوف نسبه لظروفه الجسمانية السيئة.

* * *

ـ ما الذي يجري، يا ديدييه؟ أظن أن...

ـ لدينا دعماً وإمداداً إلهياً. يمكنك النظر، إيميلي.

أحد القتلة لاقى حتفه، الآخران فرّا دون شك في الغابة، ولم أعد أراهما.

انفصلت إيميلي عن الشاب، والمطر والدموع يشوشان بصرها، لم تعد تميّز بشكل واضح بل كأشباح تحدد معالماً، قادمة نحوهما ببطء.

صياد؟ نعم دون شك. تميّزه القبعة، البندقية، الصياد يجبر نفسه على القيام بمجهودات كبيرة ليحافظ على توازنه وهو يعك في وحل المستنقع مثل دُبّ أخرق. قطّب موزيل عينيه، حدق جيداً وقال: أن اللحظة مضحكة بشكل درامي، الحقيقة: فقد تعرَّف على الصياد الذي يرفع قبعته بتحية مسرحية، بندقيته في كتفه.

- مارتن! لديك مشية غريبة، بالنسبة لملاك حارس، لكنك فعال بشكل عظيم في عملك الجديد.

أضحى وجه هيرتز قرمزياً.

- لقد خارت قواي، بقايا دخان السجائر تحتقن في صدري! غادر موزيل وإيميلي التلّة التي زحفا وتزحلقا عليها، واصلين إلى ذراعي المحامي العجوز الذي أستقبلهما بفخر لا لبس فيه.

ثم، التفتا نحو جثة حارس الدم الذي أرداه قتيلاً، وقال:

- آمل أن يكون هذا النذل الحقير هو من أطلق النار على ليا، هذا غريب، لقد وجدت قتله أسهل من قتل الخنزير البري.

- هل تبعنا منذ خروجنا من باريس؟ سأل موزيل دون انتظار.

- أكّد هيرتز، لقد سبقتكما، وكنت أعرف أنكما تريدان الذهاب إلى الكنيسة؛ ولما وصلتما إلى المنطقة، تيقنت أن الحراس سيتدخلون. لكنني ضللت الطريق عندما اقتربت من الكنيسة، ليا تهزأ دائماً من حس التوجه السيء لدي! أسرعت عندما بدأ الثلاثة يجرون خلفكما.

أصاب القلق موزيل: ماذا سنفعل بالجثّة؟ هناك خطر أن يطرح البوليس عدداً كبيراً من الأسئلة، أليس كذلك؟ سيكتشفون بسرعة وجود زوج من المتنزهين وصياد!

- هذا يدهشني، فتشا في ملابسه وستفهمون.

انحنى موزيل على الجثمان المغطس في الوحل، قلبه على ظهره وتفحصه.

- لا شيء لديه يمكن أن يسمح بالتعرف على هويته، حتى ولا أي ورقة! أو ماركة لباس، لا شيء!

- في غضون عدة ساعات،سيختفي هذا الشبح، إن حراس الدم لا يتركون أبداً جثمان أحد منهم خلفهم. والبوليس لن يعرف شيئاً، لنعد إلى فندقكما، من غير المفيد البقاء والسهر على هذا الحقير. يمكن لرفاقه أن تكون لديهم فكرة إتمام مهمتهم. أجهل عددهم في الجوار، هؤلاء الذئاب يصطادون أحياناً إفرادياً.

طوّق موزيل إيميلي بذراعيه: قائلاً.

- هل أنت بخير؟

ـ كلا، ليس فعلاً. هذا يدهشك؟ أجابت وهي تكبت جهشة البكاء.

ـ سأل هيرتز أين وضعتما سيارتكما؟

ـ لم أعد أذكر،أفاد موزيل. أنها داخل فسحة في الغابة، ليس بعيداً عن نصب المانوي.

ـ يردِّد هيرتز آه، المانوي! سنبحث عن سيارتكما وستقودونني بعدها إلى سيارتي التي تركتها على طريق الغابة المعلّم بالإشارات الطرقية. حرصت أن أسجل هذا على بطاقتي.. هل تعرفان أنكما مضحكان، بمحفظتكما؟ أراهن أن لديكما في داخلها مفتاح كأس العشاء السري، أليس كذلك؟

ـ حقيقة كنت أعتقد ذلك.

لدى خرجوهم من المستنقع، شعرو براحة أقدامهم بالسير على أرض الغابة الصلبة.

ـ لم يكن لدي الشعور أننا كنا متبوعين، ومع ذلك فإن حراس الدم كانوا يعرفون جيداً المكان الذي سنذهب إليه، قال موزيل من كان يعرف أننا كنا سنأتي إلى هنا هذا الصباح؟

عضّ هيرتز على شفته غير مصدق.

ـ أنتما أخبرتما بونتفليون وأنا، مساء الخميس، هل تكلمتم عن ذلك مع أحد من أعضاء فريقك، في المؤسسة؟ وأنت إيميلي؟

ـ تؤكد المرأة الشابة: لم أقل لأحد.

ـ أدرك هيرتز أن هذا العمل من بديهيات ديديه.

حراس الدم هم على علم بكل أعمالكم وتنقلاتكم.

بعد بضع دقائق، يصلون إلى المكان المحروس من نصب المانوي الذي توقف موزيل أمامه.

ـ مارتن أنا متشوق لمعرفة من ذا الذي يمثله هذا «الرجل الأخضر» أراهن أنكما ستتحدثان باستفاضة عنه. أية صلة قرابة تربطه بجند هيكل غابة الشرق؟

* * *

لدى العودة إلى (قصر المياه)، استحم كل من إيميلي وموزيل، وبدلا ثيابهما، تواجد ثلاثتهم في غرفة ديديه الذي طلب أطباق وجبة طعام. ارتدى هيرتز برنس حمام، طوال الوقت اللازم لتجف ثيابه المبتلّة. جالساً كالنسر على كرسي، عاري القدمين، شعره أشعث، يلتهم بشهية الغول فطائر الدجاج التي غطسها بغزارة بخمر أحمر راق له لونه.

تناولوا وجبة الطعام بصمت، موزيل وإيميلي أشعلا سيجارة.

ـ بدأ هيرتز: أستطيع أن أفهم، لماذا تلوثون رئتيكم بهذه السجائر! فالسيجار هو ألطف بكثير، بل أكثر متعة وأكثر عذوبة!

ـ رد موزيل إنها مسألة عمر.

ـ جواب جيد، تقبله المحامي العجوز. لنتكلم عن المانوي هذا سيساعدكما على إعادة رسم طريق وصية المجنون. أو على الأصح عن قطعة من المخطوط الأصلية..

جلس كل من إيميلي وموزيل على جهة من حافة السرير.

ـ لقد احترقت المخطوط في دير أوربينتي من قبل الهيكليين، الذين لم يتورعوا عن قتل الراهبين النساخين أنيان ونيكولاس دو بادو، كما سبق أن رواه، ديدييه. فعلاً كان الدير قد أحرق مع مكتبته، لكن لم نجد لبقية القصة خاتمة إلا فيما بعد.

ثم، أشار هيرتز إلى سجائر صديقيه، فلم يعد يتمالك نفسه بالتعبير عن أسفه على السيجار الذي حمله في جيب سترته والذي أُتلف في وحل المستنقع.

ـ مع ذلك... سيجار بارتاغاس ـ سلسلة رقم 4، عسل صافٍ!

ـ التاريخ، مارتن! يتشوق موزيل. أنتما تعرفان كثيراً عن التطورات المفاجئة للمخطوط الملعون إنكم تجدون متعة في عرضه بصعوبة على شكل حلقات!

ـ أليس هذا بحث، يا ديدييه؟ ألم أعلِّمك أنه كان بإمكاننا الوصول إلى الضوء مرة واحدة؟ اقتربت من المانوي، وحان الوقت الآن للكلام عنه.

ـ سأل موزيل بملل: هل تقول لي الحقيقة، يا مارتن؟.. لا تحوِّر أو تغير في معالم القصة على طريقتك، لكي تخدم مصالحك؟ هل ستجلب لي في يوم من الأيام البراهين؟

ـ الحقيقة! صاح هيرتز. الحقيقة هي ما يتبقى من الأحداث كما ننقلها ونحفظها. إصغِ إلى رواية شخص منذور للخدمة (الرهبانية)... أحد مفاتيح السر موجود في تلك الأخبار.

28

المنذور

في إحدى ليالي ألف ومئة واثنين وتسعين 1192.

بينما دير أوربيني الصغير يغرق في أتون ألسنة نار الجمر الذي أتى عليه كليا. كان شاب فتي يرتدي ثوباً مهلهلاً يسرع الخطى هارباً من الحريق، وقد احتضن صّرة إلى صدره. هذا الغلام المسيحي بونوا شانترافيل، الناجي الوحيد من المأساة. هائماً على وجهه عكس الريح المحملة بالثلج، وجهه متشقق بفعل البرد، ذراعاه يعانقان صدره لتحميان ما يملك. يتعثر مراراً، ويسقط أحياناً، لكنه لم يتوقف عن التقدم، مبتهلاً بتلاوة قانون الإيمان أبانا الذي في السموات ليتشجع بسماع صوته الذي كان يطمئنه، ويبكيه أيضاً، متذكراً الرهبان الذين قضوا نحبهم ولن يراهم أبداً. فكر بنيكولاس وآنيان دو بادو، اللطيفين البشوشين، الجاهزين دائماً للتخفيف عنه عندما كان يحزن لغياب أهله أو عندما يُشك بإيمانه.

استطاع، بونوا فجراً من بلوغ دير القديس بولس غير بعيد عن سانس. كان ثوبه مغطى بالثلج الموحل، قدماه متجمدتان وعظامه تؤلمه.

قرع باب البناء المتواضع الساذج فتح له الراهب الباب، رثا لحاله مشفقاً عليه من التعب وثيابه المتسخة.

ـ هذا ليس الوقت المناسب للسير في الريف، زيادة إلى أنه فصل الذئاب.

ـ أطلب استضافتك، أخي، أنا ابن أخ نائب رئيس الدير، «آرنو دو بوهيلز» أنا أرتعد من شدة البرد.

ـ أدخل بسرعة. أخ آرنو حدثونا كثيراً عنك. ألست منذوراً (للرهبنة) في دير أوربيني؟ أرى جسمك مغطى بقشور الجلد المتوسف، ومنتفخ من الشمص.

ـ شكى بونوا سبب ذلك: طبعاً! بالتأكيد، مشيت طوال الليل منتعلاً حذاءين سيئين.

أرسلوا في طلب أرنو بينما كانوا يغسلونه ويعتنون به لم تفارق عيون الفتى الرزمة التي أنقذها من اللص في أوربيني، والموضوعة قربه على مقعد خشبي.

دخل أرنو دو بوهيليز الغرفة، رأى الفتى، استغرق بعض الوقت للتعرف عليه نظراً لحالة التعب الشديد التي أصابته. العينان غائرتان في محجرهما، الشفتان بيضاوان. كان يرتجف معطياً الانطباع بأنه غير قادر على الوقوف.

ـ هذا أنت بونوا..؟ سأل آرنو، غير مصدق. أنت تشبه شبحاً! رئيسك غير واع لكي يدعك تخرج دون أن يخبرني بذلك.

ـ مات عمي رئيس الدير، مثله مثل الكاهن، خدم الكنيسة، النـاسخون، نائب رئيس الدير، ونُذر آخرون جميعهم في عداد الأموات!

جاء آرنو ليجلس على المقعد قرب الشاب. بوهيليز كان في الخمسين من عمره، رجلاً متيناً، جيد البنية، وجه كئيب، وأنف طويل، ووجنتان عاليتان وبارزتان، لكن عينيه كانتا مليئتين بالطيبة والدماثة.

ـ سأل عن نيكولاس وآنيان دو بادو؟ فأجاب أن النسَّاخين أيضاً ...؟

ـ قتلوا من قِبَل خمسة مجهولين ثم أضرموا النار في المكتبة! وأتى الحريق على كل أثاث الدير.

ـ رسم آرنو إشارة الصليب على وجهه وانحنى ليتلو الصلاة. لقد انتهى من تضميد جراح بونوا، أخذ عمه إلى غرفة، ليست مريحة جداً، تفوح منها رائحة العفن. نافذتها ذات درفات من الخشب مغلقة. طاولة مع كوب، شمعة في شمعدان، إنجيل. طاولتان صغيرتان، قنديل زيت معلّق بسلسلة في السقف، صليب مع غصن يابس من شجر الشمشاو المجفف بين الصليب والجدار، فراش قش على سرير من الخشب، طشت، إبريق، خزانة متواضعة في أحد الجدران، منقل تنطفئ جمراته ليلاً.

وضع بونوا رزمته على الفراش.

ـ قال لقد رأيت المأساة، لم أكن نائماً وسمعت الزوار.. كنت أعلم أن نيكولاس وآنيان يعملان على مخطوطة طُلبت ترجمتها من قِبل الرجال الخمسة.

قال آرنو آسفاً:

ـ يا إلهي... يا لها من خسارة! هذان الأخوان كانا يملكان ذهناً ضليعاً ويتكلمان لغات أكثر مما سمعته بابل في حياتها.

ـ كنت معجباً بنيكولاس وآنيان، أسدي لهم خدمات عديدة، وقد أثارت أهمية المخطوطة انتباهي أيضاً، فما أن غادر القتلة الخمسة الدير، حتى هرعت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بعض القطع.

فتح بونوا بعناية قطعة القماش وأخرج منها أوراق رقيق جلدي متفحمة حتى ثلاثة أرباعها. رفع أرنو الشمعدان، وانحنى على الوثيقة، يتفحصها ويتلمسها برفق.

ـ أي شيء مريع يختبئ خلف هذه الوثيقة لكي يقتل بسببها أشخاصاً طيبين، مثل عمي؟ لست عالماً ومثقفاً لدرجة أستطيع بها فك رموز هذه الكلمات. عندما تتعافى، سنذهب إلى

المدينة حيث أعرف ناسخاً عجوزاً قد يتمكن من ترجمة هذه النصوص.

كان بونوا جائعاً جداً، فاكتفى بصحن كبير من حساء الفول، وقطعة خبز أسود وثلاث ثمار من التين المجفف. بطنه ما زال يؤلمه، تبع عمه المعلم «رسني» الذي يسكن في «سانس».

المعلم رسني مقوس إلى نصفين بسبب الآلام المفصلية (الروماتيزم)، يدخل يديه في قفازين من الصوف بلا أصابع وقبعة صوفية أيضاً، أدخلهما إلى غرفة مربعة مليئة بمقرآت (الأناجيل)، الطاولات، الرفاف مغطاة بكتب الطلاسم، المخطوطات أو الملفوفات، وأدوات الكتابة، وريش الإوز والأقلام.

نار تندفع داخل مدفأة رحبة، اقترب منها المنذور الشاب ليدفئ يديه.

استعان المعلم رسني بملاقط ناعمة، لفصل الصفحات المتفحمة التي قدمها له آرنو.

ـ هذة المخطوطة قد عانت كثيراً، أعتقد أنها انتزعت من ألسنة نار الجحيم!

قال آرنو:

ـ تقريباً، ميتر رسني. إنه سبب العديد من الأموات. خذ وقتك، أشهراً، سنوات إذا لزم.. لكن أعط لهذا المَدْرَج مظهراً لائقاً باللاتينية أو الفرنسية.

ـ تحدث المترجم باهتمام: الأخ آرنو إنك بهذا تشحذ فُضولي، لدينا هنا مخطوط مكتوب بلسان قوم ماتوا منذ قرون! مرّر رسني لسانه الشره على شفتيه، ملصقاً أنفه بالأوراق المتفحمة. متمتماً، حسناً، حسناً حسناً... بصوت حاد.

ـ أرنو كم من الزمن تستغرق عملية الترميم.

ـ رسني: هذا متوقف على نوعية العمل، يجب علي أولاً أن أظهر الأحرف التي فحمتها النار جزئياً، ثم أعيد النسخ على أوراق رقيقة من جلد العجل بعدها أدرس الكل بطريقة مريحة، الواقع، إن العملية تروق لي. آمل أن لا أخيب آمالكم يا آرنو.

ـ ستدفعون الكلفة اللازمة ياصديقي كما طلب نائب رئيس الدير. لقد فرضت على نفسي أن أعيش حياة الفقر الذي يدعم إيماني، لكنني أحتفظ بثروة لا بأس بها ورثتها من العائلة وسأقدر على دفع تكاليف العمل.

29

المبشّر

دخل ثلاثة حجاج ضاحية آلبي، (على مسافة 60 كم من باريس).. يرتدي أحدهم لباس راهب وعلى رأسه قبعة ذات حواف عريضة.. أنزل أحدهم عن كتفه، حمّالة، وكان يمشي مستعيناً بعصا طويلة. أما الآخران، أبُ وابنه، فقد ارتدى كل منهما معطفاً سميكاً، ولأننا في منطقة حارة من جنوب فرنسا، فقد بدأ الشتاء يبسط سلطانه والهواء العاصف يعوي في الشوارع.

ـ في الطريق كانت أعين الناس تتفرسهم مطلقين هذه العبارات:

ـ انظروا الكونت العجوز «رودولف بواتفين» وابنه مع مَحميّه (محسوبه)، «رجلهم الطيب»! هيّا لنصغي لوعظهم وإرشادهم.

ـ لست أنا! بل هؤلاء الثلاثة الذين تفوح منهم رائحة الهرطقة. لا ينطقون إلا أوسخ الكلمات الهرطقية. سأبصق عليهم، هؤلاء هم فئران الشيطان!

ـ على الأرجح إنها كلمات صحيحة، فالمانوي يتمتع بقدرة عالية على التفكير.

يلقون التحية عليهم بمحبة واحترام أو يبصقون عليهم وسط الإهانات والشتائم. أو يلتحقون بهم كإخوة، أو يهربون راسمين إشارة الصليب.

في الحال جمع الراهب المبشر ورفيقاه رهطاً من الناس التفوا حوله عند ساحة الكنيسة: وجوه معروفة، أنصار (مؤيدون) في طور التكوين. رفع المبشّر عصاً كعصى الأسقف على رأس المتسكعين وبصوت قوي، مطبوع بنبرة خشنة غليظة، صرخ:

ـ أيها الأخوة، أنتم الخراف الضالة الذين يجزُّ البابا والأساقفة أصوافهم دون خوف ولا حياء! هم، أبناء الكنيسة العاهرة، أسياد بابل الملعونة، المنحرفون، يعيشون جميعاً في الفساد والكذب! الكنيسة أشد نذالة من أكثر الأسياد والموالي! تتقاضى العُشْر لتذيب الذهب، وتملأ معدتها الشبيهة بمعدة الخنزير ولتشتري المقاطعات والقصور. إطاعة البابا، تعني الحكم على الروح بالهلاك الأبدي، لأن الله ليس مع الأغنياء والمرابين. البابا أخ للشيطان.

انبرت امرأة حمراء اللون وقالت للمبشر:

ـ أنت على حق ألف مرة أيها الوجه الحزين! مؤخرة الأساقفة مُخَاطَةٌ بالفضة!

تبعها رجل شاحب اللون، صارخاً بدوره:

ـ نحن نأكل قدوراً من العصيدة القذرة والمقرفة، بينما هم يسمنون من أكل الحمام واللحم المشوي!

تدخل كاهن الكنيسة، وحاول طرد الحجاج الثلاثة وتفريق الجموع الغاضبة المتذمرة.

ـ هيا جميعاً! أنتم على عتبة بيت الله!

التفت الكونت «رودولف بواتفين» نحوه، مشيراً بأصبع الاتهام إلى باب الكنيسة متوعداً مرعداً:

ـ منذ وقت طويل غادر الله هذا المكان القذر أيها الكاهن! الشيطان سيدك وأنت جاهل ذلك. افتح عينيك إذن: ألا ترى أنك تخدم الكنيسة الكاذبة؟

بدوره هاجم الواعظ الكاهن مهدداً إياه بطرف عصاه المعقوف، رافعاً إياه جاهزاً للضرب. تراجع الكاهن إلى الخلف، مرتجفاً وخائفاً من تحوُّل الأحداث. تمتم الكاهن وسط بركان من العنف والغضب يتقد كالنار في الهشيم وما زاد من غضب الكاهن، أن الحاضرين خطو إلى الأمام مما أعطاه شعوراً بمحاولة اجتياح الكنسية بالقوة دون أن يستطيع أحد منعهم من ذلك. ولكن قد يكون لدى البعض منهم قليل من الحس المقدس؟ أو شيء من هذا يمنعهم عن فعل ذلك لفترة طويلة.

تابع المبشِّر:

ـ الحيوان في روما كالدودة في الثمرة! نحن لا نعترف بأسراره المقدسة. المسيحية العاهرة ليست سوى ساحرة عادية، اتبعوني، أيها الأخوة..

لم تكن الجموع تنتظر سوى هذا الأمر، فاندفعوا في موجة صاخبة خلف المبشر نحو الكنيسة، الكونت «رودولف» وابنه «بيير» دفعا الكاهن بقوة وسخِرا منه. وقف الكاهن عاجزاً حاضراً ومتفرجاً على تحطيم المذبح. أقدم الواعظ على قلب الكؤوس ساحباً بقوة الغطاء الأبيض المزين بالدانتيل الموضوع عليها.

ـ قال المبشر مشيراً إلى حُقَّة القربان والكؤوس! وهو يحرك يديه. خبز الذبيحة (قربان) والنبيذ! هذا جسد ودم المسيح.... إنها أكاذيب لا شيء سوى المعدن والشعوذة!

رجل أسمر ذو وجنتان زرقاوان ولحية قصيرة، وفتاة شقراء بجديلتين طويلتين كانا يضحكان بصوت أعلى من الآخرين. كان صوت الفتاة كالصرير صاخباً حاداً. بينهما الرجل الضخم يفك أزرار فتحة بنطاله. ويصرخ:

ـ انظري، برونيل.. لدي نبيذ أفضل لأضعه في هذه الآنية!

أرفق حركته بالفعل، مخرجاً بفخر عضوه الذكري، وبدأ يبول في أحد الكؤوس. مزهوا بنفسه لدرجة أنه أعطى الوعاء المملوء تماماً إلى الفتاة.

انتشت الفتاة صائحة: أقسم بإيماني أن هذا حقيقي، وأن آلته (عضوه الذكري) يمكنها أن تحرك حديقتي دون تعب.

- ما عليك سوى القيام ولو بإشارة واحدة وأنا سأعمدك برشة ساخنة!

صفّق الجموع لهما، وبدأت تضرب الأرض بأقدامها وترقص رافعين قصبة سيقان بعض القديسين بعد تحطيم مدّخراتهم. ثم تقاذفوا بقاياهم، مستخدمين العظام السامة الباردة في حركات شائنة مخلة بالحياء. النسوة يضعنها بين أفخاذهن، والرجال يُظهرونها كأعضائهم الذكرية المنتصبة.

هرع الكاهن باكياً متوسلاً، لكن عبثاً، فالجماهير الكافرة لم تتوقف عن خرق القدسيات الدنيء.

استجاب رجلان، لإشارة الواعظ، أنزلا الصليب الكبير الخشبي المعلّق فوق المذبح.

- توسّل الكاهن: أرجوكم! المصلوب...لا... المصلوب...لا!

- سأله الواعظ لماذا تقديس الصليب؟ يسوع مات عليه عارياً ومذلولاً. إنها أقواله التي يجب تقديسها واحترامها، لا لتقديس أدوات عذابه.

أمر ابن الكونت باحضار الخشب من الغابة الصغيرة!

- قال الواعظ: تجبركم الكنيسة على عبادة الأيقونات، والبقايا المقزّزة لهياكل القديسين... أين هو الفعل، أين هي النفس في حانوت صغير في روما؟ أين هي الروح؟

أجابته امرأة:

- الروح؟ في أكياس خصيتي الأسقف الذي يتلذذ بتجارة العاهرات. أُقيمت محرقة على مدخل الكنيسة. نصب الصليب الخشبي الكبير فوقها وأُضرمت النار فيه.

أدرك الجمع، خطورة أفعالهم، صمت مفاجئ. لم يبق من هذا السبت سوى فرقعة ألسنة اللهب ودخان أسود يرتفع حلزونياً في السماء تتلاعب به الرياح.

أمام هذه المحرقة، النارية الصاعدة، ردّت الكنيسة بمحارق أكثر رعباً. فقامت بدفع محققيها ومباحثها إلى أرض الهرطقة ، الدومنيكيين، وقادت جيشاً صليبياً بمساعدة ملك فرنسا.

انتهت هذه المأساة الكبيرة في قمة مونتسيغور، توسّل المنويون سيد القصر ريموند دو بيريلا بأن يقوي جدران السور نظراً لموقعه الجغرافي، كاد مونتسيغور أن يصبح الورقة الرابحة في أيدي المعارضة الأوكسيتانية لملك فرنسا والبابا.

30

الترجمة

الخامس عشر من كانون الثاني ألف ومئتان وثمانية 1208, أقدم بعض المانويين المتعصبين على اغتيال القاصد الرسولي بيير دوكاسيلنو. في اليوم ذاته، دخل بينوا شانترافيل غرفة عمه في دير القديس بولس في فرنسا والذي كان يعاني من حمّى شديدة.

ـ في الطريق إلى المعلم رسني أعلن رينو لبينوا: لن ألفظ آخر أنفاسي إلا عندما أعرف ما تحتويه الملفوفات، الملفات التي جلبتها لي.

ـ كنت على وشك نسيانها! بعد مضيّ حوالى سبعة عشر سنة.. في هذه السنوات هزل آرنو إلى درجة كبيرة وشحب لون وجهه وضاق تنفسه؛ أعاد المرضُ إلى وجهه القبيح رونقاً جميلاً. وجهه القبيح عادة أصبح كوجه قديس، متمنياً أن ترى عيناه نور الفردوس. بلّل بنوا جبهة عمّه، ومسح صدره بالمرهم، وهو دواء نصح به أحد رهبان طائفته الأكثر اطلاعاً، ومرجعاً لا يضاهى، يصار إلى اللجوء إليه عند الإصابة بحمّى خطيرة.

دخل المعلم رسني وهو يعرج إلى الغرفة المتواضعة التي تفوح منها رائحة الكافور والزعتر. العجوز لا يفتأ يرتجف كثيراً، متأثراً، خائفاً، مثل كلب مُسِنّ. وهو يشدّ إلى صدره محفظة الجلد بيديه الهزيلتين كمخالب طير جارح.

حاول آرنو أن يجلس على سريره، ساعده بينوا بوضع بعض الوسائد المحشوة بالقش خلف خاصرتيه.

ـ اقترب المعلم رسني، همس بأذن آرنو: لقد أنهكت صبري. هل أُكافأ بعد هذا الانتظار الطويل؟

ـ تكلم العجوز رينو، كادت ركبتاه الاصطدام بشفتيه.. «أنا.. أنا كان يجب أن لا أهتم أبداً بهذه المخطوطة!».

عيل صبر بنوا، متلهفاً لسماع النتيجة:

ـ حسناً، هل سنعرف أخيراً لماذا قتل إخوتي في دير كوربيني؟

ـ قال رسني، لقد أنهكت عيني، وتحطمت قواي من جراء هذا النص الذي أضعت فيه روحي!

بإشارات رعناء ومنفعلة أخرج رزمة الملفات من محفظته التي وضعها على طاولة فيما جلس أرنو على سريره، بصعوبة بالغة.

ـ هذه الأوراق تتكلم عن مقطع من الأناجيل. مقطع الرجل حامل الكفن، على جبل الزيتون، لكن ما هو فظيع ومخيف هو أن هذه الرواية كتبت من قِبَل... من قِبَل...

شجع أرنو العجوز المترجم على المتابعة:

ـ هيًا، صديقي العزيز، حلّ عقدة لسانك!

أسطورة تتحدث عن ذلك الإنجيل والتي لم يصدقها أحد كتبها أحد المقربين من يسوع يدعى يوحنا الأخ الاثني عشر!

ردَّد آرنو تاركاً نفسه يسقط على وسادته الإنجيل الثاني ليوحنا.

تابع رسني لكن هناك الأسوأ، يا آرنو، إن امتلاك هذا النص يعني امتلاك السر الفائق الوصف، الذي هو: أن يسوع لم يمت مصلوباً، إنه توأمه، توما، الذي أخذ مكانه.

وقد سافر يسوع، كما فهمت، بعد وقت ليس بالقصير من صلب توما إلى عكا بصحبة بعض تلامذته، ومنهم «يوحنا الأخ بالاثني عشر».

من هناك، ابحر المسيح على سفينة: هذه هي الصفحات الأخيرة التي تمكنت من إعادة ترميمها وترجمتها.. لكن إلى أين ذهب يسوع أجهل ذلك.

تدخل بونوا فجأة وبقوة:

ـ هل أنت واثق من نفسك، أيها المعلم رسني؟

ـ ليحكم علي بالعذاب الأبدي لو تفوّهت بما يجانب الحقيقة! على الأقل هي العبارة التي تحتويها هذه الصفحات. لقد التهمت النيران العديد من المقاطع، اعترف بوجود نقص كبير في الصفحات، وهذا ما أزعجني. مثلاً: لم أتمكن من الوصول إلى تحديد ما جرى فعلاً في جبل الزيتون. فهمت فقط أن يسوع قتل توأمه، وأن يسوع، المغطى بكفن، ظهر لأخيه. وتتحدث المخطوطة عن الحقد، الدم، الخيانة... لكن ذهني ما زال مشوَّشاً بهذه المعلومات.

ـ هل باستطاعتك المحافظة على هذا السر، أيها المعلم رسني؟ طلب آرنو هذا ليتأكد من أن الخمسة الحارقين لدير كوييني قد علموا بانقاذ جزء من هذا الإنجيل من الحريق.

ـ تمتم رسني بشفتيه: أتوسل إليك أيها الموت أن تأتي سريعاً وتأخذني لأرتاح من هذا الحمل الثقيل، أقول لكم وداعاً، آرنو، سوف لن أراك أبداً.

ـ نعم، نحن مسنان وساعتنا قد أزفت. لكن نحو أي إله سنوجه صلواتنا؟ فجأة أضحت روحي مثل قربة فارغة....

ما أن غادر المعلم رسني، حتى تمدَّد آرنو ممسكاً بالوثائق يشدّها إلى صدره الذي يرتفع ويهبط بصعوبة فيما هو أشبه بحشرجة الموت:

ـ قريباً لن أكون في هذا العالم، يا ابن أخي، ولن أدعك دون حماية، قال هذا موجهاً نظره بحرقة إلى بنوا، ستجد ملجأ بين «الكاملين» رجال أوكسيتانيا الطيبين.

صاح الشاب:

ـ لكن الصليبيين يطردون المانويين، الذين يَصِمُهم الدومنيكيون بالهرطقة.

طمأنه آرنو بأن لديه ابن عم، يدعى ريموند دو باريلاّ، شارك في الدفاع عن مونتسيغور، ملجأ العديد من العائلات التي اعتنقت الدين الجديد.

ـ سفرة طويلة جداً...

ـ ستكون فيها بأمان. يقال أن الحصن منيع على الأعداء.. مزروع على جرف صخري، يمكنك إخفاء هذا السر الرهيب هناك. الرجال الطيبون سيدافعون عما بقي من الإنجيل ضد البابا وملك فرنسا.

سلّم آرنو الأوراق إلى ابن أخيه.

ـ انطلق دون تأخر، يا بونوا. ما أنقذته من النار تلك الليلة كنز ملعون، اذهب وتحوّل إلى ظل! واختفِ إلى الأبد...

31

خيانة المعلم رسني

صالة المقابلات لدى الأسقف سانس. كان أسقف سانس جالساً في بهو الأسقفية مسنداً يديه إلى مقعده الخاص، قدماه مغمورتان في فرو سميك قرب مدفأة حيث تندفع بداخلها ألسنة نار قوية.

وقف المعلم رسني على مسافة من الأسقف، خجِلاً، محفظته في يده، يشد بعصبية على حزامها.

كانت الصالة واسعة نسبياً ومزينة بستائر ثقيلة تغطي الجدران الحجرية نافذة واحدة في مؤخرة الجدار، مغلقة بدرفات ضخمة من الخشب المزين بالبرونز. تعصف بها الريح فتصدر صفيراً طويلاً!

ألقى الناسخ العجوز نظرات في جميع الاتجاهات، لفت نظره رمزاً دينياً: أيقونة، ذهب، عاج، إضافة إلى مخطوطات رائعة..

ـ تساءل المعلم رسني فيما إذا كان طلبه مقابلة الأسقف بسرعة كان صواباً، ذلك أن الموافقة بدورها جاءت بسرعة؛ أغلب الظن أن سرعة الموافقة تعود إلى الشهرة التي يتمتع بها في المنطقة.

ـ أسمعك، معلم رسني. طلبت مني مقابلة خاصة لمسألة في غاية الأهمية، أليس كذلك؟

ـ طبعاً يا سيدنا.. نعم، نعم... هامة هل هي الكلمة المناسبة! كلا، بل على الأصح مرعبة!

كان صوت المعلم رسني يصادم الكلمات وينمّقها.. يخرجها من فمه وهي تحرقه، وتمزق لسانه.

بدا الأسقف متعالياً واعياً تأثيره على هذا الرجل العجوز الضعيف متذوقاً في تلك اللحظة متعةً لا تكاد تمت إلى المسيحية في شيء، وموترة للأعصاب.

ـ أكثر من خمسة عشر سنة من حياتي.. خمسة عشر سنة ثقيلة قضيتها في ترجمة ملفات بطلب من الأخ آرنو. لكنني لا أريد الموت وأنا محتفظ بهذا السر.. تفضل سيدنا،

نسخة خمسة عشر سنة من العمل المتواصل. نسخة حصلت عليها دون معرفة الأخ آرنو، طبعاً. تفضل سيدنا، إذا كان هذا سيمنحني بعض الغفران. تفضل.. أرجو أن تطلع على وقائعها واحكم عليها بنفسك بالحكمة التي اعتدت عليها.

وضع رسني الوثائق خائفاً بين يدي القاصد الرسولي الناعمتين، وانتهى إلى القول:

ـ أنا.. لست مسؤولاً... لقد طُلِب إليّ ذلك! ومن رجل كنيسة. احتراماتي، نيافتكم.

هكذا سأنسحب الآن وسأغادر هذا المكان تتقاذفه الريح المزمجرة والتي تضرب درفات النافذة.

تراجع المعلم روسني إلى الخلف منحنياً، مثل دجاجة مرعوبة، كان يعرج ويطقطق في كل خطوة. عندما أضحى الأسقف وحيداً، انحنى على الملفات، تحدث في خاطرة نفسه: من هذا العجوز المضطرب الذهن ذو التفكير البسيط... ماذا كتب هنا الشيطان اللعين؟

32

مونتسيغور

ظن بينوا أن باستطاعته السير على الأقدام من مونتسيغور القديم عندما كان يستعين ببغلته آنذاك. كان الحيوان يحمله أحياناً، لكن في معظم الأحيان، كان يرافقه، ماشياً على وقع خطواته، مفضلاً وضع أمتعته على ظهره. قد يكلّمها كل يوم متخذاً منها صديقاً يستطيب منه الصمت والنظرة المتطفّلة.

بعد أن تناول الطعام في نُزُل القرية، سأل إذا كان ثمة من يستطيع مرافقته إلى قصر مونتسيغور. أجابه أحدهم بالقبول، دون التطرق إلى طبيعة الاستقبال هناك.

أعلن بينوا أنه يحمل رسالة من «آرنو دو بوهيلير» ابن عم السيد ريموند دو بيريلا. أدع عندك بغلتي مقابل التعهد بالدفع. لأنني فقدت محفظة دراهمي لدى سقوطي على الأرض.

تبع بينوا الرجل، وغادرا معاً سيراً على الأقدام. في الطريق بدا الراهب حزيناً لعدم اصطحاب بغلته لأن صرّة ثيابه كانت تثقل كتفه. كان الدرب ضيقاً وصعباً كأنه مفروش بالحصباء. يتطلب حذراً بالغاً لتفادي خطر الانزلاق إلى واد سحيق.

كانت مظلّلة مونتسيغور الضخمة مقطعة على خلفية سماء صافية بين أكواخ وغرف خشبية ممسكة من الخارج بقلعتها، وملتصقة بأسوارها. رهبان متقشفون يعيشون في عزلة تامة، استمر الدليل في شرح ما يعرف عن المدينة، بينما استمر بنوا في تدقيق كل خطوة من خطواته.

بعد ساعة من الزمن، أشار الرجل المرافق لبنوا عن وجود طريق آخر يطلق عليه اسم طريق الذرى، وهو أعلى من الأول.. بروز عالٍ في الصخر يقود مباشرة إلى الحصن.

أنظر إلى صعوبة محاصرة هذا القصر.. يجب سلوك درب يقود إلى المضيق المتشكل بفعل الزلزال.

قال بنوا، وهو يكاد ينضح كل ماء جسمه عرقاً:

- أن مونتسيغور أشبه بعش النسر.

شكر الراهب الشاب دليله، ووجد نفسه فجأة أمام «ريموند بيريلا»، الذي قدّم له الماء النقي والبارد. معتقداً أنه وصل إلى جنة عدن والأمل يفرحه بقضاء أيام حياته في هذه المدينة.

كان النور يفيض على الغرفة الكبيرة المقبّبة منتشراً فـي أنحائها.

قرأ ريموند الرسالة التي كتبها عمه آرنو.

ـ أنا حزين لمعرفة أن ابن عمي العجوز مريض.. مع ذلك فإن صفاء روحه يجعله يستريح بطمأنينة فـي أحضان الخالق. عندما يدنو أجله. شرع يحدّثني عن المخطوطة.

ـ قال بنوا وهو يسلمه الملفات: ها هي مع الترجمة الكاملة.

أخذ ريموند الأوراق المحروقة بعناية وقرأ ترجمة المعلم رسني بينما كان بنوا يروي له حريق دير أوربيني، وهربه، ووصوله إلى دير القديس بولس.

قرأ ريموند بصوت عال:

في «جبل الزيتون الأخ الميت فـي كفنه. يعاقب توأمه الخائن، ويلعنه إلى أبد الآبدين. كذب على الشعب على سِر الإثني عشر أقام الهيكل. إنه يسوع المولود من أحشاء مريم زوجها يوسف ووُلد. وسلم أخيه ليحكم بالصلب. اصطحب تلامذته ليشيد الهيكل الفعلي فـي مكان آخر».

ترك ريموند ذراعه يسقط، فانفصلت ورقة من رباطها وحلّقت مثل ريشة طائر، لبضع ثوان فـي بياض النور، وحطّت على البلاط. التقطها بنوا، وأعادها إلى مكانها، ظل ريموند ساكناً ناظراً إلى الأمام بعينين تائهتين فارغتين من كل تعبير.

ثم طال الإحمرار إلى جبهته، نهض ليزرع الغرفة ذهاباً وإياباً بخطى واسعة. كان الرجل طويلاً ورفيعاً أفحج الركبتين (ذو ركبتين متلاصقتين)، ذات شعر أبيض طويل ومسترسل، وذقن رمادية اللون، مستدقة الطرف. ضرب الفراغ بقبضتيه ونادى بغضب قوي:

ـ روما تكذب علينا منذ اثنتي عشر قرناً! هذه العاهرة الشنيعة تعذب وتحرق الكاملين باسم معتقد ليس سوى خدعة وكذبة!

ـ قال بينوا متأملاً صوت يمامة حطت على حافة إحدى النوافذ. الله لتكن مشيئة الله أن لا يعرِّف البابا أبداً بوجود هذه النسخة. لم يفهم الراهب الشاب سبب رهبته المفاجئة من رؤية هذا الطائر، وكأنه علامة شؤم.

وفجأة عادت اليمامة إلى هديلها.

33

الدومينيكان

حزيران ألف ومئتان وتسعة 1209.

حضر إلى دير القديس بولس جيش مكوّن من خمسة عشر فارساً. على رأسهم فارسان من الدومينيكان بثوبيهما الأزرق. متباعد بعضهم عن بعض، رجل يرتدي ثياباً بنية أبقى وجهه مقنعاً في ظل قلنسوة وبقي منتصباً على سرجه.

دخل رجلان من الدومنيكان بمفردهما إلى صحن الدير.

أظهر الأب الرئيس الذي استقبلهما، قلقاً خفيفاً لدى مشاهدته الجند من إحدى نوافذ مكتبه.

أمر الدومينيكي الأول بنبرة قاطعة:

- ضروري جداً أن نستمع إلى آرنو بوهيليز وابن أخيه.

- أجاب الأب رئيس الدير: الأخ آرنو أسلم روحه إلى الله منذ ثلاثة أشهر. أما بنوا ابن أخيه، فقد ترك الدير في كانون الثاني من العام الماضي.

كان للدومنيكي الثاني صوتاً أكثر دماثة وأشد مكراً:

- هلاّ قلت لنا يا أخي من فضلك، إلى أين؟

كره الأخ رئيس الدير هذا الصوت، وسؤاله. لكنه كان خائفاً وهذا ما بدا جلياً من تعرُّقه الشديد في ثوبه الخشن الذي يؤذي جسده.

أكمل الدومنيكي الأول:

- إنه متهم بالهرطقة وبالتعامل مع الشيطان. إن كتمكم المعلومات عنه سيجعلكم متهمون مثله.

- باسم مريم العذراء، أؤكد لك أنني أجهل وجهته. قد يكون الأخ أمين الصندوق قادراً على تقديم المعلومات لكم؟

قال الصوت المتكلّف اللّطيف:

- خذنا إليه.

سار الأخ رئيس الدير أمام الزائرين وأدخلهما غرفة الخدمة حيث مكتب الأخ أمين الصندوق. التقوا في الطريق ببعض الرهبان الذين أسرعوا بالإختفاء احتراماً للمحققين وخوفاً منهم.

دخلوا إلى غرفة مرتبة جيداً تتكدس فيها مؤونة الدير، ومرتبة جيداً على الرفوف: دقيق وحبوب في صناديق وسلات من قوارير النبيذ، قناني، أكياس..

كانت الغرفة مضاءة تفوح منها رائحة طيبة. ألف نوع من العطور، روائح تملأ جو المكان. كان الأخ أمين الصندوق رجلاً عجوزاً خدوده متورّدة! أجاب على أسئلة الدومنيكيين، دون مكر أو خداع:

- أعطيته مؤونة وصُرَّتين من الثياب. دفع له الأخ آرنو ثمن بغلة. اعتقاداً منهم أن بنوا سيذهب إلى أرض أوكسيتانية. تمنيت له رحلة موفقة وصليت بأن لا يصيبه أي مكروه في الطريق. ما أعرفه أن لدى آرنو ابن عم أوكسيتاني... لم أنتبه أبداً إلى ما قاله لي بنوا. لأني كنت مشغولاً في كتابة كشف الموجودات، فالشتاء قاس، أخشى من حصول نقص في الأعلاف لنكمل نهاية الشتاء دون البكاء جوعاً.

لدى خروجهم من الدير، قال الدومنيكي الأول: الدودة تختبئ في العفن.

جاء المحققان ليقدما تقريراً إلى الرجل ذي الرداء البني المحترس من إظهار وجهه. آرنو مات وابن أخيه اختبأ في بلاد المانويين أيها السيد.

أجاب الرجل:

- الفكرة أقل جنوناً مما تبدو. أن بنوا أصبح خارج سلطة الملك، لكنه سيكون في خطر الموت على المحرقة فيما لو بدا غير متحفظ (أفشى السر). علينا نحن حراس الدم أن نخرج تلك الأفعى من جحرها.

34

المُسَارَّة «التلقين»

نيسان ألف ومئتان وعشرة 1210.

أُدخل بينوا إلى غرفة كبيرة حيث كانت تنعقد بصمت جمعية كبيرة من نساء ورجال من كل الأعمار.

الجدران بيضاء، الطاولة مغطاة بشرشف أبيض، الضوء أبيض مع غابة من الشموع. لكن ثياب الشمامسة الإنجيليين وخادمي القداس الواقفين خلف الطاولة التي وضع عليها الكتاب المقدس، والإبريق الفخاري وكأس مملوءة بالماء جميعها بلون أسود.

كان بنوا ما زال مرتدياً لباسه الخشن البسيط كراهب، تمشي خلفه فتاة، حاملة على ذراعيها ثوباً أسود ألبسوه إياه فيما بعد.

من بين الحضور، «ريموند دو بيريلا» وابنه «جوردان» الكونت «رودولف بواتفين» وابنه «بيير».

كانوا ثلاثة خلف الطاولة. انتظروا اقتراب بنوا ليقوم أحدهم، في الأربعين من عمره وجهه مبقّع عيناه داكنتان ليعلن:

ـ الرجال الصالحون يستقبلونك بنوا في هذا المعبد (الهيكل) يستقبلونك في إيمانهم ويطلعونك على أسرارهم. ننقل إليك ترحيب البندكتيين وسعادتهم بوجودك. ثم توقف قليلاً طالبا من أعلاهم مرتبة:

ـ هل تقبل الدين الكاثوليكي، وأسراره المقدسة وعقائده. وتقبل أمر الله وليس الكنيسة؟

قال بنوا دون محاولة إخفاء انفعاله:

ـ أتعهد بذلك.

أبانا الذي في السموات، كان الحضور قد أكدوا على هاتين الكلمتين بصوت واحد. يدوي في الصالة الرحبة تهتز له لهيب الشموع.

ـ هل تعد بأن لا تأكل أبداً أي غذاء حيواني، وأن لا تكون لك علاقات جسدية شهوانية، وتحافظ على دينك الجديد مهما تتعرض له من عذاب جسدي؟

ـ أعد بذلك.

أبانا..

أعاد الكامل إغلاق الكتاب المقدس واضعاً بداخله الأوراق التي كتبها يوحنا الأخ الاثني عشر، وضع الكتاب على جبين بنوا بينما أمسك الشماسان الواقفان من على جانبي الكاهن، بيده اليسرى، بينما وضعا يده اليمن على صدره.

ـ أضع على جبينك الكتاب المقدس الذي يحتوي الكلام الحقيقي، لهذا السر المقدس، الذي ينتظم بداخلك! ستكون من الآن وصاعداً مخلوقاً جديداً، مولوداً من الروح.

ـ تمنى بنوا إغلاق عينيه، فقد تأثر بملامسة جلد الكتاب المقدس على جبهته. تخيل ناسخين مثقفين في غاية التدقيق وهما يخطان آلاف الكلمات. كما تخيل مخطوط الملف الذي أنقذ بضع قطع منه في دير أوربيني الملتهب.

ـ ثم ردّ الكامل في البدء كانت الكلمة مع الله وكان الله هو الكلمة.

ـ أبانا الذي..

سحب الكامل الكتاب عن جبين بنوا وعانقه بحرارة على خده الأيمن.

ـ إليك قبلة السلام، أيها الأخ.

اقتربت الفتاة وأخذت بكتونة الكاهن السوداء أي ثوبه الذي يرتديه تحت بزّة الصلاة، وسلمتها إلى أحد الشمامسة الذي قدمه للداخل الجديد في الدين قائلة له:

ـ سترتدي دائماً هذا اللباس الأسود، فأنت من الآن وصاعداً «ملْبَس» وحفلة الترهُّب هذه هي رمز انتمائك إلى عائلة الكملة (الكاملين) المتواضعة.

فيما بعد أشار الكامل إلى ابن الكونت رودولف بالتقدم بضع خطوات مبتسماً. بينما بنوا يضم الثوب الأسود إلى صدره، ملتفتاً نحو الشاب.

ـ نحن ندعك الآن بين يدي بيير الذي سيرافقك على طريق ديننا. اعتبره من الآن مثل أخ توأم.

ـ لي الشرف بأن أصبح الداخل الجديد في الدين التابع لك، أقرَّ بنوا بصدق، وعيناه مليئتان بالدموع.

35

البابا هونوريوس

روما في الثاني عشر من آب عام ألف ومئتان وثلاثة وعشرون 1223.

البابا جالس في إحدى حدائق قصره، يستمتع بنهار جميل مشمس يتناول طعام الغداء تحت عريشة، على كرسي مريحة، مرتدياً ثوباً أبيض مطرزاً بخيوط الذهب. يتذوق أفراخ الحمام بقطع أطرافها مستعيناً بالسكين، وإلى جانبها إبريق شفاف متقن الصنع نبيذ وردي أسبغ لونه على خدّي الحبر الأعظم.

- بينما كان يقطع بعناية أطراف الطائر، توجه إلى حارس الدم الواقف من الجهة الأخرى من الطاولة، مرتدياً لباساً بنياً من قدميه إلى رأسه، وقد أعاد القلنسوة على رأسه فور بدء البابا بالكلام.

- سيد غوتيه، مضت حتى الآن خمسة عشر سنة ورجالك يفتشون عبثاً كل قرية أوكيتانية، ولم تعثروا على الراهب الصغير.. بينوا شانترافيل هذا!

أنا آسف، قداستك. أطلب من قداستكم قليلاً من الصبر. لقد أفسد المنويون كونتيسة طولوز إلى اقطاعية مركيزة بروفنس، الهرطقي يختبئ في جحر الفئران متمتعاً بحماية أسياد لانغدوك. لدينا البرهان أن المنويين قد عرفوا بوجود وصية المجنون.

صاح البابا بقرف وهو يمسح القليل من الدهن عن زاويتي فمه وشفتيه... آه.

- بعض من جواسيسنا المتسللين إلى طائفتهم سيدي، لاحظوا وجود تغييرات ملموسة في طقوس تلقين أنصارهم. فقد احتل يوحنا الإنجيلي أهمية بنظرهم تماثل أهمية يسوع المسيح نفسها.

- أهذا كل شيء؟

ضرب البابا بكفيه على الطاولة، فتراقص النبيذ الوردي في الإبريق الشفاف من قوة الصدمة.

- تابع غوتيه: كلا، قداستك، كل مانوي قديم يلفظ في القداس هذه العبارات جملاً مثل هذه: **في بستان الزيتون الأخ الميت في كفنه يوبخ توأمه الخائن ويلعنه إلى أبد الآبدين. كذبة أعطيت للشعب.**

ـ السم في الجسد. ليشهد علي الله أننا بذلنا أقصى جهدنا لاستئصال الهرطقة من هذه الأراضي المارقة. كم علينا أن نحرق من الكاملين لكي لتوقف نشر هذا السمّ؟ أشعر بالتعب من طول الانتظار، هذا يقضّ مضاجعي سينيور غوتيه!

الطقس حار. تعرق غوتيه بشدة تحت ثيابه، كان تعباً أيضاً. البابا يأكل في الظل، بينما هو يبقى مسمراً تحت الشمس. ظمآنا، لكن الشرب، لا يمكّنه الوصول إلى طرد رائحة اللحم البشري المحروق الذي ملأ أنفه، وبلعومه، ومعدته. والشرب أيضاً لن يمحو إلى الأبد روائح الجيف المتفسخة النتنة المحروقة.

تأمله البابا هونوريوس III بصمت وعجب. هل كان باستطاعته تصور الأجساد تتلوى من شدة الألم داخل ألسنة النيران، نيران رجال وأطفال يصيحون ويستغيثون؟ هؤلاء الأطفال الذين فطموا لتوهم نلقيهم وسط النيران مثل خرق ثياب بالية؟ تلك الصلوات المجنونة التي يتوسل بها المعذبون الذين تنتفخ لحومهم وتتمزق، وتنفجر؟ وذلك الدخان الذي تحمله الريح نحوه، معبِّئة كل مسام جلدك، وتتسلل حتى روحك؟

صب هونوريوس قليلاً من النبيذ في كأسه، رفعه حتى شفتيه وأغلق عينيه ليتذوق النبيذ، وبعد بلعه، فتح عينيه قليلاً، معلنا الأمر التالي:

ـ عُدْ إلى الأرض الهرطقية سنيور غوتيه... عرِّف لويس عن نفسك وتابع صيدك. لكن أستحلفك بأن تحاول الوصول إلى ما تبقى من وصية المجنون. الله معك.

ـ ومعك أيضاً، غادر غوتيه.

استأذن حارس الدم من البابا ملتحقاً خارج الحديقة بمجموعة من ستة رجال كانوا ينتظرونه على صهوة جيادهم مرتدين لباساً بنياً أيضاً.

ـ لاحظ أحدهم، غوتيه، يبدو أن الحبر الأعظم قد أزعجك.

ـ هونوريوس أكثر تشوقاً مما كان عليه سلفه إنيوسّانت الثالث، نوّه غوتيه.. تملك روما نسخة عن وصية المجنون، والهيكليون لديهم نسخة ثانية... و...

ـ مهمة نفذت بقسوة وعنفا! وقد أعجبت الآخرين. تعجَّب آخر. راهب عادي انتزع بعض الأوراق من النار منذ ثلاثين سنة واضعاً السر في خطر، البابا وسدنة الهيكل ليسوا الوحيدين الذين يملكونها.

أعاد غوتيه قلنسوته إلى وضعها، لينعم في ظلها بفترة راحة وما أن امتطى حصانه، حتى عاد الصياح يرافقه من جديد وبقوة يكاد يمزق طبله أذنيه.

عويل النساء، صراخ الرجال والأطفال المعذبين الذين قادهم إلى المحرقة.

كاد غوتيه أن يموت مع تأوهات المحكومين، ومع هذه الأشباح ذات الهياكل المتفحمة.

36

آخر المنويين

كانون الأول عام ألف ومئتان وثلاث وأربعين1243.

سقطت معظم الحصون المنوية تحت هجوم الصليبيين. حصن مونسيفور الوحيد الذي ظل يقاوم. عشرة آلاف رجل بقيادة «هوغ دوأرسيس» كانوا يحاصرون القصر. متعسكرين عند أسفل القلعة على مقربة من الصخور.

العديد من الخيم نصبت على هذه الأرضية الجبلية، كان الدخان ينبعث من تلك المخيمات. الرجال يمضون الوقت انتظاراً للمعركة. بالرغم من هذا الحصار المهيب، فقد بدت مونسيفور المطلة على المعسكرات صعبة المنال. مع العلم أن السلاح الدفاعي الوحيد والهام الذي يملكه المحاصرون كان مرمى للسهام من الخشب على البرج الشرقي.

في الجهة المقابلة، نصب الصليبيون بقيادة الأسقف «آلبي» المهندس الماهر منجنيقاً، أكبر وأكثر فعالية، على منصة صغيرة يمكن لعدد من الرجال الصعود إليها.

جمع القائد «هوغ دي آرسي» عشرة من قادته، وتداول معهم المخططات الموضوعة حديثاً لاقتحام مونتسيفور.

تحدث القائد: سنغلق مضيق الزلزال، بطريقة عندها لا يمكن لمدافعي قلعة مونسيفور الوصول إلى الوادي. سنمنع عنهم أي إمكانية التزود بالمؤن (التموين).

- نعم، هوغيس، ردَّ أحد الفرسان، لكن الحصار قضى أطول مما كان مخططاً له.

هوغيس لا يعرف الموقع جيداً، فهو رجل من الشمال، هجر زوجته وأطفاله الذين يعيشون في أرضهم الندية التي أحبها كثيراً خاصة في هذا الضباب الصباحي المسطح الذي ينزلق على العشب وخطوط الفلاحة.

- قال ذلك متنهداً. طبعاً الإمدادات الجديدة من أسقف ناربون ومن أسقف ألبي، إضافة إلى المساعدة الآتية من الباسك ستسمح لنا بخنقهم.

- هؤلاء المسيحيون أشبه بالعقارب يمكنهم البقاء دون طعام لعدة أشهر!

حرك هوغيس يده كما لو أنه يطرد ذبابة مزعجة. سنسحقهم جميعاً! ليسوا سوى قلة، بينما نعد أكثر من عشرة آلاف رجل. ثم إننا نحيط بالجبل، والمضائق والطرقات محتلة كلها..

المسالك الضيقة البعيدة أيضاً هي تحت مراقبتنا. أرسلت جيشاً صغيراً باسكياً إلى أسفل السور الشرقي. سيستفيدون من ظلام الليل ليتسلقوا البرج ويستولوا على رماة السهام.

الحقيقة، أنه في الليلة التالية، قامت مجموعة من عشرة جنود، مسلحين بسلاح خفيف من السيوف والخناجر وتحت غطاء نتوءات الصخور اقتربوا من البرج، إنهم بهلوانيون حقيقيون، تموهوا داخل الصخور، فوصلوا السور بسرعة وبدأوا تسلقه.

فاجأت المجموعة المهاجمة بعض الحراس المنويين الجالسين حول المدفأة، وأعملو السيف في رقاب الرجال الطيبين، وفي أقل من ثلاث دقائق، أنذر الحرس المنوي البرج المقابل.. بالانتشار ونفخ بوق الانذار.

أضرم الباسكيون النار في مربض السهام مندفعين بقوة إلى داخل المكسر.

بينما كان المنويون يحاولون السيطرة على الحريق بأوعية الماء من مصدرها إلى مركز الحريق، كان الأساقفة «برتراند مارتي» «وبيير روجيه دوميربوا» دوبيربلا» يرتجلون خطاباً.

ـ هؤلاء الملعونون أبناء الشيطان أثبتوا لنا لتوهم أن مونسيغور ليست صعبة المنال! هدّد بيير ـ روجيه دو ميربيوا.

ـ اقترح جوردان دوميربوا: لنرد عليهم بالاستيلاء على قاذف سهامهم كما فعلوا لقاذفنا، اقترح جوردان دو بيريلا.

ـ لاحظ الأسقف. أن الردّ يشكل مغامرة خطيرة.

ـ تساءل جوردان: ليس لدينا ما نخسره، سيدنا؟ هل سننتظر حتى يقتلونا ويحتلوا القصر؟ سأقود الحملة بنفسي.

لم يستغرق التفكير طويلاً بالعملية التي ترأسها جوردان في الساعة التي تلت. زحف قرابة خمسة عشر رجلاً وامرأة حتى بلغوا المنصة حيث يربض قاذف سهام الأسقف آلبي، بحراسة زمرة من الصليبيين.

تقدم المنويون على الصخور المغطاة بالعشب القصير. القمر غير المكتمل يسطع في السماء مضيئاً الأرض. لمحهم الصليبيون فاستيقظ الحرس في الحال.

ـ باسم القديس جرجس، خرجت الفئران من جحورها! انظروا هناك!

ـ إلى السلاح! إلى السلاح! أقتل، أقتل!

اندفع منويّو جوردان للقتال، واضطروا للوصول إلى منصة الإطلاق تحت وابل من السهام.

ـ باسم أبي «ريموند دو بيريلا» الذي استشهد في سبيل ديننا،هيا إلى الهجوم، أيها الرفاق! صاح جوردان، وبطنه متشنج ومعقود بخوف كبير مفاجئ.

هل كان يشك أن مهمته سيكون مصيرها الفشل؟

شاهد أمامه إخوته وأخواته يتساقطون. ومع ذلك ظل يتابع صائحاً مشجعاً نفسه، لأن الموت كان ينفخ في أذنيه. وسهام الرماة الصليبيين كانت تخترق بحدة خيوط هذه الليلة الجميلة.

ما أن وصلت المجموعة إلى أسفل قاذف السهام، سرعان ما أبيدوا وتفرقوا. كانت الأجساد المدماة تتدحرج على الصخور، ثم تسقط في الهوة، لتتكسر على الصخور.

سمع جوردان رفيقاً يناديه:

- لنهرب، جوردان! إنها معركة خاسرة.. انظر كيف يستأصلون أحشاءنا!

تمكن اثنين إلى ثلاثة من الناجين في المعمعة من ضرب وقتل جنديين أو ثلاثة، هذا لم يكن يكفي دعاة التفوق. وظهر أنه من العبث المتابعة، حيث لم يبق مع جوردان سوى أربعة رفاق لم تطلهم السهام.

سقطت مونتسيغور.. لم تسقط يا جوردان سنصمد قليلاً، يا عزيزي... ثم نموت في سلام وأمان الله. ونيران المحرقة ستخلصنا من أجسادنا!

* * *

في ليلة السادس عشر من آذار السابقة لاستسلام مونتسيغور أوكل بيير - روجيه دو ميريبو إلى «أميل» وأصدقائه «هوغو دومينياك»، «بيير بواتفين» «وبينو شانترانيل» مهمة إنقاذ كنز المنويين. هذا الكنز الذي حيَّر الكثيرين من المؤرخين طوال القرون اللاحقة. لم يبق من هذا المخطوط السري إلا بقايا صغيرة.

استغل الكاملون الأربعة الليل لتنفيذ فرارهم كان بنوا مسناً لا يمكنه القيام بمغامرة من هذا النوع. أخوه بيير لم يكن أكثر شجاعة. ربطا نفسيهما بحبال وبمساعدة «أميل» «وهوغو» الأكثر شباباً، هبطوا من السور الشمالي لقلعة مونتسيغور. في الأعلى وعلى متاريس الأسوار كان بعض الرفاق يمسكون الحبال بقوة ويشاهدونهم يتسللون في الظلام.

أصاب التعب بنوا بسبب الجهد، ويبدو أنه يخشى من عدم تحمل قلبه هذ الجهد. كان يرتطم صدره الملتهب بعنف، ودقات قلبه تكاد تصل إلى رقبته مع شعوره بطعم المرارة.

اصطحب بنوا معه وشاحاً يحمل محفظة من الجلد مغلفة بعناية بواسطة أربطة، تحتوي على ما بقي من صفحات أنقذت من الحريق، قبل ذلك بخمسين سنة: قطع ملف وصية المجنون.

وضع الرجال الأربعة أقدامهم على الحصى التي ما زالت ساخنة بعد نهار مشمس. ساعد اميل بنوا في التخلص من الحبل، كان الراهب العجوز منهكاً، جميع أعضاء جسمه تؤلمه.

بينما بنوا يستعيد أنفاسه، كان هوغو يراقب الجبل. لا حركة لم يرهم الصليبيون، دخل الهاربون الأربعة الغابة الملامسة لجوانب الجبل، تأبط بيير ذراع أخيه وتابعا سيرهما.

* * *

استسلم المنويون في تلك الليلة.

في الصباح، في الجنوب الغربي من مونسيغور كان الصليبيون يقيمون سياجاً من القصب لأحد الحقول كما جهزوا سوراً من الأوتاد لتأمين ممر اجباري لنقل أكوامٍ من الحطب، وأغصانٍ بكمية كبيرة، صبوا عليها الزفت، ذلك أنه لا يمكن حرق مئتي جثة بسهولة!

حضر «هوغيس دي آرميس» وفرسانه دفن ضحاياهم، عبر النيران والدخان الذي كان يتصاعد عالياً في السماء، كانت الأجساد تتلوى وتتكمش على نفسها تتفرقع وتنفجر. صراخ، صلوات وتضرعات، رائحة اللحم المتفحم. مات المنويون وبقي عزاؤهم الوحيد أنهم تمكنوا من إنقاذ جزء من كلام المسيح الذي جمعه يوحنا.

* * *

التفت بنوا إلى عمود الدخان الضخم الذي كان يشاهده رغم بعده عنه. ظهر له الدخان أنه ثابت لا يتحرك. ومن البعيد البعيد كانت الحركة تتضاءل.

دخان أسود كثيف وثقيل، تجمع فوق رؤوس الأشجار. في صمت الغابات، تخيل الراهب العجوز، نداءات وتوسلات المعذبين. الذين كان يعرفهم جميعاً بأسمائهم. ويحبهم كثيراً.

ـ هيا، قال بيير واضعاً إحدى يدي بينوا على كتفه، تعال بينوا! تعال، أخي.

ـ كيف يمكن لبشر أن يمعنوا تعذيباً وقتلاً في بشر آخرين؟ باسم أي إله؟ هل يجب أن يكون هذا الإله عنيفاً وقاسياً ليقبل هذه الضريبة من اللحم والدم! من الآن وصاعداً، أعرف من هم الهراطقة. أعرف من هم أولاد السوء، والشر!

أشاح بنوا برأسه عن المشهد المؤلم ثم عاد وأمسك بيد بيير، خافض الرأس، مرتلاً الصلوات برتابة متناهية.

ـ مشوا طويلاً ودخلوا في الأسطورة.

37

الواقع الصلف

قرر «آميل آيكار»، «هوغو دومينياك»، «بيير بواتفين» «وبنوا شانترافيل»، آخر المنويين الناجين من قلعة مونتسيغور، بأن يفترقوا لتمويه أثرهم وإعاقة التحقيق الذي بدأه رجال البابا ضدهم، وجد بنوا ملجأ لدى الأشخاص الوحيدين القادرين على حمايته: الهيكليون. اتصل مع المعلم الكبير غيّوم دوسونّاك الذي أرشده إلى مقر الآمر قرب تروي. أحضر المنوي إلى الهيكليين قطعة أو جزءاً من النسخة الأصلية للمخطوط الذي يثبت أن يسوع لم يمت على الصليب. حلقة غريبة للتاريخ أليس كذلك؟ لأن الهيكليين كانوا قد أسفوا لعمل أسلافهم الذين حرقوا دير أوبيني وعند موت بنوا أقاموا نصب الفارس المنوي في غابتهم إحياءً لذكرى الناجين الذين ذبحوا وعذّبوا.

- الكنيسة؟ طلب موزيل بإلحاح.؟ المبدأ الأساسي ...V.I.T.R.I.O.L وتلك الحلقة الناقصة؟ هل كنت تعرف بهذا الخراب منذ زمن طويل يا مارتن؟

- اعترف هيرتز طبعاً. ذكرها بعض صائدي الأساطير أكثر من ألف مرة. وفيما يخص الحلقة، نعم، سأكلمهم عنها فيما بعد، لأنني...

قوطع كلامه بسبب جرس جواله في سترته المعلقة إلى قوس خشبي لتجف من الماء.

أسرع واضعاً الجهاز على أذنه، وفجأة تغضن جبينه بأخاديد عميقة.

- وصاح يا إلهي! لقد تم عمل ما هو ضروري، أليس كذلك؟ الآن؟ سأحضر حالاً لتفقدها.

نهضت إيميلي وموزيل، فهموا. وانتظروا.

- قال هيرتز: إنها المستشفى، ليا مصابة باختلاطات وتعقيدات. توقف قلبها للحظة قصيرة و.. يجب أن أعود إلى باريس.

- ثيابك ما زالت مبتلة، اعترضت إيميلي.

- وأضاف موزيل: سوف تصاب بالبرد.

- لا أبالي! انتفض المحامي العجوز ممسكاً أغراضه منعزلاً في غرفة الحمام ليرتدي ثيابه.

فتحت إيميلي النافذة، لتهوية الغرفة المليئة بدخان السجائر، المطر يتساقط، رذاذاً، رمادياً وعمودياً، تخال أنه لن يتوقف.

لحق موزيل بالمرأة الشابة، سارا وكتفاهما متلامسان، لا يتحركان أبداً. يصغيان بصمت، إلى المطر الذي ينهمر على حصى موقف سيارات «نبع القصر» كلاهما يفكر في قصة المترهبن الشاب الذي استطاع الفرار من حريق دير أوبيني، والذي أصبح عجوزاً، بعد أن أسرَّ بمبادئ المنوية وأسرارها، هارباً من جديد.. هارباً من محرقة مونسيغور، هارباً من النار، والنار دائماً وراءه.

خرج هيرتز من غرفة الحمام بعد أن أنهى ارتداء سترته، التفت الشابان نحوه. لم يتمكن موزيل من كبح شعوره بالحزن وهو يراه شاحب اللون، محزَّماً داخل ثيابه المبللة والمتسخة بالوحل. لقد فقد الرجل شيئاً من طلعته البهية، كتفاه متثاقلان ظهره مقوس، رأسه نحو الأمام عبر الغرفة، وقف أمام إيميلي وموزيل لينصحهما:

ـ لا تجازفان باللعب أنتما الاثنان. حراس الدم لا ينامون على ضيم المجازفة هامة جداً.. أنصحكما بمغادرة المنطقة.

ـ وعده موزيل: نعم.

فتح هيرتز الباب ملقيا عليهما النظرة الأخيرة ثم غادر. وفجأة بدت الغرفة فارغة.

ـ اعترفت ايميلي بعد لحظة إلى ديدييه بأنها خائفة. لقد وضعنا أقدامنا في كابوس حقيقي. نحن نحارب ضد خيالات.

ـ ساعدنا هيرتز، أرغب جداً بمعرفة ما يبحث عنه حقاً. أية لعبة يلعبها هذا الهر العجوز.

ـ تساءلت إيميلي: ألم يكن لدينا من البراهين ما يكفي ليتدخل البوليس؟ أو حتى الصحافة؟

ـ الريح... قطع الورق، الأساطير، أشباح من التاريخ، لا شيء! انتحر فرانسيس، وسنرى، أن مارتن على حق: لن نعثر على جثة حارس الدم في الغابة.

ـ وإذا ما أوقفنا كل شيء؟ فإن فرنسيس كان محقاً بمنعنا من السير على خطاه، أبداً لم يكن علينا أن..

ـ لقد تأخرنا كثيراً... لقد جرّنا فرنسيس، من دون إرادته، إلى هذا الفخ؛ بما أن أخ أراد قتل أخيه آخر منذ ألفي عام، فليس هو المسيح الذي نتصوَّره.

ـ هذا ما يمكنك إثباته بأعمالك؟ سألت إيميلي، باحثة عن طمأنة نفسها. عبر وصية المجنون وكذلك بواسطة ملفات البحر الميت التي تترجمها حالياً مؤسسة ماير؟

شاب ملفوف بكفن يصعد جبل الزيتون ليوبخ ويلعن أخيه... كلا، ليس لدي أي وسيلة

لإثبات حقيقة هذه الحكاية. لكن حرّاس الدم سيبذلون كل ما بوسعهم لمنعي من المتابعة.

ـ وإذا كان فرنسيس غير محقّ؟ وإذا كنت أنت ديدييه وهيرتز يخدع الواحد منكما الآخر؟

ـ إن هيرتز يعرف أنه ينقصه فقط، بعض قطع من لوح الورق ليجد القبر. جميع عناصر السر متفرقة، فيجب جمعها لإعادة تكوين القطعة الأساسية.

عادت إيميلي واستلقت على السرير، متكورة، شاعرة بالبرد. أما موزيل فظل قرب النافذة، الباردة الرطبة لأنها تفيده، وتعود به إلى الواقع.

يجب التخلص من صور المعارك، والمحارق. مكتفيا بما هو أكيد وصريح، من الحقيقة بذلك يمكن إثبات أنه مؤرخ واقعي براغماتي. لقد كان كذلك إلى اللحظة التي أرسل فيها فرنسيس الشريط المسجل، المتضمن شهادته الأخيرة.

ـ بماذا تفكر ديدييه؟

إنه في حالة متعبة لا تسمح له بشرح حالته.

ـ كنت أفكر بأنني قبلت ما رواه لي هيرتز وأتساءل كيف عرف ذلك. أقول أحياناً أنني يجب الوثوق به، وأحياناً أخرى لا قيمة له بهذه التفاهات.

ـ لا شك أن لديك الرغبة بتصديقه.

ـ نعم. أنا أرغب بذلك. لكي أتحمل موت فرنسيس. ولأعطيه معنى. لماذا يحاولون تصفيتنا إذا لم يكن هناك جزء من الحقيقة في هذه القضية؟ نحن نعطل ونزعج مؤسسة الكنيسة، نحرك وحل تاريخها.

ـ نفتح باب الخزانة التي كانت الكنيسة قد خبأت الجثة فيها. هل هذا هو الأمر؟

اقترب موزيل ليجلس إلى جانب إيميلي.

ـ يلاحظ في الحالة هذه، إن الهيكليين خبأوا جثة يسوع، وضعوها على مقربة منا. غير بعيد عن تمثال المنوي والكنيسة المهدمة، في مركز المثلث الذي سعى فرنسيس إلى تحديده. في غابة الشرق.

ـ إذا وجدته ديدييه فماذا ستفعل به؟

ـ إذا وجدته، سيكون في ذلك انقاذ لحياتنا، وسيخسر عندها حراس الدم المعركة ولن يستطيعوا مهاجمتنا دون الإفلات من القصاص. سأعلن عن هذا الاكتشاف الأسطوري إلى العالم، إيميلي.

قال ذلك وهو ينظر مباشرة إلى عينيها، وقال مستدركاً:

ـ إذا أردنا البقاء أحياء، علينا اكتشاف القبر مهما كان الثمن!

باكتشاف قبر يسوع سنحمي أنفسنا.

تقدمت إيميلي ودارت حوله وهي ترتجف وتتساءل: هل قضي علينا؟ هل لم يعد لدينا أي أمل؟

كيف يطمئنها؟ ردّ عليها بقبلة سريعة على الجبين، قلق بارد يسري في جسده، ثقيل جداً لدرجة خانه صوته.

أعطى موزيل للصمت أهمية في تهدئة الاثنين.

* * *

التفت هيرتز باتجاه واجهة فندق نبع القصر قبل الصعود إلى سيارته. بقيت نافذة غرفة موزيل مفتوحة، لمح الشاب وهو يتكلم مع إيميلي.

أدار مارتن هيرتز محرك سيارته. انطلق باتجاه الطريق السريع. وهو يفكر بليا، لكنه لم يستطع أن يطرد من ذاكرته صورة الشابين. خيمت على وجهه سعادة أضاءت لإدراكهما أنهما لم يموتا. وهما على أطراف الغابة المكتظة بالشجر الأسود وسط المستنقع.

قال بداخله لسنا من الموتى اليوم، لأنني اليوم كنت هناك على قيد شعرة من الموت. تهت في تلك الغابة المشؤومة، منذ كم من الوقت لم آت إلى هنا؟ اثنا عشر سنة؟ بل أكثر؟ المرة الأخيرة كانت مع الأول. كنا مقتنعين أننا بلغنا هدفنا. لقد أخطأنا مرة أخرى. كما في المرات السابقة. ظهر مارلان. رويت له ما كنت أعرفه.

مسح هيرتز جبهته المبللة بالعرق.

«الدفاع عن هذه القضية القديمة». لن تكون لها نهاية!

شعر بضيق في قلبه وهو يعترف بهذه البديهة المرعبة: «يجب أن لا يموت موزيل اليوم، فذلك مبكر جداً».

أسف بصدق لأنه فكر بهذه الطريقة، عارفاً في أعماق نفسه أن هذا ما هو إلا تعبير عن الواقع الصلف والشرس.

كانت أفكاره حزينة ومحرَّرة من الوهم، ومعلقة بـ ليا التي سيطير إليها.

38

ماكشي

السبت الساعة الثامنة عشرة

البابا يوحنا الرابع والعشرون XXIV جالس قرب النافذة.

لا يستطيع السيطرة على رجفان يديه اللتين وضعهما على فخذيه. كيس التغذية المغروس في ذراعه الأيمن تحرقه قطراته المتساقطة بانتظام. لكن ما زال قليل من الحياة يجري في عروقه. لبعض الوقت؟ مرض السرطان يهاجم جسده التعب والعاجز من كل حدب وصوب. الجلسات الأخيرة للمعالجة الكيميائية تركته منهكاً.

- سأل البابا نيافة الكاردينال دوغيللو: ماذا جرى هذا الصباح في فرنسا غابة الشرق؟

الكاردينال جالس على كرسي أمام البابا، بينهما طاولة صغيرة منخفضة، عليها كأسان مملؤان بالماء، إضافة إلى أدوية مهدئة وكتاب صلاة. يستشيره البابا بانتظام في جميع أمور الرعية.

يعرف غيلليو أن الحبر الأعظم على إطلاع بدقة حول الأحداث المؤلمة من أحد عملائه. النظام المعتاد بين الرجلين يقضي بأن يقوم الكاردينال بنفسه في إنهاء العملية المشؤومة. يروي له أن حراس الدم الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الكنيسة وحاولوا اغتيال إيميلي مارلان وديديه موزيل.

تدخل أحد الصيادين قائلاً من المحتمل أن يكون مارتن هيرتز هو من قتل واحداً من الشرطة الثلاثة...

تنهد البابا بتعب.

- هل أُجري اللازم فيما يخص الحارس المقتول؟

- نعم قداستك. البوليس الفرنسي لم يعرف أبداً فيما إذا كان هيرتز أو موزيل أو أرملة مارلان هم الذين سيتكلمون عن القضية. سُحبت الجثة حوالي الساعة الخامسة عشرة. وكنا قد وضعنا مخطط مسرحية بطريقة تجعل وفاته مقبولة من عائلته.

- انتحار؟ علّق البابا ساخراً:

- بل اعتداء. قُتل رجلنا في منطقة من الطريق السريع عندما حاول أحد اللصوص سرقة

سيارته.كما غُسِلَ مسبقاً وألبس ثياباً جديدة. أوراق هويته وضعت في جيوبه مع بعض وثائقه الشخصية: قداحة، سجائر...

ـ سأل البابا ما هي الحجة التي موّهته؟

ـ ممثل تجاري (مندوب) لشركة «إن ـ فاين» لا مشكلة من هذه الناحية. للشركة فرع في فرنسا، وكان لديه موعد مع أحد مسؤوليها ليبحثا في قضية عقد. رزنامة حاسوبه الجيبي ستؤكد ذلك.

حاول البابا التخلص من تعب عينيه بفركهما بيده المرتجفة.

ـ هل هناك من تقدم في موضوع المحفل الأولي؟ لأنه هو الذي ينظم اللعبة في الظل، أليس كذلك؟

كان الشك قد ساور غيلليو في أن هذا السؤال سيُطرح عليه. أجاب:

ـ ليس لدينا أي تأكيد فيما يخص وجوده الحالي.

لعلَّ هيرتز قد تصرف من تلقاء نفسه، محركاً هذا البروفسور الشاب ديدييه موزيل.

رد البابا بغضب:

ـ كلا، كلا.. المحفل الأول هو حقاً على قيد الحياة! أنا مقتنع تماماً... نحن نقوم بهذه المعركة القديمة ضده. ضد أعضائه الذين يقولون عن أنفسهم أنهم ورثة الشاب ذي الكفن.

ـ طائفة من أصحاب الرؤيا!

ـ غير أنهم يملكون النسخة الثانية لوصية المجنون. بهذه المناسبة، هل تقدم باحثونا ـ الدومينيكيون ـ في أعمالهم؟

الصوت متشوّق، بالرغم من ضعفه، ما زال يوحنا الرابع والعشرين قادراً على إطلاق النبرة الآمرة التي تذكره بالحقبة الحديثة التي كان فيها رجلاً محترماً يخشى جانبه. كل ما يلفظه آنذاك كان كلاماً محفوراً في الرخام.

قال غيلليو:

ـ تهيأت للنزول إلى المختبر، لأطئمن أولاً عن صحتك.

ـ يمكنك أن تشاهده بعينيك: مثل ميت جالس لا يشعر حتى بحرارة الشمس على بشرته المتقرّنة.

ـ أظن أنك ستتحسن، قداستك. يبدو أن العلاج أعطى نتائج إيجابية. منذ كم من الوقت لم تغادر سريرك!

ردّ البابا بابتسامة مثيرة للشفقة:

ـ يجب أن يُصار إلى إصلاحك من خطيئتك الأساسية، يا صديقي: مَيْلك إلى الكذب!

أسف الكردينال على ترك البابا وحيداً في غرفته. طمأن الحبر الأعظم نفسه قائلاً: لقد أزفت ساعة العناية بي عندها سأجد لذة في تعنيف وتوبيخ الممرضات والأطباء. إنه يشكو من حرقة في المعدة، ستخف مؤقتاً، وستأتي ساعة العشاء والنوم، والليل بكوابيسه المرضية، وأشباحه القبيحة الناهضة من ركام العظام لتدخله في أفواه جحيم من الظلمات.

* * *

تأخر غيلليو في الحديقة. أمسية لطيفة ومنيرة فالشمس التي سطعت طوال النهار على الغار والصنوبر نشرت في الجو رائحة طيبة حلوة.

كان الكاردينال يمشي ببطء، ثم يتوقف أحياناً للتفكير. توجه نحو «كازينا دو بي IV» والتي كانت تعرف باسم الأكاديمية البابوية للعلوم.

دخل البناء، فضغط الحارس الذي يعرفه جيداً، على زر قاطعة مموهة في زخارف ناتئة جدارية. شق في الجدار يخفي وراءه مصعداً، استقله غيلليو.

دام الهبوط ثلاثين ثانية تقريباً، غادر بعدها الأسقف المصعد، ليدخل رواقاً تنيره أنابيب النيون ذات النور الساطع.

صالة زجاجية واسعة، يخيم عليها نشاط دراسي صامت، ستة من الدومينيكيين، منكبين في عملهم على شاشة حواسيبهم أو على نسخ مخطوطات قديمة مصورة.

على أحد الجدران المعتمة، خارطة كبيرة مدرجة لمنطقة شامباني ـ آردين. في وسط الطاولة، وداخل صندوق زجاجي، تقبع وصية المجنون التي قدمها الملك «فيليب أوغست» إلى القاصد الرسولي «بيير دو كابو» في القرن الثاني عشر.

استقبل غيلليو، أكبر الدومينكيين سناً، وهو رجل دومينكي قصير القامة، ضعيف البنية، ذو جبهة خالية من الشعر ونظارات عريضة على عينيه، وسيجارة بين شفتيه.

وقال له من خلال ابتسامة شبه هازئة ارتسمت على شفتيه:

ـ زياراتك أصبحت أكثر تواتراً، سيدنا. لقد نفذ صبر قداسته فهل يعتقد أننا سنخترق غداً سراً ينام منذ قرون؟

تمتم غيلليو:

ـ تعرف جيداً أن الوقت يداهمنا، ماكشي.

رفع ماكشي نظارتيه لينظفهما بمنديله، ويعيدهما على أنفه حريصاً على تثبيتهما جيداً متفرساً بمحدّثه بعينيه المكورتين.

ـ عجباً! تنقصنا أشياء أخرى كثيرة. ملاحظات البروفسور مارلان والهيكليون وهيرتز، على نسخة وصية المجنون التي يملكها هذا الأخير.

لقد ترك الهيكليون على هامش صفحاتها معلومات تنقصنا، خطا غيلليو ثلاث خطوات إلى الوراء نحو الخارطة الجدارية مشيراً إلى نقطة في غابة الشرق.

ـ مع أننا تقدمنا بخطى عملاقة، هذه الأشهر الأخيرة، بفضل عملائنا.

ـ كنا نعرف سابقاً الوسط الذي علينا البحث فيه. لكنه واسع! رغم ظنك سيدنا، لم يوضح لنا جواسيسنا المعلومات الكافية.

انفعل غيلليو:

ـ ماذا فعلتم بالأحداث التي جرت هذا الصباح؟ هنا، ليس بعيداً عن كنيسة الهيكليين الصغيرة، فقد اكتشف عن وجود موزيل وزوجة فرنسيس مارلان.

فتّش محققونا الكنيسة ألف مرة سيدنا، عبثاً.. تابع ماكشي كلامه... ملتفتاً نحو الدومينيكيين الخمسة الآخرين المنكبين على طاولاتهم:

ـ انظروا سيادتكم.. إننا لا نتوقف عن قراءة وإعادة قراءة النسخ الأصلية للتحقيق الذي يتناول السر ونطلّع على الوصية الأخيرة يوماً بعد يوم، لا شيء في هذه الكومة من الأوراق يرشدنا إلى القبر. إنها لوحة من الورق المقوى، تمسك ببعض القطع وأعداؤنا يمسكون بالأخرى.

علّق غيلليو مندهشاً:

ـ هل عثر فرنسيس مارلان من جهته على شيء؟

دَعَك ماكشي عقب سيجارته المصفر المعلق بين شفتيه في منفضة، ثم أشعل أخرى دون الانتظار طويلاً. رغم نظرة الكاردينال الرافضة.

ـ علينا التنقيب بإمعان وعن كثب، من ناحية الماسونيين؟

تساءل الدومنيكي:

ـ لماذا تقول لي هذا؟

ـ أساطيرهم وخرافاتهم.. بعد كل حساب، قد تكون قريبة من الحقيقة، إذا كان من نبحث عنه هو الأخ الأول. لقد جمع مارلان كل نقاط المثلث: نقاط مخطوطات البحر الميت ووصية المجنون ومذهب الباطنية الماسونية، قائلاً: لا يمكن أن يكون غير هذا.

ـ أفهم ذلك، قالها غيلليو عائداً إلى الخارطة الجدارية. ذلك يعني أن الرجل الآخر الذي يعرف ويقدر على رسم هذا المثلث سيكون قادراً على اكتشاف مكان القبر؟

ـ هل تفكر مثلي، بشخص معيَّن ؟

بالفعل، قال الكاردينال:

ـ ديدييه موزيل!

39

أفكـار

بواسطة مصباح جيبه أزاح موزيل عتمة الليل الأسود والعميق. ودفعت حزمة الضوء الأصفر ظلال الأشجار الطويلة بعيداً إلى الأمام، بين الأعشاب العالية ذات الحد الجارح. لمعت في خاطر الشاب فكرة أنه كان عليه ألا يعود بمفرده إلى كنيسة الهيكليين. هذه الرحلة الليلية أيقظت فيه مخاوف تعود إلى أيام طفولته. المكان، لا يشبه ما رآه نهاراً. كل شيء يهدد بكارثة، كل زقيق يحدثه مطر غير مرئي يثقب جسمه حتى العظم.

أخيراً توقف الانهيار كما لو أنه انبثق فجأة، مرسوماً بخطوط كبيرة سوداء وغير كاملة. تقدم، على الأرض الموحلة، قدماه يغوصان فيها مع ضجة خفيفة. تقدّم، ثم تسمّر في مكانه. بدأ قلبه بالخفقان منذراً بحادث مفاجئ.

ألم شديد في الصدر وسريع، «ديدييه... ديدييه»: ناداه صوت يعّرفه «ديدييه!» ثم ناداه الصوت البهيم ثانية ببطء القلق، تعّرقٌ لا مثيل له بسبب القلق. التفت موزيل مسلطاً مصباحه على الجذوع المغطاة بالطحالب، يفتش، وينبش في أعماق الليل.

«ديدييه!».

اضطر للسير متثاقلاً نحو دغل أشجاره قصيرة، الصوت يرشده انتقلت نبرات الصوت من الهمس إلى الشدة على المقطع الأخير للكلمة.

صرخ ديدييه: «من هنا...!».

كلما تقدم ديدييه، هرب الصوت ليجذبه إلى داخل الغابة، إلى أعماقها الرطبة، ورائحة أوراقها، والنضار والأشُنة.

وصل ديدييه إلى فسحة دائرية داخل غابة تحيط بها شجرتا سنديان ضخمتان وأوراق كفية مشبعة بالمطر.

«ديدييه.. ديدييه... أنا هنا!».

وجّه موزيل مصباحه من حوله، القلق يعقد بطنه مسببا له الشعور بالإقياء. يجب أن يراه، الآن. الصوت قريب جداً. «ديدييه... تعال... ديدييه..».

تراجع موزيل إلى الوراء قافزاً مرعوباً.. ساقاه ترتجفان لا تقويان على حمله، أوشك على

السقوط. الصوت يأتي من الأرض لم يستطع مخروط نور مصباحه تحديد مكانه.

شيء بارد أمسك كاحليه، وتشبث به. أصبحت الأرض كأنها محروثة، وموزيل يغوص فيها، يتخبط بذراعيه، سيغرق. صرخ من الرعب. ما زال الشيء يجذبه إلى الداخل. أصبح غارقاً حتى وسطه، حاول التمسك يائساً، يمسك الأرض بأصابعه. تنكسر أظافره. يتدحرج مصباحه بحيث يصبح مخروط نوره باتجاه وجهه. لم يتوقف عن الانزلاق نحو الداخل.

بدأ يختنق، يختفي تماماً في الوحل، مذاق عفن يدخل بلعومه. شعر بجسم آخر مشدود إلى صدره. جثة عارية، هزيلة، طينية اللون.

إنه قبر! الميت الذي يرقد فيه يحاول معانقة موزيل، الأخير يصارعه، ثم يدفعه، يتداخل بين ذراعيه الخاليتين من اللحم، لكن الميت يتقولب معه بطريقة دنيئة، فاحشة، يحاول تقبيله على شفتيه.

نفخة نفس نتن الرائحة يفوح من صوته.

وهج.. شاهد موزيل الوجه ملتصقاً به واكتشف ما كان يعرفه ويخشاه كثيراً.

«فرنسيس!».

نظر إليه مارلان محدِّقاً بعينيه السوداوين. بذل موزيل كل ما تبقى له من طاقة ليحرِّر نفسه من جثة صديقه دافعاً أياها باشمئزاز، فيميقه التراب الرخو.

«أنت لم تتبع نصيحتي يا ديديه.. لقد حذرتك... إنه قدر موتك الذي تجري خلفه! يجب عليك أن لا تعرف الحقيقة!».

نهض موزيل خارج الحفرة وخرج من الأرض بعد جهود مريرة. فتح فمه واسعاً ليتنفس هواء الليل. فهو على حافة الاختناق، والجنون.

بدأ، يتنفس الهواء بجرعات كبيرة، مندهشاً لكنه مطمئناً، لأنّه وجد نفسه في غرفته في فندق، «نبع القصر».

نظر إلى ساعته، إنها الخامسة. نهض، متوجهاً إلى النافذة، أزاح الستائر قليلاً. شعور لا يوصف ورغبة لا تقاوم إلى النور، فتح النافذة، فتلقت بشرته طراوة النهار المريحة التي تظهر مبهمه على رؤوس أشجار الساحة. « مع ذلك كابوس أرعن، وواضح! صالح لإسعاد محلل نفسي مبتدئ.. جلي جداً! القبر السري في الغابة... فرنسيس يأخذ مكان المسيح ويذكرني أنه قد حذرني... ومن ثم هناك مسألة شعوري بالذنب... لقد مارست الحب مع زوجته وقرأت في عينيه أنه كان يعرف ذلك. أمقت هذا النوع من الأحلام! لأنه ذكرني بالخوف عندما كنت طفلاً. شعر موزيل بالحاجة إلى المشي صباحاً.

نزل الدرج. في الاستقبال، أشارت له فتاة فردّ عليها بحركة من ذقنه، مغادراً الفندق.

عطر تراب الغابات القريبة أدركه فجأة، شهق طويلاً حتى يملأ منه رئتيه. كان رسوخ الكابوس قوياً لدرجة أنه ترك في فمه المذاق المقزز لقبر مارلان.

اجتاز موزيل موقف السيارات مسروراً بسماع خطواته على الحصى. يعيش! طلوع النهار والتفكير بهدوء فارضاً التناسق والتماسك لعقله.. يجب إعادة درس وتدقيق جميع نقاط التحقيق، وتبيان تسلسلها الزمني، ومقارنتها، وموازنتها.

قرر السير في درب ضيق مليء بالحفر وبرك الماء في وسطه شريط من العشب جمال الوحدانية، الشعور بأنك وحيد في العالم في طراوة وبرودة آخر الليل.

هكذا، وببطء، تدريجي، تتلاشى صور كابوسه السيئة، وتتقشع، مطرودة بفعل التفكير المنهجي الذي ينسجه.

النقطة الأولى: اكتشف فرانسيس موضع قبر يسوع المسيح، بعد مغادرته فلسطين بصحبة بعض تلامذته - أو عائلته وجاء إلى فرنسا، ومات فيها.. ودُفِنَ في غابة الشرق. ما تزال بقاياه هناك.

النقطة الثانية: كيف علم حراس الدم أن فرانسيس وصل في بحثه إلى طريق الهيكليين؟

النقطة الثالثة: قتل حراس الدم فرانسيس، وجاؤوا بجثمانه إلى فندق مارلي مموهين جريمة القتل بأنها انتحار.

النقطة الرابعة: معرفة حراس الدم أنني أتابع أبحاث فرانسيس.

النقطة الخامسة: تعرضتُ لمحاولتي اغتيال.

النقطة السادسة: دخول حراس الدم إلى منزل مارتن هيرتز، فعمّا كانوا يبحثون؟ عن وصية المجنون؟ إنها هنا، كيف عرفوا أن هيرتز يملكها؟

النقطة السابعة: كشف هيرتز عن قصة وصية المجنون، والعدد الذي تمَّ نسخهُ عنها، والطريق الذي سلكته عبر التاريخ: الهيكليون، المنويون، ثم الهيكليون من جديد.. والآن، إنه يمسك بها. بأي طريقة حصل عليها؟

النقطة الثامنة: قابل البروفسور ارنستو بونتغليون فرنسيس، الذي درس مقطعاً من وصية المجنون، وأخطر فرنسيس عن أفكاره وآرائه.

النقطة التاسعة: بالطبع جمع فرنسيس عدداً كبيراً من الاستنتاجات الفوضوية المتغيرة المجموعة من عدة مصادر، ثم أعطاها بنية، ونظاماً. حيث اظهرت له الحقيقة.

النقطة العاشرة: أي دور حقيقي لعبه هيرتز؟ هل كان على علم بالتحقيق الذي كان يجريه فرنسيس؟

هذه النقطة الأخيرة أزعجت موزيل. فقد تبيّن له فعلاً أن موقع هيرتز في هذه اللعبة

الدنيئة هو دور متفوق. كان المحامي العجوز حاضراً، الحفلة في النادي الاسكوتلاندي قبل ذلك بتسع سنوات حيث اقترح موزيل على مارلان أن ينضم إلى فريقه في مؤسسة ماير. كان يعرف أي نوع من العمل كنا نقوم فيه. تابع كل محادثتهما كما أثار موزيل معه لعدة مرات، موضوع التقدم في ترجمات 456Q4 ـ 458. وكان هيرتز يصغي إلى الشاب بلا مبالاة. نادراً ما يطرح الأسئلة، معطياً الشعور أن الموضوع لم يكن يهمه سوى سطحياً.

تذكر موزيل هذه الأمور المتفرقة في أوقاتها، وأدرك أن هرتز، متظاهراً بحذق وبراعة لا نظير لهما، قد يمكن من أن يختلس منه معلومات جوهرية.

ـ أصبح الشاب متأكداً الآن من عمل، هيرتز؟ مارلان وهيرتز هما من أسَّر إلى المعلم الجليل في محفل إيليا، كما تتبع هيرتز بانتباه الدراسات التي كان يجريها في مؤسسة ماير.

بما أنه يملك وصية المجنون؟

في ذلك المساء، ومنذ تسع سنوات، مباشرة بعد احتفال المسارة أو الترسيم، اشترك موزيل وهيرتز لأول مرة حول مفهوم أو عبارة الصدفة، التي أقلقت حلم موزيل صدفة جعلت ثلاثة من الفاعلين للمأساة الحالية يتقابلون: هيرتز، مارلان وموزيل. من المحتمل أنها لم تكن محض صدفة، فكر موزيل بجزع...

النقطة الحادية عشر: إذن: هل يكون هيرتز المتلاعب والمحرك؟ في حال الإيجاب، لحساب من يتصرف بهذا الشكل؟ هل لحسابه الخاص؟...

40

الرسالة السادسة

غداً الاثنين سيسلِّم الرسالة.

إنه يرتدي لباس النوم. كان الليل قصيراً جداً، كان مضطرباً في لحظاته النادرة التي يسيطر منها الخدر بسبب أحلام تزخر بأنواع من الذكريات المُشَوَّهَة.

عند استيقاظه حضَّر لنفسه فنجان قهوة متوجهاً إلى مكتبه. كان في عجلة من أمره ليفتح صندوقه الخشبي ويتناول منه المغلّف السادس.

أخذه بين يديه، ونظر إليه مفكراً. كُتب على الورقة الداكنة، وبأحرف كبيرة اسم وكنية:

DIDIER MOSELE

إنها كتابة فرنسيس مارلان

سار موزيل بخطى سريعة مدة ساعتين. عاد بعدها إلى نبع القصر، حذاءاه ملوثان بالوحل، صعد إلى غرفته، أخذ حماماً بارداً وأشعل السيجارة الأولى لهذا النهار.

حوالي الساعة الثامنة، اتصلت إيميلي به هاتفياً لتسأله فيما إذا كان يرغب بتناول الإفطار معها.

أجابها:

ـ أتضور جوعاً، منذ زمن قصير قمت بجولة في الغابات، بسبب كابوس ـ أيضاً واحد ـ يجب طرده!.

ذهبا إلى غرفة الطعام، حضرت فتاة الاستقبال لتسجل طلباتهما بابتسامة منهكة.

ـ طلبت إيميلي هل تروي لي؟

رفع موزيل أنفه، ليخرج من أفكاره.

ـ ماذا؟

ـ كابوسك.

مكرهاً، مجبراً على الغوص من جديد في صور الليل الدبقة.. قدَّم لها مختصراً سريعاً، عندما أنهى أرسلت المرأة الشابة صفيراً من بين شفتيها:

- فرنسيس يلاحقك، كما يلاحقني. أنا أيضاً حلمت به، غير أنه كان ودوداً، في البداية. يوم كنا فتياناً صغاراً.. أترى لدي الشعور أنه يأخذ مساحة أوسع في مماته منها في حياته.

- لقد أحسست بهذا الشعور عندما فقدت أهلي.

- هل لأن أهلك وفرنسيس ماتوا تحت وطأة العنف؟ أتعتقد أنه لهذا السبب؟

- نفكر عرَضَاً بالأحياء. نتكلم معهم بالهاتف من وقت لآخر، ندعوهم لتناول العشاء، والمشاركة في لحظة قصيرة من حياتنا. هذا تقريباً كل شيء. بالمقابل، يغزونا الموتى، يسيطرون على ذاكرتنا. بعد زمن قليل من حادث السيارة الذي تعرض له أهلي، أدركت أنهم لم يغادروا مخيلتي. لم أتوقف عن تذكر أقل التفاصيل، الأشياء القليلة الأهمية، الأحداث الصغيرة. كانوا هنا، في داخلي، يحدث لي أني أكلمهم، أسألهم، أتصور أجوبتهم. كنت أعيد اختراع أصواتهم، لأن هذا هو ما نفتقد إليه في المكان الأول.

أنت محقة، تقبلها من إيميلي. نسيتُ صوت أمي أما أبي، لم تجعله الاتصالات الهاتفية الثلاثة التي يجريها معي في العام حاضراً جداً. أكتشف في كل مرة صوته.

- هل أخبرته عن فرنسيس؟

- لقد ناداني، شاهد إعلان الإخطار في صحيفة لوموند وقرأ المقالة في جريدة ليبراسيون، حتى أنه لم يجد ضرورة السفر لحضور مراسم الدفن. قد يكون ذلك أفضل: لم تكن لدي الرغبة برؤيته.

وضعت فتاة الاستقبال طبقين على طاولتهما: قهوة، شاي، كأسين من عصير الفاكهة، كرواسان، قطعاً مدورة من الخبز بالسمسم، صحنين من المربى، العسل والزبدة.

- ردت إيميلي وهي تصب كوباً من الشاي، كابوسك مرعب فعلاً.

- ما هو أكثر رعباً، وتقززاً، التماس مع أعضاء فرنسيس المجمدة. أكاد أقول إنه كان يشدُّني إليه. إليه في الداخل! كما لو أنه كان علينا: أن نكون شخصاً واحداً في الموت.

- الأُخوَّة، ديديه...

- أظن على الأرجح أنني لست في سلام مع فرنسيس، أنت تدركين لماذا، أليس كذلك؟

- نعم ديديه، طبعاً.

وضعت إيميلي يدها على يد ديديه. ناعمة ومطَمئِنة، ومفعمة بالدفء، لامست أصابعها. أصابع الشاب الشديدة البرودة.

- متى ترغب في العودة إلى باريس؟

- على الأقل لنتظاهر بقضاء يوم الأحد بالسياحة في تروي، سنعود غداً صباحاً. لا أعرف

تماماً ما إذا كنت سأمر على المؤسسة الثلاثاء أو الأربعاء، ممكن.. سأتكلم مع مارتن بعد قليل لكي أسأله عن زوجته.

سحبت إيميلي يدها من يد موزيل.

ـ ديدييه...

ـ نعم؟

ـ لم أقل لك كل شيء عن حلمي.

ـ أسمعك.

في البداية، كنا يافعين، نمارس ركوب الدراجة، فجأة وجدنا أنفسنا راشدين في إطار مجهول، فرنسيس أدار ظهره وقد حذرته من ذلك، انزعجت منه لأنه لم يعد يهتم بي. كنت أقول إن ذلك حماقة، كان يرفض النظر إلي في حياته. أخيراً قرّر الالتفات نحوي... كان له وجهك! لكنني متأكدة أنه كان هو بذاته. أخيراً، أعتقد... أحس موزيل بمذاق التراب في البلعوم، من جديد لمدة قصيرة. هذا الشعور بالاختناق أطبق على أنفاسه هذه الليلة.

41

أحرف (ا) المائلة

الأسبوع الثاني، الاثنين صباحاً.

أوقف موزيل سيارته قريباً من 33 شارع بورت ـ برانسيون:

ـ الأفضل أن تشربب القهوة فقط وبعدها أصحبك إلى منزلك.

ـ لدي طناً من الأوراق يجب ملؤها، إنها تأمينات فرنسيس...

ـ مرّا أمام مقر الحارسة بينما كانت تهم بتوزيع البريد.

ـ قالت المرأة: رسالة لك، سيد موزيل، لقد وضعوها في علبة بريدي، هكذا... لا يوجد عنوان، انظر.

أخذ موزيل المغلف بنوع من اللامبالاة.

ـ نوهت الحارسة، كان يجب أن أضعها باكراً هذا الصباح، في صندوق بريدك.

ـ شكراً، سيدة لورنيل.

ثم عبر موزيل وإيميلي الباحة ليتوجها نحو البناية رقم 2 مسكن ديدييه، في الطابق الخامس.

الرسالة، ضمن مغلف من الورق الأصفر، شعر بقلبه يخفق بقوة لحدّ الألم، يكاد يتمزق.

تعجب موزيل وهو ينظر اسمه وكنيته المكتوبين على الغلاف صرخ: يا إلهي.

ـ اندهشت إيميلي ماذا بك؟ إنها تلك الرسالة؟

ـ انظري، إيميلي. انظري من كتب اسمي وكنيتي على هذا الغلاف!

ـ الأحرف الكبيرة الـ(ا) منحنية قليلاً بينما كل الأحرف الباقية هي مستقيمة، لا تريد إيميلي تصديق هذا. ولا تريد معرفة أي شيء.

ـ همس موزيل بنبرة المتحقق، إنه هو.

ـ إنه فرنسيس؟ لماذا تشك في ذلك، قد لا يكون هو:

أي شك، كان من عادة فرنسيس استخدام الأحرف الكبيرة في كتابته، وانحناء أحرف ا علامته.

* * *

استقلا المصعد دون أي كلمة. تفحص موزيل المغلف وهو يقلّبه بين أصابعه، فهمت إيميلي أنه يخشى فتحه.

دخلا الشقة المرتبة بدقة والمنظفة جيداً، لم يكن موزيل يحب الفوضى في مكاتبه.

ـ ماذا يعني هذا؟ تعمد أخيراً توجيه السؤال إلى إيميلي. هل حضّر لنا فرنسيس مقلباً؟ أو هل هي واحدة من مهاراته الماسونية؟

ـ كلا، إنني لم أكن أنتظر تلقي هذه الرسالة السادسة.

أخيراً فتح المغلف، انحنت إيميلي فوق كتفه.

ـ قال موزيل: إنها الحقيقة رسالة منه.

بصوت عالٍ، قرأها:

عزيزي الكريم ديدييه، إذا لم أسلّمك هذه الرسالة، ذلك يعني أنني ميت وأنك لم تطع تحذيراتي التي نبهتك بها. لكن الفراغ والزمن ليس لهما قيمة بيننا، سأبقى مخلصاً إلى جانبك، أتوقع أنك اقتربت جداً من القبر.

لا تتقدم، ديدييه! لقد حذرتك. أنت تجهل من هم أعداؤنا الحقيقيون. أكرر لك: لا تضيع نفسك. V.I.T.R.I.O.L هي فخ!

صديقك الأخوي فرنسيس

ـ قالت إيميلي هذا جنون كلّي! لقد حرر هذه الرسالة متصوراً أنك ستكمل مسيرته وتتابع المسار نفسه، لكن من الذي وضعها عند حارسة البناء؟

ـ خمّن موزيل: قد يكون أحدهم أفصح له عن محله، يوجد إذن مجهول يتجسس علينا ويراقبنا، طبعاً الذي يعرف أننا نتابع أبحاث فرنسيس والذي كلّف من قبله أن يكون مرساله!

ارتعدت المرأة الشابة.

ـ حتى وهو ميت، فإنه لا يتخلى عن هذه القضية، تلفظت بهذه الجملة بصوت منخفض.

* * *

مضت أكثر من ساعة وثلاثين دقيقة على عودته إلى منزله. تخلى عن مشمّعه وارتدى ثوب الراحة، مرتمياً على كرسي مريح غافلاً لبضع دقائق، ثم توجه إلى مكتبه. فمه جاف يكاد لسانه يلتصق بحلقه مما يعطي الرغبة بالإقياء. جلس إلى طاولته، ونظر إلى خزنته الخشبية التي أخرج منها الرسالة السادسة. تلك الموجودة في الأعلى، مخفية وراءها أربطة المغلفات الأخرى.

ثم انتظر، دون أن يعرف بالضبط ما الذي عليه توقعه.

انتظر كما الليلة الماضية وما قبلها.. أصغى إلى ضجة الشارع، بادئاً في تحديد مكان الرسائل والتعرف عليها جميعها. هكذا، عندما ننتظر عبثاً، محكومين بإيقاف الزمن، نترك

ذهننا يتسكع قليلاً مثل حيوان ضائع، يحاول إيجاد بعض المعالم وهكذا أخذ عقله يبحث عن طريقه.

جلست إيميلي على الكنبة، لم يستطع موزيل البقاء في مكانه.. يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ضارباً كعب حذائه نافثاً دخان سيجارته.

- ألا تجد من الغريب أن يسلمك البروفسور بونتغليون مفكرة مذكرات فرنسيس التي قادتنا، كما لو كانت صدفة، إلى كنيسة سدنة الهيكليين؟ أصيبت المرأة الشابة بالدهشة، ونحن اليوم نتلقى هذه الرسالة؟

- لقد نزل بونتغليون من السماء في اللحظة المناسبة، أليس كذلك؟ قلت لي بالضبط إن فرنسيس والبروفسور كانا يتراسلان ويتلاقيان مطولاً في روما.

- هذا صحيح.

- بونتغليون هذا، وهو الماسوني مثل هيرتز، يخفي عليك أشياء كثيرة!

- أنت محقة دون شك. كان مارتن هيرتز قد أرسل له نسخاً مصورة لبعض أوراق وصية المجنون ليسمح له بالتعمق والتدقيق في أبحاثه.

- أجابت إيميلي قد يكون فرنسيس سلّمه نتيجة أبحاثه. أو ترك له مجمل دفاتر مذكراته الثمينة.. التي لم يسرقها حراس الدم.

- برأيك، وهذا احتمال، هل يمكن لبونتغليون أن يكون ملاكي الحارس؟ قبل موت فرنسيس الذي أوكل له مهمة حمايتي.

- أجابت إيميلي في كل الأحوال، هذا الرجل يستحق أن تدُسَّ أُنوفنا قليلاً باتجاهه؟

- لقد نزل في فندق غير بعيدٍ عن المحفل، قرب بولفارد بيرير. أعتقد أن زيارة أخويّة يقتضي أن أقوم بها قبل أن يعود إلى إيطاليا، غير أنني أريد في البداية التحدث إلى مارتن هيرتز.

- أرافقك، وسأبقى في السيارة، بينما أنتَ تتحدث إليه.

تركت إيميلي الكنبة وهي تشدُّ عضلاتها متثائبة.

أشعر أن كل جسمي يؤلمني. ثمة احتمال بإصابتي بنزلة برد من جراء حمام الوحل في غابة الشرق.

قبل مغادرة شقته، ذهب موزيل إلى مكتبه ليضع رسالة فرنسيس مارلان السادسة مع الرسائل السابقة.

- من سلّمها لي: بونتغليون؟ أم هيرتز؟

42

الحضور المجهول

ـ هل أنت متأكدة لا ترغبين المجيء؟

فتح موزيل باب السيارة وبقي منحنياً على إيميلي.

ـ أجابت نعم، ستكون أكثر ارتياحاً خلال تبادلك الحديث معه. أنتم الماسونيون والآخرون، تحبون كثيراً أن يتحادث الرجال فيما بينهم، أليس كذلك؟ نزوعكم نحو السرية! سأستمع إلى شيء من الموسيقى بينما أنتظرك.

قطع موزيل شارع جاكارد وسار مسافة عشرة أمتار تقريباً قبل بلوغ جدار جناح هيرتز. الباب نصف مفتوح دفعه دون إعلام المحامي مسبقاً بواسطة الأنترفون.

تسلق الدرجات العشر الحجرية التي أوصلته إلى حديقة مهملة، ثم توجه نحو الباب الذي بُدِّل قفله حديثاً، قرع الجرس.

لم يحصل على جواب، قال في نفسه قد يكون هيرتز عرَّج إلى المستشفى قبل وصوله، رن الجرس من جديد أخيراً سمع، وقع خطوات، ثقيلة وبطيئة.

ـ ديدييه لم أكن أتوقع...

ـ هل باستطاعتي الدخول؟

أفسح هيرتز المجال للشاب للدخول.

ـ طبعاً، كان عليك أن تخبرني مسبقاً... أو تحدثني هاتفياً!

ـ تحقق موزيل بأن لدى هيرتز «ابتسامة متكلّفة!» وهو يدخل البهو.

ـ قال: آسف، كنت خارجاً وعرجت بطريقي إلى منزلك.

ـ هذا تصرف ودّيّ من جانبك تفضّل إذن.

أغلق هيرتز الباب وراءه، وربت بقوة زائدة كتف موزيل، حركة أبوية تعبيراً عن الحب والحميمية. لكن ما في داخله مختلف، غير مألوف.

قال موزيل:

ـ لم أتمكن من طرد موت هذا الرجل حارس الدم من ذهني.

ـ أفهم، لكن أنا من قتله، يا ديدييه. لم يكن في نهاية المطاف سوى شبحاً! اختفت جثته.

ما أن بلغوا المكتب، حتى أشعل هيرتز النور.. استنتج موزيل أن هيرتز لم يكن في تلك الغرفة.. من المحتمل أنه كان في غرفته عندما قرعت الجرس ولهذا استغرق كل هذا الوقت ليفتح الباب.

جلسا على كرسيين عميقين.

ـ قال موزيل: أسأل نفسي أحياناً فيما إذا كنا مرتابين، نختلق الأحداث الخيالية، لإرضاء خداع سرورنا فقط.

ـ أنا متأكد بأني قتلت فعلاً ذلك الرجل، وفرنسيس مات مسموماً، أليس هذا حس مادي؟

ـ نعم، شاحنة صغيرة أيضاً حاولت دهسي، وأُطلقت النار على زوجتك. في الواقع كيف حالها؟

ـ لقد استعادت وعيها حتى أنها نطقت ببعض الكلمات مساء أمس. مما رجح كفة الأمل لدي...

ـ أنا سعيد بك، مارتن. آمل بصدق أن لا يبقى لديها أي عراقيل أو اختلاطات من جراء ذلك الاعتداء.

ابتسم هيرتز محركاً يده ليرافق فكرة يحتفظ بها لنفسه، فكرة أو رجاء؟

ـ حزم موزيل أمره!

ـ في الواقع تلقيت رسالة جديدة من فرنسيس، هذا الصباح. وضعها أحدهم في علبة البريد التي تخصّ حارستي.

ـ قال الرجل العجوز، هذا غريب، هل رأت حارستك من وضعها؟

ـ للأسف، كلا.

ـ هل أحضرتها لي؟

ـ فضلت إبقاءها في مكتبي. باختصار: تأمرني بأن لا أتابع البحث على طريقة فرنسيس وتنتهي بهذا التحذير: V.I.T.R.I.O.L إنه فخ!

ـ أتوقع بمن تفكر، يا ديدييه، أنا على قائمة الذين تشتبه بهم.. هل هذا صحيح؟

ـ ذلك ما يدهشني، خاصة، إنها الطريقة التي يستعملها فرنسيس. هذا الإخراج... لا يتوافق مع شخصيته. ومن ثم، أعتقدت أني حافظ أسراره الوحيد في هذه المغامرة.

ـ لا يمكن لأحد معرفة أخيه معرفة تامة، حتى توأمه! هذا ما يزعجك، أليس كذلك؟ يجب أن يقر موزيل بذلك.

بالحقيقة، جئت أبحث عن نصيحتك، مارتن.. كنت رئيس محفلنا، عندما كنا في مرحلة الثلاثين بمحفل إيليا فرنسيس وأنا، لقد كنت ترشدني دائماً..

ـ وأنا معلّمك القديم، طبعاً.

حرّك هيرتز في كرسيه مؤخرته الضخمة باحثاً عن وضعية مريحة.. هو عصبي متوتر. نظر إلى ساعته مرتين ليدفعني إلى مغادرة مكتبه. لم يعرض علي شرب القهوة منع نفسه عن شربها، كعادته في مثل هذا الوقت.

ـ تابع هيرتز: أعرف أن الأخوة ليست كلمة عبثية بيننا. قريباً، سأقول لك...

ـ ستقول لي ماذا؟

ـ هذا سابق لأوانه. لكن علي أن أكلمك قريباً عن وجه آخر للمحفل.

ـ لست متأكداً أبداً من تقدير أسرارك الصغيرة مارتن.

نبرة صوت موزيل كانت قاطعة، لاحظها هيرتز وتعابير الحزن غطت وجهه المدجن. نهض مستنداً على مسندي الكرسي، رافعاً كتلته العملاقة فوق الشاب.

ـ آه، ديدييه! لو كنت حراً... حُرّاً فعلياً! دعني الآن ما أريد فعله. النصيحة الوحيدة التي أقدمها لك هي أن تكون حذراً.. لا تتكلم كثيراً.

صرفني كما يفعل المُدرِّس مع التلميذ.

غادر موزيل كرسيه متجهاً نحو باب المكتب، سمع هيرتز يتنهد ويتحسر في ظهره، ويقول:

ـ لا تعتب عليَّ، أعرف ما تلومني عليه، يتابع المحامي العجوز كلامه في البهو:

ـ أنت تلومني على البقاء صامتاً، تحذر مني ولا تدعني القول أنك مخطئ. غير أنني أنقذت حياتك يا ديدييه، وكذلك حياة إيميلي!

ـ أشكرك على ذلك، لكنك، أنت حاضر دائماً في اللحظة المناسبة وحيث يجب أن تكون.. تندفع فجأة مثل شيطان من صندوقه! أمرّ عليك في مساء أحد الأيام، أكلمك عن اختفاء فرنسيس، ومحاولة اغتيالي الفاشلة، وتضع وصية المجنون أمام عيني. كما تضع بين يدي الكتاب السري للغاية في تاريخ فرنسا، الأقل مصداقية من الإثباتات الهيكلية المتعلقة بلغز موت المسيح! ولكي تعطي مصداقية الرزمة ـ الهدية، التي تروي لي قصة الملك فيليب أوغست، السرية، انتماءه إلى المحفل القديم والحيلة التي لعبها على البابا... ثم تضيف حفنة من المنويين لتميل كفة الميزان!

أطلق هيرتز زفرة أخرى وبدأ يفرك عينيه بيده، ثم يشهق طويلاً قبل أن يزفر:

ـ أعدك بأن أعطيك قريباً الأجوبة على أسئلتك، يا ديدييه. أعطني مزيداً من الوقت، ريثما أعطيك الجواب، تذكر دائماً أنني صديقك. بالله عليك أن تصدقني، يا ولدي.

لقد أثر صوته الشبيه بمواء الهر في موزيل والحقيقة أن لديه الرغبة بتصديقه، رغبة ملحة بأن يحفظ له ثقته. أعلن موزيل أخيراً أنه سينتظر.

ـ في غضون ذلك سأقوم بزيارة إلى أرنستو بونتغليون في الفندق قبل أن يغادر عائداً إلى روما. هل ستكون لديه معلومات يطلعني بها عن فرنسيس؟ هذا ممكن.

ـ قال هيرتز هذه الجملة فقط: بلغهُ تحياتي.

عندما غادر موزيل، بقي المحامي العجوز لحظة على عتبة الباب ليتأكد من عبوره البهو. دخل هيرتز المطبخ، خافض الرأس، منهكاً من شدة التعب والضيق.

ـ أعلن ديدييه موزيل، لنيافته الجالس أمام فنجانين من القهوة والمنفضة التي أنهى فيها سيجاره.

ـ نعم؟

عاد هيرتز إلى مكانه قبالة نيافته، لفت انتباهه السيجار الذي تركه ليذهب ويفتح الباب لموزيل، قام بحركة ليستعيد السيجار لكنه انتبه بعدم الرغبة بالتدخين، كبده يؤلمه، العصارة الصفراوية تصعد حتى بلعومه.

ـ كرر نيافته: نعم؟

ـ لقد تلقى موزيل رسالة من فرنسيس بعد وفاته.

ـ هل قرأت الرسالة؟ ما محتوياتها؟

ـ لم أقرأها. عادة، موزيل لم يسمح بفعل ذلك.

أخبرني فقط عن تحذير جديد لمارلان: V.I.T.R.I.O.L هو فخ!

احتفظ نيافته بسيجاره مشتعلاً، حريصاً على تأجيج الجمرة الصغيرة في نهايته عن طريق مصات متقاربة.

أضاف وهو ينفخ خطّاً من الدخان:

ـ V.I.T.R.I.O.L! معادلة كيميائية وماسونية، صيغة الكنيسة الهيكلية في غابة الشرق.

ـ توسل هيرتز لدى الأول بالتوسط لفتح المخطط، منحنياً على الطاولة. ألا تعتقد أنه حان الوقت لكي يصبح المحفل عملياتياً؟ إن موزيل يخاطر بحياته في كل لحظة.

ـ إذا كنت أوافقك الكلام، أنت تقترح أن يستقبل المحفل ديدييه موزيل في جلسة سرية ليعرفه أن وجوده ودوره في خطر؟

تفحّص نيافته سيجاره الذي يمسكه برفق بين أصابعه بينما يسطع في أصبعه الأخير الحجر الكريم في خاتمه.

أضاف هيرتز:

ـ لا يمكننا استخدام موزيل إلى ما لا نهاية كطعم دون أن نوضح موضوع بحثنا. لقد قرر اللقاء هذا الصباح مع بونتفليون من جديد. أترى، إنه يعاود الكرّة! سوف يسلك الطريق نفسه الذي سلكه مارلان، هل سنكرّر خطأنا، سيدنا؟

* * *

عاد موزيل إلى إيميلي. التي أخفضت صوت مذياع السيارة.

ـ ألا تنطلق؟ اندهشت بعد مضي عدة ثوان، وهي ترى موزيل وعيناه معلقتان في المرآة الموجهة نحو الخلف.

ـ أجابها. ننتظر، هذا الحاذق العجوز مارتن هيرتز لديه زائر. عندما كنت على وشك مغادره البهو، سمعت كرسياً تتحرك في المطبخ.

ـ وبعدئذ؟

ـ قد يكون هذا ضرباً من الحماقة، لكن أريد التأكد من ذلك. كان هيرتز منزعجاً جداً! لرؤيته كيف يتململ في كرسيه! إذا لم يكن لهذا من أهمية، لماذا لم يقل لي أنه كان مع أحدهم وأنني أزعجته بحضوري؟

فعلاً، لديك سندويتشات، وفناجين قهوة؟ هذا ما لدى رجال الشرطة المختبئين، أليس كذلك؟

* * *

على عتبة باب الجناح، قال نيافته لهيرتز:

ـ سأكلم الأول، إلى اللقاء قريباً، مارتن. سأصلي من أجل ليا.

ـ شكراً، أنتظر أخباركم.

بدا المحامي المجوز مرتاحاً ومنفرجاً. تعانق الرجلان وعاد نيافته مرتدياً معطفه الرمادي ومعتمراً قبعته السوداء.

أغلق هيرتز الباب، المنزل فارغ، لم يتمكن من ملئه بهيكله الضخم. خال من ليا، من الضجيج الصباحي، من الكلام البسيط المتبادل بين الزوجين العجوزين.

لاحظ بريقاً ساطعاً على البساط (السجاد)؛ انحنى بصعوبة ليلتقطه ويتأكد أنه قطعة من وعاء مكسور أصيب بإحدى الرصاصات المتبادلة أثناء الهجوم. قطعة صغيرة تاه عنها المجرف والمكنسة.

عاد هيرتز إلى المطبخ ليرمي كسرة الوعاء في سلة المهملات وارتمى على كرسي كادت أن تتحطم.

لم يتوقف الخطر عن الاقتراب من ديديه... منا جميعاً حراس الدم في أعقابنا! لم تعد لحظة ذهابي إلى المقبرة بعيدة.

نعم، أعتقد أن ذلك سيكون أكثر حذراً وتيقظاً!.. كما فعل الذين سبقوني والذين كانوا يسهرون على وصية المجنون!

* * *

عاد نيافته إلى سيارته، بيجو سوداء بزجاجها الدخاني، كانت مركونة في شارع جاكارد على مسافة ثلاثين متراً خلف سيارة موزيل. لم تمض سوى بضع ثوانٍ حتى كانت سيارة القاصد الرسولي تتجاوز الغولف.

أدار موزيل المحرك، مغادراً ببطء مكان توقفه. لم يسرع إلا عندما بدأت سيارة البيجو تنعطف عند نهاية شارع جاكوارد.

أخذت البيجو السوداء اتجاه باب سان ـ كلو. بينما كان موزيل يسير خلفها بصورة عشوائية تاركاً مسافة كبيرة بين السيارتين لتخفيف حدة الازدحام لدى الاقتراب باريس.

ـ هل رأيت؟ سألت إيميلي. سيارة وزير، زجاج عاتم.. والشخص: معطف رمادي، قبعة سوداء.

ـ تابع موزيل الشعر أبيض، الطول حوالى متر وثمانون سنتيمتراً، سحنته جميلة كالنسر، خمس وستون إلى سبعين سنة، أميَلُ إلى السبعين وما يزال يتمتع بعافية تامة يحافظ عليها. الجمباز، والغولف والنظام والغذائي.. على نقيض تام من هيرتز.

ـ هل هو أخ؟

ـ لم أره أبداً.

استمر في تعقب سيارة البيجو السوداء أربعين دقيقة، العديد من الأوتسترادات الطرقية تملأ باريس. أخيراً توقف في 10 جادة الرئيس ويلسن، الدائرة السادسة عشر أمام شباك (سياج) لبناء محروس من شرطيين. علم يحمل شعار الفاتيكان يرفرف على الواجهة الأنيقة.

ـ تعجب موزيل: السفارة البابوية! رجلنا إذن هو أحد أفراد الكنيسة!

ـ شرحت إيميلي. أتظن! أن السفارة البابوية هي سفارة للفاتيكان، لهذا السبب لم يرغب هيرتز أن يقدمك إلى زائره المجهول.

ـ ماذا يثبت ذلك؟ مارتن لديه الحق بأن يكون له الأصدقاء الذين يريدهم. لا أتصور نفسي أنني أقول له لقد تتبعت أحدهم بينما كان يخرج من منزله، ما المانع...

انفتح الشبك العريض لافساح المجال أمام مرور البيجو السوداء ومن ثم ينغلق خلفها فوراً.

ـ تابع موزيل، ما المانع أن يستقبل الهر العجوز سرّاً شخصية كنسية مهمة، بينما تبحث الفاتيكان عن تصفية كل أولئك الذين يبدون اهتماماً زائداً لإنجيل قادر على تدمير عقائد الدين المسيحي.

ـ زيارة لا تحمل طابع البراءة. قلت لي إن البريء كان موجوداً في المطبخ؟

ـ نعم، أنا متأكد تقريباً.

ـ ليس سيئاً، أن تبلغ الصداقة درجة الحميمية بين هيرتز وهذا الشخص! هل كنت تستقبل كاردينالاً أو أسقفاً في مطبخك؟

ـ قال لي هيرتز، متحدثاً عن فرنسيس أنه لا يعرف أحدنا أخيه معرفة تامة. كان محقاً: أعلم الآن أنني لا أعرف مارتن هيرتز.

43

الحرف T

لم يفارق حارس الدم بعينيه الرجل الرفيع القوام الجالس على مقعد في حديقة بول باري.

هذا الصباح لدى نهوضه من النوم شكر أرنستو بونتغليون السماء لعدم هطول المطر. يكره باريس تحت المطر، بينما يتمتع بها ويحبها كثيراً عندما تسمح أشعة شمسها بتسكعات ومشاوير طويلة دون هدف.

هناك، في حديقة بول ـ باري الصغيرة، اختار البروفسور بونتغليون التوقف للاستراحة قبل العودة إلى الفندق. أخرج من جيب معطفه الغفاردين كتاب كاغليوسترودوف، بيلاّشي، ليجلس على المقعد ويشرع بقراءته.

طبعاً، هنا ليست روما. النور، ضجيج محركات الدراجات النارية، أصوات سيارات الإسعاف، الجو المشحون بغاز عوادم السيارات، لا شيء يشبه روما. مع ذلك، فاللحظة ممتعة جميلة مع نسيمها الفاتر الذي يذكر بصيف رحل منذ فترة قصيرة، محاولاً التأخر أيضاً في هذا الخريف.

جلس حارس الدم على المقعد مادًّا ساقيه كما يفعل متنزه تعب من السير. وبحركة عادية فتح صحيفة فرنسية وبدأ يتصفح العناوين. في غضون ذلك، لم يغادر نظره أرنستو بونتغليون. الذي لم ينتبه له. من مقعده، لا يمكن رؤية السماعة المستقرة في أذنه اليمنى ولاقط الصوت الصغير المعلق عبر كنزته ذات العنق المدور.

رنّ هاتف البروفسور المحمول الذي بدا عليه الانزعاج لأنه قطع سلسلة أفكاره. أخرجه من جيبه ووضعه على أذنه.

ـ هالو.

ـ ارنستو؟ أنا ديدييه موزيل. أرغب بزيارتك في الفندق. أنا مع إيميلي مارلان ونريد التحدث إليك.

ـ زال مزاجه السيء فوراً وأجاب بونتغليون بصدق:

ـ فكرة رائعة! أنا الآن في حديقة صغيرة أطالع كتاباً سأعود، سأكون في الفندق بعد خمس دقائق تقريباً.

ـ أغلق كتابه ونهض من مقعده، محافظاً على هاتفه المحمول ملتصقاً بأذنه.

ـ لدي بعض الأشياء لأقولها لك ديدييه. في روما، كان فرنسيس قد حدثني طويلاً عن أبحاثه. بدا متقدماً جداً، أتعرف... إلى اللقاء بعد قليل، إذن!

ـ أغلق هاتفه المحمول وأعاده إلى جيب بنطاله مغادراً الحديقة الصغيرة.

مرّ من أمام الرجل الذي يقرأ صحيفته، ساقاه ممددتان، وقدماه متصالبتان.

انتظر حارس الدم بضع ثوان، طوى جريدته ونهض بدوره متتبعاً خطى بونتغليون على مسافة عدة أمتار منه. خافضاً قليلاً ذقنه، يتكلم بصوت خافت في قبة عنقه:

ـ لقد خرج لتوه من حديقة بول ـ باري. سالكاً شارع سوسّور متجهاً نحو «بولفارد بيرير». أظن أنه يعود إلى فندقه. أكرّر علاماته المميزة: معطف ترابي اللون، بنطال أزرق غامق، حذاءان من جلد الأيل لونهما أسمر فاتح، نظارات ذات إطار معدني. كونوا مستعدين!

استلمت الرسالة على بعد خمسمائة متر من المكان، على متن شاحنة صغيرة بيضاء. قال سائقها وهو يقهقه: حسناً فعل حراس الدم عندما لم يتوقفوا عن ملاحقة البروفسور لو قيد شعرة منذ خروجه من روما.

لقد عرفنا دائماً موقعه. فأرة في مصيدتها! مع ذلك تساءلت: لماذا علينا الإسراع فجأة بالأحداث، هل تعرف ذلك سيدي؟

أجاب المسافر:

ـ السياسة، يا لورنزو! أن البابا سيموت قريباً ويجب أن يخلفه غيلليو. السياسة! والأمور، هما في طور التغيير، في الفاتيكان.

هذه المرة، الرجل واثق من نفسه. اليوم، لن يكون رجل مرسل من العناية الإلهية يدعى مارتن هيرتز لينقذ البروفسور مونتغليون. لأن المحامي العجوز هو من قتل أحد عملائنا في غابة الشرق.

* * *

ركن موزيل سيارة الغولف على بعد عشرين متراً من فندق توكفيل، جادة كاردينيه، في مكان أخلي لتوه من شاحنة تسليم بضائع.

ـ قالت إيميلي: ممنوع اركان سيارتك في هذا المكان مشيرة إلى الإشارات الطرقية المنصوبة على أرضية الطريق.

ـ قال موزيل وهو ينهز كتفه: ليس لدي الرغبة بالدوران لمدة ساعة في الحي لأجد مكاناً قريباً.

ـ تبدو مستعجلاً جداً!

ـ أنا مستعجل لسؤال بونتغليون العزيز.

* * *

طارد حارس الدم البروفسور على مسافة أربعة أو خمسة أمتار. تهيأ الرجل الطويل الهزيل الجسم لعبور ساحة كاردينيت على مستوى التفرع المؤلف من تقاطع شوارع جوفروا وكاردينيت اللذين يلتقيان مع بولفار بيرير.

ريثما تنتقل الإشارة الضوئية إلى الأحمر. قريباً سترى الهدف، همس حارس الدم في قبة عنقه، سيعبر بونتغليون الطريق.

ـ حُدِّد الهدف، إنه هو، أجاب في أذنه. نحن على بعد خمسة عشر متراً كحد أقصى...

* * *

صعد موزيل وإيميلي شارع كاردينيت. وأصبحا على بعد خطوات من مدخل فندق توكفيل عندما لمح الشاب البروفسور بونتغليون وهو يعبر الساحة.

ـ هاك، إنه هو! هناك، الشخص الطويل القامة الذي يرتدي معطف الغفاردين.

ـ تدخلت إيميلي: مِشية جميلة.

تعرّف بونتغليون لتوه على موزيل لوّح بيده وهو يسرع الخطى فجأة. يبتسم. سيتكلم عن فرنسيس مارلان، الكلام عن ذكرى هذا الشاب البحاثة الذكي والثاقب الفكر.

إنه فعلاً نهار جميل، لكن مع ذلك أجمل من نهار روما!

بدا موزيل متعباً، شاحب الوجه.

ـ صاح إرنستو أمام دهشة إيميلي: يا إلهي.

ـ ماذا؟ سألت المرأة الشابة.

بدأ موزيل الصراخ باتجاه البروفسور. تسّمر هذا الأخير في مكانه، بحث عن السبب من ثانية إلى ثانيتين... الشاحنة البيضاء التي رآها موزيل تخرج من رتل السيارات المتوقف عند الإشارة الضوئية الحمراء مصدرة صريراً بدواليبها عند الساحة.

تلفت المارة نحو الصوت، وهم يبتعدون. لم تكن الشاحنة تقصدهم هم، بل هدفها ذلك

الرجل الطويل القامة والضعيف البنية الذي يتحرك ببطء، ناظراً إلى تلك الآلة الجديدة متجهه نحوه في محاولة دهسه.

كانت الصدمة عنيفة ومرعبة، صيحات ذعر وخوف رافقت هذه الصورة المرعبة التي ظهر فيها الرجل وكأنه رفع عن الأرض، ذراعاه وساقاه خرجا من مفاصلهما.

الصياح يحمله تارة ليعود للسقوط على ظهره، وليصدم رأسه في أرضية الطريق، والدم يسيل من أنفه.

اندفع كتاب الكاكليوسترو من جيب معطفه الكفاردين وتطايرت مجموعة من صفحاته كما لو أن الموت كان راق له إنهاء الكتاب بسرعة بدل الضحية.

تابعت الشاحنة الصغيرة سيرها، متجنبة صدم أحد راكبي الدراجة ذات المحرك قبل أن تختفي في زحمة سير شارع بيرير.

ـ أصوات زمامير، صراخ، نداءات الرحمة، شفقة على البائس المسكين الذي يحتضر ويكاد يختنق، واستحال لون وجهه إلى الزرقة.

نادى أحدهم شرطة النجدة عن طريق جهاز جوال.

لم يبال موزيل بالنشاط الحميم الذي يجري حوله، أسرع نحو بونتغليون وركع جاثياً إلى جانبه، رغم المنع الذي وجهته له امرأة. شعر بيد تمسكه، تحاول إبعاده عن الأرض.

ـ أنت طبيب؟

ـ سمع الإجابة، نعم أنا الطبيب.

تركته، يمكنه أن يأخذ جثة الميت بين يديه، ويقدم له ملاطفة أخيرة أخوية. بونتغليون الفاقد الوعي قليلاً يتعرف على وجه ديدييه موزيل عبر غشاوة حرارة كثيفة. تمسك به بنظره الذي بدا يتلاشى، يناديه بصوت أبكم، يجب أن يقول له... لكن الكلام صعب جداً، ينقصه التنفس، رئتاه منتهيتان تماماً. آلام لا تطاق في أسفل عموده الفقري مسببة ضيقاً في التنفس، ساقاه لا يحس بهما كما لو أنهما غير موجودتان.

لم يبق منه سوى، يده اليمنى... رفعها، وهي مضرجة بالدم إلى مستوى صدر الشاب. وضع بونتغليون سبابته على كنزة موزيل الفاتحة اللون التي غطت ثوب العمل.

آخر انتفاضة له كتب على كنزة موزيل المدماة الحرف (T) وهو ينفخ كلمة واحدة فريدة مغمضاً عينيه: «بابان» زفرة لا تكاد تسمع.

سقطت يده، حاول موزيل جس نبض البروفسور عند بلعومه. عبثاً. وقف وألقى نظرة يبحث فيها عن إيميلي، لعله يراها بين الجموع على الرصيف.

ـ إذن، أيها الطبيب؟

استغرق موزيل عدة ثواني قبل إدراك أن السؤال موجهه إليه، التفت نحو المرأة قائلاً.

ـ لقد مات.

ـ هل رأيت ما هو مكتوب على كنزتك؟

علا صوت صفارة إنذار رجال الشرطة، ومن ثم سيارة إسعاف جلبت بصورة غير متوقعة انتباه المرأة والمتسكعين من غير المفيد أن يشاهدوننا في مكان الحادث. عاد موزيل إلى إيميلي متجهين مباشرة إلى سيارته الغولف.

جلسا في السيارة، تأخر موزيل في تشغيل محركها. والآن عليه الخروج من جادة كاربيت، هربا من زحمة الساحة، وخوفاً من رؤية المرأة التي تركها تعتقد أنه طبيب.

أبعدت إيميلي رداء صديقها الأبيض.

لأي سبب رسم حرف (T) على صدرك؟

ـ أجهله. في الوقت نفسه لفظ كلمة «بايان»... «هيغ دو بايان»، مؤسس جماعة سدنة الهيكل. إلا إذا كان الأمر يتعلق بالقرية القريبة من تروي؟ أراد أن يعطيني رسالة أخيرة. كان واعياً أنه سيموت. أراد أن يجهد نفسه ويبذل كل ما لديه من طاقة ليرسم حرف (T) ويضعني على الطريق لإكمال بحثي. لكن أي طريق؟ هل هو طريق (T) نفسه الذي وجدناه في دفتر فرنسيس: (T) كتابة حراس الهيكل؟

44

المحاضرة

الأسبوع الثاني، الاثنين صباحاً.

لم يفكر موزيل بالعودة باكراً إلى مؤسسة ماير، لكنه شعر برغبة ملحة بإخبار فريق عمله عن التحقيق الذي قاده مارلان وعن وفاة البروفسور بونتغليون. تدخلت الصحافة حالاً إلى المسرح مخاطرة بتحديد بعض التزامنات. وجد موزيل من اللباقة التحدث مع مساعديه آسفاً لتركهم في جهل ما يحدث، في حين أنهم يخاطرون بحياتهم جميعاً مثله.

فُتح الباب الأحمر للمكتب بعنف ادخل موزيل رأسه عبر فتحته ليقول:

ـ الجميع إلى غرفة الاجتماع! فوراً! أنتظركم.

ثم اختفى مثلما ظهر. غادر سوفير حاسوبه، روغترز يبسط المترين الخاصين به من العضلات والشحم، هيلين موسنييه تعدّل تنورتها القصيرة دايرها وقميصها الأزرق الكهربائي وتغادر كرسيها.

ـ ماذا دهاه؟ في حيرة من السبب. لم أره أبداً في مثل هذه الحالة. إنها نوبة سلطة؟

لا أعرف، نفخ سوفير، مقطب الجبين، صوت ناشف: فأل شر.

جاراً قدميه، ترك المترجم العجوز قطعة من النص القديم الذي سيرى النور بفضل «لار جهاد» جاراً قدميه متثاقلاً، نحو الباب الذي بقي مفتوحاً قليلاً.

وقف جانباً لافساح المجال لمرور هيلين إلى غرفة الاجتماع، غرفة حديثة واسعة، في وسطها، طاولة منطاة بالزجاج بيضوية وحولها مقاعد سمراء فاتحة (بيج). ستارة بيضاء معلقة على الحائط، وكذلك خارطة لفلسطين. موقع البحر الميت، وقمران، مجموعة رفوف تحمل عدداً لا يحصى من الملفات المرتبة بشكل جيد. طاولة صغيرة مع إبريق قهوة، فناجين، وقطع سكر.

قام موزيل بتقديم القهوة.

خذوا أماكنكم، قهوة للجميع؟

ـ قالت هيلين بجدية مصطنعة لا نسمح لأنفسنا بالخروج عن المألوف.

جلست المرأة الشابة مصالبة ساقيها، غير جاهلة أن طرف تنورتها يصعد شيئاً فشيئاً حتى فخذيها. كان يروق لها أن ترى النظرات تتخاطفها لكنها مستحسنة من روغترز طيلة زمن المحاضرة، كانت تنعم برؤية احمرار وجهه المراهق العجوز.

وضع سوفير مرفقه على الطاولة مسنداً ذقنه بين يديه، يعطي شعوراً بأنه يحمل رأسه الضخم المغضّن. خلف عدستيه عيناه الكبيرتان كعيني الحرذون ترفان مرات عديدة كما لو أنه على وشك النوم.

كان روغترز يراقب من الناحية الأخرى من الطاولة ركبة جميلة مكورة وفخذاً رائعاً مذهباً، لعن نفسه لاحمرار وجنتيه. متأنف من بشرته الشقراء. لكنه مهما حاول التركيز، أو التهدئة فإن النار تنهش وجهه. بينما هيلين تبتسم له خلسة.

وضع موزيل إبريق القهوة على الطاولة الصغيرة وجلس بدوره مع الجميع.

بدأ الكلام، قائلاً هذا الصباح، كان لدي موعد مع البروفسور مونتغليون الذي كان على علاقة مع فرنسيس، هل تذكر نوربرت، إنني تلقيت رسالة منه، يوم دفن فرنسيس، يخبرني فيها أنه سيأتي إلى باريس ويرغب في مقابلتي.

لم يستطع موزيل أن يحدثهم عن الجلسة الجنائزية، عليه أن يتجاوز ذلك الاحتفال بتحريف الحقيقة.

ثم تابع:

لقد تواجهنا للمرة الأولى في مطعم، حيث سنتقابل صباح هذا اليوم في فندقه، لكن أرنستو بونتغليون مات أمام ناظري، صدمته شاحنة صغيرة مجنونة، في ساحة كاردينيت.

اختفى احمرار خدود روغترز، فانهال براحة يده على الطاولة.

ـ سحقاً! صاح. آسف، ديديه، هذا غير لائق...

تابع موزيل:

أعتقد أن من واجبي إطلاعكم على الأحداث التي تمس من قريب عملنا الحالي حول 456Q4 ـ 458 وعن تحقيق كان صديقنا فرنسيس يقوم به... لنقل أن الأمر يتعلق بتحقيق حذر، لم أعلمكم لأنكم ستصفوننا بالخرف والشعوذة.

رفع سوفير أحد حاجبيه الكثيفين.

ـ تحقيق؟ مندهش، عمل خاص؟

ظاهرياً بدا موزيل غير مرتاح للإجابة.

ـ ليس حقيقة.. كان فرنسيس يطوّر نظرية وُصفت بأنها هرطقة منذ بضعة قرون، نظرية يشاركه بها بعض المؤرخين منهم البروفسور بونتغليون. أعتقد أنه وجد البرهان على التزوير في المخطوطات التي نترجمها منذ ما يقرب من عشر سنوات.

ـ بدأت أكتشف، أبطأ سوفير القول وهو يخرج غليونه: بدأت أكتشف.

ـ نوربرت أليس لديك النية في التدخين؟

أوقف صوت هيلين حركة الرجل العجوز الذي اكتفى بالتنهد وهو يعيد غليونه إلى جيبه، موزيل كان يريد بسرور إشعال سيجارة.

تعذب كثيراً ورشف قهوته دفعة واحدة ليعوّض نقص التبغ.

خاضت هيلين معركة شرسة ضدهما، في المكتب: يجب عليهما الخروج للتدخين قرب المراحيض عندما لا يستطيعان تحمل هذا الفطام القسري.

كرر سوفير ببطء مشابه المرة الأولى:

ـ أبدأ بالفهم.

ـ نوّه موزيل: أنا متأكد من ذلك. كان فرنسيس يظن أن المسيح لم يمت على الصليب لكن دجالاً أخذ مكانه. واحد كان يشبهه لدرجة أنه ادعى هويته بسهولة.

ـ اقترحت هيلين: التي أصبحت محترفة من المحتمل أيضاً أن المسيح أقام في قمران، أليس كذلك؟

توجه سوفير إليها بشكل خاص ليقول:

ـ تذكري الجملة التي استنتجتها الأسبوع الماضي: الأخ الذي لم تبد علائم الجروح في قبضتيه أو قدميه قال لهم: سيأتي اليوم الذي يزول فيه الحقد بين الأمم.

ـ من بين تفاصيل أخرى صغيرة، لاحظ روغترز، كلمة «ماسكيل» التي تتكرر باستمرار.

ـ بالحقيقة: نوه سوفير، أن كلمة ماسكيل باللغة العبرية تعني مُدَرِّب، لكن في ملفاتنا (ملفات قديمة) هذا المعلِّم يدعى أيضاً الأول أو الأخ.

ـ الأول من أخوي؟ يسوع؟

لم يعد روغترز الذي لم يعد يكترث لركبتي هيلين ولا لفخذيها، نهض بقوة واقترب من موزيل:

ـ أنت تسعى إلى منفعتك بشكل موارب، يا ديدييه. أي صلة تكمن بين انتحار فرنسيس، موت بونتغليون واكتشافاتنا؟ هنا تكمن عقدة المسألة، أليس كذلك؟

ـ إني أقدر حِسَّك العملي، روغترز.

اقترب العملاق من الخارطة الجدارية وأخذ يدمدم مشيراً إلى مواقع مختلفة: أورشليم، هيروديوم، بيت لحم، قمران.. ضرب على الخارطة بسبابته الضخمة على مستوى قمران متعجباً:

ـ على غفلة منا، كنا سنوقظ قوى ظلامية نائمة منذ قرون! نتعرض للعنة كتلك التي حلت على مدنِّسي القبور المصرية لأنكم ما زلتم تعتقدون بهذا النوع من الخرافات، ديدييه!

أجاب موزيل بخشونة:

ـ ليس لدي مزاج للمزاح، يا روغترز.

ـ أقرت هيلين أن الفريق لم يكن مغفَّلاً أبداً. لم يقترب أحدنا إلى جانب الرؤى التي تحويها الـ 456Q4 ـ 458 والتي تفوح منها رائحة الكبريت ومع ذلك، من سيكون مزعوجاً من إفشاء هذه الأسرار ونشرها؟

انحنى سوفير نحو المرأة الشابة.

ـ أعتقد أنني أعرف! ألا توافقين؟

عاد روغترز وجلس، مرتبكاً لأنه أغضب رئيسه.

ـ ألا ترى؟ سأل المترجم العجوز من جديد وهو يقلّب عينيه؟

أجاب روغتر بصوت منخفض ناظراً إلى يديه الضخمتين ذات السلاميات المغطاة بالوبر الأشقر:

ـ الكنيسة! كيف يمكن للكنيسة قبول انهيار العقيدة التي بنت قواعدها عليها من جراء حقيقة من هذا النوع؟ كيف تتوقعون رؤية الملايين من المؤمنين وهم يكتشفون أن يسوع لم ينهض أبداً من بين الأموات وأن هناك دجالاً مات على الصليب، بدلاً عنه؟

اغتاظت هيلين:

ـ ديديه حاول أن تثبت لي أنني لم أستوعب جيداً: نحن لا نحاول القول في هذه الغرفة أن الكنيسة تقتل الباحثين الأبرياء؟ نحن لم نعد في القرن الثالث عشر نعرف أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس، وأن الكون وُلد من الانفجار الكبير منذ خمسة عشر مليار سنة، ولدينا الحق بالتفكير أن الله هو أبيض، أو أسود، أو أحمر، أو أصفر، أو غير موجود. ولم تنصب المحارق في ساحة «غريف» منذ زمن طويل!

صاح روغترز:

ـ البروتستانت يسخرون أيضاً من الكاثوليك هذا ليس بعيداً عن بلدنا، والعكس صحيح! هل تريدون أيضاً أن أكلمكم عن العرب واليهود؟

قاطعه سوفير:

ـ اليهود، أنا من يمكنه التحدث عنهم. لقد حمل والدي النجمة الصفراء أثناء الحرب، مات أخوه من الجوع في معسكر شتروتهوف، وأخته شُنِقَت في داشاو، ليس العرب هم من عذبوهم!

ـ قالت هيلين إنها الحرب التي اندلعت منذ أكثر من ستين سنة!

ـ إنها دائماً الحرب بالنسبة إلى الأرثوذكس، المحافظين، والأصوليين والمتطرفين، ذوي العود الصلب... أليس كذلك، ديديه؟

أجاب ببرودة:

أغلب الظن أن فرنسيس لم ينتحر والبروفسور بونتغليون اغتيل، لا أملك أي إثبات، لكن لدي القناعة الكاملة. أطلب منكم بأن لا تقولوا شيئاً للإدارة: سأتهم بالجنون وأعتقد أنهم سيسحبون دراسة الـ 456Q4 ـ 458 منا.

كان يحرص على أن لا يقول لهم أنه تعرض هو نفسه لمحاولتي اغتيال.

ثمة ذبابات ضخمة لم تتوقف عن الطنين في ذاكرته.

45

بعض المفكرات الحمراء الصغيرة

لم يتخلَّ عن ثوب النوم طوال النهار، رقد قليلاً بعد تناول وجبة غذاء سريعة مكونة من صحن من المكرونة، وقطعة جبن وفاكهة مطبوخة وتفاح، أتبعتها بكأس من النبيذ الأبيض.

لدى نهوضه من قيلولته، شعر بثقل في رأسه، ورغبة بالقياء، مع معاناة من ألم خفيف في الصدر، من الناحية اليسرى. تناول قرصين من الأسبرين وعاد إلى مكتبه.

لقد انتظر، وما زال ينتظر.

أدار المذياع، مباشرة بعد أن دقت ساعة الصالون معلنة السابعة عشرة، تلك الساعة الجدارية القديمة التي كانت تحبها زوجته كثيراً.

أعلن المذيع الخبر التالي:

«كان البروفسور آرنستو بونتغليون قد اشترك في الحولية الأخبارية التاريخية، في عام ألف وتسعمائة وخمس وثمانين بكتابه: «يسوع أو الفرضية الثانية»، هذا المؤرخ الروماني جلب لنفسه اللوم من قِبَل السلطات الإكليركية..».

رفع الصوت بيد ترتعد. تابع المذيع:

«...هناك تحقيق جار حالياً حول ظروف موته في باريس.. الشاحنة البيضاء التي صدمته سُرقت قبل ثمانية أيام من مؤسسة صغيرة للكهرباء، وقد وجدت مهجورة في كوربيفوا بعد وقت قصير من المأساة، يؤكد العديد من الشهود أن الشاحنة صدمت البروفسور عن قصد، دون أن تترك له أي فرصة لتجنبها..».

قفل المذياع وبدأ يذرع مكتبه جيئة وذهاباً، بالطول والعرض، كتلة من الغضب كانت تمنعه من التنفس. الحقد أيضاً حقد لن يكون قريباً، قادراً على التمكن من السيطرة عليه. حقد يعصر قلبه، يسحقه كما لو كان داخل مِلزَمة، ويمنعه من الخفقان بانتظام. منهك، لاهث، ترك جسده الثقيل المنهك واللاهث يرتمي على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، كرسي ضخم من الجلد البالي المجزَّع، يغوص فيه ويترك نفسه.

سوف يهاجمون كل أولئك الذين يعرفون، كلُّهم.. حراس الدم سيعملون على تصفيتهم الواحد بعد الآخر.

وقعت عيناه على سلسلة صور مؤطَّرة في الجدار المقابل له. استحسن منها صورة إيميلي،

بثوبها الخفيف الشفاف، المطرز بالأزهار، وساقيها الطويلتين المسمرتين بالشمس، وشعرها القصير ذي التسريحة المائلة.. لم تتخذ وِضعةً أمام المصور، بل سارت بشكل طبيعي، مبتسمة للمصوّر في أحد شوارع مدينة مغربية، لم يعد يذكر اسمها. بدت إيميلي مشرقة في هذه اللحظة الأزلية وتستحق تقديم الحماية لها وإنقاذها، لتعود إلى وجهها هذه الإبتسامة الرائعة، ابتسامة الشباب اللامبالية.

يعلم جيداً أن عليه أن يقتل لتتحقق هذه الأمنية. سيقوم بذلك، يدفعه الغضب والحقد المتراكمان في صدره. غادر مقعده القبيح، جاراً نفسه حتى مكتبه، فتح درجاً وأخرج منه ثلاث مفكرات جيب حمراء صغيرة ذات خلفية نسيجية (قماش).

تصفحها بهدوء، ناظراً إلى كتابتها المتلاصقة، أحياناً، والمؤلفة من كلمات بأحرف كبيرة ذات أحرف «(أ) مائلة: لبوة، ماعز، مثلث بانيس، كنيسة.

(LIONNE, CHEVRES ET BAILLY. TRIANGLE DE PAYNS, CHAPELLE)

مزينة برسوم مائية مضافاً إليها، بأقلام رصاص ملونة، بعض الملاحظات المبعثرة دون نظام معين: «تذكير من أجل معلومات حول وصية المجنون.. هيرتز والأول، الإثنين... لباس غامق اللون..».

(Rappeler Pontiglione, pour infos sur testament du fou,..hertz et premier, lundi... tenue Obscure)

بعد دقائق طويلة، أعاد دفتر المذكرات إلى الدرج.. «بواسطة هذه الدفاتر، سيجد ديدييه موزيل القبر على نحو أسهل.. غير أني وعدت! وعدت بالحافظ عليها.. ومع ذلك..».

تساءل ما إذا كان يملك القوة بالوفاء بتعهده ووعده، أم سيفضل بدلاً عن ذلك مخالفة القدر، ليصل بصورة أسرع إلى حراس الدم.

* * *

هذا الاثنين عند الساعة العشرين، قرع موزيل جرس باب مارتن هيرتز.. تحدث إليه عبر هاتفه المحمول ليقترح عليه قضاء السهرة معاً. جلب قارورة «جيفري ـ شامبرتين» وقطعة كبيرة من «سان نكتير» وقطعة من خبز الريف.

كان المحامي العجوز قد علم بموت بونتغليون باكراً في فترة بعد الظهر. أخ في محفل إيلياه شاهده في الجريدة المصورة على محطة فرنسا القناة الثانية.

ـ هل أنت على علم، بقضية أرنستو بونتغليون، يا ديدييه؟ كنت ستقابله هذا الصباح، أليس كذلك؟

وضع موزيل مؤونة طعامه على طاولة المطبخ، دون أن يدعى إلى ذلك.

ـ في الواقع لقد رأيت الحادث يا مارتن حضرت شخصياً حدوث الجريمة، إنها الشاحنة البيضاء الصغيرة نفسها التي هاجمتني، في ذلك المساء، والتي دهست البروفسور.

روى له الشاب المشهد بالتفصيل، وخلال إصغائه أخرج مارتن مفتاح القوارير من درج خزانة وتكفل بفتح قارورة جيفري ـ شامبرلين وجبينه متغضن بتجاعيد طويلة وعميقة.

نظرته الداكنة الحزينة لم تلمع بشدة إلا عندما خرجت السدادة من عنق الزجاجة، محدثة صوتاً خفيفاً.

ـ قال المحامي العجوز: لدينا الشعور أن حراس الدم يسرعون. لقد أوقعونا في شباكهم وسيخنقوننا جميعاً عما قريب.

ـ من، «نحن»؟

ـ أنت، إيميلي مارلان، أنا، وحتى مساعدين في مؤسسة مايّر.

ـ مؤامرة ضد الحقيقة!

رفع هيرتز كتفيه وهزّ رأسه الضخم الذي يشبه رأس هرّ منهك. ثم أمسك بكأسين وملأهما بالنبيذ؛ وهتف وهو يرفع الكأس إلى مستوى عينيه:

ـ لون جميل!

ما رأيك لو حملنا الخبز المحمص، ديدييه؟

كان موزيل على وشك الجلوس فاستدرك متناولاً كأسه الذي رفعه بدوره.

تابع هيرتز:

ـ كنت أودّ أن نحيط أخينا أرنستو بونتغليون بفكرة. لقد كان من عادتنا أن نردد جملة من شعائرنا أنه: عندما يغادرنا أخ فإنه يلتحق بالشرق الأزلي، إنها صيغة مناسبة لسد الفراغ الذي يتركه فقدان قريب دون كبير قناعة..

ـ إلى أين تريد أن تصل، مارتن؟

ـ معذرة. كنت أريد القول فقط إنه، أبعد من الصلوات التي نقوم بها في ذكرى أحد الراحلين منا، فإن هؤلاء لا يعيشون أزليتهم إلا في ذاكرتنا.

مدَّ كل منهما ذراعه الأيمن، رافعين عالياً كأسيهما، وفق التقاليد السائدة أثناء الولائم المقدمة في نهاية كل جلسة، قائلين معاً بصوت واحد:

ـ لنشرب!

شرب الإثنان بنهم، متأملين، مفكرين بأرنستو بونتغليون الذي كرّسا له هذا القربان الوثني.

دفع موزيل كرسيه، مصدراً صوتاً أشبه بالضجة التي سمعها في ذلك الصباح عندما كان

يعبر البهو، تنحنح هيرتز، عندها، فهم موزيل أن لديه النية في إبلاغه شيئاً مهماً، ملاحظا ارتباكه.. أخيراً قرر:

ـ نحن وصلنا إلى نقطة لا يمكنني معها فعل شيء آخر سوى أن أكلمك بالضبط عن المحفل الأول.

ـ ذلك المحفل الوهمي الخرافي الماسوني؟

ـ انتظر... لم يكتف «هوغس دو باتيس»، عام ألف ومئة وثمانية عشر، بتأسيس «فرسان المسيح الفقراء» الذين أصبحوا سدنة الهيكل أو الهيكليون، والذين اعترف بهم بعد ذلك بعشر سنوات المجمع الديني في تروي والذي كان القديس برنارد قد أملى قواعده.

ردّ موزيل وقد نفذ صبره:

ـ ذلك ما يعرفه جميع الناس!

ابتسامة خفيفة لاحت على وجه هيرتز، تابع بعدها يقول:

ما تجهله، هو أن «هوغ دو باتيس» كان يرأس أيضاً محفلاً قديماً جداً ضاعت بعض أسراره مع مرور الزمن. المحفل مؤلف من أخوة يُدْعَون بالأوائل.

أضاف موزيل: لقد تأسس المحفل من قبل يسوع مهمته جمع الأسرار المبعثرة، وقراءة الملاحظات الهامشية في وصية المجنون: «الأخ الأول، ابن النور والمعماري،...».

ـ بالحقيقة، عندما مات يسوع، دُفِنَ فيما يسمى اليوم غابة الشرق. يُظَن أن هوغس باتيس «وضع رفات يسوع في مكان آمن» مع ما كان يحويه القبر من أشياء دفنت مع النبي.

ـ أعتقد أنني قادر على التكهُّن...

تابع هيرتز:

ـ أمر باتيس ببناء قبر لا يمكن الدخول إلى حرمه. أعضاء المحفل الأول وحدهم يشاركونه سِرَّه. رويت لك سابقاً كيف استرجع الهيكليون لاحقاً وصية المجنون. مع حلقة المنويين وهرب بنوا شانترافيل إلى ملاذ آمن تحت قيادة بونليو. هناك، أُدخل وأُسِرَّ في المحفل الأول مكافأة له عن الهدية التي قدمها للهيكليين: واحدة من الملفات الثلاثة المشكِّلة لوصية المجنون.

ما يهمنا، هو قطعة من رزمة الملف الذي كتبه يوحنا أخ للإثني عشر، فيه البرهان على أن المسيح لم يمت على الصليب. هذه البقية قدسها وأجلها المحفل الأول، تحت اسم القطعة المقدسة!

توقف هيرتز، ليتناول قليلاً من النبيذ واقترح: ألا تريد أن نتناول قليلاً من طعام العشاء معاً، عندها سأروي لك القصة كاملة؟

لنحضر لأنفسنا بعض الفطائر، لأن جلستنا ستكون طويلة.

ـ أنت لا تضجرني أبداً، مارتن، عندما تأخذني للتجول في عالم الماضي. أنتم أناس موهوبون لتعطوا جسماً لرواياتكم، لقد سبق أن قلت لك ذلك: هذا يقود إلى الاعتقاد أنك تملك القدرة على السفر في الزمان، أو أنك موهوب بخيال لا يجارى!

ـ هيا، ديدييه... لا تجعلني أشعر بالإهانة بالتفكير بأنني أروي لك الأساطير والخرافات!

قطع المحامي العجوز الخبز إلى قطعتين متساويتين. قدّم إحداها إلى موزيل مرفقة بابتسامة عطوفة. أدرك الشاب عندئذ البعد الرمزي للعملية.

ـ شكراً، مارتن.

هكذا كانت تمارس في اجتماعات القديس يوحنا الإنجيلي ويوحنا المعمدان، القديسان اللذان يحترمهما الماسونيون في الانقلابين الشتوي والصيفي. يقسم فيه المعلم الجليل الخبز ويوزع على المشاركين في سلسلة أخوية مشابهة لسر القربان المقدس.

قال موزيل:

ـ أسمعك.

ـ أجاب هيرتز نعم، نعم وهو يحضر شريحة خبز مطلية بالجبن. حسناً، لنعد معاً إلى ليلة من الليالي. تلك التي حدّدت الحل المؤقت للمحفل الأول: فقدان السر وتناسي موقع القبر.

تناسي موقع قبر المسيح، تخيل غابة الشرق مع أربعة فرسان يرتدون معاطف طويلة بيضاء.. أعذرني لميلي الخفيف والمسرحي نحو التضخيم، ديدييه! أعرف عيوبي! إذن في تلك الليلة..

46

ليلة الخيانة

كان «جاك دو مولاي»، المعلم الكبير لمنظمة سدنة الهيكل، يشتكي من داء مرض المفاصل (الروماتيزم)؛ وكان امتطاء الجواد يشكل له عذاباً رهيباً. وهو في سن الأربع وستين سنة، شعره طويل، على لحية وشوارب بيضاء يضفيان عليه هيئة الحكيم المعجوز. أو هيئة كاهن رفيع يقال عنه إنه قليل النفاذية لكنه يتمتع بالعقل السليم. بسيط وكريم، يمارس على المنظمة سلطة هادئة. جديرة بالاحترام.

حتى تلك الليلة الدافئة المعلنة لنهاية الصيف...

كان مصحوباً بثلاثة فرسان، صديقه الحميم «جوفروا دو شارني» ورفيقان آخران، «أودون لانفوازييه» و«جيلبرت نوابيت»، الجميع يهملجون (يقفزون) بالخطى نفسها على طريق محاط بنبات العُلّيق الكثيف.

كانت الأرض الجافة تتكسر تحت سنابل خيلهم، والظل يلفّ الغابة.

تساءل شارني:

ـ هل اتخذنا القرار الصائب، جاك؟ هل هدّأ كليمنت والملك فيليب من خوف البابا؟

أجاب مولاي:

ـ أعتقدُ ذلك، يا جوفروا، سنعيد لهم الوصية والقطعة المقدسة، لن نرشدهم إطلاقاً إلى موقع الهيكل أو القبر.

شرع الجيش الصغير في الإسراع بخطواته لكن مولاي لم يرغب في التذمر، رغم أنه تحكّم بصعوبة في إظهار تذمره من البداية. «أودون، وجيلبرت» كانا شابين لا يستطيعان فهم الشيخوخة أو النظر إليها ولو للحظة إلاّ أنها ليست سوى لعنة إلهية.

كان الرجل العجوز على عجل لتنتهي تلك الليلة، لم يكن يحب فيها لا الرائحة ولا الأصوات. ليلة عبقة جداً. تضجّ بأصوات الطيور الليلية الخشنة والمزعجة.

* * *

ـ برنارد إنها ليلة جميلة... ليغفر لنا الله عما سنقوم به!

ـ آرماند سيغفر لنا، إننا نعمل لأجله، في إنقاذ الوصية والملفات القديمة. كان «برنارد دو

جوش» و«آرماند دو غريت» ينتظران أمام الكنيسة الصغيرة. ، وكان ستة من الفرسان متحلقين حول مشعَل مغروس في التراب يتحادثون بصوت منخفض. فيما كانت ظلالهم الطويلة ترسم نجمة على الأرض، وخيولهم التي ربطت بالأغصان المنخفضة، ظلت بدورها صامتة.

تنشق «جوش» وشمَّ الهواء بأنفه الصغير المدوَّر المرفوع نحو السماء. في الزمن العادي اتضح أنه رفيق مرح وثرثار.. كان عليه في ذلك المساء أن يجهد في إحياء المحادثة وينطق بتفاهات لاقت صدى سيئاً. لم يكن «أرمان» ليساعده أبداً، كان يضرب الأرض بقدميه بينما يده اليمنى على مقبض سيفه، متمتماً بصلوات مبهمة يرددها بداخله.

- أخيراً تناهى لآذانهم أصوات عَدْو خيول.

- ها هم! صرخ «أرماند»، مندهشاً من أن صوته كان حاداً على نحو غير طبيعي ما جعله يفكِّر بأنه «فريسة الخوف».

نظر الجميع باتجاه الطريق الخارج من الغابة، تظاهر لهم بوجود أربعة أشباح.

- أمر جُوسٌ: قرِّبوا المشعل.

انتزع المشعل من الأرض ووضع على ارتفاع «أرماند دو غريت» و«برنار دو جوس» اللذان قاما ببضع خطوات لاستقبال المسافرين.

ساعد جوس المعلم الكبير في الترجّل من على الحصان بكل عطف كما يفعل ابن لأبيه.. لم يشكره الرجل العجوز، فقد بقي رزيناً، قسماته مشدودة، تلحظ الألم في نظراته.

قال جوس:

- كنا قلقين، أيها الأخ... أترى؟ كنا ننتظرك جميعاً بفارغ الصبر.

- ردَّ العجوز: كنت تخشى إذن بأن لا أحضر؟ إلا إذا كنت قد تمنيت ذلك؟ تعرف أننا أغلقنا النقاش في اجتماعنا الأخير، إنهم يتهموننا بالجحود ونكران الدين والارتداد... كعبدة الأوثان واللّواطيين! سيكون مصيرنا المحرقة إذا لم نكن من الخاضعين.

- ألم يكن محفلنا أكثر أهمية من الأخويّة؟

- نحن أيضاً هيكليون! وأنا المعلم الكبير أعرف الملك فيليب وأقدر أن أثق به وبكلامه. سوف يستثني المحفل والهيكل.

إن مجرد كونك عرّاب ابنه غير كاف لأن لا يقوم «لوبل» بخيانتك فللملاك وجهان، أيها الأخ.

تنهد مولاي، من التعب والغضب. ليكن، سوف يستأنف الجدل هذه الليلة وسيحاولون أخيراً إنهاءها إلى الأبد.

استأنف الهيكليون الاثنا عشر المسير وسلكوا طريقاً لا تكاد حدودها تظهر واضحة بين الشوك من جهة ونبات الحولق الشائك من الجهة الأخرى. ساروا بمحاذاة سَبَخات، تنتهي فيها مستنقعات سوداء على شكل بقبقات مُغمّة، منتظمة ورتيبة. كان مولاي يفكر بالأعمال الضخمة

التي أنجزها في الماضي المعلم الكبير للمنظمة الرهبانية «هوغيس دو باتيس». العديد من البحيرات جُفِّفت بفضل تنظيم عبقري للسدود، والحواجز والقنوات. مساحات واسعة كانت تحوّلت بهذه الطريقة إلى أراض قابلة للزراعة.

لكن هذا الجزء من الغابات أُهمل قصداً فأصبح أرضاً بائرة مكان موحش وغير صحي لم يسبق أن ارتاده أحد، باستثناء بعض الهيكليين الذين كانوا يأتون أحياناً للاجتماع في المعبد السري للمحفل الأول.

وصل الموكب إلى جدار كبير من الحجارة التي تحبس مياه أحد المستنقعات. كان البناء ممسكاً بكومة مؤلفة من الدبش تختفي وراء كتلة كثيفة من القصب.

تقدم الهيكليون على طول حاجز (الرصيف) بمعاطفهم الملطخة بالوحل حتى وصلوا إلى دعامة يحجبها ظل الليل الكثيف. أنار الرجل حامل المشعل الطريق أمام «جاك دو مولاي» الذي وصل إلى ركن الدعامة. لقد أتاح الضوء المتحرك اللهب للعجوز، العثور على فجوة أدخل فيها يده اليمنى.

عثرت أصابعه على الرافعة المعدنية سحبها بقوة، أصدر الجدار صريراً كما لو أنه يتمزق، ويتحرك. انفتح عندئذ ببطء باب ضيق ومنخفض مؤلف من حجارة مسطحة مركونة على بنية من البرونز.

سبق الرجل حامل المشعل رفاقه إلى البئر الذي فتح. حرص أن يجس بقدميه الدرجات الأولى التي تنضح بالرطوبة.

قال:

ـ هذا جيد، سأشعل المشاعل الموجودة في الجدران، انتبهوا واحرصوا أن لا تنزلقوا!

أعطى «جوفروا دو شارناي» ذراعه إلى «جاك مولاي» ليسنده، تبعهما «أودون» و«جيلبرت». أما «جوّش» و«غريت» فكانا يغلقان الدرجة.

بعد الانتهاء من الهبوط، دخل الهيكليون فتحة في سقف منخفض جداً لدرجة كان عليهم الانحناء إلى الأمام. أشعل الدليل في طريقه المشاعل الصغيرة المعلقة بالجدران، رائحة الزفت عمت الممر وتكاد تخنق.

وصلوا إلى باب خشبي مسمّراً بالحديد ومحاطاً بدرفتين من البرونز كبيرتين تخرجان من الجدار. نظر «جوس» إليهما بسرعة قبل أن يتبادل نظرة خاطفة مع «غريت».

فَتح الباب، دخل الإثنا عشر رجلاً إلى المعبد. كان مدفناً واسعاً. تركز نظرته على ثلاث دعائم متينة وصفت أرضه ببلاطات سوداء وبيضاء، جدرانه مغطاة بمزيج الملح مفتوحة بكوى عالية وضيقة في بعض الأماكن، فتحة تهوية تسمح للهواء الخارجي بالدخول إلى الغرفة.

كان المعبد منظماً مثل كنيسة، مدخله من الغرب والمذبح في الشرق المذبح مؤلف من مكعبين

كبيرين من الحجر يحمل سطحاً من الرخام عليه مُدَّخرتان أحداهما تحتوي على قطعة من الملف المكتوب بيد يوحنا أخ الإثني عشر، التي أنقذها بينوا شانترافيل من نيران دير أوربيني وأعيدت إلى الهيكليين، والثانية تحتوي على وصية المجنون. صليب من الخشب، أضفى جمالاً على هذا المذبح المتواضع.

على الجدار الشرقي، وفي وسطه، الأحرف السبعة V.I.T.R.I.O.L منقوشة في الحجر بضربات كبيرة من الإزميل، دون اهتمام فني أو جمالي.

أشعل حامل المِشعل خمسة مشاعل أخرى، اقترب «جاك دو مولاي» ليأخذ مكانه أمام المذبح بذراعيه المتخذتين شكل صليب، ناطقاً بالجملة التالية:

ـ بما أن الساعة أزفت وتقدمنا في السّن، لنفتتح أعمالنا يا أخوتي.

لاحظ «شارناي» بحزن أن أخوته شكلوا مجموعتين متمايزتين. في الشمال يقف، بالإضافة إليه، أودون وجيلبرت، وفي الجنوب يقف كلٌّ من برنارد دوجُّوس ورفاقه.

انحنى المعلم الكبير على المذبح، فتح المذخرة المحتوية على وصية المجنون، ثم انحنى على جلد غلافه قائلاً:

ـ باسم كل الأخوة، أقبل شفاهك، أنت الذي كنت الأول أنت تعيش فينا بتعاليمك.

وبحركة سريعة، بصق على الصليب الخشبي.

ـ أبصق عليك، يا مغتصب.. أنكرك وألعنك!

التفت نحو الحضور لينظر إلى إخوته الواحد بعد الآخر، حزيناً لرؤيتهم منفصلين. برنارد دوجوس وآرماند دو غريت أخفضا عينيهما.

«أنه الخجل، فكّر العجوز هم خجلون لأنهم اعترضوا عليّ مع ذلك فهم يتمسكون برأيهم...».

كان مولاي يتألم، رطوبة الغرفة أيقظت آلام مفاصله ألم قاطع كان يضرب عظامه مثل وخز المسامير. تنشق الهواء طويلاً قبل أن يقول:

ـ غِيُّوم دو نوغاري، النفس المتفانية لفيليب. قد أعلم القضاة ووزراء العَدل بالمآخذ والأخطاء التي يتهموننا بها... ومع ذلك، إذا أعدنا الوصية والقطعة المقدسة، فسنكون، ما زلنا قادرين على حماية الرهبانية.

ـ شاهد اثنين من رفاق «برنارد دو جوس» يتوجهان نحو باب المعبد. تساءل: «ماذا يعمل «غريغوار وفوس؟» ثم عاد إلى «آرماند دو غريت» متسائلاً: هل هذه الوقفة لائقة بالنسبة لأخ، أن يُبقي يده على مقبض سيفه أثناء عقد الجلسة؟

أخذ جوس الكلام، مشيراً إلى مولاي بسبابته:

ـ لن يمنع «نوغاري» أبداً سُمَّه عنا، يا معلّمي، هذا الحفيد المانوي حكَم كونتيّة شامباني واشترك في التحقيق حول محفلنا منذ زمن طويل. إنه هو من سلمنا إلى الملك. كان في الواقع

على علم بأسرارنا. إنه لمن الضعف الشديد أن نتخلى عن ذخائرنا. لقد قرر فيليب التضحية بالهيكليين ليقويّ سلطته؛ وهو، إلى ذلك، لن يعيد إلينا أبداً الذهب الذي دفعناه له سلفاً. لقد طمع العاهل بكل ثرواتنا كما طمع البابا بأخذ الوصية!

كان جوس يتحدث بحماس وانفعال بينما رفاقه كانوا يحمحمون خلفه ويهزون رؤوسهم مؤيدين.

طمأنهم مولاي قائلاً:

ـ ما زال فيليب يصغي إلي، سيكتفي بالموافقة على مشيئة الكرسي الرسولي الذي يرغب في دمج رهبانيتنا في منظمة الهيكليين.

ـ إنها خدعة، جاك! صاح جوس، أنت تسلّمنا عراة إلى جلادينا!

عند الباب، استل كلٌ من الهيكليين سيفه من غمده. الضجة المعدنية قد أيقظ الضجيج المعدني انتباه «جوفروا دو شارناي»، الذي التفت نحو الباب، فوجد أن غريغوار وفوس يقتحمان الباب، متجهما الوجه.

همس إلى «أودون»، القريب منه: لقد وقعنا في فخ. قام برنارد دو جوس باستمالة معظم الإخوة إلى قضيته.

ـ مع ذلك لن يحاولوا إحداث انقلاب! تساءل أودون! نحن مرتبطون وملتزمون بإسْرارِنا وقسمنا.

ـ إن الأخوة تبدو لي هشة هذه الليلة، أجاب شارني.

فهم المعلم الكبير: كان يرى جميع اخوانه رغم العتمة، نظراتهم، تبادلاتهم الخرساء. إن شيئاً ما على وشك الانفجار. شيء مريع عليه أن يتم في المحفل. ليس هنا!

لدى سماع صوت «جوفروا دو شارناي»، القوي، العنيف، انتفض «مولاي» من آلام عظامه التي كان يشعر بها كالحريق.

ـ لننهي أعمالنا في الحال، ولنغادر المعبد مع بقايا الوصية شاهرين سيوفنا!

ناشد مولاي بلهجة متوسّلة:

ـ يا إلهي! لقد خنتني برنارد؟

استلَّ الجميع سيوفهم، باستثناء مولاي، الذي بقي مشلولاً أمام المذبح، جامداً بالألم والحزن والقلق، والدموع في عينيه.

ـ قال جوس: أنت أسأت الظن، أنا الذي بقي مخلصاً ووفياً للأول، لقد نسيت إذن أننا كنا ورثته؟

ـ نحن نعرف الحقيقة، قال العجوز بجهد وحماس، أمّا هذه الملفات فلا أهمية لها (رزم مخطوطات)!

تقدم جوس بينما ظل مولاي ساكناً حتى الوقت يدافع عن المذبح بهيكله وجسده المريضين، ظاناً أن شخصيته وحدها ستوقف الخائن. لكن سيف برنارد دو جوس ارتفع موجهاً نحو الأمام. و«آرماندو غريت» اقترب منه أيضاً.

ـ أحلفك، أيها الأخ، دعني أمرُّ... رجاه «جوس»، كل شيء سيكون سهلاً فيما لو قبلت التنحّي، آخذا الوصية والقطعة المقدسة، ثم نحن...

استشاط مولاي غضباً:

ـ نحن لسنا إذن أفضل من أعدائنا؟

خرج الفارسان «غريغوار» «وفوس» بسرعة من قبو الكنيسة وتوقفا أمام درفتي الباب البرونزي.

قال غريغوار:

ـ لنكن مستعدين لفتح السّكّر عندما يصدر برنارد الأمر بذلك، لأن المسألة تأخذ منحى خطيراً.

ـ مع أنني صليت لكي يعود جاك إلى رشده، تنهّد فوس بأسف، بينما أشار شارناي إلى الباب خائفاً مرعوباً:

ـ يريدون تعويم المعبد واغراقه بالماء!

صاح أودون:

ـ اليوضاسيّون! كانوا قد حضروا قضيتهم وهم يفوقوننا عدداً!

حاول الاندفاع، لكن ثلاثة من الخصوم قطعوا عليه الطريق.

كل شيء تمّ بسرعة كبيرة. نتيجة لمخطط كان قد أنضج وكرّر منذ زمن طويل. انقض برنارد دو جوس على المعلم الكبير الذي دفعه ورماه أرضاً واستولى على وصية المجنون مهدداً بسيفه جيلبرت، وقد جاء ليفصل بينهما.

ـ لا تقف في طريقي، أخ جيلبرت، نصحه جوس بجفاء قائلاً أنت لست قادراً على ذلك!

ـ كلمة أخ تفوح منها رائحة البول من فمك!

ـ جيلبرت الصغير المسكين! قُلْ جوس ببساطة وغرس سيفه في جسده.

انهار الشاب على الأرض، فاتحاً عينيه الكبيرتين كعيني الطفل كما لو أنه فوجئ لعدم شعوره بالألم. قليل من البرد في الصدر، حيث كان قلبه يخفق. لقد مات: صمت كبير خيمّ في داخله، ومن حوله، ترافقه في وفاته نظرة ذعر معلمه الكبير.

تدخل «شارناي» مرغماً جوس على مبارزته متراجعاً. كانت السيوف تتصادم وتلمع في الفراغ لمعان البرق صافرة صفير العاصفة.

ـ القطعة المقدسة، جوفروى... تكلم «مولاي» من طرف شفته إنها فرصتنا الأخيرة!

تمكن جوس من الهرب، مدعوماً برجاله الذين غطوا هربه، توجهوا جميعاً مسرعين نحو باب القبر لإغلاقه خلفهم قاطعين الطريق على «جوفروي دوشارناي» من اللحاق بهم.

صاح هذا الأخير:

ـ الباب! ، إنهم يحكمون المزالج.

نهض أودون. يبدو أنه أغمي عليه لعدة ثوان. كان كتفه الأيسر ملطخاً بالدم. تذكر.. أنه خاض معركة شرسة ضد ثلاثة أخوة من حزب برنارد دوجوس.

اكتشف عندئذ فقط أن جيلبرت كان ينازع في مستنقع من الدم عند أسفل المذبح. والمعلم الكبير واقف أمامه، شبيهاً بميت منتصباً خارج قبره. كان شارناي يضرب بقبضة سيفه الباب الخشبي السميك مكيلا السباب واللعنات على المارقين. في الخارج، سأل «آرماند دوجيري» برنارد دو جوس:

ـ ألم تتمكن من أخذ أي شيء سوى الوصية؟ هذا يعني إذن...

ـ نعم، الماء سيكمل مهمتنا. هيا لننتهي من ذلك بأسرع ما يمكن! إنه عمل يجب إنهاؤه دون تفكير...

ـ قال دوجيري بتذمر الواقع، إن هذا لن يخفف عن روحي، التي تثقلني مثل غطاء من الرصاص.

توجه «برنارد دوجوس» إلى الفارسين الواقفين عند فتحة الحاجزين المائيين، أيديهما على المقودين البرونزيين:

ـ افتحوا الحواجز، يا رفاق، يجب أن لا يبقى أي أثر لشيء هذه الليلة..!

بينما ينفذون ذلك، لم يتمكن فوس من منع نفسه من الملاحظة:

ـ عندما أفكر بأن «جاك» بذاته هو من وضع آلية العمل لهذا اليوم الذي كان علينا فيه أن ندمر المحفل في حال حدوث خطر! ونحن نرفع العصا ضده!

لاحظ غريفوار:

ـ أخشى كثيراً أن تصيبنا اللعنة من أجل هذا.

ـ ما أن دارت دواليب المحرّكات حتى سمع الهيكليون آلية معقدة تعمل تحت أقدامهم: دواليب مسننة، سلاسل، ترُوس... ضجة قوية تهز الأرض والجدران.

قال جوس:

ـ هيا لنعد إلى الكنيسة.

وخلف الباب المقفل، كان يقف شارناي الذي توقف عن قدح الخونة وذمهم.

47

الحلقة

فتح الرجل حامل المشعل الطريق، وسار الهيكليون السبعة من جديد بمحاذاة المستنقعات حتى تمزقت أطراف معاطفهم من شوك نبات العليق، متوغلين في الغابة ليجدوا الكنيسة الصغيرة.

سلّم «جوس» وصية المجنون إلى «أرماند دو جريت» قائلاً له:

ـ ضع الوصية في خرج جوادي، فقد بقي شيء آخر داخل الكنيسة عليّ إنجازه.

ـ أسرِع يا برنارد، أرغب أن أكون بعيداً عن هذا المكان، فأنا أشعر أن إخوتنا يصرخون تحت الأرض.

الليلة نيّرة، وفاترة، سماؤها مرصعة بالنجوم، عندما دفع جوس باب الكنيسة، تاركاً لعينيه الوقت الكافي للتأقلم مع الظلمة قبل عبورها والوصول إلى الجدار الذي نقشت عليه الأحرف V.I.T.R.I.O.L، قرب الشعار الذي يمثل فارسين يركبان جواداً واحداً.

إلى ذلك، كانت هناك حلقة من البرونز معلقة إلى حلقة ربط، مباشرة تحت الأحرف السبعة مباشرة. حرّرها جوس من رباطها، لم يتمالك من وقف رعشة الخوف، وهو يقبض على الحلقة بين يديه، بقية من خرافة...؟

لكن كم من الرجال لمسوها؟ طبعاً القليل، الحقيقة يظن الفارس أن يسوع نفسه، في سن متقدمة جداً، صنعها ليفتح ويغلق في يوم ما قبره الخاص، يوحنا أخ للإثني عشر، ثم بعض التلامذة. إلى أن وضعه هوغ دوباين في الكنيسة بعد انتهاء الأعمال في الغابة ونقل جسد المسيح إلى قبره الجديد، بعيداً عن متناول حراس الدم.

عرف جوس أن القطعة كانت ضرورية لإنهاء وإتمام مخطط الأخوة الأوائل، من دون ذلك الشيء كان يستحيل الدخول إلى قبر يسوع.

خرج برنارد دو جوس من الكنيسة، بينما امتطى رفاقه الستة صهوة جيادهم. أما «أرماند دو جريت» فقد أعطى أمراً باقتياد جياد «جاك دو مولاي» وأصدقائه: إذ اقتضى الواجب أن لا يبقى أي أثر لمرورهم في هذه الأمكنة.

امتطى جوس جواده، ودون أي كلمة، نهره بضربتين من كعبه في خاصرته. تبعه الفرسان الستة، بوجه مكفهر، وعينين منسدلتين.

غاصوا في الغابة حيث زادت عتمة الليل، انطفأ المشعل، فأكملوا سيرهم معتمدين على ذاكرتهم وعلى مهارة الخيول التي تطرق حوافرها الأرض القاسية. اجتازوا فسحة في وسط الغابة ينيرها ضوء القمر ويحييها بظلال طويلة. عبروا أمام نصب المناوي، التفتوا نحو حارس لا يتحرك لماضٍ من النار والرماد.

أوقف جوس حصانه لبعض الوقت محدِّقاً بالنصب، متأملاً: ليس من أجلنا يا الله، ليس من أجلنا، لكن من أجل مجد اسمك.

ثم عاد جوس إلى سواد الغابة مع رائحتها الثقيلة، وصخب طيورها.

قطع «آرماند دو جيرت» الصمت الثقيل الذي استولى على الرجال:

ـ لم تقل لنا بعد أين سنخبئ وصية المجنون، برنارد.

ـ هناك حيث يستحيل على البابا أن يجدها .. وحيث كلاب الصيد الخاصة به، حراس الدم لن يأتوا ليبحثوا عنه. كان ذلك كل ما تبادلوه خلال سيرهم عبر الطريق.

48

الفرار

ماء مُوحِل يتدفق بصخب كبير من الكُوى المحفورة في جدران الكنيسة، بلغ ركبتي «جاك دو مولاي»، «جوفروا دو شارناي» و«آدون لانفوازييه».

قال شارناي:

ـ لقد أصبحنا في مصيدة الفئران، يا معلمي، سنموت غرقى في أقل من ساعة؟

فعلاً، أجاب مولاي.

ـ سيتدفق ماء مستنقع بوي Buy ليملأ المعبد. أرى، وللأسف، أن لا أمل بالنجاة، أقول ذلك عن معرفة، لأنني أنا واضع الآلية.

تدخل أودون، بوجهه المحمر، وعصبيته الشديدة:

ـ تبقى لدينا فرصة يجب استغلالها، لنحاول رفع أنفسنا نحو السطح عبر نافذة التهوية تلك.

أشار بيده إلى الفتحة الضيقة في الجدار الشمالي وأضاف:

إن سعتها كافية على نحو يتيح لرجل الانزلاق عبرها.

ـ قال مولاي: هذه ليست سوى مجازٍ ضيق جداً، مجرّد تجويف قد نموت فيه جميعاً اختناقاً.

وضع شارني يده على ذراع صديقه وقال:

ـ لكننا دعمناها سابقاً بالدبش القوي. لنحاول ولننقذ القطعة المقدسة التي ستضعها بين يدي البابا.

وضع المعلم الكبير ما تبقى من الذخيرة في جيب قميصه، فيما كان أودون يتوجه نحو الفتحة السوداء لمجرى التهوية. كان عليه إبعاد جسد جيلبرت الذي يطفو أمام الجدار.

سأل شارناي:

ـ هل كتفك قوي بما فيه الكفاية؟

أجاب أودون:

- يجب أن يكون كذلك، أشك في أنه (المجاز) يصعد مباشرة، أليس كذلك؟

قال مولاي:

- بروحي، وبدأ يرتعد، هذا البئر يصعد عمودياً، أتساءل ما إذا..

فهم شارناي في الحال.

قاطع جاك الكلام بخشونة: لا تتساءل سأسبقك وسأساعدك. سيتبعك «أودون» وسيدفعك من مؤخرتك إذا دعت الحاجة، أنك ستصعد وفي أقل من زمن تلاوة الكاهن صلاة الاعتراف، وسط هواء الليل المنعش.

- أنا رجل عجوز، جوفروا!

- كنت سابقاً شاباً خشناً متيناً وعليك تذكر ذلك، يا صديقي. دخل شارناي في الفتحة وهو يتألم:

- أجهل أنني أصبحت بديناً لهذه الدرجة، مع أنني أصوم كل يوم جمعة متقيداً بالصوم كما عادة الناس الصالحين!

ابتسم مولاي.

- عزيزي جوفروا أنت في سن النضوج، إنها فترة غزو الشحم العضلات، تنقصك التمارين القاسية. هل لي أن الفت انتباهك أنه إذا ما بقيت محصوراً، فإننا سنموت جميعاً غرقاً، «أودون» وأنا، بينما ستبقى مؤخرتك في الماء لتتنفس بحماقة عبر ذلك السرداب.

بدوره علّق شارناي:

- أقرّ أن وضعية جسمك ليست جديرة بفارس وهو يبذل جهوداً عنيفة لكي ينزلق في فتحة التهوية.

وقد توصل إلى ذلك، بعد محاولات زحف صبورة وجلودة وبعد أن برّم وفتّل إليتيه مثل رجل يتألم بشدة. أوشك الماء أن يصل إلى فخذ الرجال ولن يتأخر بعد ذلك عن ملء البئر.

قال أودون لجاك، وهو يساعده في ثني جسده وجعل رأسه والكتفين تمرُّ عبر الفتحة:

- والآن جاء دورك.

لم تكن عظام العجوز ولحمه سوى آلام غير حادة، ووجع في كل أعضائه وأطرافه ومفاصله وفي الشرايين والصدر، والصدغين، ويضرب في مؤخرة الرقبة حيث اختار مقراً له. كان ذلك عذاباً. رفع شارلي جسده مستنداً إلى الجدار ممسكاً حجراً بارزاً قليلاً من التراب. مد يده السليمة إلى المعلم الكبير الذي قبض عليها وشدها في الوقت ذاته الذي كان يحاول كبت ألمه، وطقطقة عظام قبضته.

ثم جاءت المنعكسات، وجدت إحدى قدميه قدمه حاملاً هشاً تكلبت أصابعه بنتوء صغير،

ثم رفع وركيه. ربح مولاي متراً واحداً، يحتاج متراً آخر، من المؤكد أن الصعود كان خطراً خشية الانزلاق في كل لحظة، كنا نتوقف لنلتقط أنفاسنا، الصدر ملتصق بالحجر والفضار المبلل. كنا نعاود الصعود يشجع بعضنا الآخر بالصوت، والثقة بالعناية الإلهية.

لقد بلغوا تقريباً هدفهم عندما صاح شارناي:

ـ ألا تشعرون بلطافة الليل؟

بالفعل، تلقى، مولاي على وجهه مداعبة خفيفة لنسيم محمل بعطر الغابات.

ـ اعترف بأن هذا الانجاز نعمة رسولية. هل أتخيل أن عظمي العجوز سيحملني حتى هذا المكان؟ حسناً ألست سعيداً يا أودون؟

ـ إخوتي...

هكذا يناديهم أودون صلاة حزينة: «إخوتي... إني أنزلق!».

لقد منعه كتفه المجروح، من الإمساك بفواصل بين الحجارة المغروزة في الجدار الطيني.

وزن جسمه لا يمكن أن تحمله يد واحدة، الدم ينزف من ذراعه الأيسر متدلياً فخذه، وغير نافع.

ـ قال له مولاي، سأعطيك يدي.

رفع أودون رأسه نحو المعلم الكبير الذي يحاول إنقاذه.

ـ استرخت أصابعه. انزلقت من نتوء بين الدبش، إلى أن أفلتت من مكان تعلقها وسقط الشاب، متكسراً على الجدران الضيقة.

ـ نصح شارناي صديقه، لا تنظر أبداً إلى الوراء، لنخرج من هذا العنق الضيق، ومن ثم سيكون لدينا متسع من الوقت لنصلي إلى أودون وجيريت.

استطاع الناجيان الخروج من البئر ووصلا إلى مغارة منخفضة وترابية. وقد توجب عليهما أن يزحفا لبعض الوقت قبل أن يصلا إلى الهواء الطلق، هواء الغابة.

مولاي منهك من التعب. تمدد على العشب قبالة السماء المرصعة بالنجوم، اليدان على شكل صليب يتنفس بصعوبة.

انظروا ما بقي من المحفل الأول؟ لاحظ بمرارة، عجوز وصديقه المخلص الوفي.

ـ فكر بالرهبانية وفرسانها الذين ستنقذهم هذه القطعة المقدسة عندما نقدمها إلى الكنيسة.

ـ آلاف من الأحياء مقابل قطعة من الجلد (جلد العجل)، لكن هل هذا سيكفي؟ لن ترضى الأسقفية أبداً بقاء نسخة من المخطوط اللعين. ستخشى دائماً أن تنكشف الحقيقة في يوم من الأيام ويُدمَّر نفوذها. هل يمكن تصوّر أنه قادر على توقيف الذين خدموه كثيراً وإدانتهم؟

قال جاك:

ـ رهبانيتنا قوية جداً، لقد أصبحنا مصرفيين مربكين.

استقام مولاي متكئاً على أحد مرفقيه واستعاد تنفسه هدوءه وقال بصوت جليّ:

ـ إذن، من المكن أن لا يكون أخونا «برنارد دو جوس» قد قام بخيانتنا عبثاً. من يعرف أنه كان معنا، تلك الليلة؟

ـ سنعرف ذلك قريباً، تعالَ... تعالَ، معلمي.

مدّ «شارناي» له يده، نهض مولاي. الألم ما زال يلاؤمه، غير أنه تلاشى قليلاً، من جراء الأسى الذي خلفه شعوره بأنه كان فريسة الخداع، بالإضافة إلى فقده اثنين من رفاقه الأكثر إخلاصاً: جيلبرت وأودون. استيقظ الألم عندما شرع بالسير من جديد، فعاد يقطّب وجهه تحت ضربات الألم التي كانت تنهشه وتهاجمه في كل خطوة.

ـ جاك، استند إلى ذراعي.

ـ من الرائع أن يحافظ المرء على صديق مثلك، جوفروا.

ـ فيما يخصني، أنا فخور بأن يكون لي معلم مثلك.

ـ زفر مولاي: حبك أعمى، ماذا قدمت لمحفلنا المقدس، سوى تدميره؟ أنظر ما صنعته بارث يسوع!

ـ لست مسؤولاً، ومن غير المفيد أن تذل نفسك. كان جوس محقّاً حول نقطة: الملك فيليب مُرْتَدٌّ، وأنت تلعب لعبة خطيرة معه ومع الكنيسة. مع ذلك أتابع التفكير أن باستطاعتك تهدئة غيظهم ضد الرهبانية بتسليمهم القطعة المقدّسة. هذه اللفتة كان يجب أن تثبت إيمانك الحقيقي وتثبت أننا خاضعين لهم، لا إذلال في هذا نظراً لأن الهدف هو إنقاذ إخوتك.

* * *

احترم، جاك دومولاي تعهده فأعاد القطعة المقدسة إلى الملك فيليب لوبل مع تكليفه أن ينقلها إلى البابا ليحصل على إكليل الغار مكافأة على نجاحه في هذه القضية. لكن البابا لا يريدها، لأن لديه مشروعاً آخر مختلفاً فيما يخص الرفات. أعلموا الملك بذلك بعد شهر من هربهم من الكنيسة الغارقة، في الثالث عشر من تشرين الأول عام 1307، أوقف «جاك دو مولاي» و«جيوفروا دو شارناي» جميع هيكليي فرنسا وحجزت أموالهم وأملاكهم.

49

المحرقة

بعد ذلك بسبع سنوات، عشية الثامن عشر من آذار من عام ألف وثلاثمائة وأربعة عشر، كان رجل جميل الطلعة يناهز الستة والأربعين عاماً جالساً قرب نافذة مطلة على جزيرة «الجافيو» حيث ولدت لتوّها إشاعة عن جمع، لم تتوقف عن التزايد، وألسنة النار المتصاعدة من المشاعل كانت ترقص فوق بحر من الرؤوس، أذرع مرتفعة، أناشيد تتصاعد وسط النسيم البارد الطافي على نهر السّين، وصيحات وهتافات ترعد وتزمجر.

كانت الغرفة غارقة في الظلام، شمعدان كبير وحيد ينشر نوراً ضعيفاً، شموعه تذوب ذارفة دموعاً حارقة، وقطرات الدهن تسقط على الأرض الحصوية.

جلس الرجل البهي ذو القد الرفيع، والجبهة البارزة نحو الأمام، على كرسي ذات مسند ظهري عال، واضعاً ذقنه بين يديه، مرتدياً معطفاً تتدلى منه قبعة على كتفيه، وكان ينتظر أحدهم.

تنفس الملك فيليب طويلاً هواء المساء الذي لوثته أشعة حمراء كادت تغرق وسط غابة من سطوح القرميد. سمع خشخشة من خلفه ملتفتاً قليلاً إلى الوراء، عارفاً بمن يتعلق الأمر. فالحضور مألوف، ومن دخل بصمت إلى القاعة، كان يعرف العادات.

ـ آه، هذا أنت نوغاريت... أنت وعادة خروجك المستهجن من الظل كالقط!

دنا «غيّوم دو نوغاريت» من الملك بخطى صامتة، منزلقاً أكثر منه ماشياً، قائماً بخطى صغيرة بليدة شبيهة برقص متصنّع على ساقيه الهزيلتين.

ـ وقف وهو يرتب هندامه جئت لأقول لكم صاحب الجلالة.. يتصرف دائماً بالطريقة نفسها، يبدأ كلامه بجملة، ثم يتوقف تماماً. يستأنف بنبرة أخف، كما لو أنه يكشف في كل مرة سراً.

ـ انتهى إلى القول: نُفِّذ كل شيء حسب أوامر البابا كليمنت.

هكذا يرضى الحبر الأعظم لقد أوقفنا «جاك دو مولاي» عندما سلّمنا القطعة المقدسة. هل يجب التصرف معه للحفاظ على الملكية والبابوية؟ حزن عميق ترافق مع صوت الملك فيليب.

تظاهر نوغاريت بعدم ملاحظة حزن الملك متابعاً القول:

ـ ما كان للقطعة أن تظهر أبداً! فقد علّقت في عنق المعلم الكبير، من المحتمل أن تحترق الورقة وجوفروا دو شارناي لكن كليهما، رغم التعذيب، لم يعترفا بموقع معبد محفلهما. ما يتعلق بالمخطوط، أغلب الظن أن الجواسيس يعلمون بأن «برنارد دو جوس» أخفى المخطوط منذ سنوات في مكان آمن. وغيوم هذا، شخصية غريبة الأطوار. مشرعاً ماهراً عنيداً، استبسل ضد الهيكليين الذين لم يتوانوا عن تحقير سلف البابا كليمنت، الذي كان يكرهه، روحه بدّلت لون بشرته الرمادية والمجعدة، عيناه الصغيرتان المكورتان لا تعبران أبداً عن أية مشاعر. يقال عنهما أنهما حجرتا عقيق ميتتان لا يستطيع النور اختراقهما.

تابع: من الصعب العثور على «برنارد دو جوس». يُخشى من لجوئه إلى طائفته.

ابتسم الملك فيليب ابتسامة صفراء.

ـ أثق بك غيّوم: ستفتش.. أنت وآخرون من بعدك دون توقف! أرجوك، دعني الآن. أسمع الطبول، لن يتأخر العقاب.

اختفى «نوغاريت» في ظلام الغرفة، خطاه الهاربة على البلاط أشبه بصفير بطيء. استأنف الملك فيليب مراقبة جزيرة جافيو. صمتت الطبول، تحولت ضرباتها الرتيبة إلى قرعة حزن جنائزية. زفرات الجمع المحتشد تحولت إلى تذمر.

«البائس جاك!.. صديق قديم صادق ومخلص... أقول إنه صدق كلامي...».

الصوت الغريب الذي سمعه من الجمع من خلال نافذته يقول: إن جاك دومولاي وجوفروا دو شارناي جيء بهما إلى مكان عقابهما، لم يستطع رؤية تفاصيل المشهد، غير أنه يتصوره بسهولة. فاجأته قشعريرة من البرد.

* * *

جمع غفير تجمع لحضور موت الهيكليين الأخيرين الاثنين، رجال بسلاحهم يسوقون المحكوميّن، المعاملَين بقساوة والمُهانَين من جمهور متوتر صاخب وثمل.

لم توثق أيادي جاك دومولاي وجوفروا دو شارني. فهما يدافعان عن نفسيهما بطريقة يرثى لها يحميان وجههما من البصاق أو رميهما بالخضر، والحجارة، قطع من الخبز المبللة بالبول لإذلالهما.

سخريات، مزاح، لعنات. لقد تحرر الجمع من تلك الحيوانية التي حافظ عليها البشر محفورة في القلب، والتي لا تنتظر سوى التعبير عنها أثناء الاحتفالات المخجلة.

على رأس القافلة، دومينيكي حاملاً صليباً كبيراً يمشي بصورة احتفالية مقتنعاً بدوره. أطفال حضروا المشهد. الوحيدون الذين لم يهلّلوا، متأثرين، مرعوبين لهذا النوع من فيض

الحقد. روّعهم رؤية أهلهم ينساقون بهذا الكم من المشاعر الحيوانية. لكن هؤلاء الأطفال أصبحوا بدورهم راشدين بالغين.

الجموع.....

كان مولاي يتحدث مع شارناي وهما يصعدان المنبر حيث وضعت أكوام من حزم الحطب المتراصة، التي أقدم الجلاد واثنين من مساعديه على رشّها بالزفت. المشاعل التي ستشعل المحرقة جاهزة وتنتظر، في أماكنها من الحديد الصب.

ـ مزّق قميصك قبل أن توثق إلى العمود، جوفروا. لنقدّم قلبنا إلى اللهب، ولنغادر العالم غير نادمين.

ـ أكيد، إنني سأغادر بطواعية عالم الخونة والقتلة.

هيأ أحد المساعدين الحبال، مزّق مولاي قميصه قبل أن يوثقوه إلى العمود الخشبي الخشن.

ـ قال الرجل العجوز: أريد أن ترى الجموع القطعة المقدسة التي من أجلها خسرنا حياتنا.

لم تسمع الجموع المحتشدة حول أقدام الرجلين.

طلبت امرأة:

ـ ما هو ذلك الشيء المعلق في عنق العجوز؟

ـ أجاب أحد الرجال:

ـ دون شك قائمة خطاياه، التي سيحملها معه إلى جهنم.

وتابع آخر:

ـ لقد كتبت بحروف صغيرة، لأنه يقال إن خطايا الهيكليين كثيرة جداً.

ـ أكيد، لديهم مؤخرة عريضة، على ما يبدو!

ـ يبصقون على الصليب المقدس ويسجدون أمام أصنام قبيحة.

انتهى شد وثاق الرجلين، اللذين تركوهما يفعلان ما يرغبان باحترام، فهما يعلمان منذ زمن طويل أن حياتهما معلقة بالملك والبابا، وقد اعتادا، طوال فترة سجنهما على فكرة قبول الموت. لكن مولاي أشاح بوجهه الضعيف والشاحب نحو المساعد الذي مسكه بيديه ليشد وثاقه وسأله:

ـ دعوني أضم يدي وأوجه صلاتي إلى الإله الحقيقي، لن أموت... سأعود لزيارة الأرض التي أرقد بها إلى جوار أخي الأول.

قُبِلَ التماسه من قبل الدومينيكي، المقتنع بتسامحه الكريم وشفقته النقية.

هكذا تمكن مولاي من ضم يديه إلى صدره. هذه الحركة حرمت الصفوف الأولى للجمهور، الذي صمت واجماً، موجة الصمت سرت على الحضور مفسحة المجال لإظهار بشاعة وشناعة الموت. كانوا على وشك حرق الرجلين اللذين كان أحدهما عجوزاً مصاباً بالروماتيزم، هزيلاً بدا وكأنه ينام واقفاً، مسمَّراً في صلاة عميقة.

أمسك الجلاد ومساعداه المشاعل وبدأوا بإشعال الحزم الأولى. التهمت النار سريعاً قطع الخشب الكبيرة المرتبة فوق بعضها البعض بعناية والمهوّاة بشكل جيد واشتد أوارها.

رفع الدومينيكي صليبه الكبير باتجاه الهيكليين.

وصلت ألسنة اللهب إلى كومة الحطب في لولب من الدخان الكثيف الذي أجبر الجمهور على التراجع إلى الوراء. أمسكت امرأة صبيها وقربته نحو ساقيها. تجهمت الوجوه مظهرة تعابير الاشمئزاز. فالمأساة أصبحت واقعية. ساهمت في طرد بقايا الغريزة الحيوانية في قلب الفضوليين.

ـ كان الجمهور خجلاً، صاحياً، دون فرح مُرغماً على البقاء لرؤية مشهد الهرطقيين البائسين اللذين كانا يسعلان وينفثان الدخان الخانق.

* * *

شاهد فيليب لوبل من نافذة القصر الملكي، وميض ضوء المحرقة يشتد في أمسية السماء الصافية. وميض أصفر مائل إلى البياض، شبيه بضوء خارق. لاشك أن الصمت غير المألوف قد جعل هذا النور أكثر غرابة.

أغلق عينيه للحظة. بضع ثوان طوال، مثل أزل أسود ومُجلد. ولما فتحهما، كانتا رطبتين ولاذعتين. وأخذ يكرر بصوت مسموع:

ـ «كان لدي صديق قديم، صادق ومخلص،...».

* * *

كان جاك دو مولاي وجوفروا دو شارناي غارقين في اللهب الذي بدأ يحرق ساقيهما، ويلحس صدرهما، مخلفاً ستار ماء أحمر مدمى على عينيهما.

كانت القطعة المقدسة المربوطة إلى عنق الرجل العجوز بخيط رفيع من القنب على وشك الانقطاع ومصدراً لهيباً ضعيفاً ناعماً.

مولاي سيكون قريباً متحرراً من آلام جسده العجوز الذي غزاه الروماتيزم محرَّراً أيضاً من حزنه.

عندئذ أخذته رؤيا، تتابع من الصور القصيرة التي كانت تبهره. الكشف عن مستقبل

قريب. شعر بارتياح من هذه الصور اللطيفة. بشرته، التي استحالت إلى فقاعات ومن ثم تحولت إلى جروح مريعة، لم تكن سوى رضوضاً خفيفة.

حبل القنب الرفيع سيقطع، والملف بدأ يلتهب.

رفع جاك دو مولاي، آخر معلم كبير لرهبانية الهيكليين، رأسه المكلل بوهج المحرقة نحو السماء الداكنة وقال بصوت عال أجش:

ـ البابا كليمنت. وأنت الملك فيليب: لن تنتهي هذه السنة إلا وأنتما تمثلان أمام محكمة الله!

رَنَّ صدى لعنته في رؤوس الجموع الخائفة المرتعدة. غادرت القطعة المقدسة صدر العجوز وطارت مثل لهب ماجن لعوب محلقة فوق الدومينيكي، الخائف.

كانت ورقة الملف تعطي الشعور بامتلاك حياة خاصة، إرادة الهرب من هذه الأماكن ومن هذه الحقبة من الزمن.

حلق الملف المحترق كعصفور نار فوق الجمهور الذي تابعه بنظراته بقلق تشوبه خرافة. انفجرت في ظلام الليل وتفتت إلى نقاط صغيرة مضيئة.

ـ إلهي، صاحت امرأة بخوف، كأنها روح الهيكليين تحلِّق وترحل!

50

حرف تاء أو العصى المعقوفة

قال موزيل: الحقيقة أن «كلمنت الخامس وفيليب لوبل ماتا في السنة نفسها!».

ابتسم هيرتز مغضناً جبينه من دخان السيجار الذي أشعله أثناء روايته. التهما الخبز والجبن. أفرغا قارورة النبيذ. شعر المحامي العجوز أن ناراً تندفع من خديه وقطرات من العرق لامعة على جبهته.

ـ أنت محق، ديدييه. البابا لم ينج من الإصابة بزحار ولم يعالج جيداً. والملك فيليب كان ضحية حادث صيد. فقد رأى القرويون البسطاء في الخنزير البري الذي هاجم فيليب ممزقاً سترته تقمصاً لجسد جاك دو مولاي العائد من بين الأموات بهذه الهيئة لينفذ حكمه. أسطورة يقصد بها أيضاً أن الهيكليين الذين تجنبوا السجن نظموا ألعوبة للإيقاع الملك فيليب في الفخ.

ـ أضاف موزيل: يقال أيضاً إن البابا كليمنت مات مسموماً، فهل هذه برأيك ضربة أخرى من الهيكليين؟

زادت ابتسامة هيرتز حدة.

ـ لا أحد قادر على القسم.. هذا ممكن، في النهاية، على الأقل أن يكون موت الواحد والآخر مجرد صدفة؟ لماذا إدخال السحر في حالة وجود الصدفة؟

سحب المحامي العجوز بقوة في سيجاره، بنشوة معلنة لكن موزيل قاطعها متسائلاً:

ـ إذن لم يتمكن نوغاريت من معرفة أين يوجد قبر المسيح؟

على مضض أجاب هيرتز بكلام بدا وكأنه خارج مع الدخان:

ـ فهمتم أن الهيكليين الذين علقوا وصية المجنون قد تركوا على الهامش بعض مؤشرات للمتلقين الجدد الذين سيأتون بعدهم.. لكن النزاع بين الأوائل، ووفاة جاك دو مولاي أزالا سِرَّ هوغيس دو بايان.

ـ إلا أنه عثر على المخطوطة! ماذا كان مصير المحفل الأول؟ هل أعيد تشكيله فيما بعد؟ ومتى؟

نظر هيرتز إلى طرف سيجاره المتوهج الذي يدور بين الباهم والسبابة.

اقترح هيرتز:

ـ هل لك أن تشرب كوباً صغيراً من هذا المشروب؟ أو كأساً من الكونياك؟

ـ ألا تريد أن تجيبني، يا أخي؟ إذا كنت تعرف كل هذه الأحداث التي لم يعترف بها ولم يدونها التاريخ الرسمي فذلك يعني...

لم يتمكن موزيل من منع نفسه من إظهار نفاذ صبره. لم يكن مخدوعاً بلعبة هذا الهر الداهية الضخم.

ـ هل قلت لك.. لاحقاً...

مع ذلك، ألح موزيل:

ـ المحفل الأول موجود دائماً، أليس كذلك؟ وأنتم...

من تعني بـ أنتم، مارتن؟ لماذا تحتفظ بوصية المجنون؟

ـ آه، الوصية! لقد وضعتها في مكان آمن. لم تعد هنا منذ أن حاول حراس الدم سرقتها مني. فيما يخصك، هل أحرزت تقدماً حول النسخة التي أعطيتك إياها؟

ـ لم يكن لدي وقت، مع ذلك بدا لي بديهياً أن الراوي المدعو يوحنا أخ الإثني عشر ليس سوى الإنجيلي. إنني لم أضف شيئاً إلى معارفك.

ـ طبعاً.

ـ من ناحية أخرى فقد عاش طويلاً، لأن تاريخ موته في إيفيس يرجح أنه كان حوالى العام 101 للميلاد، وعمره يقارب ثمان وتسعين عاماً.

ـ صحّح هيرتز: لست متأكداً أنه مات في إيفيس، على الأصح قضى مع المسيح في جبل الزيتون وظل فيه بعد وفاة المسيح.

تابع موزيل:

ـ من المحتمل أنه كتب إنجيلين، وأن وصيّة المجنون موضّحة للأول ومحدِّدة لرؤياه؟

ـ هذا جلي، ديدييه. تذكّر بدقة مقطعاً من الرؤيا الذي يروي أن يوحنا، الذي نفاه الإمبراطور دوميتيان إلى باتموس، قد حظى برؤية المسيح، بملابسه البيضاء وأملى عليه: «أكتب ما تراه الآن، وما سيحدث فيما بعد» في سفر الرؤيا، يتعلق الأمر بظهور أو تجلٍّ، بينما هناك في العهد الجديد زيارة حقيقية واقعية ليسوع تروى على النحو التالي:

«كان حياً لم يمت

كما كان الشعب يظن

قبّلني ثلاثاً

شعر رأسه أبيض

كما القطن المندوف

كما الثلج...».

ـ أنت إذن تعرف فحوى وصية المجنون عن ظهر قلب، يا مارتن؟

ـ لقد قرأتها كثيراً! ومراراً! أعرفها بالفعل كما لو أنني كتبتها بيدي.

ـ لكن كان يجب انتظار وفاة نيرون ليسمح ليوحنا بمغادرة منفاه.

ـ ديدييه: إنه التاريخ الرسمي! أنا أميل إلى تصديق كلام يوحنا في الوصية أكثر من كلام الحوليين. من المحتمل أن يكون الإنجيلي قد غادر فعلاً جزيرة باتموس أو بقي فيها بإرادته، وقبول من الشعب الذي تحوّل إلى أفكاره وأكملها أو أنهم اتبعوا الرجل ذي «الرأس والشعر كما الصوف الأبيض، وكما الثلج..».

ـ يسوع.. يسوعٌ مُسِنٌّ، عاد يبحث عن أخلص تلامذته. هكذا، لا يوجد ما يمكن الشك فيه، الوصية هي البرهان الذي لا يمكن رفضه على أن يسوع لم يصلب!

ـ سأل هيرتز: هل تشك بذلك؟ نهض عن الطاولة مضيفاً: لدي شراب من عصير الفواكه لذيذ جداً، سأصب لكلينا قليلاً منه.

أشعل موزيل سيجاره، تذوق جرعة من التبغ الأشقر ناظراً بتأمل إلى صديقه القديم وهو يفتح باب إحدى الخزائن الجدارية ويخرج منها قارورة دون لصاقة، سبق أن نفذت بشكل كبير «هر ضخم، نعم! وأنا الفأرة التي يتسلى بها. لأي هدف؟».

تناول هيرتز كأسين صغيرين ملأهما، وعاد ليجلس ويشم رائحة الكحول قبل أن يتذوقه.

ـ تذوق لي هذا، يا ديدييه. هذا النبيذ من إنتاج صديقي في «ليون»، هناك أناس مفيدون على هذه الأرض.

فاعلو خير...

رطّب موزيل شفتيه.

ـ سحقاً، صرخ، إنه شراب للرجال!

ـ لا يروق لِليا أن أشرب منه كثيراً، فهي مقتنعة أنني سأموت بسبب تشمع الكبد. أعتقد أن الأمر كذلك، ولكني، غير مبالٍ. تشمع كبد، سرطان رئة، داء السكّري..

وضع موزيل كأسه على الطاولة، وبلعومه يكاد يحترق، بطانة الفم المخاطية ملتهبة بمذاق ثَمر مُفلفل.

سأل مارتن:

ـ من الذي مات على الصليب؟

ـ أنت تعرفه يا ديدييه. توماس ويسوع كانا متخاصمين ويكره أحدهما الآخر. توماس هو الأخ التوأم للمسيح، حاول قتل هذا الأخير وتركه على أنه ميت.

ـ صاح موزيل يا إلهي! حتى المقربين من يسوع فكروا أنه كان ميتاً. وجرى وضعه في كفن، أليس كذلك؟ و..

ـ وماذا؟

انحنى هيرتز فوق الطاولة، رأسه الضخم ووجنتاه المترهلتان والحمراوان، عيناه، شبه مغمضتين، ابتسامة بالورب، ينتظر.

ثمة جمل من مقطع شعري من وصية المجنون فرضت نفسها على عقل موزيل، واضحة، وكأنها رؤية:

«في جبل الزيتون الأخ الميت في كفنه

يوجه التوبيخات إلى توأمه

ويلعنه إلى أبد الآبدين....».

ارتسم الرضا على وجه هيرتز الذي عاد إلى مكانه، مطلقاً تنهدات طويلة شبيهة بالتي يطلقها الرياضي بعد الجهد. مرّر إحدى يديه على جبينه ليمسح بعض قطرات العرق.

موزيل يتابع:

- فرقة الخيالة (الكتيبة) لم توقف يسوع في جبل الزيتون، بل أوقفت توأمه. لقد ترك المسيح أخيه ليُحكم عليه!

- تلك هي دائماً نظرية بونتيغلون.

- أتساءل أيضاً...

- نعم ديدييه؟

- أسأل نفسي: هل كان ما رسمه البروفسور على صدري بدمه صليباً أو حرف (T)؟ عندما تخليت عن كنزتي لاحظت أن القائم الشاقولي للصليب يتجاوز قليلاً الذراع الأفقي (المعترض).

لماذا تخيل موزيل فجأة أن هيرتز يسخر به؟ المحامي العجوز يقلّب ويدوّر عينيه، مظهراً أنه يفكر، ويقول:

- لكن... نعم! أكيد: الـ..T الـT اليونانية! الـ تو !TAU أعتقد بالحقيقة أنها TAU، التي يريد إفهامك إياها.

مشنقة المصلوبين كانت على شكل حرف TAU اليوناني، هكذا حدّدها موزيل، مغتاظاً، متأكداً أن المحامي العجوز لم يكن ينتظر سوى هذه اللحظة ليؤكد له هذا الاكتشاف.

- من الطبيعي أن الحرف TAU ليس صليباً. ألم تقل لي أن فرنسيس ذهب إلى ريمس عندما كان يقوم بتحقيق الملف وحيداً؟ سأل هيرتز بصوته العسلي الناعم.

- إنها الحقيقة، غير أنه لم يحدد لي المكان بالضبط.

- فكرت بالحرف اليوناني بسبب القصر تو (Tau)، الملاصق لكاتدرائية ريمس. إذا كانت ذكرياتي صحيحة، فهو يحفظ فيها بتقوى بعض كتابات (هوغيس دو باينس) النادرة.

مارتن: أشعر أحياناً بأنني كلب في طرف رسن طويل تمسكه بيدك.

- كلا، أنت صديق أمد له يدي.. أنت شبابي. إليك من جديد عصير الفواكه، إنه لذيذ؟ يساعد على التفكير ويحفّز الذهن!

51

رسالة هوغيس دو باينس

ريمس، الثلاثاء، الساعة الرابعة عشرة وعشرين دقيقة.

أركن ديدييه موزيل سيارته الغولف في ساحة الكاردينال ـ لوسون ودخل دار القصر القديم لأسقفية ريمس، قصر تو Tau، التي كانت أبنيته ترسم في السابق حرف (T) إلى أن غيّر شكل بنائه في القرن السابع عشر XVII المهندس المعماري روبرت دوكوت. تعرض البناء أيضاً لعدة أضرار بين العامين 1914 ـ 1918 (الحرب العالمية الأولى)، لم ينته ترميمه إلا بعد الحرب العالمية الثانية. يضم الآن متحفاً يمكن التمتع برؤية محتوياته طلسم أو تعويذة شارلمان، والكأس الذي احتفل به ملوك فرنسا لدى تناول القربان خلال الاحتفال برسمهم، وكذلك السبعة عشر بساطاً أو سجادة التي تخلد حياة العذراء، التي كانت سابقاً ملكاً للكاتدرائية. قصر الـTau يشكل جزءاً من الإرث العالمي الذي وضعته اليونيسكو المنظمة العالمية للعلوم والثقافة.

في الصباح، جدّد موزيل موعداً من طريق الهاتف المحمول مع أمين المتحف جورج لامبلين، رجل في الخمسين من عمره، قصير القامة هزيل البنية، لكنه ذو شكل ومشية ودودين. الجمجمة جرداء، النظارات، بزّة زرقاء داكنة وربطة عنق معقودة على عجل. بدا ظاهرياً إنه مسرور للقاء موزيل، من المصافحة القوية والحارة بينهما.

ـ أشكرك سيدي مدير المتحف، لقبولكم استقبالي بهذه السرعة.

ـ لكن هذا شرف لي، يا بروفسور... لقد قرأت وثمنت كل مقالاتك، ومؤلفاتك! حتى أنني حضرت واحدة من محاضراتك، التي أعطيتها في السوربون منذ ما يقرب من عشر سنوات.

ربما أتذكر جيداً، كان العنوان: تيار طبيعي في الزخرفة الباريسية... هذا هو، أليس كذلك؟

ـ ابتسم موزيل: ألم أكن مضجراً جداً؟

ـ أجاب مدير المتحف: على الأصح، مشوّقاً، اصطحب موزيل إلى صالة غوليات التي أجبره على عبورها بخطى واسعة ليقوده إلى ممر خاص يؤدي إلى المكاتب وقاعات الأرشيف.

كان موزيل يرغب التمهل في سيره ليتأمل كنوز المتحف التي لم يسبق أن خطرت بباله زيارتها.

تابع مدير المتحف دافعاً باباً يؤدي إلى ممر آخر:

- كما قلت لك عبر الهاتف، لقد استقبلت بكل سرور ولعدة مرات البروفسور مارلان. أخيراً أقرُّ أنني أشارك أصالة وظرافة طروحاته!

- هل جاء فرنسيس مراراً إلى قصر تو Tau؟

- بالفعل ثلاث أو أربع مرات. يا له من توافق عجيب ومأتمي انتحاره... ثم موت البروفسور بونتيغليون، الذي كنت أتراسل معه أحياناً.

قال موزيل مندهشاً:

- هل كنت تعرف أيضاً أرنستو؟

- هو وفرانسيس مارلان كانا يهتمان عن قرب برسالة هوغ دو باينس، إلى «برنار دو كليرفو» الذي، كما نعرف، أصبح القديس برنارد. رسالة مدهشة من طرف رجل بسيط مثل ذلك الفارس!

- هل تسمح لي بأن ألقي نظرة على هذا الملف؟

- طبعاً! كنت أجهل أن الشيطان العجوز العائد إلى القرون الوسطى استماده. كنت أظن أنك لم تكن تكرس نفسك إلا إلى ملفات البحر الميت.

هزَّ موزيل كتفيه، ممتعضاً:

- عندما يمسك بك الشغف.

أخرج مدير المتحف بطاقة مغناطيسية من جيبه، وأدخلها في شق موجود في علبة صغيرة جدارية ليتحكم بفتح باب معدني سميك.

- أعلن مدير المتحف وهو يشعل النور: نحن هنا في غرفة الحوليات، تحكم تام بالرطوبة مثالي، من أجل الحفاظ على الملفات، لا أضيف شيئاً إلى معارفك، بروفسور.

- هل لديكم الكثير من القطع النادرة التي لا تعرضونها للشعب؟

- في الواقع، نحن لدينا مراجع لأكثر من ألفي رقم كتاب لا تمثل غالبيتها قيمة فعلية. إنها بشكل رئيسي دساتير للأدوية، كتب عن الساعات، رسائل مولوية (مختص بالسيد والمولى)، أو قطعاً من مخطوطات لا تعني سوى الجامعيين أو الباحثين أمثال المأسوف عليه فرنسيس مارلان. كل هذه القطع من جلد العجل المصقول لا يمكنها مجاراة ثروات المتحف!

الغرفة عالية وضيقة.. أشبه بالممر يقسمه جداران من الخزائن ذات الأدراج المعدنية المرقمة. دخل مدير المتحف وموزيل إلى ذلك الفالق الفائض في النور الساطع بعد أن لبس كل منهما زوجاً من القفازات البيضاء من الكاوتشوك.

- هناك درج مرقم: H-P2، فتحه مدير المتحف ليخرج منه بتأن ورقة من الملف مغطى

بكتابة ناعمة وغير منتظمة وضعها على لوح زجاج طاولة مضاءة.

ـ إليكم الرسالة. التي كتبت في العام 1128، بعد مجمع تروي الديني بقليل.

لم يتمالك موزيل نفسه من لمسها، حتى وهو يرتدي القفازات. لمس هذا المكتوب لمؤسس رهبانية الهيكليين، جلد العجل هذا السميك والخشن الذي مرت عليه ريشة الكتابة لمرات عديدة، كما يشهد على ذلك تضخم بعض الحروف وبعض اللطخات من الحبر.

قرأ موزيل الوثيقة بصوت عالٍ:

«بقداستك وصداقتك الصادقة، برنارد، عليك أن تعرف أنه في أرض الظل يستريح منذ زمن أخينا الأول. بفضل رعايتي واعتنائي وضع في مكان آمن، طوال قرون، ممدّداً بين الشرق والغرب. سيكون النور في الظل إلى الأزل. سيقوم كِلا اليوحنايين بالسهر عليه من الظهر حتى منتصف الليل...»

ـ أقر أنه أقل إبهاماً، أليس كذلك؟ يلاحظ مدير المتحف. هذا الأخ الأول هل ينطبق على واحد من الهيكليين الأوائل مؤسسي الرهبانية؟ البروفسور مارلان لم يوضح لي أبداً هذا الموضوع.

ـ بالحقيقة إنه كلام مبهم، قبله موزيل بصورة كاذبة، هل يمكنني الحصول على نسخة من تلك الرسالة؟

ـ بديهي، توجد ناسخة في مؤخرة الغرفة، سأذهب أولاً وأضع المستند بين رقائق البلور لكي أنقلهما. كما لاحظت هذه القطعة قابلة للكسر ولا أريد المخاطرة بإلحاق الضرر بها.

«سيكون النور في الظل، يوحنا الأثنين سيسهرون عليه من الظهر حتى منتصف الليل... يوحنا الاثنان، فكر موزيل: يوحنا الإنجيلي ويوحنا المعمدان، زعيما الماسونيين اللذين يحتفل بهما في الانقلابين الشتوي في السابع والعشرين من كانون الأول والصيفي في الرابع والعشرين من حزيران. «هل يمكن أن يكون التشابه أو القرابة بين الهيكليين والماسونيين قوية إلى هذا الحد؟».

قال مدير المتحف وهو يناول النسخة إلى زائره: إليك بروفسوراً هذا غريب، لدي الشعور بالعيش من جديد المشهد نفسه مع فرنسيس مارلان. كلانا، نحن الاثنان أمام هذه النسخة... كان يكلمني عن أبحاثه، لدي الشعور أنه يجري تحقيقاً حول ـ ماذا أقول؟ ـ سر تاريخي! نعم، سِرٌّ متعلق بالهيكليين، متجذر في جوار تروي. من المدهش أن يكون قد انتحر قبل أن ينهي دراسته.

لكن، في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، وجدته عصبي المزاج قلقاً.. كما لو كان في وضع ميؤوس منه.

ـ مكتئباً، ردد موزيل الكلمة.

هزّ مدير المتحف رأسه دلالة على النفي:

ـ كلا، ليس مكتئباً بل.. على الأصح، مرعوباً!.

* * *

ما أن عاد موزيل إلى سيارته الغولف، وقبل إدارة المحرك تحدث هاتفياً إلى مارتن هيرتز.

ـ كنت محقاً مارتن، الأمر يتعلق فعلاً بقصر تو Tau الذي أراد بونتغيليون أن يكلمني عنه وخاصة عن مستند كتبه هوغ دو بابنس، ماسوني عنيد! هناك أيضاً مسألة الأخ الأول الذي وضع جثمانه في مكان آمن.

تابع موزيل بياض في طرف السلك.

نظراً لأن الأول يظهر في 456Q4 - 458 وكذلك في وصية المجنون، فإن ذلك يؤكد فيما إذا كان يسوع لم يعذب ويصلب، فهذا الأول لن يكون شخصاً آخر سواه! لكني أراهن أنك تعرف كل هذا منذ زمن طويل! لا أفعل سوى الدوران حول الوتد مثل العنزة!

بدا صوت هيرتز منهكاً، لكنه يريده دافئاً.

ـ سنناقش ذلك فيما بعد ديدييه حالياً أنا في المشفى.

52

استيقاظ ليا

أغلق الزائر هاتفه المحمول داخلاً إلى غرفة ليا لحظة خروج الممرضة منها.

ـ صباح الخير، سيد هيرتز. أرى، زوجتك تجلس تقريباً، إنها في طريق التحسن!

ـ إنه نهار جميل.

سحب المحامي العجوز كرسياً ليجلس قرب السرير. نظرت إليه ليا بابتسامة يشوبها الخوف. العينان مطفأتان، تلفهما غشاوة، تتكلم معه وكأنها خرساء.

أمسك بيدها الباردة الملطخة ببقع بنيّة اللون، ووضعها على فخذيه الضخمتين. منذ كم من الوقت لم يقم بهذه الحركة من الحنان والرقة لزوجته رفيقة حياته؟

انحنى. مندهشة ومقوسة حاجبها. طبع قبلة طويلة وقوية على شفتيها.

ـ عزيزتي... صديقتي القديمة!

ـ أحسّت ليا بجهشة بكاء في الصوت.. إنها إهانة.

حسناً، عليه أن يقول لها... حرك جسمه، أسند ظهره على المسند الخلفي للكرسي وشرع بالقول:

ـ ألم تتوقعي أنني استعدت عصى الحاج وسيف الفارس؟

أخفضت جفنيها علامة الموافقة، موجهة توبيخاً لا يخلو من الحنان:

ـ عرفت دائماً أنك لن تتخلى أبداً، مارتن. أنت تتابع حلماً قديماً.

ـ أنا آسف.. كدتِ أن تكوني الضحية، بينما سعيت دائماً لإبعادك عن الخطر. لا يمكنك تصور أسفي الشديد. اعتقدت أنني سأفقدك.

ـ أنت متأكد أن المسيح لم يمت على الصليب؟ القضية جميلة! ذلك لا يغيّرُ شيئاً. إن كان هو أو شخص آخر.

ـ لكن الحقيقة، ليا! كل هذا الاضطهاد، هذه المحارق، هذا التعذيب!

ـ الحقيقة!.. تنهدت بعمق. هل هي التي ستنقذ ديدييه موزيل؟

ـ امتعض هيرتز: لماذا تقولي ذلك؟

- حضر في ذلك المساء.. لزيارتك، وقضيتما قسماً كبيراً من الليل في التحدث. روى لي كذبة لم أصدقها. كما فعل فرنسيس مارلان قبله لدى زيارتك أيضاً.

- ليا.

- دعني أتكلم مارتن، لدي القوة للكلام. قلت لي أن فرانسيس مات مسموماً وهذا ما أعلنته أخبار الصحافة الناطقة والجرائد. تظاهرتُ بالتصديق، لكنني أعرف أن ذلك كذب وباطل... سمعتك تتكلم مع أحدهم؛ ظنّاً منك أنني نائمة. تكلمت معه عن مقتل فرنسيس، كنت تبدو منهاراً.. مذنباً!

- لم يكن هيرتز مرتاحاً، فقد أصيب فجأة بتعرق شديد ألصق قميصه على جلده.

- إلى أي حدّ أنت مسؤول عن وفاة فرانسيس؟

قله لي، مارتن، أنا بحاجة لمعرفة ذلك.

ارتجفت يدي المرأة العجوز الضعيفتين بين يدي زوجها الضخمتين.

لا يعرف بماذا يجيب، صمت طويلاً قبل أن يقرر ما يقول لها:

- قتلته! نعم على طريقتي، قتلته.

أحنت ليا رأسها ليسقط على صدرها مصدرة شخيراً مؤلماً وهي تتمتم:

- كنت أشك في ذلك. كيف؟ لم تجبره على تناول العقاقير، كيف؟

- كشفت له عن بعض الأمور، ودعمي له في بحثه.

- وأنت تعيد الآن الكرَّة مع ديدييه موزيل؟

- الأمر مختلف، هذه المرة لن أكرِّر الخطأ نفسه.

لن أتخلى عن ديدييه وسألازمه كظله.

- أنت لست وحدك، أليس كذلك؟ لا تفعل إلا لحسابك، من هم الآخرون؟

- هيا، يساورك الشك أنني لا أقدر أن أكلمك عنهم.

- حتى لي، أنا زوجتك؟

- بالضبط، حتى لكِ ليا، كلما عرفتِ قليلاً عن ذلك يصبح الأمر أفضل بالنسبة لكِ.

قالت:

- ليكن، مفاجئة هيرتز بعدم محاولتها متابعة تعميق التحقيق.

- سأل المحامي العجوز: كيف تشعرين؟

- صدري يؤلمني، لكني أعيش وأراك... أراك وأنت تتململ على كرسيّك، تتعرق مثل ثور، طن من الأفكار يخرج من نظراتك. مازلنا كلانا على قيد الحياة. أرضى بذلك! حتى

كم من الوقت؟ كيف ستكون المرة القادمة؟ متى سيعلنون لي أنك انتحرت، أو صدمتك سيارة، أو مُتّ في حريق منزلنا؟ إلا إذا قُتلنا معاً عندما سأخرج من المشفى؟

- لن يحدث أي شيء من ذلك يا عزيزتي.

- كذّاب!

أخفض هيرتز نظره مثل طفل ضُبط وهو يقوم بعمل غير مقبول. كذّاب.. هذا ما هو فيه فعلاً. كذّاب يسير قُدُماً في لعبة المظاهر والأقنعة إلى الخطوط الأمامية لمعركة الأبرياء أمثال مارلان، أو زوجته، أو بونتفليون أو موزيل.

53

شاب في الظلّ

عدَّل البابا من جلوسه قليلاً، شدَّ انتباهه. ظلٌّ بدا له يتحرك في مؤخرة غرفته.

خيال تكوّن في الظلمات. شبح رجل نحيل، خيال على خيال. ظهور أو تجلٍّ في الحلم فائق الوصف لا يستطيع عقل المريض على تحمله أو التخلص منه.

«ها هي آتية، دنت، ساعة ابن الإنسان...».

الشبح عار تقريباً، مغلفٌ في كفن ملطخ بالدم. يتحرك ببطء، يخرج من غلاف الليل. ما هو سوى حُلم، غير أنه كان أكثر واقعية لو كان مصنوعاً من لحم وعظم. هذا ليس إلا حلماً متكرراً يخشى منه بلا كلل.

- تأتي لتأخذ مني ما ليس عندي.. قالها البابا متلعثماً، كلا، إلهي... سرٌّ يرقد مع عظامك في التراب. غبارٌ.. أنت غبارٌ في قبر منسيّ. توقف عن ملاحقتي!

عسكر الشبح عند أسفل سريره متأملاً الحبر الأعظم. وجه داكن غير واضح المعالم، العينان محمومتان وشديدتا السواد، تشهدان على وجود الحياة. يسوع لا يحس بالحقد والضغينة، بل بالشفقة والاشمئزاز حيال هذا العجوز الطاعن في السن الذي يرتعد بكامل جسده وهو يصك على أسنانه ويتباكى.

صرخ البابا ليكسر الكابوس، ويطرد هذا الشبح. فتح باب الغرفة على ضوء البهو. ظهرت راهبتان. هرعت إحداهما نحو الحبر الأعظم الذي ما زال يطرد بيده الشكل الخيالي المتربص دائماً عند أسفل سريره.

- آه، أيها الحبر الأعظم، أرجوك. أنت تعرفنا، أليس كذلك؟

- رأيته.. أيضاً! كان يظهر في كل ليلة! أنا... لا يمكنني مطلقاً تحمل هذا العذاب!

وصلت الراهبة الأولى إلى السرير وانحنت على العجوز الذي أمسك بكتفها. بينما تقدمت الثانية بخطى بطيئة مرعوبة.

- هذه ليست سوى كوابيس. يجب أن لا نضعك في هذه الحالة.

- أسوأ من الكوابيس! أشم رائحة القبر العفنة تخرج منه.

ـ اقترحت الراهبة الثانية التي ظلت عند الباب: سأستدعي طبيبك، أيها الحبر الأعظم، هذا أفضل حل.

ـ لكي يرهقني بعقاقير جديدة؟ كلا... اذهبي وأيقظي الكاردينال دو غيلليو، فهو يعلم. لا أريد رؤية أحد سواه، هو وحده!

ـ سأذهب وأستدعي سيدنا دون انتظار.

ـ نعم... اذهبي! اخرجا أنتما الاثنتين، أرجوكما. مشهد مريع حقاً! حفيف ثوب الراهبتين. عطر ماء الكولونيا. البابا وحيد من جديد، غير أن باب غرفته بقي مغلقاً قليلاً على العالم الخارجي الذي يشهد عليه النور البرتقالي الآتي من البهو.

ـ أترى، لقد ركضت مسرعاً، يا أبَتِ.

هل نام؟ الكاردينال دو غيلليو نعم إنه هناك، جالساً على الكرسي، قريباً من السرير. لقد فاجأه النوم بضع ثوان.

ـ همس البابا بين ذراعي الكاردينال: صديقي، أنا بحاجة إلى دفئك... إلى حياتك! كان الموت هناك، في تلك الغرفة. لقد أرسله.. هو... أتعرف ذلك؟

انحنى الكاردينال على الجسد الهزيل جداً المجرد من اللحم.

ـ ذلك خيالك، فقط!

ـ لا، غيلليو! إنه الموت بعينه الذي يزورني بملامح الأخ المخادع. ذلك ما كنا نبحث عنه في رفاته منذ قرون، والذي من أجله قتلنا الكثيرين. حدثني عن حراس الدم.

ـ الحراس؟ يتحركون بسرعة أكبر مما كنا نأمل. إحدى يدي الكاردينال حلقت، ورسمت إشارة مبهمة في الفراغ.

ـ صرخ البابا: ذلك لأنهم مشدودون بحبال أخرى غير حبالك! لقد بدأنا بتحضير مجمع الكرادلة المقبل، لأنني تحولت إلى جثة.

ـ يجب علينا أن نحسب حساباً لمناورات «مونتسبا» الذي يرى نفسه حاملاً تاج البابا سلفاً.

ملأ غيلليو كأس ماء وساعد المريض ليشرب منه عدة جرعات.

ـ تابع البابا: أكرر عليك، عزيزي، لنحل القضية قبل وفاتي. يجب أن تكون كنيسة المستقبل خالية من العيب منتهية من كل هذه الحروب السريّة.

ـ لا تفكر كثيراً في نهايتك، يا أبتي، يلومه غيلليو بحنان.

ـ على العكس، لنفكّر بذلك فقط! أريد أن أكون البابا الذي يدفن وإلى الأبد سِرَّ يسوع، الذي سيحرر الكنيسة في نهاية المطاف، هل علي تلطيخ يدي حتى آخر نفس من حياتي.

ـ طمأنه الكاردينال: كل شيء سيكون له حل.

هزّ البابا رأسه مثل رأس عصفور مسلوخ.

ـ عرفت أن حراس الدم كانوا يتصرفون من الآن فصاعداً خارج سلطتك القضائية. سوف يشكلون قريباً جماعة مستقلة لا يمكن التحكم بها مطلقاً.

ـ أكد غيلليو قائلاً: سأحرص على أن لا تكون الأمور كذلك.

حالياً، يجب أن تنام وترتاح قداستك.

ـ أنا أخاف الوحدة، غيلليو.

ـ في هذه الحالة، سأنتظر إلى جانبك حتى تنام وعندها سأغادر غرفتك.

ـ إذن أنت تحبني كثيراً؟

الكاردينال لا يجيب. يضع يده فقط برفق على جبهة المريض ويتركها في مداعبة هادئة، قصد طمأنته.

* * *

الأربعاء، الساعة الثامنة والأربعون دقيقة.

ماكشي استقبل غيلليو دون محاولة إخفاء نفاذ صبره.

ـ سيدنا، لم نكن ننتظر سواك.

ـ عدت إلى الحبر الأعظم باكراً هذا الصباح، قبل تقديم العناية اليومية. لقد أمضى ليلة سيئة، تركته العشية الماضية فريسة لكوابيسه.

عبر الرجلان المخبر الأرضي للأكاديمية البابوية للعلوم، دون إعارة أي اهتمام إلى الدومينيكيين المنشغلين في عملهم أمام حواسيبهم. ثم سلكا ممراً، ضيقاً جدرانه بيضاء منارة بعدة مصابيح.

سأل غيلليو بنبرة ساخرة:

ـ ترى في أي حالة عقلية، نيافتهم؟

ـ لا تنتظر استقبالاً دافئاً محبباً من جهتهم، سيدنا. توقفا أمام باب معدني، ضغط ماكشي على أزرار لوحة علبة جدارية ليتحكم بفتح الباب.

ـ يسيطر جو نهاية حكم، قال غيلليو قبل أن يعبر الباب. عمليتنا في فرنسا التي تسبب لنا المشاكل!

«يا لهذه الوجوه الجاهمة! إنه نادٍ للسراطين!»: فكّر غيلليو، وهو يمعن النظر في الكرادلة الخمسة الذين ينتظرونه في كراسيهم الجلدية، خمس عجائز، أحدهم بدين مترهل، تختبئ قسمات وجهه تحت كتلة من الشحم الوردي الذي يتقطّر عرقاً.

نمط الغرفة يختلف كلياً عن نمط المخبر الخالي والمر. الجدران الاسمنتية مغطاة بستائر المخمل، الأرض مفروشة بسجاد عريض، الإنارة لطيفة ودافئة. رتّبت الكراسي حول الطاولة المنخفضة ووضعت كؤوس مرصّعة، فناجين، وإبريق قهوة وقارورة ماء معدني، ومنفضة.

رائحة التبغ والقهوة ممزوجين، مضافة إلى رائحة التعرُّق.. «مونيتي البدين يتعرق منذ مطلع الفجر!».

أغلق الباب الثقيل المصفح خلف ماتشي وجلس غيلليو على أحد الكراسي التي بقيت فارغة، وعلى الفور تناوله الكاردينال البدين بهجوم عنيف.

ـ آه غيلليو، أخيراً! علمنا بوفاة البروفسور بونتغليون في باريس، أعتقد أنه كان علينا وضعه تحت المراقبة الدائمة.

تابعه آخر بصوته الخافت، إنه عمل صبياني أليست هذه تصفية قتل قام بها حراس الدم؟

تظاهر الثالث بالاندهاش الذي جعل علاماته تبدو على وجهه، وصاح، بعد أن قوّم جلسته ومدَّ عنقه ومنقاره إلى الأمام:

ـ بمبادرة منهم؟

قال غيلليو وهو مرهق:

ـ الحقيقة أن الحراس كانوا دائماً مُحَرَّرين، لكنهم حتى الآن، يحترمون تعليماتنا. العميل الذي أرسلتُه إلى باريس ممسك جيداً بزمام الأمور. قال البدين، الذي كان يتنفس بجهد، وينهكه أي جهد مهما كان ضئيلاً:

ـ إن البابا سيموت قريباً! وهو بائس غير قادر على إدارة رهبانيته. هذا النقاش لا يمكن له أن يدوم إلى الأبد دون التسبب بأضرار للكنيسة يصعب إصلاحها.

تدخل ماكشي وهو يشعل سيجاره:

ـ لكن منذ زمن البابا سيليستين الخامس لم يسبق أن قدم البابا استقالته.

ـ أكد البدين: إن كل يوم يمضي تقوى فيه صفوف مونتسبا. الكثيرون يرون فيه الحبر الأعظم المرسل من الله، الذي سيحقق الإصلاحات التي تحتاجها البابوية.

ـ ردّ غيلليو بابتسامة عابرة: أتساءل ما إذا كنتم أنتم، يا أصدقائي، قد رزحتم تحت سحر مونسنيور مونتسبا.

ثار أحد الأساقفة قائلاً:

ـ أضحت الكنيسة كسفينة دون ربان، يا غيلليو، غير أن كل شيء سيستقيم إذا ما إختار الله أخيراً أن يستقبل إلى جواره سيدنا البابا.

قال آخر:

- الموت سيختصر آلامه وذلك رحمة له.

شدّت أصابع غيلليو الضخمة على مسندي كرسيه، فأصبحت مفاصلها بيضاء.

- إن نواياكم قليلة القابلية للتأويل إلى درجة لا يصعب عليّ فهمها بوضوح، قال ذلك وهو يشد على كل مقطع من مقاطع كلماته، أتريدون سرعة موت البابا؟

ظن البدين أنه أُهين، فاحمرّ خداه وأذناه وأصبحت قرمزية اللون.

أجاب:

- لا، لا! لم نقل شيئاً من هذا القبيل!

قال غيلليو:

- أفضّل عدم سماع أكثر من ذلك. ثم، وهو ينهض فجأة: إلى اللقاء!

«عجائز على عجلة من أمرهم، مذعورون، مغادرون». فكّر غيلليو وهو يتجه نحو الباب ليغادر الصالون. سار أمامه ماكشي ضاغطاً على أزرار علبة التحكم الالكترونية.

مد البدين ذراعاً قصيراً أشبه بالتحذير باتجاه الكاردينال الذي استأذن بالانصراف.

- إلى اللقاء غيلليو.. لكن لا تنسَ أن البروفسور موزيل يخاطر بأن يعجل في أن يزجّ الكنيسة في الفوضى! ما زال موزيل الحيُّ يشكل تهديداً لنا جميعاً!

اجتازا الممر من جديد، دون أن يتوصل غيلليو إلى إطفاء نار غضبه.

- متى سننتهي من هذه الدسائس؟ حتى المقربين تخلّوا عني.

أجابه ماكشي:

- إن سبب كل مشاكلنا يأتي من الاكتشاف الذي قام به البروفسور مارلان.

- لم يدخل مارلان إلى القبر. لقد اكتفى بتحديد مكانه. فهل يجب أن آخذ بهذا اليقين. إنه لم يرَ...

- دون شك، لكن صديقه ديدييه موزيل لن يقف وسط الطريق لانتظار حراس الدم أن يعدموه بدورهم.

- أخشى أيضاً أن يُقدم حراس الدم على إتلاف نسخة وصية المجنون التي يحتفظ بها مارتن هيرتز. هذا المخطوط المصحَّح من قِبَل الهيكليين، سيعيننا في أبحاثنا.

- نحن نعرف أن النسخة الثانية لهذا النص كانت ملك الإخوة من المحفل الأول، وأن مؤسسها كان..

انفعل غيلليو:

ـ هذه أسطورة، ماكشي!

ـ هوِّن عليك سيدنا.. أسطورة ذات الجلد القاسي، هو جلد الحقيقة! البرهان على أن المسيح لم يمت على الصليب نراه تحت عينينا. هنا، في هذه الوصية.

ـ وإذا كان هذا الإنجيل مُجرَّد دَجل؟ نكون قد حاربنا وناضلنا للاشيء!

ـ في الواقع ينقصنا برهان أخير، أقرَّ ماكشي، ما وضع في قبر **الأخ الأول** هل سيكون برهاناً لا يمكن دحضُه!

اقتراح غيلليو دون قناعة: لقد تمكن الهيكليون من إخراج هذه.. هذا الشيء من غابة الشرق.

قال ماكشي:

ـ ذلك الشيء ما زال موجوداً حيث كان، كل دراساتي تدفعني إلى تأكيد ذلك. من يكتشفه سيملك المفتاح لأكثر الألغاز إدهاشاً وغرابة في جميع الأزمنة.

تنهد غيلليو: يا إلهي، علي الإقرار أن موت فرنسيس مورلان أعطانا قليلاً من الراحة واسترداد الأنفاس.

ـ لكن يوجد صديقه موزيل... والمحفل الأول!

ـ نعم، مارتن هيرتز، ذلك الثعلب الماكر الذي يتقن لعبة المناورة، عدو ماهر بقدر ما هو ذكي.

54

الرسالة السابعة

ينظر إلى نفسه في مرآة غرفة الحمام، عدَّل من وضعية وشكل شاربيه المستعارين الداكنين، وموّه عينيه خلف زوج من النظارات ذات العدسات الداكنة والإطار الحرشفي، ووضع على رأسه قبعة، وارتدى مشمَّعاً رمادياً مشدوداً وسطه بواسطة حزام. لم يعد بالإمكان التعرّف إليه. باهت، أو على الأصح شاحب، الشفتان مضطربتان على نحو لا يمكن السيطرة على حركتهما. تناول قرصاً من برومازيبام، ثم ثانٍ وثالثٍ هذا الصباح. أعطته هذه الأقراص رغبة في النوم لا تقاوم والكثير من الهدوء والسكينة. كأس من الماء، ابتلع القرص.

جسده وأعضاؤه جميعاً غريبة عنه، إنه يكتفي بنقل ذهنه المشوّش، الممزق من شدة الحزن. لم يكن جسده سوى ناقل وحامل للألم.

خرج من غرفة الحمام، متوجهاً إلى المكتب، تناول المغلف الذي أعده عند المساء ووضعُه بشكل ظاهر على الطاولة.

خط فرنسيس «DIDIER MOSEL»

وضع الرسالة في أحد جيبَيّ المشمع الواسعين، غادر شقته هابطاً الدرج.

المطر خفيف في الخارج تناول قبعته واتجه إلى سيارته، جلس خلف المقود، وأدار المحرك.

انطلق بالسيارة في خِضَمِّ سير باريس الكثيف، حافظ على هدوئه.

لكن كل شيء كان يرعبه، تهديد، خطَر... يعاني من انهيار عصبي. هكذا... فإن كل حركة بسيطة أصبحت ألماً وعذاباً.

كبح سرعة السيارة وخفف سرعة حركة المحرك، انتظر عند الإشارة الحمراء.. سأقوم بمهمتي، أقسمت على ذلك، وسأحترم قسمي.

أعاد الضوء الأخضر الانطلاق، متجنباً البكاء، متمالكاً نفسه. أخيراً وصل إلى شارع بورت - برانسيون، بحث عن مكان للتوقف، نزل من سيارته. عادت قطرات المطر تضرب قبعته، وصل إلى الجادّة رقم 33 وضع الرسالة في علبة بريد الحارسة.

لمحها في صحن الدار، حاملة سلة المهملات لتضعها في مكانها المخصص. لم يفصح

عن نفسه، بدا طبيعياً، اتجه نحوها، أعطاها المغلف، مع بعض الكلمات «شكراً.. معذرة» ثم غادر.

غير أن ديدييه موزيل خرج من الرّدهة! نادته الحارسة، هرب. نعم هرب دون إسراع الخطى. توارى عن الأنظار، كاد أن يختنق من شدة ضرب مطارق قلبه الحادة. عاد إلى سيارته، غاص فيها كما لو كان في قوقعة بيضة. اختبأ فيها، أصابعه تشدّ على المقود. حتى لا يختفي في الداخل، ولا يغرق، البقاء قليلاً في الواقع، الزمن اللازم لإكمال مهمته.

لأن الأمر يتعلق فعلاً بمهمة.

* * *

ـ السيد موزيل، خذ! لقد سلّمني أحدهم هذه الرسالة الموجهة إليك، لأنه كان على عجلة من أمره!

ـ خطف موزيل المغلف من يدي الحارسة.

ـ متى، سأل موزيل: متى سلّمها؟

ـ في هذه اللحظة، رجل ذو شاربان كثيفان ونظارات ضخمة، أفاد بأنه صديقك.

نظر الشاب إلى الكتابة بالأحرف الكبيرة: ديدييه موزيل.

ـ تقولين منذ لحظة؟

ـ منذ أقل من دقيقة. كان ينوي إيداعها في صندوق رسائلي لكنه بدّل رأيه عندما لمحني.

ـ ماذا كان يرتدي؟

ـ مشمع رمادي مشدود إلى الخصر بواسطة حزام، وقبعة سوداء وقلت لك، إنه يضع نظارتين ضخمتين.

ترك موزيل الحارسة على وضعها وخرج من الدار مسرعاً. قد يحالفه الحظ في العثور عليه، ويعرفه أخيراً، تفحص بانتباه بعض المارة فلم ير في الأفق أي مشمع رمادي أو قبعة سوداء، عبر الشارع خائباً بين السيارات التي كانت تطلق منبهاتها الصوتية، عاد وصعد في سيارة الغولف.

جلس خلف المقود جاهداً نفسه في الانتظار قبل فتح المغلف. ساوره الخوف: «يا صديقي فرنسيس أنت تتابع لعب دور السرّي! لو لم أكن دفنتك، فإنني سأقسم أنك ما زلت حياً».

قرر فتح المغلف ليخرج منه ورقة، هذه الأخيرة تتضمن بعض الجمل، تحذير جديد من صديقه:

عزيزي ديدييه

أنا ميت وقريباً سيأتي دورك فيما لو تابعت بحثك المخيف، هذه هي رسالتي السابعة، كتبت تسعة منها، أتمنى أن تتخلى الآن وأن لا تتلقى أبداً الرسالتين التاليتين. أكرر توقف عن متابعة البحث!

أخوك فرنسيس الذي يحبك ويحاول حمايتك

على الفور تحدث موزيل مع إيميلي عبر الهاتف:

ـ تلقيت للتو سابع رسالة من فرنسيس، لمحت رسوله حارسة المنزل.

أعطاها الوصف وطلب منها ما إذا كان هذا الوصف يذكرها بأحدهم.

ـ ألا ترين؟

ـ لا، مطلقاً. أسفة ديدييه، الشخص الوحيد ذو الشوارب الذي أعرفه هو ابن عمّ من بروتانيا (مقاطعة شمال غربي فرنسا) يتمتع بحاسة بصر ممتازة ولا يضع نظارات، وإذا ارتدى قبعة فهي على الأرجح قلنسوة مع واقية صفراء!

ـ واأسفاه.. آسف إيميلي، سأذهب إلى العمل، وسأكلمك لاحقاً. في الواقع ليست الأمور تعيسة إلى هذا الحد؟

ـ الجولة في غابة الشرق حولتني إلى عجوز في الثمانين، مازلت في السرير، أتناول الأسبيرين، آلام في كل مفاصل عظامي. لكن ذلك جاء في الوقت المناسب، ليس لدي الرغبة فعلاً بالنهوض، الهمّ...

ـ الهمّ سيء، إيميلي. كان علي إجبارك على المجيء معي إلى ريمس، لا أحب رؤيتك نهباً للضجر وحدك.

ـ بدأت أعتاد منذ اليوم الذي أخذ فرنسيس هذه الغرفة في الفندق، ألا تعتقد أنه علي البحث عن عمل؟

انتظر تضامنك، قبلات.

ـ قبلات، إيميلي.

أقفل موزيل هاتفه المحمول.

* * *

وقف، يلقي نظرة عبر البوابة، تحقق من انطلاق الفولف، واندفع في زحمة السير، انعطف إلى اليمين باتجاه باب أورليان.

تأكد بأن موزيل لم يره، صعد إلى سيارته في اللحظة المحددة حيث كان الشاب يلتفت

نحوه لكنه لم يره، بسبب شجرة الدلب التي تقطع حقل رؤيته.

عاد إلى منزله، ارتمى على كرسيه، مستسلماً للتأمل. غاص في الجلد الذي يغطي كرسيه ونام. متمنياً أن لا يحلم.

وأن لا يفكر.

* * *

الباب الأحمر:

لم يكد موزيل يخطو خطوتين داخل المكتب حتى قام نوربرت سوفير، بشعره الأبيض كالصوف الملتف على جمجمته، وعينيه الكبيرتين كعيني السمك تدور خلف عدساتها، بشده من كُمِّه ليقوده إلى أمام شاشة حاسوبه.

ـ تعال لترى، يا معلِّم.

تبعه روغترز وهيلين موستيه، كانت المرأة الشابة ترتدي في ذلك الصباح بنطالاً من المخمل المقصّب بني اللون وسترة كندية بألوان صارخة. لم يكد موزيل يعير انتباهه، حتى أعلنت:

ـ حاسوبنا العزيز لارجهيد هو على حافة أن يصاب بسوء هضم، يجب القول أن نوربرت بالغ في إطعامه، بعد ظهر أمس، أثناء غيابك! لاعتقادي أنك في عطلة طويلة يا ديدييه؟

ـ الحقيقة لم أكن في عطلة، أخذت نصف نهار هنا ونصف نهار هناك، بالتفاهم مع المدير.

أشار روغترز:

ـ أخيراً أعدنا ترتيب القطعة A699 من 456Q4 -458

قال سوفير:

ـ وفق الجزء البسيط الذي قمت بترجمته، إنه بالغ الخطورة! سوف لن نقتطع منه شيئاً، علينا أن ننشر قريباً اكتشافنا الصغير.

نصح موزيل:

ـ اصبروا قليلاً. لنرى أولاً بمن يتعلق الأمر. هيا نوربرت أرني.

أظهر سوفير نصاً على الشاشة، انحنى موزيل وقرأ:

«المعلِّم العائد كان حياً، يقول إنه الأول والأخير. قال لنا لنصدقه، لأنه كان أخ الحياة، الذي قيل عنه أنه مات على الصليب».

ـ بدأ سوفير: المعلِّم.. الأول...

حيًّا الأمر يتعلق بيسوع. يسوع الذي مرَّ في قمران. أو الذي عاد إليها! فرنسيس كان محقاً ألف مرة.

ـ قال موزيل وهو يخلع مشمَّعه: إنني أخشى ذلك.

ـ وجهت إيلين موستيه سؤالاً إلى موزيل: إذن؟

ـ إذن ماذا؟

ـ ألم يحن الوقت لوضع تقرير حول هذا الاكتشاف؟

علينا على الأقل إخبار الإدارة بذلك.

ـ هذا سابق لأوانه، هيلين. أطلب إليكم جميعاً أن تثقوا بي وتحافظوا على هذه المعلومات. وأؤكد لكم أننا سنأخذ قراراً جماعياً، لن أقرر بمفردي.

غادر سوفير شاشة حاسوبه وجاء ليقف أمام موزيل. بدا قصير القامة جداً أمام رئيسيه:

ـ سأضع نسخة عن هذه الترجمة الأخيرة على مفتاح USB وأنظف القرص المدمج. أعرف جيداً أن لارجهيد، لن يفارقني.

ـ شكراً نوربرث.

* * *

رفع الشاربين الكاذبين، وزوج النظارات المحرشفة، ثم تناول قرصاً من برومازيبام وبلع كأساً من الكحول، ثم انتظر حتى المساء.

هذا المساء سيذهب إلى مؤسسة ماير، سيدخل إليها عبر موقف السيارات من طريق مفتاح مغناطيسي رسمي: مفتاح فرنسيس مارلان.

55

الزائر

اطلع الرجل على الوثائق: صور مأخوذة من المقبرة أثناء دفن فرنسيس مارلان. خرائط خاصة بالطرق... لم يتوصل إلى التكيف مع رائحة العفن في مخبأ حراس الدم. جدرانه الرطبة والمتقشرة. درفات نوافذه وأبوابه صدئة، مقفلة دائماً. ضوء ضعيف جداً صادر عن مصباح الزيت.. قاعدة خلفية رديئة جدير بالرثاء!

لكن عليه الإقرار أن المكان يشكل ملجأ مثالياً، بناء صغير مهدم لا ينتظر سوى الجرافة في حي بائس من إيفري.

إنهم ثلاثة يمضون الوقت في ذلك الكوخ الحقير ويشربون القهوة، بانتظار الأوامر من رؤسائهم، إبقاء آذانهم ملتصقة بجهاز الاستقبال الموضوع على الطاولة.

ـ يقول أحدهم: أصغوا!..

انحنى الرجل على جهاز الاستقبال، بينما تقدم الثالث على كرسيه.

ـ أجرى هيرتز اتصالاً من مكتبه..

ـ أمر الرجل: ارفع الصوت.

صوت المحامي العجوز يملأ الغرفة.

ـ أنا مارتن الكاهن رئيس الدير؟ كيف حالك أيها الأخ؟

نعم، نعم... ليا بصحة أفضل طمأنني الأطباء بأنها ستخرج قريباً من المستشفى. خلال شهر أو شهرين. هاتفتك لأقول لك أنني سأعرج على فييري، يوم الجمعة بعد الظهر، لأستعيد الوصية والحلقة.

آمل أن يقبل ديدييه موزيل وإيميلي مارلان مرافقتي.

أنا متلهف لأقدمهما لك، لقد كلمتك كثيراً عنهما... أعانقك.. أيها الكاهن... إلى يوم الجمعة!

أقفل هيرتز الخط، بالعودة إلى الضجيج، يمكن التكهن بأنه قام ببعض الخطى، قبل أن يفتح الباب ويخرج.

مال الرجل بجسده إلى الخلف مصالباً يديه خلف نُقْرته وهو يبتسم.

ـ راضياً عن سير الأمور: إن نسيج خيوطنا محبوكة جيداً، نحن نمسك بهم جميعاً، كلهم دون استثناء تحت مراقبتنا.

ـ هيرتز، موزيل وفريقه...، وذكر واحداً من الاثنين الآخرين.

نوّه الرجل قائلاً:

ـ كان من الأسهل علينا لو أننا كنا لا نخشى المحفل الأول، ماذا ينتظر إخوته ليفعلوا؟ لا أحب معرفة الكثير عن أعداء محجوزين في الظل.

ـ لم يعد لديهم مخالب؟

قال لورنزو: أشك بذلك، لكنهم حافظوا على عادات الهيكليين، يتقدمون تحت قلنسواتهم، إنهم أشباح التاريخ، أقنعة الليل!

بسط لورنسو خارطة خاصة بالطرق، بدأ يبحث بطرف سبابته.

ـ فيلّري... في إيون، نعرف أن هيرتز يملك فيها بيتاً ريفياً. وقد يكون خبأ الوصية هناك!

قال الرجل مازحاً:

ـ تحت حراسة كاهن، لو لم ينقضي حب المزاح لضحكت بطواعية! ما رأيك كارلو.

ألا تجد أن الوضع يساوي وزنه من المجون والسخافة؟

أومأ كارلو برأسه علامة عدم الرضى.

جبهته متجهمة، ليس لديه أي رغبة بالضحك. فكر من جديد بصديقه المقتول في غابة الشرق، الدوي الذي فجر جدار المطر، سقوط جسده في الوحل.

قال: لنا حساب جدي لتصفيته مع هيرتز الدنيء.

قال الرجل: أفهمك، حتى الآن لم تكن القضية شخصية، إننا نقوم بعملنا، سيموت هيرتز في بداية الأسبوع. لا يمكن الشك أنه وقع في خيوط شبكة المراقبة. هل كان يتصور من وضع أجهزة التنصت في منزله؟

ـ قال لورنزو: مستحيل.

ـ كرر الرجل: حقيقة مستحيل.

أغلب الظن، هذا لا يمنع أني دفعت غالباً لمعرفة مصير الإخوة الأوائل. من لحظة إلى أخرى، سينتقلون إلى ردة فعل. بشكل إلزامي. لكن متى؟ هذا إذا ما كان هيرتز هو الذي سيوقعنا في الفخ؟

نسي الرجل لبضع دقائق رائحة العفن، التي تصعد إلى أنفه لدرجة تقززه منها، ممزوجة مع آثار النفط الكثيف الذي يشتعل.

لا يمكنه حتى الذهاب إلى النافذة ليستنشق قليلاً من الهواء ويتنفس شيئاً آخر غير رائحة العفونة والوسخ. يجب عليه البقاء محاصراً في هذه الخربة حتى نهاية العملية. نظرة كئيبة على كيس النوم وفكرة قضاء ليلتين أخريين في هذا الكوخ الحقير جعلته بائساً.

أغمض عينيه للحظة منتقلاً بذهنه إلى مكتب مريح في روما، يتذوق فيه المنحوتات والصور المعلقة على الجدران، الإنارة الرفيعة والدافئة، المقاعد المريحة والناعمة الملمس، أوبرا لوسيا دي لامرمور لـ غيتانو، دونيزيتي.. والمشهد الرائع للمقطع الثالث.

غير صحيح أنه في فرنسا لكن في حُجر فئران نتن، فهو إذاً غير موجود. لا يملك أي هوية.

* * *

الأربعاء الساعة العشرون، في مقر محفل فرنسا الكبير. دخل موزيل إلى باحة داخلية، حيث كان هيرتز بانتظاره جالساً على أحد المقاعد، رفع رأسه عن صحيفته ثم طواها فوراً لدى رؤيته صديقه.

ـ شكراً لقبولك دعوتي إلى العشاء في النادي، يا ديديه. للأسف لقد فقدنا عادة تناول العشاء لمفردنا!

ـ يعدّد موزيل: زوجتك، العمل، التعب... المغامرة التي نعيشها!

ـ حقاً..

استقلا الدرج المؤدي إلى المطعم الذي كان خالياً من الزبائن. ولن يمتلئ إلا حوالى الساعة العشرين أو الواحدة والعشرين. عندما يغادر الإخوة مقر عملهم بعد اجتماعاتهم، سينفردان إلى طاولة بعيدة عن البار يجلسان وينظران إلى قائمة طعام اليوم، لقد فعلوا دائماً الشيء نفسه. وبعد أن يختارا طبق العشاء يشرعا بحديثهما، طبق العشاء: النقانق، الخمر وصحن سلطة خاصة، أعلن هيرتز بشراهة نهمه سلطة وبطاطا مقلية؟ نعم؟ البطاطا المقلية. سنشرب طبعاً قليلاً من النبيذ، أليس كذلك.

لم يتمكن موزيل من الامتناع عن الابتسامة:

ـ أنت تفعل بي الشيء نفسه في كل مرة، مارتن! طبعاً سنتناول النبيذ، وأراهن على قميصي أن اختيارك سيقع على نبيذ مورغون.

ـ يمكنك الاحتفاظ بقميصك، سيكون ذلك بالفعل نبيذ مورغون وقليلاً من الماء، فيما لو عطشنا!

ـ نقانق أيضاً، وافق موزيل.

حضر النادل مسجلاً الطلب. عندما عاد موزيل لفتح فوطة الطعام بحركة واسعة قال:

ـ أحب كثيراً هذه اللحظات التي أجدني وجهاً لوجه معك هنا... نعم أثمن هذه اللحظات التي أعلنا فيها بعض الحقائق من هنا في هذا النادي.

كم من المرات أعدنا تكوين العالم؟

أجاب مارتن:

ـ منذ تسع سنوات، آلاف المرات.

قال المحامي متأملاً:

ـ هذا صحيح، تسع سنوات، كنت أستقبلك في محفل إيليا أنت وفرنسيس. هذا غريب.

ـ نعم؟

ـ لقد تناولنا العشاء نحن الثلاثة معاً مرات قليلة، أنت، وفرنسيس وأنا خلال هذه السنوات التسع. لشد ما أتأسف عليها الآن.

ـ كان فرنسيس أكثر باطنية، وسريّة، مني أيضاً.

ـ أضاف هيرتز: أكثر جدّية! كان علينا إرغامه على الانضمام إلى عشائنا.

أخرج موزيل من جيبه نسخة عن رسالة «هوغس دو باينس» وضعها على غطاء الطاولة دافعاً بها لتصل إلى هيرتز قائلاً:

ـ في رسالته إلى القديس برنارد، يكشف لنا هوغس دو باينس عن مسارٍ.. انظر..

أخذ هيرتز الوثيقة وحلّ رموزها بسرعة بصوت عال:

«في أرض الظل يرقد منذئذ أخونا الأول، وُضع في مكان آمن بفضل عنايتي وحرصي، إلى أبد الآبدين، ممدَّداً بين الشرق والغرب. إلى الأزل سيبقى النور في الظل. الاثنان المسمّيان يوحنا يسهران عليه من الظهر إلى منتصف الليل...».

عقّب موزيل:

ـ يوحنا المعمدان ويوحنا الإنجيلي رؤساؤنا في الماسونية، يا له من توافق! مؤسس الهيكليين وضع رفاة المسيح تحت مراقبة هذين الحاملين لاسم يوحنا.

ـ أعلم بوجود هذه الرسالة. أقرّ المحامي الإنجيلي العجوز بأنه كان أحد أتباع المعمداني قبل أن يتبع يسوع تلميذه المحبوب. لقد سبق أن تكلما عن ذلك، يا ديدييه، تعاليم هذين الاثنين أوحت وأثرت على الماسونية.

ـ أعرف، لكن الاثنين الحاملين لاسم يوحنا ألا يحددان مكاناً جغرافياً؟ مكان موجود في غابة الشرق، في قلب مثلث باينس الذي اكتشفه فرنسيس؟ اللبوة، بايّي والماعز! الأماكن الثلاثة المذكورة التي دونها الهيكليون على هامش وصية المجنون.

وضع النادل الأطباق على الطاولة. تأمل هيرتز النقانق اللذيذة وقطع البطاطا المقلية إلى جانبها ورفع ذقنه محدقاً بموزيل قائلاً:

ـ قد يكون ذلك أكثر من خيط.. لكنه عريض جداً! حقل أبحاث واسع لم تتمكن القرون من الوصول إلى نهايته.

قال مارتن:

ـ فرنسيس حلَّ اللغز، ذلك ما عمله، عليَّ تكراره.

ما زال صوت ليا الضعيف الخافت الناعم يطن في ذهن هيرتز يوبخه بسبب وضع موزيل في موقع الخطر كما فعل مع فرنسيس مارلان.

* * *

دخل سوفير صحن دار مؤسسة ماير في لباس غفاردين لا شكل محدد له، حاملاً وثائق تحت إبطه. عبر أمام طاولة الاستقبال حيث يجلس حارس يتصفح أسبوعية.

سأله الحارس:

ـ هل في نيتك العمل لساعات إضافية بروفسور؟

ـ أجاب سوفير ملقياً عليه السلام سريعاً بيده، لقد رجعت أستشير لارجهيد قطعة من سلسلة أعيد تركيبها هذا الصباح تقلقني.

ـ ضمير مهني جيد، أتمنى لك مزيداً من القوة!

ـ شكراً، آندريه.

استقل المترجم العجوز إحدى المصعدين وهو يصفِّر، وصل إلى الطابق الثالث، سار ضمن ممر أضيء بالنواسات، اتجه نحو الباب الأحمر وفتحه.

خطوتان في المكتب المظلم، رجل منحن على حاسوب موزيل المضاء يلتفت لدى دخول سوفير.

صاح سوفير: سحقاً، وهو يرجع خطوة إلى الخلف.

ماذا تعمل هنا؟

مشمَّع، قبعة، شوارب مستعارة، نظارات ضخمة، وقف الشبح، ومفتاح USB في يده.

ـ هل تقوم بنسخ «علبة البطاقات؟!».

يجب أن يهرب حتى لا يلقى القبض عليه. ليس الآن، وضع المفتاح USB في جيب مشمّعه، مندفعاً نحو الباب. «هذا الرجل العجوز يخاف أكثر مني...».

دفع الشبح سوفير بعنف وأفقده توازنه، وكاد يسقط، تمسك بإطار الباب مستعيداً توازنه:

الممر، الجري، الجري! لكن ساقيه ثقيلتان جداً، وصل إلى ساحة موقف السيارات.

ترك سوفير محفظة وثائقه في المكتب وخرج مطارداً الزائر. لقد اختفى الأخير عند زاوية الممر.

فتح الباب المرقم ESC-P هبط الدرج المعدني للإسراع في الوصول إلى مركن السيارات، يا إلهي.

بدوره أمسك سوفير بالدربزين، متدحرجاً على الدرج مخاطراً بكسر عنقه في كل درجة. ابتعد الزائر كثيراً، كان يسمعه ينزل الدرجات بسرعة، في الطوابق السفلية. هذا الشخص يعرف المكان! لقد نزل إلى ساحة موقف السيارات..

الموقف، السيارة، الصعود إليها، إدارة المحرك، الإسراع للخروج من هذا الفخ، الإبطاء أمام الشباك الإلكتروني، إدخال البطاقة المغناطيسية في الشق المخصص، انتظار انفتاح الباب الثقيل، الإسراع ثانية، الخروج والإفلات.. وصل سوفير إلى (مرآب السيارات)، منهكاً لاهثاً، ملتهب الصدر. ساقان ضعيفتان ورئتان سيئتان! لقد تركته يهرب طبعاً!

* * *

كانا قد وصلا إلى نهاية العشاء ويتناولان الفواكه عندما رن محمول موزيل.

معذرة، مارتن، يقول الشاب وهو يحمل جهازه إلى أذنه.

نوربرت؟ نعم؟ في مكتبنا؟ سأصل.

أقفل موزيل محموله، ممتعضاً، مبعداً طبق طعامه.

- هل من مشكلة؟ سأل المحامي العجوز.

- عاد سوفير إلى المؤسسة ليستشير لارجهيد.. حصل أن وجد نفسه وجهاً لوجه مع سارق!

- كنت أعتقد أن المؤسسة تشبه قلعة محصنة!

- بالضبط! آسف، يجب أن أذهب إلى هناك في الحال.

البوليس وصل لتوه إلى المكان.

- أفهم، سأتصل بك فيما بعد، ديدييه كنت أريد أن أدعوك إلى منزلي الريفي في عطلة نهاية هذا الأسبوع، لم تأت إليه أبداً أليس كذلك؟

- سنرى... سنرى، مساء الخير!

همّ موزيل بمغادرة المائدة، فاستوقفه هيرتز لبضع ثوان من ذراعه ليقول له:

- أنت لن تصدق قصة السرقة هذه يا ديدييه أليس كذلك؟

- هل تفكر بحراس الدم؟ إذا كان الأمر يتعلق بهم، لكان سوفير مات من ساعته.

56

سيدنا

الملازم أول جانفير رجل مكوّر، قصير على ساقين، الجمجمة مغطاة بوبر أشقر، عينان صغيرتان جداً في حركة دائمة. عندما دخل موزيل إلى باحة المؤسسة، وجده في نقاش حاد مع المدير وسوفير.

فريق من البوليس العلمي، مؤلف من رجلين وامرأة بلباس العمل الأبيض، يحملون صندوقاً صغيراً معدنياً، ويدخلون المصاعد.

ـ أعلن المدير: آه، ليوتنانت، هوذا البروفسور موزيل الذي كلمتك عنه، إنه المسؤول عن القسم الذي دخله السارق.

أسرع سوفير نحو موزيل.

ـ ديدييه! أفيدك بأن الزائر مرَّ عبر حديقة السيارات ليدخل ويخرج، شخص اعتاد على المؤسسة!

بالإضافة يجب أن يلتزم بامتلاك بطاقة ممغنطة، لاحظ موزيل وهو يشد على يد المدير وملازم الشرطة.

سأل الأخير على الفور:

ـ هل تؤكدون أن أعضاء هذا المركز فقط يملكون مفتاح المرور هذا؟

ـ أجاب المدير: كقاعدة عامة طبعاً، أثناء النهار، يتقدم الزوار إلى مكتب الاستقبال. لا توجد طريقة أخرى للدخول إلى المؤسسة.

ـ حدّد موزيل: في كل الأحوال، البناء يعج بآلات التصوير، لن تجد أي صعوبة في معرفة من يشبه هذا الزائر، فيكفي إعادة رؤية أشرطة الفيديو، في الواقع، نوربرت. هل رأيت هذا الزائر بصورة واضحة؟ هل بإمكانك التعرف عليه؟

ـ هذا سهل! جاسوس سينما بالمعنى الحقيقي، ليس طويلاً جداً.. مشمَّع، قبعة، شارب أسمر ونظارتان.

تلقى موزيل الضربة دون أن يظهر شيء من ذلك: «رسول مبعوث فرنسيس!».

- لنصعد إلى مكتبك، بروفسور، اقترح الملازم على موزيل سنتحقق فيما إذا كان أحد الأحياء قد اختفى؟

سبق للفريق العلمي أن فتش الغرفة التي تسودها الفوضى: الكتب، الملفات، صناديق الكرتون الزائدة، كرسي تشسترفيلد المتخمة، فناجين القهوة في توازن غير مستقر على أكداس من الوثائق، مضرب كرة، عجلة دراجة بانتظار الإصلاح.

- هل هذا فعلاً هو مكتب؟ سخر جانفير، تهاني إذا كنت قادراً على معرفة ما سُرق منك!

- نظرة واحدة تكفي.

ناول أحد التقنيين زوجاً من جوارب البلاستيك البيضاء إلى موزيل وطلب منه أن لا يلمس شيئاً بسبب البصمات.. دخل الشاب إلى المكتب، بابوجين في قدميه وذهب إلى عمله مشيراً إلى حاسوبه المضاء. وقال:

- انظروا، ما الذي يحتويه حاسوبي الذي كان يثير اهتمام المجهول.

لاحظ سوفير عند أسفل الباب:

- لكن من المستحيل عليه الدخول إلى لارجهيد دون رمزكم.

- بطاقة محتويات القسم الشخصية كافية، فالرجل لديه فضولية اختيارية (انتقائية).

أضاف نوربرت:

- كان يمسك مفتاح USB في يده، عندما فاجأته أقسم أنه كان يخرجه من مأخذه وقد كان لديه الوقت بنسخ ما جاء من أجله.

- لاحظ الملازم: إذن كنت أنت المقصود فقط يا بروفسور، أشياء مهمة في حاسوبك؟

ملاحظات شخصية تخص الأعمال الأخيرة الجارية في المؤسسة وأشياء أخرى صغيرة.

- باختصار، قد يكون أحد المقربين، مهووس ويريد مشاركتك حياتك الحميمة! بوضوح، إنه أحد الذين يتجولون براحة تامة في المكاتب، يملك مفتاحاً للمرور ويزور حاسوبك عندما يروق له.

- ملخص مختصر غير أنه دقيق ليوتنانت.

أخرج موزيل من المكتب، نزع مشّايته (خفة يستعمل في المنزل) التي أخذها منه أحد الفنيين ليضعها في كيس شفاف أغلقه في الحال.

وضع جانفرت يده على جمجمته يداعب الزغب الأشقر، عيناه تنتقلان بين مكتب موزيل، بين موزيل وسوفير، ثم يعود إلى موزيل، يحدق به بنظرة مُنَوِّمة.

- بدأ القول: هذا عجيب، بروفسور: لدي شعور مبهم أنك عادة أكثر كرماً بالكلام وأنا

أتصرف بشكل سيء لأدفعك على الإدلاء بأشياء سرّية، مع مرور الوقت قد يكون ذلك ممكناً؟

ـ نعم، من الممكن.

* * *

فتح حاسوبه المحمول، وضع المفتاح USB في أحد مآخذه، النظارات ذات الإطار المحرشف على الطاولة، القبعة ملقاة على الكرسي، المشمَّع يترنح على الأرض. يداه ترتجفان، فمه مضطرب ومتحرك باستمرار نتيجة عاهة عصبية شوّهت شفتيه... منذ أن دخل المكان لم يكن بوسعه تهدئة اضطرابه. ابتلع قرصين وشرب كأساً من الويسكي، دون نتيجة. الخوف، الهلع الماضي استعاد رغبته بالقياء، تحول إلى قلبه، ليغزوه مثل ألم جليدي.

«الوقت يمضي بسرعة.. لا ثأر دون مخاطرة! ومن ثم الوصول إلى ما يعرفه موزيل.. العلاقات بين مخطوطات البحر الميت ووصية المجنون».

عرض على الشاشة الوثائق المأخوذة من حاسوب موزيل فتحها جميعاً. مستمراً في البحث، دون أن يغفو له جفن.

الموت فيما بعد، عندما يكون كل شيء قد انتهى.

* * *

شوهدت أشرطة الفيديو لمراقبة مؤسسة ماير بسرعة قبل أن يختمها الملازم جانفير وفريقه قصد نقلها.

عثر فيها بشكل واضح على الرجل ذو المشمَّع والقبعة في حديقة السيارات، نظارات ذات كوادر حرشفية وثقبان، الاحتمال بالنسبة لجانفير، أن الدخيل تبرَّج بطريقة كاريكاتورية، بهدف إخفاء هويته.

بدأ الطاقم العلمي أيضاً بفحص الشاخصة التي تتحكم بمدخل المرآب. حفظت ذاكرتها آثار مرور البطاقة المغناطيسية التي سمحت للزائر الدخول والخروج من المكان.

استخدم المجهول مفتاحاً رقمه M-27: المخصص للبروفسور فرنسيس مارلان!

حوالي الساعة الثالثة والعشرين، ذهب موزيل وسوفير إلى حانة من حيث تكلما بالهاتف مع روغترز وهيلين موستيه ليعلماهما بالحدث. استخدم أحدهم الإذن بالمرور الذي كان بحوزة فرنسيس ليتجول على هواه في المؤسسة ويستشير الحواسيب.

ما يبحث عنه لا يمكن أن يكون من الأهمية بمكان، إلا إذا كان يملك أيضاً الشيفرة التي تسمح بالدخول إلى ذاكرة لارجهيد! غير أننا تحققنا في المركز أن لارجهيد لم تتم استشارته...

عند الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة، استقل موزيل سيارته. رنَّ هاتفه.

- آه، هذا أنت، مارتن، اعذرني لأنني تركتك قلقاً، منذ قليل، سأروي لك.

جاء الصوت البطيء، صوت المحامي العجوز:

- أرغب في إقناع إيميلي بأن ترافقك يوم الجمعة إلى فيتوري. أريد إطلاعها على «وصية المجنون الحقيقية»، أعتقد أنها استحقت رؤيتها. عطلة نهاية الأسبوع في الريف ستريحنا جميعاً.

- سأعرّج على منزلها، وسأطلب إليها ذلك.

أنّب موزيل نفسه لقوله أنه سيذهب إلى منزل المرأة الشابة، لكن هيرتز لم يعلق وتابع:

- سأكلمكما عن المحفل الأول، وأتحمل مسؤولية الكشف لكما عن بعض الأسرار. أنتما متورطان جداً في هذه القضية ويجب أن تعرفا أكثر من ذلك.

الهر العجوز ينصب لي فخاً رائعاً، قال موزيل في نفسه.

إنه يعرف جيداً أنني لن أرفض هذا النوع من العرض الذي يثير فضولي، لا مثيل له في النفخ على الجمر.

سأكلمك هاتفياً غداً صباحاً، ختم موزيل كلامه قبل أن يقفل هاتفه المحمول.

* * *

فتحت إيميلي الباب ولاحظت على الفور قسمات وجه صديقها العابس المشدود، تحققت وقالت:

- آه، لا أحب مظهر وجهك... إنه يحمل ملامح الحزن والإنهاك مثل كلب تعرض للضرب.

- كلب جائع، على الأصح.

دخل الشاب، مشمّعه المبلل على ذراعه. أخذته منه إيميلي، وعلقته على المِشْجَب قائلة:

- ماذا لو أن الإخوة يعلمون أنك تقوم بزيارتي في مثل هذه الساعة.

- بعضهم من سيفهم، وآخرون سيجدون الفرصة المناسبة واللذة الخبيثة بتأليف رواية ومسلسل! هل الكرسي شاغر؟

- إنه ينتظرك...

- لديّ مقدار طنّ من الأشياء لأقولها لك.

ارتمى موزيل بين الوسائد المزركشة بألوان عديدة، ماداً ساقيه، متنهداً طويلاً.

- سألته إيميلي: هل تود أن تشرب شيئاً؟

- أي شيء باستثناء القهوة. أنا جاهز لتناول الزيزفون بالنعنع، هذا المساء. لدي خفقان في القلب يسبب لي ألماً مجنوناً. أكثرت من التدخين، وأفرطت بالشراب منذ قليل مع هيرتز.

مشت إيميلي خلف بار المطبخ الأميركي، صوت الماء ينسكب في وعاء.

- ليس لدي سوى الفيرفين (نبات رعي الحمام).

- حسناً، أحضري كوباً كبيراً.

بانتظار غليان الماء، حضّرت طبقاً مع كوبين، ووعاء يحتوي على السكر الناعم، وملعقتين. بعد دقيقتين عادت إلى الصالون، ووضعت الطبق على طاولة منخفضة، جلست على الكرسي ثم جمعت جسمها على شكل أخمص بندقية.

تحرّق موزيل رغبة في أن يمسك بها من خصرها، لكنه تمالك نفسه.

- نحن مدعوان لقضاء نهاية الأسبوع في منزل مارتن الريفي. لديه أشياء يريد كشفها لنا.

- سيد الألغاز! يخيفني، لم أتوصل إلى معرفة الجهة التي ينتمي إليها فعلاً. لدي الشعور بأنه يضع أحياناً قناعاً. إذ كان يستخدمك للوصول إلى قبر المسيح؟ حاول ديدييه أن يكون مطمئناً:

- لا أعتقد، خاصة أنه يبذل كل شيء في سبيل حمايتنا.

وضعت إيميلي رأسها على كتف موزيل، التفت قليلاً نحوها، نظر إليها، الشعر القصير، الأجفان التي ما زالت منتفخة من البكاء، الشفتان مبتعدتان قليلاً عن بعضهما.

- وعدتك بأن ألخص لك يومي هذا..

وضعت سبابتها على شفتيه لتمنعه من الكلام.

- أصمت! لدينا كل الوقت، نحن مرتاحون هكذا!

ثُقل رأسها وأصبح ملحّاً على كتف صديقها، نحن بخير طالما نحن لا نتكلم، في الماضي قليلاً...

* * *

أخرج الرجل المفتاح من إحدى جيوبه، وأدخله في قفل باب صغير من الخشب ودخل إلى الكنيسة.

الظل، طراوة وبرودة الحجر، رائحة البخور.

نظر إلى ساعته: الواحدة إلا سبع دقائق، ثلاث دقائق للانتظار. يعرف أن سيدنا دقيق في مواعيده، جلس على أحد المقاعد، عيناه تتكيفان مع العتمة، ينظر إلى الصليب الخشبي فوق المذبح، تمثيل بسيط للمسيح في قالب من الجبس (الجص) الرمادي. جسد هزيل يتلوى ألماً

على قائمتي عمود صلبه، «دجل!»، «كذب».

ثمة ضجيج على يمينه. الباب الخشبي الصغير يُفتح ويغلق بسرعة، وقع خطوات شبح سيدنا يقترب.

نهض الرجل.

ـ قال الأسقف: الله معكم.

ـ أجاب الرجل: ومعكم أيضاً.

ـ أنت تقوم الآن بعمل رائع، تستعيد سمعتك عوضاً عن الفشل في غابة الشرق.

ـ أشكر، نيافتكم. البابا تأخر لم يمت بعد.. يجب علينا تسريع الأحداث، وصية المجنون مخبأة في فيري.

ـ نعم، موزيل وأرملة مارلان دعاهما مارتن، لا شيء حول ما يخص المحامي المجهول بالنسبة لي، لقد أتيت لأخذ الأوامر والتعليمات.

ـ من شفتيك فقط سيدنا.

ـ لقد أحرق الهيكليون في الماضي دير أوربيني ليمحو أية آثار لمرورهم بعد أن اغتالوا نيكولاس وآنيان دو بادو.. بالنار! ورثة الهيكليين سيموتون هم أيضاً حرقاً بالنار!

ـ ردّ الرجل: أفهم. مع ذلك فاللعبة خطرة، البيادق التي يجب إسقاطها على رقعة الشطرنج ثقيلة جداً، ألا تظن أن تكون ردة فعل غيلليو عنيفة؟ إنه هو من يقود العملية حتى الآن.

ـ لم يكن لدى حراس الدم سوى هدف واحد هو استعادة نسخة وصية المجنون من المحفل الأول ومنع العثور على قبر المسيح. سأبذل جهدي في سبيل ذلك. أنا من الآن وصاعداً من يقود الرواق ويعطي الأوامر بصوت قوي.

ـ من أجل مصلحة أخويتنا، والكنيسة المقدسة، سيدنا أعرف ذلك. مع هذا أخاف من عدم قدرتنا على مواجهة مارتن هيرتز دون أن نتعرض إلى ردات فعل الأوائل.

ـ لننتظر استيقاظهم، الآن، ما زال هؤلاء الأخوة الغامضون مخبئين في جحورهم.

أرعب كلام الرجل محدثه حول صمت الإخوة الأوائل، وقلقه ومشاعره حول الحوار المقفل ظاهرياً. لقد نفذ صبر سيدنا.

ـ ليسمح نيافتك، أخرج أولاً.

ـ هيا اذهب..

وصل الرجل إلى باب الكنيسة الثاني الصغير.

استطاب سيدنا العُزلة التي أتيحت له لتوها. نظر إلى المسيح على الصليب محاولاً إخراج نفسه من الظلمة. جسده المقوّس الهزيل والمعذب... وصيّة المجنون هذه يجب أن تختفي! يجب أن تمحى كلياً، يجب أن لا تكتب هذه القصة في التاريخ.

بقي للحظات طويلة قبالة المذبح بلا حركة، أفكاره تتنقل من محكوم مسمَّر على صليب إلى رجل عار من وسطه في كفن.

خيال شبح، شاحب هزيل. شاب يتسلق جبل الزيتون.

قرّر أخيراً الخروج من الكنيسة، فاجأه المطر الغزير خارجها، صافعاً وجهه، أرغمه على إسراع خطاه للوصول إلى السيارة السوداء، المركونة بمحاذاة الرصيف على بعد عدة أمتار، والتي كان بانتظاره في داخلها أمين سره. هرع الأخير ليفتح له الباب الخلفي. دخل سيدنا إلى السيارة. متمتماً بصوت خافت جداً: «**علي العيش من الآن وصاعداً مع هذا الحمل الإضافي على حساب الضمير، هكذا كان يتمتم. جرائم قتل أخرى!**».

ـ عفواً؟ سأله أمين سرّه.

ـ لا، لاشيء، كنت أتكلم مع نفسي.

57

منزل هيرتز، الثاني

الجمعة، الساعة الثالثة عشرة وخمس وأربعون دقيقة.

تستند مقبرة فييري من الخلف إلى كنيسة رومانية ضخمة ومستديرة. محاطة بأسوار عالية مغطاة بأشجار الكرمة الكثيفة التي اصفرّت أوراقها في فصل الخريف. تتوالى فيها القبور المتواضعة، بين العشب القصير في وسط المقبرة ترتفع كنيسة صغيرة مثل سهم رفيع، في بناء غوتي كاذب.

وقف مارتن هيرتز أمام شاهدة قبر حديثة، بلاطة بسيطة من الكوارتز دون صليب واحدة فقط تحمل هذه الأسماء:

ليا ومارتن هيرتز

توقف المطر، مفسحاً المجال لسماء صافية، ريح تتسرب من الشقوق وتنساب على سطح الأرض لتلسع الساقين. ظهر في سترته الجلدية الكندية المغطاة بالفرو، كصخرة ضخمة لا تتحرك، ينظر إلى القبر الذي سيتقاسمه مع ليا ويتساءل أي من الاثنين سيكون أول من سيغادر هذه الحياة، من سيترك أو يغادر الآخر.

«لن أضع نفسي على أذواقك المريضة يا مارتن...».

تعرَّف هيرتز على الصوت، التفت وهو يبتسم.

- إذن لقد رأيتني وأنا أصل، أيها الكاهن؟

كان الراهب أكثر شباباً بقليل وأقل عمراً من المحامي، رجل طويل القامة يشكو من الروماتيزم، وجه عظمي، مخطط بالتجاعيد العميقة، العينان فحميتان، والشعر أبيض. يرتدي بزّة رمادية، وكنزة سوداء على قميص أزرق ذو قبّة مقوّسة. يحمل بيده اليمنى محفظة صغيرة من الجلد البني.

- قال الكاهن: كنت متأكداً أنك ستأتي مباشرة إلى هنا، لقد لمحت سيارتك منذ وصولها إلى بيت كاهن الرعية، لا شيء أفضل من هذا لرفع المعنويات، أليس كذلك؟ لقد اكتفيت دائماً بقطعة أرضك الصغيرة هذه من أجل آخرتك ليا وأنت؟

- كادت ليا أن تسبقني بسبب حراس الدم، فقد أصبحوا خطرين أكثر فأكثر وأنت تخشاهم كثيراً، أخي العجوز؟

ـ نعم، جاك.. أرتاع منهم، يحاصرونني مثل الذئاب، هل قمتُ بمهمتي؟ هل أنا قادر أن أحفظ وصية المجنون ضد هجماتهم؟

قدَّم الكاهن المحفظة الصغيرة إلى صديقه قائلاً:

ـ ها هي مع الحلقة، حرصت عليهما منذ أن أتيت لتودعها لدي. حتى أنها كانت تنام معي، تحت وسادتي! سأساعدك على العمل كما يجب، مارتن. أنت تعرف أنك ستتمكن دائماً من الاعتماد علي.

ـ طبعاً! هيا، لنذهب إلى البيت لننتظر فيه إيميلي وديديه. لقد تواعدت معهما الساعة الخامسة عشرة.

ـ ليس لديك من التزامات بعد ظهر هذا اليوم؟

ـ أجاب الكاهن جاك: ولا واحدة.

لا زواج، لا دفن. سأساعدك في صنع المحفل، هل أنت بحاجة إلى شيء ما؟

ـ لقد قمت بقضاء حاجاتي قبل السفر.

ـ غادر الصديقان المقبرة. العملاق والنحيف يمشيان سوية بالخطى نفسها، بهذه الخطوة يتباين العمر. تركت السماء البيضاء لمعان الكوارتز على قبر عائلة هيرتز.

يقع المنزل الريفي لعائلة هيرتز خارج القرية، للوصول إليه يجب سلوك طريق ضيق من التراب والحصى. سنكتشف من ذلك أنه واقع وسط مرج كبير محاط بشجر الصفصاف. مزرعة قديمة، مؤلفة من بناءين بطابق واحد رغم الصيانات المتكررة، فقد ظلّت محافظة على طابعها القديم: مسكن هادئ يتثاقل تحت ظل سنديانة يزيد عمرها عن مائة سنة. والتي أنعسها الخريف تخفي أعمارها الطحالب التي تغطي آخر السطح المسطح. وهذه الطحالب أفسدت الملاط الممزوج بالتبن.

فتح هيرتز وجاك النوافذ الأسبوع الماضي، عندما جاء المحامي العجوز ليسلّم وصية المجنون والحلقة إلى صديقه دون أن يعرج على منزله المغلق منذ شهر آب.

دخل النسيم من النوافذ طارداً بسرعة رائحة رطوبة البيت المغلق.

فكّر هيرتز بليا، سيحادثها بالهاتف بعد الانتهاء من تهوية الغرف، وتحضير الأسرة في الطابق... يفكر بليا. لم يسبق له أن فكر بها بهذا القدر، إلا عندما كانا شابين وحبيبين، مغرمين جداً احدهما بالآخر!

الزمن يحول الحب إلى عادات، وطقوس، وصداقة شبيهة بتلك التي تربط المسافرين خلال رحلة بحرية.. لأنه هكذا تمضي الحياة: رحلة طويلة حيث تتكيف مع هوس الآخر، تفاهم مهذب، مجلّ، متحفّظ.

هل نتلفظ أيضاً بكلمات حب عندما نقترب من السبعين عاماً؟ طرح هيرتز لأول مرة على نفسه هذا السؤال، ولام نفسه لعدم طرحه باكراً أكثر.

كان من الممكن أن تموت ليا.

ستبكي حبيبتك القديمة مثل كلب ضائع، مثل طفل تركته أمه. هذه الأنانية، هذا القلق من البقاء وحيداً. يظل مبتوراً أحدهما عن الآخر.

نظر إلى أرتال الصفصاف المائلة على حفرة يسيل إلى جانبها جدول صغير ضعيف يختفي في نهاية المرج. لو لم يكن هذا مدفنهم الزوجي، في المقبرة، لأحبَّ أن يُذَرَّ فيه رماده فيما بعد.

* * *

شاهد الرجل هيرتز والكاهن وهما يفتحان درفات البيت. في الطابق الأرضي، ثم في الطابق الأول. لقد ركز منظاره على المحامي الذي أطال النظر باتجاهه، انحنى بصورة غريزية، كأن هيرتز يحدق به.

أنّب نفسه لأنه كان ضحية الهوس الذي سرَّع قلبه للحظة قصيرة. الزمن اللازم لأن يلعن نفسه كونه لم يعرف كيفية السيطرة على أعصابه.

هذه المرة، استبدل مشمَّعه وحذاءيه الأنيقين مقابل قميص رياضي وجزمة. فأضحى شبيهاً بكارلو دو لورنسو، قال في نفسه أنه تحول بدوره إلى رجل ميداني. ذلك ما كان يمنعه من التأسف على مكتبه في روما. التأسف عليه لدرجة الرغبة الجامحة بأن تنتهي هذه العملية بسرعة.

فرح الرجل عندما وجد أن سيارة موزيل الفولف تدخل في حقل منظاريه.

ـ موزيل وأرملة مارلان! هكذا كان يتمتم.

شاهد الرجل الشابين ينزلان من السيارة، يخرجان متاعهما من الصندوق الخلفي، فتح هيرتز باب المنزل، وظهر الكاهن بدوره.

ـ سيكونون جميعاً أمواتاً عما قريب، أو على الأصح طُويت أسماؤهم إلى الأبد.

* * *

لمح الأب جاك كلاً من موزيل وإيميلي بنظرته المباشرة والصريحة، رغم السواد الفحمي لعينيه، وبابتسامته الكريمة التي تجعد خديه الضعيفتين، معرباً عن رضاه وحبه لهما.

احتضن يدي إيميلي بين يديه قائلاً لها:

ـ السيدة مارلان، علمت بالحدث الذي ألمَّ بك، الكلمات لا تفيد في مثل هذه الظروف، لكن الإقرار بالصداقة كافيان أحياناً لمساعدتك.

ـ أجابت إيميلي: أشكرك، نعم، الصداقة دائماً عزاء، وتخفيف للألم.

ثم التفت نحو موزيل:

ـ بروفسور موزيل، أعرفك من شهرتك وأنا مسرور جداً بلقائك في نهاية المطاف. قرأت آخر مؤلفاتك: كتاب المزامير.

ـ أشك في أن مارتن نصحك بذلك! إنه أفضل عميل تجاري لي.

ـ أضاف الكاهن: في الحقيقة لقد أقرضني إياه ولم آسف لقراءته. سأكون كاذباً إذا قلت لك أنني حفظت ما في داخله.

ـ قال موزيل مبتسماً: أنت تطمئنني.

دعا هيرتز صديقيه للدخول مقترحاً على إيميلي وموزيل بأن يحملا أغراض السفر إلى الغرف المخصصة لهما في الطابق ومعتذراً أيضاً: لقد ركزت اهتمامي بكل شيء، دون حبيبتي ليا، فأنا مثل رجل مبتور الذراع.

تساءل موزيل عما يشبه المنزل الريفي للمحامي العجوز، إنه نسخة عن جناحه؟ ديكور أتى عليه الزمن مؤلف من سجادة، ستائر مزدوجة من المخمل. مقاعد (كنبات) ضخمة من الجلد، وأثاث من الأكاجو، الكل يسبح في رائحة شمع العسل والسيجار البارد؟

لم تكن حالة المنزل كما وُصفت، لابدَّ من مفاجأة، إنه المتحف الذي يظهر أمامه ويسحره، مكتبة إنكليزية من الخشب الأشقر المليئة بمئات الكتب. طاولة ضخمة مع مقاعدها لاستقبال ما يقارب من اثنتي عشر فارساً جائعاً، مقاعد ذات مساند جانبية بالية بسبب العدد الذي لا يحصى من الذين يرتاحون عليها والأقدام الموضوعة على حجر مدخنة واسعة. رسوم مائية منمنمة وجميلة على الجدران، تمثال العذراء تحمل الطفل المنحوت بضربات قوية من المقصات في صخرة سوداء، آنية عملاقة يتدفق الماء من فمها، ملء باع من الجولق (نبات شائك) المجفف، سجادات بلون الكريما مرمية على بساط أحمر بلون الآجر.

درج من السنديان الفاتح الذي يصل إلى الطابق في مؤخرة الغرفة، بضع درجات تهبط إلى الأسفل نحو باب من الخشب المقوس. والنور! ضوء أبيض جميل يتكسر إلى لمعان على حواف الأثاث، داخلاً بين الزوايا ومنتشراً على الأرض على شكل نسالات. وعطر المروج المجاورة اللطيف، الذي أذبله الخريف وأحاله إلى صفرة الموت وكسرات التبن.

منزل تشعر فيه بالراحة، يجب أن تترك الزمن يمضي، دون تلفاز أو مذياع ظاهريين.

الغرف متشابهة تغص بالكتب، بالتماثيل، الأسرة الكبيرة على قوائم عالية، خشب، حجر

وقش، أشباح من الروائح، المنبعثة من مزرعة الماضي تسكبه في كل فصل وتشبع به الجدران.

ـ هل هذا يناسبك؟ طلب هيرتز بينما كان موزيل يلقي كيس سفره على الأرض.

رائع، أقرّ الشاب الذي اكتشف لتوه غرفته. منزل خارج الزمن، مارتن.

ـ وأنت لم ترَ بعد كل شيء.

نظرت إيميلي على عتبة غرفتها.

ـ ماذا علينا أن نرى؟

ـ معبدي! أعلن هيرتز متشدقاً ومغالياً.

ـ معبد؟ قالت إيميلي.

ـ تابع المحامي العجوز: أقترح عليكما أن تشربا القهوة أو الشاي، أو الكحول في القبو، فيما لو طاوعكم قلبكم. انتهوا من ترتيب متاعكم والتحقوا بي إلى الطابق السفلي، سأنتظركما هناك مع الكاهن.

ـ موزيل مندهشاً: الكاهن.

ـ آه، نسيت أن أقول لك أن جاك هو كاهن.

نعم، إنه يملك خصلتين فريدتين: كونه أفضل وأقدم صديق لي، وممارسته وظيفته المقدسة! كلاهما يجعلان منه شخصية متسامحة جداً وتثبتان أنني لست رجلاً سيئاً.

وجّه هيرتز نحو موزيل غمزة عين شبيهة بضربة مخلب خائفة. نزل الهر العجوز الدرج بخطواته الثقيلة: سمع الشابان إيميلي وموزيل من صحن الدرج الكاهن يقول إلى هيرتز:

ـ يجب أن أكون حميمياً جداً معك ليكون لي الحق بالدخول إلى عالمك السرّي!

ـ أجابه هيرتز: أنت مخلص، كم قضينا من الساعات كثرثارين عجوزين أبلهين؟

58

المكتبة

سبق هيرتز أصدقاءه، حاملاً محفظة الجلد وبداخلها وصية المجنون والحلقة، نزل الدرجات الأربع التي تؤدي إلى الباب الخشبي المقوس.

ـ انتباه إلى الرأس، نصح وهو ينحني بدوره بطريقة مسرحية، أدخل مفتاحاً في المزلاج المتين.

ـ انتظروا..

أصدر الباب صريراً، قال موزيل في نفسه، أنه لا يمكن أن يكون غير ذلك وابتسم.

ـ سأشعل النور وبعدها باستطاعتكما الدخول.

ـ ضغط على القاطعة، النور ضعيف وباهت.

خيبة أمل لكل من إيميلي وموزيل اللذان وجدا نفسيهما فيما يشبه البهو، جدرانه مكسية بالإسمنت ومغطاة بغلاف مكهرب. غير أن هيرتز توجه نحو الباب الثاني أمامهما. هذا الباب مدرّع لا يمكن التحكُّم به إلا من طريق علبة إلكترونية وضعها المحامي العجوز. ضغط بأصابعه على شيفرة (مرمَّزة) متابعة الأزرار بأنفه.

بينما ينفتح الباب المدرع ببطء، حذّر هيرتز صديقيه من خطر الإنزلاق على الدرج الجديد أمامهما، درج ضيق لولبي جدرانه خشنة.

قال جاك:

أتتذكر مارتن في إحدى المرات كدت أكسر عمودي الفقري؟

ـ طبعاً. كان ذلك في الشتاء الماضي، أكثرنا من تناول الشراب عند العشاء ووبختنا ليا على ذلك، ألم يكن نبيذاً من نوع مورغون؟

ـ أجاب الكاهن: كالعادة.

باب ثالث، دون مفتاح أو شيفرة، يكفي دفعه ليفتح.

خطا هيرتز خطوة في العتمة، ثم ضغط على قاطعة كهربائية قائلاً:

ـ أهلاً بكما في معبدي (هيكلي)، إيميلي وديدييه!

صفّر موزيل صفرة قصيرة دليل إعجاب، المحامي أعد مكتبة عملاقة في كهف واسع وسقف مؤلف من ثلاث قناطر وسط عقد يرتكز على تاج عمود مؤلف من دعامات ضخمة. الجدران عالية، مغطاة برفوف طويلة من الخشب، سكة حديد ينزلق عليها سُلَّم يسمح بالوصول إلى المستويات العليا.

المؤلفات الموجودة في ذلك الفراغ الرائع هي كتب نصفية، مخطوطات أصلية، مخطوطات لفائف ملفوفة، أحياناً صفائح صغيرة من النحاس، على قوائم خشبية، تحدد مصدر القطعة.

من أجل إتمام الزخرفة، بين بعض كتب هيرتز كان يضع شيئاً نادراً: تماثيل صغيرة من الخشب، تماثيل صغيرة من العظم، أقنعة، تمائم، علب ثمينة يقول عنها أنه انتزعها بعد صراع مرير مع جامع آثار قديمة.

إنها كنيسة صغيرة بحق، معبد، مصلى، مقدم هدية للكتب، للمعرفة.. وللعلم.

أرض المكان مرصوفة بألواح خشبية مغطاة ببساط دائري عليه خربشات من تزيينات سوداء وبيضاء صعبة الفهم.

الإنارة خفيفة، منتشرة بفعل مصابيح هالوجينية غير مرئية، درست أماكنها بعناية، الغرفة تسبح في نور دافئ وضعيف تاركاً للخيال بعض زوايا ظل حيث تبرز دعامة، أو ركن أثاث ضخم زجاجي مليء بكتب أخرى، أو سطوع درع معدني.

تصرّف المحامي كسيد للمكان على عتبة حصنه المنيع، منتفخ الصدر مزهواً فخوراً مما زاد خدوده حمرة وعينيه إشعاعاً. كان جاك يعرف جيداً هذا الموقف وهذا التصرف؛ لم يعد يعيره انتباهاً. فالخطايا الصغيرة لصديقه تشارك أيضاً في السعادة المتبادلة والمحبة القديمة، بعد كل شيء قبل الكاهن، كيف لا يمكن الشعور بالفخر أمام كنز بهذا النحو.

عاد موزيل من جديد ليصبح الباحث المؤرخ، المتخصص. يسير بخطى وئيدة وسط الباحة (الفسيحة) المعمَّدة (أعمدة) بمثابة العارف، العالم النهم.

فرح هيرتز لذلك وعاد لينفخ جسمه من جديد زهواً، ناظراً بطرف عينيه إلى الشاب وهو يقلب كتاب دساتير الأدوية نفسه للكونت غاستون فيبوس العائد إلى القرن الرابع عشر إلى حياة القديس دونيس المرسومة والمخططة في عام 1317 إلى كأس آرداغ وإلى التاج المخيط بالذهب لأسقف مات منذ زمن طويل، إلى كتاب دفاع عن الدين مجهول المؤلف، والمهدى في الماضي إلى الفونس العاشر من كاستيل.

ـ دُهش موزيل: هذا رائع! مدهش، إنها مكتبة الفاتيكان! معجم كولونيا، المختصر الإنجيلي للاغرنج، جامع الصيغ لميسّانت! يا للعظمة ويا للروعة، مارتن!

ـ قال هيرتز بصوت أشبه بمواء الهر: حياة كاملة لهاوي جمع الكتب، إنها رحمي... إنها ذاكرتي.

لم تصغ إيميلي، لكنها مشت خلف موزيل بصمت مكتفية بلمس مفاصل الكتب بأصابعها، الجلد، العاج أو الذهب لشيء ما، حرارة الورق المقوى، الذي شواه الزمن، برودة العظم والمعدن، فهي تنتقل على هذا النحو من اللذة الشهوة إلى البرودة والهمود لهذه الكنوز المجمّعة، المرتبة بعناية، المصنّفة من حرفي مهووس، صانع ماهر لا يكل لجنون، لحب متأصل خلفه البشر، تركوه يرقد بين جلود مصبوغة، لأوراق مرنة لينة من المداد، الدم الأحمر لذاكرتهم. في القصدير المشغول، القرن المنحوت، الجلد المنقوش عليه بدقة ومهارة.

ـ قال موزيل: مارتن، أنا لا أصدق أبداً أنك أخذت كل هذا من بائع التحف القديمة!

ـ مضى حتى الآن قرابة خمسون سنة وأنا أشتري، ديدييه، نصف قرن وأنا أطارد فرائسي وأنفق أموالي للحصول عليها، في رشوة البعض، أعترف بأن المال يفتح أبواب كل الخزن الموصدة، من بين كل الناس كنت محامياً قادراً قديراً وغنياً كما تعرف ذلك. كان لدي عندئذ تحت قدمي بعض العملاء الذين يجوبون العالم لحسابي، أطلقتهم في إثر أشياء أسطورية تتأملها الآن بإجلال كبير.

تقدم هيرتز عندئذ في الصالة، وجاء ليضع محفظته على الطاولة ويتابع:

ـ جاك، ليا وصديق آخر الذي سأكلمكم عنه فيما بعد، كانوا الوحيدين الذين سُمح لهم بالدخول إلى هذه المكتبة. الدولة والضرائب يجهلان هذه الثروة المكدَّسة.. عندما أتكلم عن ثروة، أعني: الثروة الفنية، الثقافية الذهنية العملية الذي تمثله هذه المجموعة.

تدخلت إيميلي:

في هذه الحالة، لماذا سمحت لنا مشاركتك سِرَّك؟

التفت هيرتز نحو الكاهن.

ـ قل لهما، جاك..

دنا الراهب من إيميلي وديدييه، ووجهه محفور بالتجاعيد تضيئه ابتسامة جميلة، وقال:

ـ أعتقد أن مارتن يفتش عن كيفية الإثبات لكما أنه يمكنكما الوثوق به. لم يجد برهاناً أقوى من هذا... أن يفتح لكما أبواب مكتبته. نعم، إذا فضلتم: أن يفتح لكما قلبه!

* * *

رفع الرجل منظاريه عن عينيه قائلاً:

ـ لا أفهم، لقد رأيتهم يبتعدون داخل الغرفة حيث لم يعودوا إلى الظهور.

ـ قال كارلو: لاشك أنهم انتقلوا إلى غرفة أخرى، صالون، مطبخ.

فكر الرجل لعدة ثوان وهو يمضغ لسانه.

فجأة قرر وقال: لنذهب وهو يرفع رأسه، لنذهب ونوجه المدفع لاقط الصوت على أحد النوافذ.

غادر حراس الدم الثلاثة الحفرة التي كمنوا فيها منذ أكثر من ثلاث ساعات. أعضاؤهم صدئة، متيبسة، أبعدوا الأغصان المنخفضة القصيرة وسط مغامرة كشف تقدمهما في المرج. وضع لورنسو يده على الجيب الداخلي لقميصه الرياضي حيث يضع جهاز روجير ج.ب 100 بينما كارلو يحمل كيساً مشدوداً إلى وركه.

ـ بدأ قلب الرجل يزداد خفقاناً، إنها المرة الثانية التي يعاني من هذا الإحساس الجديد المكوّن من التوتر والخوف. اكتشف هذا الشعور الغريب في غابة الشرق، ذلك اليوم البائس الممطر حيث فقد أحد عناصره. نشوة العمل، القلق، كلاهما مشاعر تتزاوج في تجويف صدره، في ضربات صدغيه، واضطراب حركاته. حقد بارد أيضاً. موجه نحو هيرتز، العدو الواجب قتله. «بالنار، كرر ذلك، بالنار! سيقضي نحبه مع أصدقائه».

منزل هيرتز يرقص التانغو على وقع خطاه المنتظمة، لقد اقتربت، «إنها حرب، حاول بها إقناع نفسه، حيث يضحى بالأبرياء».

فكر بإيميلي مارلان، وذلك الكاهن:

«لا أعمل سوى تنفيذ أوامر سيدنا، أنا ذراعه السليم».

بدأ تنفسه قصيراً وحارقاً، وصل إلى المنزل، محاطاً بكارلو ولورنسو شاداً جسده على الجدار، قلبه يؤلمه، يطعن أضلاعه طعنات قوية وحادة، ثم يصعد إلى بلعومه. لكنه يرى في ذلك لذة خاصة، متحرقة، جعلته ينسى مكتبه المريح في روما.

ـ قال هيرتز: سيكون لديكم الوقت الكافي للتمتع بهذه الكنوز، ثم توجه بالكلام إلى موزيل يجب ألا تغادر قبل تفحص رفوف المكتبة.

جاء الشاب ليجلس على الطاولة حيث سبق أن جلس عليها جاك وإيميلي، فتح المحامي العجوز باراً مموهاً بشكل عبقري في مشرب (بار)، أخرج منه إبريق قهوة كهربائي، فناجين، وكؤوساً، وقارورة كاردو وعلبة سيجار.

ـ لمن القهوة؟ سأل هيرتز.

ـ ردت إيميلي وموزيل بصوت واحد أنهما يقبلان القهوة، بينما اختار جاك الويسكي مشتركاً مع هيرتز.

بعد دقائق، قُدّم الشراب ثم فتح هيرتز محفظته الجلدية وأخرج منها بعناية وصية المجنون والحلقة. قدم المخطوطة إلى إيميلي، سامحاً لها تصفحها دون نسيان أن يطلب منها

أن تفعل ذلك بعناية. نظر موزيل بانتباه إلى الحلقة مستعيداً في فكره حلقة الربط المعلقة على أحد جدران الكنيسة الصغيرة الموجودة في غابة الشرق. اكتشف أن تفسيراً سيقدمه له المحامي العجوز على الفور في الوقت المناسب. عرف الآن أن هذا الأخير يُقَطِّر معلوماته ببخل شديد، حسب مقياسه الخاص، كرئيس أوركسترا بارع.

بينما إيميلي تقلّب ببطء صفحات الإنجيل النفيس الهام، قال هيرتز:

- لقد ساعدني الكاهن في إتمام ترجمة وصية المجنون. أقر أن مساعدته كانت ثمينة هامة جداً.

- منذ زمن الهيكليين، لم يقم أحد بأعباء التنظيف لعمل نيكولاس وآنيان دو باردو، لاحظ ذلك جاك بتواضع.

- شرب موزيل قهوته بجرعات صغيرة، بينما تذوق جاك كأس الويسكي في حين أن هيرتز يزدرده بشراهة.

أطبقت إيميلي الكتاب، وضعت يديها على الجلد المرقط للغلاف وتركتهما موضوعتان على نحو عادات المتدينين.

- أنت تعرف إذن! قالت، متوجهة إلى الكاهن، أنت تعرف أن يسوع ترك أخاه يصلب مكانه، إذن القيامة لم تحدث؟

- قبل جاك، ذلك ما يمكن استخلاصه من هذا المخطوطة، بالفعل.

قال موزيل:

- ماذا لو عرفت الكنيسة أنك تؤيد هذه الفرضية؟

أجاب الكاهن مبتسماً:

- سأكون مديوناً لها ببعض الحسابات، فأنتم تعرفون، أنني كاهن رعية ميداني، راهب ريف قديم، من أولئك الذين حُطّم قالبهم، أنا لا أهتم بالسلطات العليا.

ألقت إيميلي وصيَّة المجنون على الطاولة وأعادتها إلى هيرتز متمتمة بحزن:

- كان فرنسيس يتمنى رؤية هذه النسخة بين يديه! ولو لمرة واحدة.

- شكا هيرتز: آسف لأنه لم يثق بي، لكنتُ جنّبته الأسوأ.

صوته يوحي بالكذب، موزيل واع لهذا الشعور الذي يختلف عن الحقيقة والواقع، تحوَّل إلى فعل مسرحي مع أنه مُمَسْرحٌ بدقة فاضحة واضحة، واقعياً، هناك شيء مفتعل في الجو. «ما زلت تلعب، مارتن، يفكر موزيل. تلعب دوراً في إطار مختار للمناسبة والظرف. تكذب! وتكذب أيضاً عندما تتكلم عن فرنسيس!».

في الخارج، وجّه كارلو لاقط الصوت على إحدى النوافذ في الواجهة الرئيسية، بينما ثبّت اللاقط الصغير على أذنه باصبعه.

قطّب حاجبيه، متوتراً ومتيقظاً.

ـ قال: أسمع أصواتهم، لكنها بعيدة.

ـ الرجل متوتر: غرفة منعزلة.. حاول التركيز.

ـ ليس سهلاً إلى هذا الحد.. إنه أصم، تقريباً لا يمكن التقاط الصوت. أجد صعوبة في تمييز ما يقولونه، من المحتمل أن تكون العديد من الجدران فواصل بيننا.

ـ في هذه الحالة، علينا الدخول إلى المنزل، عليك التدخل لورنسو.

إصنع فتحة في زجاج النافذة وأدِر رتاجها.

فتش لورنسو في الكيس الذي وضعه كارلو عند قدميهما.

ـ أكد: العمل لن يكون طويلاً.

ـ حدّد الرجل هدفه: عندما تصل المكان، لن تتدخل فوراً، يجب أولاً معرفة ما يتحدثون به من أجل نقلها إلى الأسقف.

* * *

أنهى هيرتز كأس الويسكي وأتبعها بأخرى. «دمعة واحدة فقط!»، لكن قائمته الضخمة كانت ثقيلة وسخية.

ـ بدأ القول: بعد أن انقسم الهيكليون الذين يملكون الوصية تواعدوا في كنيسة غابة الشرق، قبل الذهاب إلى معقلهم السري، غير بعيد عن المستنقعات.

ـ قال موزيل: لم يُكْتشف المكان أبداً، وبما أنه تحت الأرض، أراهن على أنه لم يبق منه الشيء الكثير اليوم.

ـ ذلك المعبد يهمنا قليلاً لأنه لا يأوي قبر المسيح، بدأ المحامي العجوز بالشرح باسطاً خارطة لأركان منطقة شامباني ـ آردين التي أخرجها لتوه من جيبه. تناول سيجاراً من صندوقه مستخدماً إياه في رسم قاعدة مثلث خيالي يصل النقط الثلاثة للأماكن المذكورة المحددة من قبل الهيكليين وحديثاً من قبل فرنسيس مارلان. في هذا المثلث احتمال أن يكون هوغس دو باتيس قد خبأ بقايا جسد المسيح، لدينا الآن التأكيد بسبب الإشارات الموجودة على هامش الوصية.

ـ ردّت إيميلي: في أعماق الأرض.

ـ توه جاك: هذا ما تخبرنا به .V.I.T.R.I.O.L، الصيغة المغلقة للكنيسة.

قال موزيل:

ـ قم بزيارة إلى باطن الأرض ستجد الحجر السرّي أو الأخ السرّي! المسيح...

* * *

أحدث كارلو فتحة في الزجاج على مستوى قبضة النافذة، وضع قرصاً ماصاً (مفرغاً للهواء) على الزجاج، ومرّر من حوله طرف قطعة الماس.

مساعداه ينظران إليه وهو يقوم بعمله راصدين حركاته مثمنين مهارته وبراعته وسرعته في التنفيذ.

* * *

ـ تابع موزيل: عندما رويت لنا النهاية المأساوية للهيكليين، قلت لنا أن حفنة منهم شكلت المحفل الأول الأسطوري.

تنهد هيرتز وهز رأسه الضخم ذو الخدين المترهلين.

ـ أنت دائماً متحفظ، يا ديدييه، مع ذلك، فهي الحقيقة! ذلك المحفل يعبر الزمن، محافظاً على وصية المجنون وهذه الحلقة.

ـ تساءل موزيل ألم تكن تلك الحلقة في الماضي موجودة في الكنيسة، تحت .V.I.T.R.I.O.L لقد رأيت بصمتها على الحجر. أيضاً، أنت تحتفظ بها! ما صفة استخدامها؟

استعاد هيرتز ابتسامته ونهض واقفاً:

ـ إنها الحلقة التي أغلقت قبر المسيح، فقد سُلِّمت إلى أكثر المخلصين من أصدقاء المسيح.. إلى أحد الإخوة.

تريد القول أن..

توقف موزيل على الفور، ذلك ما تخيّله في الأيام الأخيرة، الفرضية غير محتملة، تتكشف على حقيقتها. أنهى هيرتز كلامه بالقول:

ـ إن مؤسس المحفل الأول لم يكن سوى يسوع! وأن هذا المحفل ما زال يعيش، وموجود دائماً!

الشك المبهم الذي كان يحاصر ذهن وعقل موزيل تأكد له أخيراً، ذلك الشك الذي أزعجه

كثيراً، مقللاً من أهمية التوقعات التي أعدها حيث وجد الحل في ذلك الكهف، تلك المغارة الجليلة، ذلك المعبد!

قاطع موزيل النظرة الرشيقة لمعلمه القديم ورأى فيها البريق المذهب؛ يبدو أن شكل هيرتز قد تحول تماماً.. عمل من خياله؟ بشرة وجهه أصبحت مشدودة قاسية، شفتاه المتهدلتان في العادة استعادتا فجأة قسماتها الإرادية، ابتسامة طيبة وصارمة معاً. تحول يكاد لا يلاحظ بفعل أشياء صغيرة، التي تطرح مع ذلك الصورة الحليمة والمهجورة تقليدياً هنا. العجوز الذي نهض الآن عن كرسيه يفرض نفسه كعملاق تجدد شبابه.

همس الشاب وهو يعرف الجواب مسبقاً:

ـ وأنت؟

ـ نعم، أنا أنتمي إلى هذا المحفل الأسطوري، الكاهن يعرف ذلك من قبل وإذا كنت أكشف لكما ذلك، فهذا لأن زوجكِ، إيميلي، قتل من قبل أولئك الذين يريدون الآن قتلي، وقتلك، أنت، وكذلك ديدييه وكل أولئك الذين اقتربوا من كشف السرّ.

* * *

دخل حراس الدم الثلاثة إلى المنزل. بدأ كارلو بمسح الغرفة بلاقط الصوت الموجه فاستطاع تحديد مكان الأصوات. كان مصدرها الباب السفلي الذي تؤدي إليه الدرجات الأربع الحجرية.

أعطى الرجل إشارة، حمل لورنزو الجهاز اللاقط بيده متوجهاً نحو الباب الذي بقي نصف مفتوح، تقدم بحذر في البهو الذي ما زال مناراً. لم يبق أمامه سوى الباب المدرَّع المغلق، التحق الرجل وكارلو بلورنزو. إشارة جديدة من الرجل. وجّه كارلو لاقط الصوت الدقيق نحو الباب المعدني.

* * *

امتنع هيرتز خلافاً لرغبته عن تناول كأساً ثالثة من الويسكي، لأن عليه المحافظة على وضوح أفكاره ليتابع:

ـ بعد الاعتداء الذي تعرضت له من قبل حراس الدم، جئت لأضع هذه الأشياء عند الراهب جاك ليحافظ عليها بانتظار نقلها نهائياً إلى مكان آمن. يعرف جاك ذلك، ويشاركني في الكثير من أسراري الصغيرة، فهو أيضاً أخ!

ـ دُهشت إيميلي: كنت أجهل أنه باستطاعة شخص ما أن يكون كاهناً وماسونياً.

أجابها الكاهن بابتسامته المعهودة، ومعالم وجهه تشوهها التجاعيد:

ـ الحقيقة أن هناك رهبان فلاسفة الذين أحدهم، وبالأحرى كان عراباً في ماسونية فولتير.

لم يكن موزيل مهتماً ظاهرياً بنقاش لا يرغب سماعه، عاد إلى هيرتز ليسأله:

ـ قلت لنا منذ لحظة أن الوصية والحلقة سيوضعان بعنايتك في مكان آمن، فهل ذلك المكان موجود حقاً مارتن؟ لقد أعطيت البديل بمهارة بوضع المخطوط بين كتب عادية في مكتبتك في سيفر، أما الآن، فماذا أنت فاعل؟

أجاب هيرتز:

ـ في المحفل الأول، هناك أخ مكلّف بالسهر على الوصية والحلقة. نسميه المؤتمن. عندما يكون هذان الشيئان الباقيان في خطر، يخبئهما المؤتمن في قبره، قبري ينتظرهما.

قال موزيل:

ـ عمل حصيف، وفي محلّه، ملجأ لا يمكن اختراق حرمته.

ـ مع ذلك فإن حراس الدم دنسوا حرمة قبر أحد إخوتنا. في القرن الخامس عشر. وقد دفعوا ثمن ذلك غالياً! عجوز يهودي اسمه جيروم نصب لهم فخاً بارعاً، قصة بليغة يقوم فيها «توركمادا» المشؤوم بدور مهم!

أشعل موزيل سيجارة.

ـ أظن أن في نيتك قصَّها علينا، قال وهو ينظر إلى هيرتز الذي عادت عيناه تسطعان مثل عيني قطة ماكرة.

التفت هيرتز نحو جاك ليعتذر:

ـ عليك أن تسمعني أثرثر أيضاً، أيها الأب!

كم من المرات حدثتك عن جيروم اليهودي؟

ـ عن جيروم، وعن المانويين، والهيكليين... أمنحك مقدماً كل عفوي، مارتن.

ـ ليكن، تابع هيرتز، لنغص في إسبانيا في العام ألف وأربعمئة وثمانية عشرة. في بورغوس بالتحديد.

59

المُعَذِّب

غرفة تعذيب تفوح برائحة العرق والبول.

رجل في الخمسين من عمره عارياً يخضع للأسئلة، ذراعاه موثوقتان خلف ظهره، جالساً على طاولة صغيرة، (اسكملة) كاحلاه مدميان مشدودان داخل الفلق. اثنان من الدومينيكيين يقفان إلى جانبي السجين المنهك، خلف طاولة، تحت صليب كبير من الخشب معلق على جدار حجري، رجل دين كان يسجّل اعترافات المعذب.. إلى جانبه، شبح ضخم، صامت، لا يتحرك يقف عن قصد بعيداً عن ضوء المصباح الوحيد الذي يعمل بالزيت، أشبه بتمثال لا شيء يدفعه للانفعال. لا الصراخ، الشخير، وبكاء الشاهد، ولا قرقعة العظام التي كانت تعذّب بشدة.

الجلاد كان الرجل السادس الحاضر في الغرفة المنخفضة، يقارب الثلاثين من العمر، يملك وجهاً ملائكياً بملامح مؤنّثة، وعينان خضراوان، وشعر بني كثيف مسترسل حتى عنقه.

ـ على طاولة صغيرة، صنفت ورتبت بعناية الأوتاد أو الأسافين الخشبية التي من واجبها إدخالها في حذاءي (آلتي) التعذيب بواسطة مطرقة خشبية ذات رأسين ليضغط اللحم ويسحق العظام.

في أرض الغرفة، وعاء مليء بالماء، اسفنجة وطاسة نحاسية مليئة بالخل لإنعاش الضحية.

توجه الدومنيكيان نحو سجينهما:

ـ نعم.. نحن نصغي إليك.. أخيراً حرِّر نفسك وسنخفف الألم عن جسدك!

ـ جراح العقل هي أقبح من جراح اللحم والجسد!

كان الجريح يترنح مذعوراً، على حدود السُّبات. سبق أن أغمي عليه لثلاث مرات وكان يحتفظ في بلعومه بطعم الخل النتن الذي أجبر على تناوله ليعود إلى وعيه.

ـ أجابهما متمتماً: قلت لكما، الهيكلي برنارد دو جوس استولى على وصية المجنون ووضع نفسه تحت حماية أصدقاء يهود فارين من اضطهاد فيليب لوبل!

ـ ردّ الدومينيكي الأول: هذه، قصة قديمة! مضى عليها أكثر من قرنين منذ أن تعرَّض الهيكليون للمحرقة.

كانت نظرة الرجل غارقة بالدموع، يرى الدومنيكيين خلف ضباب مظلم تتراقص أشباحهم لدرجة أنها ترعبه، كان يرتعد برداً، يشعر فعلاً بالبرد، بالخجل، بالإذلال، كونه تبول في ثيابه.

تابع يقول: عائلة كاسماران التي استقبلت برنارد دو جوس استقرت في كاستيل، حيث اعتبرته واحداً من أفراد عائلتها.

- لكن فيما بعد؟ قام الهيكلي ومعه اليهود المنقلبون إلى الكاثوليكية والذين يمارسون سراً الطقوس اليهودية، بإعادة تكوين المحفل الأول، أليس كذلك؟

خرج الدومنيكي الأول بصوت كالنباح الصاخب كاد يمزق طبلتي أذنيه منذ ساعات: هذه الطائفة موجودة دائماً وأنت ارتبطت بها؟

- قال المعذّب: أقر بذلك! أقسم بالقديس يوحنا أنني أوافق على ذلك.. الرحمة! الرحمة! أريد الماء.. أعطوني قليلاً من الماء.

الشبح الضخم الواقف في الظل فتح فمه للمرة الأولى آمراً:

- لتخفف رحمتنا آلامه، أعطوه ليشرب. قدَّم الجلاد الماء للسجين داخل قطعة اسفنج مبللة عصرها فوق شفتيه المزرقتين. تلقى الرجل الماء وهو يغلق عينيه، غير معير اهتمامه إلا لهذه الراحة الصغيرة، بعد أن روى ظمأه، وضع كل قوته محاولاً النهوض، العنق هزيل ضعيف، الخدان ضامرتان، الوجنتان بارزتان، حتى أنه رسم ابتسامة (متشنجة) بائسة توحي للمحقق المجهول الجالس إلى جانب رجل الدين.

- تابع الشبح: لقد قمت باعترافات وضيعة، ما قلته لنا مدوَّن ألف مرة في النسخ السامية. أنت تعرف عمَّن نبحث: جيروم اليهودي!

- قال المعذَّب بصيحة نصر: لقد فات الأوان.

- تريد القول أنه هرب من كاستيل؟ قال الشبح نحن نعرف ذلك. هل يجب أن تدخل إسفيناً آخر لنسألك أين التجأ؟

- الرحمة... لا يمكنني البوح بذلك!

انهار الرجل وسقط أرضاً من جديد، مكوَّماً على نفسه. استيقظت آلام عظامه المحطمة وكل جسده بدأ يخاف من عذابات قادمة، مثيراً للشفقة، منهكاً، مذعوراً، بدأ يجهش بالبكاء.

- همس الدومينيكي الآخر: وفِّر شهيداً لا فائدة منه، نريد معرفة مكان جحر ذلك الثعلب، أين يوجد جيروم كاسماران؟

أعطى الشبح القابع في الظل إشارة، رجل الدين، بقي وأنفه منكباً على سجلاته التي

ملأها بكتابة ناعمة متراصة، لم يتمالك نفسه من تحريك شفتيه، مستوعباً ما يعنيه هذا الأمر الصامت.

غرز الجلاد وتداً (اسفيناً) سميكاً في إحدى آلتي التعذيب بضربة مطرقة قوية ودقيقة.

صاح الرجل، تفريغ شحنة مؤلمة رفعته عن مقعده. ألم مصدره الكاحل، يصعد إلى الساق، حارقاً المثانة، ثاقباً المعدة، نافخاً البلعوم ومتفجراً بين الصدغين مثل كرة نارية.

ـ حيوان مجروح، هذا كل ما كان عليه منذ تلك اللحظة، حيوان محتقر، عارٍ، متسخ، تمزق جلدي بشع مقرف بسبب رائحته النتنة، بوله المتزايد من الخوف.

عادت ذقنه وسقطت على صدره، مختنقاً، مستسلماً.

ـ معلّمي جيروم... في فرنسا... صيدلاني ـ عطار في مدينة تروي، آخر الأخبار التي تلقيتها منه سيئة للغاية، يقال إنه كان على فراش الموت هذا الشتاء، وقد يكون قضى نحبه خلال الربيع. صوت من بعيد في نفق الألم.. صوت أحد الدومنيكيين:

ـ إذا كان ذلك المبتدع (الهرطقي) ميتاً، فمن الذي ورث البقايا المشؤومة؟

ـ تكلم من طرف شفتيه: التقليد يقضي أن يأمر جيروم بوضع الوصية والحلقة في صندوق من البرونز يوارى معه في قبره... ملجأ لا يمكن الدخول إليه... الوقت اللازم ليتمكن المحفل من اختيار مؤتمن جديد، يكون قد انتهى وأنجز.

ـ تدنيس! قال الدومنيكي الآخر.

خلف الطاولة، انحنى الشيخ الضخم على رجل الدين ليطلب منه:

ـ هل دونت جيداً كل أقواله، معلم فيانا؟

ـ بأمانة، أخ توماس، يعود إليكم منذ الآن النطق بالحكم.

نهض الشبح وظهر في ضوء المصباح الزيتي.

توماس دو توركيمادا

عجوز رائع، متين البنية، أصلع، وجه عريض مع أنف نسر وعينان غائرتان يخفي ذكاء حاداً، صوته رزين وعذب معاً يفصل الكلمات عن بعضها كما لو يريد أن يوزنها جميعها.

نطق بالحكم:

كما ورد بحسب المادة 15 من القانون، يجب على السجين أن يجدد اعترافه بعد ثلاثة أيام، فإذا ما رفض ذلك، سيتعرض مجدداً للتعذيب ويسلّم إلى السلطة المدنية.

غادر توركيمادا الطاولة بعد أن انتهى رجل الدين من تحرير قرار العدالة، جاهداً على إخفاء القدسية والاهتمام الكبير الذي كان يحمله لتلك المهمة.

فتح الجلاد الباب للمحقق الكبير مغادراً المكان. بعد أن أومأ إلى الدومنيكيين بضرورة اللحاق به.

ـ رافقه الأخوان تنديلا وباشيكو، أخلى جميع الرجال قاعة التعذيب، غير مبالين أبداً بالسجين المنهار الذي كان يبكي بائساً مصدراً نواحاً وحسرات.

تواجد في الممر، مساعدان ينتظران مع نقالة، دخلا إلى غرفة التعذيب للاهتمام بالمعذَّب.

ـ تمتم توركينادا قائلاً: هل سنشهد ذات يوم نهاية هذه الجماعات (الجماعات اليهودية) التي تنشر الكذبة السافلة الدينية الملطخة لإلهنا يسوع المسيح! كما لو أنه يتكلم مع ذاته.

ـ قال الأخ تنديلا، الصديد! العفن مصدره فكر المنوَّرين (أصحاب الرؤيا).

ـ يجب التصرف دون تأخير فيما إذا كنا نرفض التقرح الغرغرينا للكنيسة الكاثوليكية، تابع توركينادا. تروي تحت السلطة القضائية للأسقف ريمس، سوف أتوجه إليه لأسلمه الحكم ضد جيروم اليهودي. رسالة تحمل التنويه «الحكم بعد الموت» في حالة موت الخنزير.

ـ حكم ما بعد الوفاة! قال الأخ باشيكو.

ـ أمر توركيمادا: أكلفكما قيادة هذه القضية إخوتي، اجلبوا لي الصندوق البرونزي، لكن أقسموا بعدم فتحه. حافظوا على روحكما! سأكون أول من سيتلف الذخائر (البقايا).

ـ نقسم، لكن مع ذلك، هل يجب أن نصدق أساطير وخرافات ذلك اليهودي المرتد الساقط؟

ـ قال توركيمادا بوقار وجدية، مرفقاً فكرته بإشارة من يده، أعرف. التعذيب خادع وغير فعّال. مع ذلك، فإن تحقيقاتنا وأبحاثنا تتقاطع جميعها، نحن حراس الدم نعمل بهذا الاتجاه.. اذهبا الآن، الله معكم.

ـ أجاب الأخوان بصوت واحد: ومع روحك أيضاً.

غادر الدومنيكيان، المصحوبان برجل دين وخادمين، بورغوس في العشية ذاتها، في الليل، أصيب المعذّب بغيبوبة توفي على إثرها.

60

جيروم اليهودي

تروي، كان مخبر جيروم اليهودي عبارة عن مستودع حاجيات رائع فيه العديد من العطور تتنافر وتتعارض من اللذيذ إلى المتبل (رائحة التوابل)، ومن اللذيذ إلى اللاذع، حامض أحياناً. حمضي صدئ، يعلق في البلعوم، يسبب السعال، يؤدي إلى الدوار، مخملي أيضاً، زيوت شهية، تخدّر الذهن، تؤدي إلى أحلام هادئة.

المخبر مؤلف من غرفة واسعة مليئة بالخزائن الزجاجية المحتوية على قوارير (حوجلات)، آنية موسومة (معنونة) مع آنية مغلقة بسدادات ضخمة من الفلين. في فم مدخنة واسعة من الحجر، تتور معلّق إلى كلاّبة، جمر محمر يدفئ القمر، مساعداً المسحوق على إنهاء تحويله. رفوف انثنت تحت ثقل الكتب الكبيرة ورزم الملفات.

فوضى كاملة، مع ذلك فكل عنصر له مكانه المعين، وجيروم، العجوز المريض، يحفظ في ذاكرته الشكل والاستعمال لأقل شيء.

كان منحنياً على طاولة عمل مضاءة بشعاع الفجر الذي يتسلل عبر الدرفات الخشبية المفرغة للنافذة الوحيدة وبواسطة بعض الشمعات الضخمة.

صنع جيروم اليهوي قناعاً ليقيه خطر وضرر الانبعاثات السامة من بعض مستحضراته المعقدة: قناع من النسيج المشمّع (لباس طويل يشمل الرأس والجسم لا تظهر منه سوى العينان)، مجهز ببلورتين سميكتين مدورتين ليستطيع الرؤية من خلالهما بسهولة، وأنف طويل مروَّس في نهاية من الحديد المشبّك حلقاته ناعمة، كان الصيدلي العطار، بهذه الصورة، مع صدريته وقفازيه الضخمين من الجلد الأسود، أشبه بخنفساء عملاقة المشغولة ببعض الأعمال العلمية التي كانت تستحوذ على انتباهها.

انتهى من ملء حُبابة بمسحوق أصفر مستغرقاً في تحضيره الليل بكامله.

بعد أن أحكم إغلاق الحُبَّابة وضعها بعناية على قطعة قماش، ثم نزع قناعه. نظر إلى الأكياس الصغيرة السبعة الموضوعة على الطاولة، منذ المساء، والتي تحوي بداخلها المادة الضرورية لعمله الكيميائي، كان وجهه شاحباً ممتقعاً وهزيلاً، تغزوه الحمى، ومع ذلك يظهر ارتياحاً كبيراً، من المحتمل أن الرجل كان بديناً في الماضي، لكن تقدمه في السن، والمرض استنفذا كل شحمه، تاركين فقط الجلد يغطي العظام بكمية فائضة مترهلاً ومنسدلاً.

التجاعيد والخدود المترهلة تعطيه منظر شدق كلب عجوز منهك. شعر أبيض على شكل تاج ينسدل حتى مؤخر رقبته. غير أن لديه نظرة رائعة، صبيانية ورقيقة.

شفتاه المزرقتان تبتسمان دائماً.

ـ ألا أستحق مكافأة بعد ليلة من العمل الدؤوب؟ طلب من جمجمته التي رأته يعمل طوال ساعات في مخبره المظلم، ابتسم جيروم من جديد. سابقاً خطَّ بالحبر الأحمر الأحرف السبعة .V.I.T.R.I.O.L على الجبين الأبيض للميت المجهول الاسم.

خطوات خفيفة تهبط الدرج الخشبي الذي يخدم غرف الطابق.

ـ قال جيروم: أهذا أنتِ؟ أتوقع أن تعاقبينني!

ـ يمكنكِ الدخول دون خوف، لقد انتهيت من عملي، لم يعد هناك ما أخشى منه.

ريتا زوجة الصيدلي، كانت تضع شالاً على قميص نومها، فهي تصغره بكثير، عرفت كيف تحافظ على جمالها الكامد، قسماتها الواسعة، شعرها الأسمر السبل، المخطط قليلاً بالأبيض.

جاءت لتقف أمام الرجل العجوز، هزت رأسها متأملة في سحنته المدعوكة، قائلة:

لقد عملت طوال الليل في هذه الأبخرة النتنة، أليس عقلك أصغر من عقل طفل؟

ـ العمر يمضي، يا ريتا.. لم يبق لي منه إلا القليل!

وضعت راحة يدها على خدِّه، برفق، مُحِبٍ، وقالت له:

ـ علمك واسع، يا عزيزي، وستجد فعلاً بعض الدواء ليشفيك.

لا أمل في ذلك، نعرف ذلك كلانا. ومن ثم، هذان الدومنيكيان القادمان من كاستيل يريدان توقيفي. صديقنا قاضي القضاة (حاكم المحافظة) قال لي أنهما لن يتأخرا أبداً.

ظهرت على وجه ريتا علامات السخط والغضب.

ـ أجابت بصوت عال: هذا يعني أننا خدعنا وغُدِرَ بنا!

ـ قال جيروم: واحد من إخوتنا قد يكون تكلَّم تحت العذاب. اللسان يفلت من عقاله عندما تسحق العظام أو أن يمزق اللحم على حمالة.

ـ في هذه الحالة، محكمة التفتيش تعرف منذ الآن أنك تحتفظ بوصية المجنون وحلقة القبر.

نهز الرجل العجوز كتفيه وتنهد بعمق:

ـ دون شك! توماس دو توركيمادا يرأس المحكمة العليا وينتمي إلى حراس الدم. سيجري خلف بقايا المسيح حتى نهاية أيامه.

بدأ جيروم ترتيب طاولة عمله، لاحظت ريتا عندئذ الأكياس الصغيرة السبعة ذعرت وهي تقرأ الأسماء المسجلة على نجماتها.

ـ يا إلهي، ماذا فعلت هذه الليلة، يا جيروم؟

انحنت وأحصت:

- Veratrum album,if thymus, ricinus communis, iris opinella rustica, linuate tuttiverda..

هذه كلها سموم!

ارتمت في أحضانه مع خطر أن تسقطه أرضاً وهمست بخوف:

ـ إنه الموت! لقد صنعت مساحيق الموت... هل هذا صحيح؟ هل هذا هو لك؟

وضع يده على شعرها وابتسم لها بشفتيه الناشفتين المحفَّرتين ببقايا عقبولة.

ـ أجابها: كلا، حُبِّي، الداء الذي ينهشني ليس بحاجة للمساعدة.

ثم دفعها بلباقة نحو الدرج طالباً منها:

ـ اذهبي وارتدي ثيابك وأيقظي مؤتمننا، أرغب بالذهاب إلى غابة الشرق للمرة الأخيرة.

ـ تساءلت قلقة: لماذا تقول للمرة الأخيرة؟

كانت تقف على الحافة الأولى من الدرج، متجهة نحوه، تنتظره أن يجيبها قبل الصعود. نظرت إليه يذهب نحو النافذة ليفتح درفاتها. لقد عمَّ ضوء النهار المخبر فأنار وجه العجوز الذي تنشق النسيم بشراهة.

ـ إنه لنهار جميل، صاف، هادئ. يوم جميل لتسوية كل قضاياه!

61

الذخائر

ريمس.

في مكتبه في قصر التو Tau، المقر الأسقفي المجاور للكاتدرائية، استقبل الأسقف «غيّوم برسونية»، دوق أول زوج اكليركي حاكم على العديد من الأبرشيات في جلسة استماع الدومنيكيين الاثنين من كاستيل. وهما ينتظران بقلق.

ظل غيوم جالساً خلف طاولته دون التنازل بإجلاس ضيوفه، الذين استمروا واقفين احتراماً للحظة وللمرارة التي لم يتمكنا من إخفائها.

تظاهر الأسقف بالبحث في ملفاته التي تغصّ بها طاولته، العينان مقطبتان، شفتاه مزمومتان، يتسلى بأذى المحققين.

قال الأخ تنديلاً: سيدنا لقد مضى أسبوع ونحن ننتظر الإذن الموقع بيدك، اعذرنا لإلحاحنا!

- أعرف، أعرف، تمتم الأسقف. قرار الحكم، كيف تقولون.. لقد قام رجال الدين لدي بتحريره أخيراً.

مازال يتابع مَكْرَهُ، رافعاً ورقة، مستبدلاً بواحدة مكانها. أثناء لقائهم الأول، كان يتلذّذ بتعذيب الدومنيكيين ليعتقدوا بأنه لم يكن يفهم لهجتهم الفرنسية وشجعهما على التعبير باللاتينية في لقائهم الثاني، فقد قال لهما، بعد تفكير، أنه يفضل الفرنسية بالرغم من لهجتهما المخيفة.

هذه المرة كان يقوم بدور الساهي الشارد الذهن، متلذذاً بامتعاض الزائرَيْن اللذين لم يرق له التعامل معهما. مع ذلك يجب أن يضع نهاية لهذه الصورة الساخرة عندما وجد في نهاية المطاف الرسالة مطوية ومختومة، التي كانا يتوقان إلى الحصول عليها. ناولها إلى الأخ باشيكو محاولاً عدم النهوض ليجبر الدومنيكي على الانحناء ماداً ذراعه ليمسك بها.

- هوذا المغلف، يقول. ذلك الصيدلي ـ العطار في ترويس، سيكون من الآن وصاعداً ضمن تشريعكم. هل يجب أن يكون خطيراً إلى هذا الحد حتى أجبرتم على القيام بهذه السفرة الطويلة!

تجاهل الدومنيكيان السخرية، ردّ الأخ باشيكو:

ـ هو كذلك سيدنا، مسيحي دجال يمارس الطقس اليهودي.

ـ آه.. طبعاً!

استأذن الأخوان تانديلا وباشيكو من الأسقف.. الإغاظات التي تعرضا لها لم تعد تهمهم. لقد كان لديهما المرسوم الذي سيقود جيروم اليهودي إلى المحرقة.

* * *

كانت ريتا وآلن الموظف التجاري يسيران على وقع خطى الحمار الذي يقلّ جيروم.

كاسماران مرافق الزوجين فتى مراهق منزعج دائماً من طول أطرافه المفرط، يشد بقوة لجام الحيوان، حريصاً على قيادته بعيداً عن الحفر قصد تجنيب العجوز القفزات الفجائية المؤلمة.

آلن يتيم، يحب سيّديه، فقد وجد لديهما العطف والحنان اللذين يطلبهما قلبه.

كان ينظر خلسة إلى ريتا التي تمشي إلى جانب الحيوان ممسكة بيد زوجها، فكر بحزن أنها ستكون قريباً أرملة، جيروم يذبل ويضعف أكثر كل يوم، معطياً الشعور بالزوال حتماً. طارداً نفسه بنفسه من الحياة، بتؤدة وبطء.

كما لاحظ أن سيده وضع خنجراً في وسطه، تحت معطفه، وعلّق سلة من السوجر (نوع من الصفصاف) على جانب الحمار، لأي سبب؟

لم يطرح أي سؤال، بالأحرى فقد كان يحبس الكثير من النحيب في حنجرته المشدودة للكلام. رؤية العجوز المحتضر، المنحني على ظهر حماره، وتلك المرأة المحبة التي تمسك دموعها، ذلك المشهد يعذبه إلى درجة تمزيق روحه.

بدت الغابة خضراء، مشمسة، خضراء بأوراقها المشبعة بنسغ الربيع الحديث، الحارة بسبب الصيف الذي ظهر معتدلاً ومغذياً. القمح والكرمة أصبحا في وضع الحصاد والقطاف. فكّر بأنه سيصنع الخبز والنبيذ بكمية وافرة. النبيذ الأبيض الخشن قليلاً الذي يوخز اللسان.

آلن، كل شيء مشغول بذاكرته، لم ير جيروم يترنح، ويتمايل. إنه مصاب بوعكة وفقدان وعي أوشك العجوز أن يسقط من على حماره لو لم تسنده ريتا، لام المراهق نفسه لأنه غير منتبه. وأقدم على مساعدة العطار الصيدلي بقدر ما يمكن على تصحيح جلسته.

ـ لا شيء، تمتم جيروم، دوار خفيف، لا شيء يستحق أن تجهموا وجوهكم بهذا الشكل.

ريتا وآلان، حاولا الابتسامة، تظاهرا بتقدير قناع تطميناتهما العطوفة.

وصلوا أخيراً إلى الفسحة داخل غابة حيث الكنيسة الصغيرة الهيكلية المهجورة، مغطاة جزئياً باللبلاب الملتف.

أعشاب باسقة تتسابق في الهجوم عليها باقات غير متناسقة تدخل عبر ما تبقى من الباب المسوَّس مفتوحاً نصف فتحة.

حمل آلن، جيروم لينزله عن الحمار.

أقسم، قالها الصيدلي العطار راضياً: من المفيد النزول على الأرض اليابسة. هذا الجواد اللعين يسبب لي اهتزازاً جهنمياً يكاد يقلب معدتي!

- سار بضع خطوات، يدُّ زوجته بيده، ثم بمكر، التفت نحو آلن ليقول له:

- انتظرنا آلن. استفد من هذا الهواء المليء بالعطور اللطيفة!

- آه... نعم سيدي، طبعاً!

على مدخل القبر، توقف قليلاً ليقول:

- لقد أزفت الساعة، ريتا.

- حقاً؟ هوذا زوجي اليهودي يقودني إلى الكنيسة مثل عروسين!

في دخولهما القبر أزعجا بعض اليمامات التي طارت لتهرب من النوافذ ذات الزجاج المكسور.

- لاحظ جيروم بأسف مشيراً إلى البلاطات البعيدة عن بعضها بسبب الخضرة الزاحفة. لماذا كل هذا العشب؟

- سحب خنجره من وسطه، أرادت ريتا منعه.

- هل من الضروري إخراج هذه الأشياء في هذا اليوم؟

تساءلت، ألا يمكن انتظار قص هذا العشب؟

- إنه لكذلك، ساعديني.

- ركعا على الأرض، أدخل جيروم نهاية الخنجر بين بلاطتين، بدأ يقول:

- كان برنارد دو جوس قد وضع هذا الكنز أمانة عند أجدادي، لم يكن هناك من مكان أفضل من هذا لتخبئته! بفضلهم، نجا واستمر المحفل الأول بالحياة. يجب أن يعيش إلى الأبد.

- تقريباً معظم إخوتنا استمروا في كاستيل.

- عندما أفارق هذا العالم، ستقومين بتدريب أخوة جُدداً، والسلسلة لن تقطع أبداً.

- أنت تتكلم مثل حاخام عجوز أبله. وبّخته وهي ترفع الحجر الذي انتزعه جيروم.

غاصت يدا العجوز الضعيفتين المصابتين بالروماتيزم في المخبأ ليخرج منها كيس

كبير من الجلد يحوي ذخائر المحفل الأول، وصية المجنون وحلقة قبر يسوع.

هذا العمل الصغير استنفذ كامل قوى الصيدلي العطار الذي جلس وظهره مستند إلى جدار قريب من شعار الهيكليين، استمرت ريتا راكعة، تؤنبه وهي تمرر يدها على جبهته لتتحقق من حرارته.

ـ أنت محموم جداً، أرأيت، ما كان عليك أن تخرج. قد تكون أفضل عندما تبقى نائماً بعد أن تتناول حساءً شهياً خالياً من الدسم.

كان جيروم يمسك كيساً من الجلد ويشده على صدره.

ـ صحيح أنني أشعر بالتعب، تعب جداً يا عزيزتي، جلست بدورها، وظهرها مستند إلى الحائط، وكتفها ملتصق بكتف زوجها، مثل طفلين أنهكهما اللعب الطويل، أطفال شيوخ فاجأهم التقدم في السن.

ـ أنت زوجة صالحة، ريتا! لكنك كوميدية سيئة. أنت تعرفين عن علم أنني في نهاية الطريق، امرأة مُسِنَّة مثلك لا تسقط عند الحفرة الأولى.

فتح الكيس الجلدي على ركبتيه، كانت وصية المجنون محفوظة داخل غلاف من الجلد المدبوغ عندما فتحه تأكد مجدداً أن المخطوط لم يتأذى بسبب عوامل الزمان.

أعاد إغلاق الكيس، وصالب يداه الملطختان بالأسمر وهمس في أذن ريتا:

ـ هيا، ستصغين إليَّ بانتباه، عليك تطبيق ما سأوصيك به حرفياً، لأنني أعرف ما سيقوم به المحققون عندما سيجدونني.

ـ ليكن، كلي آذان صاغية.

رغبتها بالبكاء، أحرقت عينيها مثل فلفل سيء، أوشك الموت الذي يطل برأسه فوقهما على تفريقهما.

* * *

آلن ينتظر وهو يجدل الأعشاب، يلقي أحياناً نظرة باتجاه الكنيسة وينصت، لا يسمع سوى الدمدمات، صوت جيروم الأصم، الرتيب.

كان باستطاعة الفتى الاقتراب بهدوء من الباب، لكان عرف مقصدهما. لكن سيِّده أمره بالبقاء بعيداً.. خادم مطيع رغم الفضول الذي يسري بداخله.

حطت إحدى اليمامات الهاربات من زجاج النوافذ المكسور على غصن شجرة قريباً تعزف لحناً، طاغياً أحياناً على صوت جيروم الذي لم يستطع أحد إسكاته.

* * *

نهضت ريتا، سلَّمها جيروم بإحدى يديه كيس الجلد، وبالأخرى أشار إلى الكتابة المنقوشة

في الجدار .V.I.T.R.I.O.L، نظر إلى زوجته بحنان ورقّة كبيرين وبكثير من الحزن.

ـ هل فهمتِ كل شيء؟ تأكدي، ستفعلين كما قلته لك؟ إذن، دعيني وحيداً للحظة، لكي أتأمل أيضاً هذه الصيغة.

ـ لا تتأخر، أنت شاحب جداً.

عادت ريتا وخرجت من الكنيسة. لدى رؤيته لها وحيدة، اندهش آلن لذلك:

ـ ماذا يعمل سيدي، سيدة كاسماران؟

ـ إنه يستغرق في التأمل لبرهة.

جاءت لتضع الكيس الحاوي على الذخائر في سلة الحور المعلقة على ظهر الحمار، وانتظرت بدورها.

ـ الوقت يمر، السماء تنصع بالبياض، ضجيج الغابة يتزايد، لم تتمكن من الصبر طويلاً، فترة الظهيرة تقترب.

نادت:

ـ جيروم! جيروم!

لكن زوجها لم يجب على ندائها، دخلت وآلن الكنيسة من جديد.

اطمأنت لرؤيته في الوضعية نفسها التي تركته فيها، جالساً مسنداً ظهره إلى الحائط، العينان مغمضتان، الصدر منخفض قليلاً.

ـ آه، لقد استسلمت للنوم، عزيزي المسكين!

لكن آلن تنبه أمام الجسد الذي لا حراك فيه، عاد ليمسك بقبضة يد سيده ليرى ما إذا كان القلب ما زال ينبض في العروق (الأوردة) الزرقاء ـ السوداء، التي كانت تشبك جلده الشفاف. بعد عدة ثوان، التفت نحو ريتا، ووجهه تسيل عليه الدموع كالسواقي.

ـ آهـ... إنه لا ينام! لا نبض له، سيدتي.

ريتا، هادئة جداً، أشارت بيديها لتغطي الأمكنة وتقول:

ـ هنا إذا كان يرغب ويتمنى الموت، في كنيسة الهيكليين. وبينما هي تنحني على زوجها الراقد بسبب الموت، فكرت:

هل اكتشف ما كان يبحث عنه! V.I.T.R.I.O.L
(visita interiora terrae,rectificandoque invenies occultum lapidem)

حمل آلن جثمان جيروم على كتفه، لم يتجاوز وزن العجوز عن وزن أرنب ضخم، وضع بشكل معترض على الحمار.. ووجد الفتى أنه كان من الخسارة الكبيرة أن يقدم لسيده موكباً جنائزياً بهذا الشكل.

62

نبش القبر

كان جيروم اليهودي يرقد منذ خمسة أيام في مقبرة سان أندريه في مربع اليهود الواقع في قلب الضاحية الجنوبية من ترويس، عندما كان الدومنيكيان تنديلا وباكشيو يرافقان كاهنهم، وكاتب عدل، وستة رجال مسلحين ورجلين مخصصين لنبش القبور مجهزين بالرفوش. أبعدوا الجمع الهادر متوجهين نحو قبره الطري.

توجه تنديلا إلى الجمع والأمر بيده:

ـ جيروم كاسماران مرتدّ، لا يمكن وضعه في أرض مكرسة، يجب أن يحكم بعد أن أدين بجريمة تشويهات هرطقية وارتداد عن الكهنوت ومارس سراً في كاستيل مهنة الصيدلي ـ العطار بالرغم من المنع الذي عُمِّم على اليهود.

بينما كان حفّارو القبور يحفرون الأرض التي ما زالت سهلة الحفر، جلاد ومساعدان كانوا يجمعون الحطب عند أسفل وتد منصوب عند باب المقبرة، أقاما على عجل محرقة بسيطة، في نهاية المطاف الأمر يتعلق فقط بحرق جثمان ميت!

وسط الجمع الذي أرغمه الرجال المسلحون على البقاء بعيداً، كان آلن يناشد ريتا بأن لا تنظر إلى مشهد من هذا النوع. «على العكس، آلن.. هؤلاء القضاة يجهلون أن جيروم ما زال قادراً على محاربتهم!» والبرهان، أمام دهشة آلن الكبيرة، كانت تبتسم.

ـ آكلي الجثث، يخرجون موتانا من القبور! قال آلن الذي كان يغلي في مكانه، القبضتان مشدودتان، ساقاه الهزيلتان ترتعدان.

ـ نصحته السيدة بعدم الحركة، لا فائدة من ذلك.

فتح القبر بسرعة، اقترب الدومينيكيان، وأخرج الحفاران النعش الذي وضعاه دون مراعاة على الأرض، كسروا الخشب ليخرجوا الجثة.

ظهرت علائم الموت على جسد جيروم، الجلد مشدود على العظام، حافراً الخدود، ملوناً العنق واليدين بخطوط رخامية خضراء.

كان اليهودي الميت يشدُّ صندوقاً من البرونز على صدره، لدى رؤية المنظر، صاح أحد الحفارين:

ـ القبيح أخذ مقتصداته معه!

ـ اصمت أعطني الصندوق بسرعة، أمره الأخ باشكيو باشمئزاز.

«يا إلهي كم هذا الشيء بارداً» وضع باشيكو الشيء في كيس من القماش.

ثم نقل الحفاران، جثمان جيروم إلى العمود حيث رُبط بست لفات حبل لإبقائه واقفاً.

«هذا مؤلم للرؤية! ومخجل جداً..» همس آلن وهو ينظر إلى سيده الذي تحول إلى تمثال بشع وسخري. أهل المدينة الملتفون على شكل نصف دائرة أمام المحرقة البائسة حضروا المشهد وكلهم ساخطون، لكن لا أحد يتقدم ولو خطوة واحدة، لأن الجنود وجهوا حرابهم إلى الأمام.

الحبل الذي لُفَّ حول جبين الميت أبقى رأسه مستقيماً. يبدو وكأنه ينظر إلى الجمع، مخبولاً كخروجه من كابوس. الثقبان السوداوان العميقان لعينيه كانا متوجهين نحو نقطة محدَّدة.

ـ على الأقل، هذا ما تخيلته ريتا.

بينما كان الجلاد ومساعداه يشعلان المشاعل، كان القاضي، وهو رجل قصير القامة دحداح ومكروش يقف أمام الجثة المربوطة فتح ورقة وتلا قرار الحكم:

ـ جيروم كاسماران، بموجب السلطات التي تخولني إياها القوانين المقدسة، نحكم عليك بالحرق أمام الشعب، رمادك سيلقى إلى الريح، واسمك سيمحى من ذاكرة البشر.

جزء من نور الشمس يضيء وجه جيروم الشمعي الشاحب راسماً ابتسامة على شفتيه المشدودتين، وأسنانه النَّخِرة. لكن ألم يكن ذلك أيضاً رؤية من ريتا؟

أُشعلت المحرقة وأخذَّ أكوام الغبط (أكوام من الحصيد لما تحزم)، تفرقع في الحال، بألسنة لهب عالية التهمت الثياب والشعر النادر للمحكوم.

قالت امرأة عجوز:

ـ هذه هي المرة الأولى التي لا يصرخ فيها بائس أو يرقص على المحرقة!

كان المشهد فظيعاً، الجسد الأحمر لم يكن يتلوى، ولا يدافع عن نفسه. كان يترك نفسه يؤكل من قبل النار التي استولت عليه مثل عرجون الكرمة.

رسم البعض إشارة الصليب، وآخرون أخفضوا عيونهم، وهم يحيطون بريتا يمسكون بذراعها ليقدموا لها العطف. واعتقد البعض أنها مجنونة، بسبب ابتساماتها مع ترديد هذه الكلمة الغريبة دون توقف «V.I.T.R.I.O.L.».

63

الفخ

السادس عشر من أيلول للعام ألف وأربعمئة وثمان وتسعون، في دير سان ـ توماس في آلين، من آفيولا، حيث «توركمادا» في خلوة، استقبل في غرفته (حجرته) الدومينكيين الاثنين، الأخوان تنديلا وباشيكو، اللذين جاؤوا إليه بالصندوق البرونزي المستخرج من قبر جيروم اليهودي.

بينما هما يضعان الشيء على طاولة صغيرة، قال تنديلا :

ـ لقد تصرفنا بموجب أوامرك، أخ توماس، ونحن نسلِّمك هذه العلبة لتفتحها بنفسك كما طلبت منا.

ـ لقد عملتم لخلاص وإنقاذ أمنا المقدسة الكنيسة، شكرهما المحقق الكبير، ظاهرياً راض عن فعلتهما.

تفحص العلبة لعدة ثوان، هيكله الضخم ينحني إلى الأمام، «لقد توصلت أخيراً إلى كشف مخططات المحفل الأول، أظن أنني انتزعت منه هذه الذخائر، لقد قهرته!».

كان الزهو يدفئ الدماء ويلوِّن وجناته، فهؤلاء حراس الدم الذين سبقوه لم يتوصلوا طوال قرون عديدة إلى الحصول عليه، بينما هو أخذه في لمحة عين أو لمعة برق، فقط من طريق كسر وسحق بعض العظام.

أخذ السكين محاولاً كسر القفل الهش، الذي يبقي العلبة مغلقة.

انكسر القفل دون جهد كبير، فتح توركيمادا العلبة، ظهر في البداية مندهشاً، فقد اختفى حَمَار خدَّيه فجأة وعمّ الشحوب وجهه، بدا له أنه كان يفرغ من دمه. «يا إلهي!» صاح حانقاً.

تراجع الدومنيكيان إلى الخلف في آن واحد، كان يتصاعد من الصندوق المفتوح غبار ناعم أصفر اللون، ملايين الحبيبات الصغيرة التي جعلها نور الشمعدان تسطع داخل جدران الغرفة المظلمة.

وضع تنديلا وباشيكو يديهما على أنفهما، وعلى فمهما، كانت الغرفة مليئة برائحة نتنة، انبعاث عفن، مُتَفِّر، ضباب نجس تنفس المحقق كمية كبيرة منه.

هرب الدومنيكيان من الغرفة، من القذارة. «الموت!» قال توركيمادا بداخله، العينان منقلبتان يخرج الزبد من شفتيه، ويضيق نفسه.

كان يشد على صدره، وأصابعه المكنزة على ثوبه الرهباني، يترنح، يفقد توازنه، وينهار أرضاً.

مُزْبِداً، نار جليدية تملأ رئتيه، مات بفعل السم الذي صنعه ضحيته جيروم اليهودي.

في الممر، كان تنديلا وباشيكو يرتعدان بكل أعضائهما، خائفين من العودة إلى غرفة توماس توركيمادا. يشعران بدوار خفيف وصعوبة في التنفس غير أنهما كانا قد خرجا في الوقت المناسب.

* * *

قيل إن توماس توركيمادا مات بفعل داء مجهول، في الواقع، أن الذي صعقه كان سمّاً طياراً، سُمّ مؤلف من نباتات فيراتوم (V)، إيف (I)، تيموس (T)، ريسينوس كومينيس (R)، إيريس (I)، أوبينيلا روستيكا (O)، لينواك توتيفروا (L). وبأخذ الحرف الأول من كل اسم لكل نبتة نحصل على الصيغة أو التركيب: .V.I.T.R.I.O.L.

64

بألسنة النار

لم يعر هيرتز ذلك اهتماماً، صبّ لنفسه ثالث كأس من الويسكي، الذي ملأته يده بسخاء لتصبح الجرعة على مستوى عطشه.

ـ توركيمادا كان إذن حارس دم! قال موزيل، غير مصدّق.

ـ نوّه هيرتز وهو يرفع كأسه إلى شفتيه: إنه مثل العديد من الدومنيكيين.

ـ سألت إيميلي: ألا يناسبنا هذا؟ هذه الفكرة عن مؤامرة كبيرة انتشرت عبر القرون، ألا تخدم مصالحك؟

بدا المحامي مغتاظاً. تناول بلعة جديدة من الكحول.

ـ مع ذلك فهذه هي الحقيقة الصحيحة، أكد بيقين منزعج. وُلِدَت المؤامرة مع ولادة المحفل الأول. في اليوم ذاته الذي دفن فيه المسيح في غابة الشّرق. لم يسجل التاريخ سوى القشور. والظاهر من الأحداث، المُمَلَّس والمتأدّب، والملمّع. الآلاف من الوقائع الصغيرة المتناقلة التي غَذَّته حفظها حفنات من النساء والرجال، من هنا وهناك. المحفل الأول وحراس الدم الذين كانوا يتصادمون ويتصارعون، ساهموا رغم كل ذلك في جمع كل قطع تلك التراكيب المعقّدة الهائلة.

لم ينطق جاك ببنت شفة، فقد اكتفى برسم ابتسامة صبورة على وجهه المجعّد.

احتج موزيل قائلاً:

ـ أنت لا تأتي بأي إثبات، مارتن. أنت تتكلم عن التقليد مع حرف «T» كبير الذي يمكن فيه زج وحشو كل الهراء والهذيان التاريخي الذي يخطر ببالنا.

انفعل هيرتز:

ـ براهين! برأيك وصيّة المجنون، أليست برهاناً؟ ملفات البحر الميت التي تفك رموزها في مؤسسة ماير، أليست إثباتاً؟

تابع الشاب:

ـ أتقبّل أن يسوع لم يكن على الصليب، أعرف أيضاً أن هناك أشخاصاً يحاولون إسكاتنا ولا يتراجعون عن القتل بسبب ذلك، لكن توركيمادا، فيليب لوبل، وآخرون من المانويين

والهيكليين الذين تُقدمهم لنا على شكل حساء كبير قدَّمهم التاريخ على أنهم لعبوا أدواراً مجهولة تماماً. أنت تجعل منهم الممثلين واللاعبين لمأساة سرية لا يمكن إلاّ للمسارّين (الذين أعلموا بالأسرار) أن يفكوا رموزها. لا أقدر على فعل شيء، مارتن: هل أبقى متشككاً أو حائراً، إذا كنت تفضل ذلك.

أصدر هيرتز زفيراً طويلاً، عاد إلى كأسه وشرب كل ما فيه دفعة واحدة وقال:

ـ ليكن، أستحق محاكمتك العقلية، في نهاية المطاف! من المحتمل أنني لم أكن مقتنعاً بما فيه الكفاية.

تدخلت إميلي:

ـ دون شك لقد بالغت! بالعكس.

ـ تابع المحامي العجوز. أدرك أن من الواجب أن أقول لكم أن الأخوة من المحفل الأول يتلقون تقليداً شفهياً عن الأجداد سلفياً عند إدخالهم إلى المحفل (عند مُسَارَّتهم)، وأنك ديديه ستكون قادراً على إدراك هذا النمط للمعرفة. ألم تعمل الماسونية بهذه الطريقة؟

إن كان الأمر يتعلق بالزاوية القائمة، بالشاقول، بالفرجار أو بالزئبق أو المستوي، هذه الأدوات البدائية ما زالت تربطنا مرة أخرى بالتقليد. يتكلمون على البنائين المصريين لدير المدينة أو بناة الكاتدرائيات. يأتون بخرافة غنية بالرموز والترميز والاستعارات.

ألم يكن الإله تون، مالك المعرفة، هو من علَّم البنائين استعمال الفرجار والزاوية القائمة والشاقول ومقياس التسوية (مسواة)، من أجل أن تقام المعابد وفق النسب الإلهية؟ وفي وصية المجنون، أليس المهندس المعماري الكبير هو الذي يمثل وهو الذي يخلق الكون بواسطة فرجار؟ الأسئلة التي تطرحها اليوم سيطرحها آخرون اكتسبوا معارف جديدة، لعلم أكثر دقة، سيجدون، وهذا محتمل، بوادر الجواب.

قال موزيل:

ـ أوافق على ذلك، ما تقدمه الماسونية أثناء التلقين (الأسرار الأولى) ليس سوى تعليم رمزي، لا يوجد شيء حقيقي تاريخياً في طقس. فهي تنقل أسطورة أو خرافة ينص هدفها على تنوير حاصل على لقب أخ في أبحاثه الروحيه والشخصية.

بدا هيرتز وهو يفكر للحظة: كان يتهيأ للمتابعة عندما سبقه جاك:

ـ وإذا ما اكتفت الماسونية من تكرار طقس أصلي بصورة غير واعية؟ صلاة متجردة من الماديات، محرومة من جوهرها الحقيقي.. لو لم تكن حركاتها، كلامها، فكرها شيئاً آخر سوى بقايا تقليد دون «T» كبيرة؟ الظهور أو الوضوح لحقيقة مدفونة عميقاً في الذاكرة؟

ـ أدرك إلى أين تريد أن تقودني، لاحظ موزيل. أن المؤسس الحقيقي الفعلي للماسونية ليس سوى المسيح نفسه! وأنه لن يبقى من أعماله سوى المحفل الأول... أما إذا كان ما

تبقى من الماسونية خارج المحفل، فليست سوى قوقعة فارغة.

زاد جاك من ابتسامته وهو ينظر إلى موزيل مباشرة في عينيه وأضاف:

- نعم، سيكون ذلك مريعاً، أليس كذلك؟ كل شيء سيكون كاذباً: الكنيسة، الماسونية.. كلاهما المبنيان من الطين يستمران على سطح التاريخ بفضل عادات دون روح. سيكون ذلك دون أمل، أليس كذلك؟ اللهم إلا إذا...

اختفت ابتسامة جاك فجأة، ملامحه أصبحت جدية، أقل تقسيم من قسمات وجهه تبدّل شكله، تجاعيده زادت عمقاً وينحني على الطاولة وأشار بسبابته على وصية المجنون.

- إلا إذا، كانت الحقيقة الفريدة الوحيدة موجودة في هذا المخطوط! أصلّي كل الأيام لكي تنيرني وتهديني هذه الحقيقة، أتوسل إلى الله أو المهندس الباقي الكبير للكون، بالأحرى إني أعتقد أنهما يتشابهان مثل توأمين.

* * *

- حسناً، نفخ الرجل وهو ينزع جهاز الاستماع من أذنه. يجب أن لا نضيع الوقت مع نظرياتهم الضبابية الفلسفية الكاذبة، ضعوا المتفجرات.

- حدّد كارلو: كتلة من البلاستيك عند أسفل ذلك الباب، ثانية في أعلى الدرج، والتنفيذ فوراً والعمل بمساعدة لورنزو.

- جهاز تفجير متداخل في كل من الكتلتين من المتفجرات، التفجير سيتم من الخارج اعتباراً من جهاز بث موضوع على تردد جهازي التفجير نفسه.

- صعد حراس الدم الدرج ليعودوا إلى الغرفة الرئيسة في الطابق الأرضي، هناك، كارلو، الذي أخرج من كيسه أنبوباً، ذرّ محتواه بعناية - نوع من المعجون الشفاف، مفتوح عالي القابلية للاشتعال - على الأثاث، حواجب الأبواب، الدرجات الأولى من الدرج المؤدي إلى الطابق.

ثم غادر الرجال الثلاثة المنزل، عبر الغابة من جديد ليصلوا إلى مخبئهم في الحفرة.

قال الرجل: هؤلاء الأنجاس! علمنا على الأقل أين كانوا في الماضي يخبئون الوصية والحلقة، هذه المرة سوف لن نترك لهم الوقت اللازم ليخبئوها.

- في قبر! قال لورنزو، هذا لا يدهشني من قبل هؤلاء الماسونيين، هم وشعائرهم للموت.

- طلب الرجل من كارلو: ناولني جهاز التحكُّم عن بعد. ناوله كارلو الجهاز، نظر إلى الجهاز لثوان طويلة مبتسماً بالرضا والاكتفاء، لم يبق له سوى الضغط على الزر، ولن تكون الوصية، المحفل الأول، وسر يسوع سوى أسطورة أو خرافة.

ـ وداعاً، الإخوة الأعزاء، قال هذا وهو يضغط على زر جهاز التحكم.

* * *

انفجاران ضخمان، أحدهما غطى على الآخر.

الباب المدرع الثقيل انتزع من مكانه وقُذِفَ إلى داخل المكتبة. موجة حارقة، مُصِمَّة للآذان دخلت الكهف، قوتها كادت تقتلع الكتب، الكؤوس والأقنعة من رفوفها، مفقدة هيرتز وأصدقاءه توازنهم.

ثانيتان تقريباً، وكرة من النار تدخل الكهف باحثة عن وقود لها وسط الورق والخشب.

ـ صاح موزيل: يا الله.

ـ إنهم حراس الدم! قالها هيرتز بحقد مدركاً خائفاً على الكنوز التي أمضى حياته في جمعها سوف تختفي في النيران، وأنه غير قادر على منع ذلك، وأن كل وجوده يتفتت ويتلاشى في هذه اللحظة المحددة، لحظة صدى الانفجار.

ضم موزيل إيميلي بين ذراعيه ليأخذها إلى أبعد ما يمكن عن النار المتقدة، لكن الجدران مغطاة بكاملها بالكتب والمخطوطات، والغرفة ستكون قريباً عبارة عن أتون.

ـ استسلموا جميعاً، أمرٌ موجه إلى هيرتز والكاهن اللذان بقيا مجمدين في مكانهما. إلى الخلف بسرعة!

ـ صرخ جاك: جميع الكتب خاصتك، مارتن، نفثات مشتعلة من الدخان تدور سائرة على وجه الأرض.

الكتب تتساقط بالعشرات، بالمئات، تتطاير صفحاتها كالفراشات من النار يفنى كل ما خطه ناسخون مجهولون بعناية على ضوء الشموع. هلكت عيونهم على تحرير دقيق، طبعت صفحاته الأولى بالحبر المشحم الذي كان يغطي القضيم الفني (ورق من جلد العجل) كل غناه بالمعرفة والفن، يختفي في إعدام كبير، رائعة ومريعة هذه المحرقة حيث مات جزء من المعرفة البشرية التي تنادي دون توقف على فرائس جديدة لتقتات بها.

غول شيطاني جهنمي، يبتلع شدقه مئات السنين التي احتفظ بها هيرتز بعناية ووله، إنها روحه التي كانوا يحرقونها.

سمع المحامي العجوز ماذا يقول موزيل، ما الذي يطلبه؟ لأنه كان يسمعه من خلال فرقعة كتبه. نعم، ماذا يريد؟

ـ الخروج مستحيل!

نعم، ظن هيرتز. لنعد إلى الواقع، الدموع تملأ عينيه.

ـ هناك مخرج نجاة آخر، لكن يجب فتحه وجعله سالكاً، تعالوا! قال هذا وهو يستعيد إدراكه.

أرشدهم إلى مؤخرة الغرفة.

ـ باب، خلف تلك الرفوف، كنت قد أقفلته نهائياً قصد ربح حيز من المكان، وهذا يقود إلى مستودع.

إيميلي، موزيل وهيرتز أسرعوا ينزعون الرفوف بينما جاك يقف بعيداً، غير قادر على المشاركة في العمل، مستمراً بتكرار الجملة نفسها: «كتبك، مارتن! كتبك...» الحريق ينتشر ويمتد، الحرارة تصبح خانقة، حتى أنها تسد التنفس. الجمر والحريق يمتد لهبه ليشمل الغرفة. حشرجة حيوان لم يروِ ظمأه.

هيرتز وموزيل يدوسون الكتب الملقاة على الأرض ليكسروا الرفوف بضربات من أكتافهم، محطمين إياها قصد تحرير الباب الخشبي المجهز بمزلاج ضخم علاه الصدأ مع مرور الأيام، على هيرتز أن يشد بكل ما أوتي من قوة.

ـ سحقاً! قالها بفظاظة، هذا الباب الملعون لم يفتح منذ أكثر من نصف قرن!

النار تلتهم الكراسي، تلتف حول قوائم الطاولة و«وصية المجنون» صاح الكاهن مكتشفاً أنها ما زالت مع الحلقة على الطاولة.

كُسِرَ المزلاج أخيراً، شدَّ هيرتز وموزيل معاً على قبضة الباب فتوصلا إلى فتحه بالرغم من الخشب الذي شوَّهه الزمن.

دفع هيرتز إيميلي إلى الأمام قائلاً لها:

ـ يجب عبور المخزن بواسطة درج في طرفه، وباب في الأعلى، يكفيه دفعه ليفتح بسهولة. اذهبي، اذهبي، بسرعة!

انطلق موزيل بدوره، ماراً قبل هيرتز الذي سأله بنظرة من عينيه.

ـ سأصل، قال المحامي العجوز ذلك، ملتفتاً نحو الكاهن. ماذا تفعل جاك؟ أسرع!

ـ لكن مارتن، الوصية!

ـ كل شيء قد ضاع! كل... تعال!

ـ تقدَّم سأتبعك.

عبر هيرتز المستودع، منصة العمل أدوات على مساندها، صناديق، حلاقة العشب.. نور ألسنة اللهب يرقص على الجدران الاسمنتية.

صعد الدرج، ضاق نفسه، كل درجة تطلب مزيداً من الجهد. خرج أخيراً إلى الهواء الطلق، ملتحقاً بإيميلي وموزيل.

ـ صديقك؟ سأل الشاب بقلق. أين صديقك؟

ـ قال هيرتز وهو يكاد يختنق، انحنى على نفسه محاولاً التقاط أنفاسه: إنه يسير بأعقابي.

أصيب فجأة بنوع من الشك «جاك»! يقف، يعود نحو الباب، ينتظر، رافضاً الفكرة التي كانت تتضخم في ذهنه.

غير أن جاك يعود ويظهر وهو يصرخ، رافعاً وصية المجنون بيديه الممدودتين: «مارتن، المخطوط، يحترق!».

يحترق، مثل الراهب، الذي أصبح كمشعل بشري، لهب ينهش ظهره، ساقيه، وذراعيه.

ـ ديدييه، افعل شيئاً ما! صاحت إيميلي، بصورة هيستيرية.

جاك أصبح شعلة، يترنح، يسقط على ركبتيه في العشب، ممسكاً دائماً بالمخطوط الذي يبدو وكأنه يريد تقديمه إلى هيرتز، رافعاً إياه دائماً عالياً ليحميه، بحركة ساخرة ومقدسة.

عرّى موزيل جسده من كنزته التي يستخدمها محاولاً إخماد اللهب، معركة عبثية، مثيرة للشفقة ومؤسفة.

يهوي جاك ببطء نحو الأمام، مثل شجرة تسقط على الأرض، يطلق وصية المجنون من يديه أثناء سقوطه.

استبسل موزيل.

ـ لا أتمكن من إطفاء اللهب! لا أتمكن من ذلك! شدَّ هيرتز موزيل إليه حيث بدأت كنزته تشتعل. أرغمه على التراجع وترك جسد الراهب الممدد على العشب الأخضر الناعم. انفجر جسد الراهب، إنها العظام التي أكلتها النار كلياً. جاك لم يعد يتحرك.

داست إيميلي بقدميها على ما تبقى من وصية المجنون، فعلت ذلك بغضب شديد لإطفاء النيران، لتدوسها وهي تلعن وتشتم.

البناء الرئيسي من المزرعة بكامله يشتعل بفرقعة ضخمة قوية، الهواء يجف فجأة.

ـ قال هيرتز: لقد أخذ حراس الدم كل شيء مني، صديقي القديم، كتبي.. ووصية المجنون.. انظرا، لم يبق منها سوى بعض الصفحات المتكلسة!

بدأ يجهش بالبكاء، كتفاه العريضتان تهتزان، ذقنه تسقط على صدره، ساقاه تعبان لا يقويان على حمله، أمسكه موزيل.

ـ قال الرجل العجوز: عفواً.

عجوز، كما لو أنه عبر القرون مع حمل ثقيل على ظهره، ماشياً دون تعب، أشبه بذلك الهيكلي الآتي ليبحث عن الملك ليقوده إلى القديس يوحنا في عكا، أو ذلك الشمَّاس الشاهد على قتل نيكولاس وآنيان دو بادو أو أيضاً جيروم اليهودي.

اليوم، يكون قد بلغ الألفي سنة من العمر، مؤتمن المحفل الأول، لقد خسر الحرب ضد حراس الدم.

65

الجريمة

تدخّل رجال الإطفاء بسرعة، فاستطاعوا إنقاذ البناء الثاني القديم من المزرعة، الجسم المركزي، احترق كليّة. الجسور والعوارض الداعمة للطابق الأول انهارت تماماً، آخذة معها الجزء الأكبر من السطح.

تمكن رجال الشرطة بعد إعلامهم، من تحديد السبب الإجرامي للحريق لدى اكتشافهم بقايا جهازي تفجير.

نقل الكاهن جاك إلى غرفة خاصة بالموتى في مدينة سنس حيث أعلم هيرتز عائلته بوفاته. ستتم مراسيم الجنازة يوم الاثنين.

وجد أحد رجال الإطفاء الحلقة بين أنقاض الكهف، كان ذلك كل ما أمكن استعادته من الرماد، بالإضافة إلى سيفين ودرع.

* * *

عشية يوم الجمعة، الأسقف مونيتي، عجوز بدين، خطواته بطيئة وثقيلة، مرَّ من أمام عين الماء الصغيرة التي يروق له ماؤها، قرب محطة بث إذاعة الفاتيكان.

توقف لحظة ليبلل يده في ماء الحوض البارد، ثم يعود منها. يبدو أن كل خطوة تنهكه. في تقاطع الرواقين كان ينتظره شبح رقيق لراهبة ترتدي مشمعاً لم تتوقف عن النظر من فوق كتفيها، تارة إلى اليسار وأخرى إلى اليمين شبيهة بدجاجة تائهة.

دنا الكاردينال منها وقدّم لها بقوة شيئاً صغيراً وضعته على الفور تحت درعها (خاص بالكهنة).

ـ همس مونيتي: أربع قطرات، ستكون كافية، ثم غادر بمشيته الوئيدة بينما الراهبة عادت في الجهة المعاكسة.

السماء الرمادية تنذر بدنوّ العاصفة، بريقها يمتد من الشرق إلى الغرب مزمجرة من بعيد فوق روما.

فيما كان مونيتي يدخل إلى المكتب، حيث كان ينتظره أربعة كرادلة، بدأ المطر بالهطول، كان عصف الرياح ثورة غضب يضرب النوافذ العالية رغم ستائرها المزدوجة.

ـ قال مونيتي وهو يأخذ مكانه على كرسي بتأنٍّ كبير: كدت أفاجأ بهذا البرق.

تأمل الكرادلة الأربعة: ملامح مغلقة مكفهرة، عيون هاربة هذه المرة. سيدنا دو غيلليو لم يُدعَ إلى جمعيتهم. لاشك أنه حالياً أمام سرير البابا.. على الراهبة الانتظار لبعض الوقت لتجلب الشراب إلى الحبر الأعظم.

ـ قال مونتيني في تنهدة عميقة: لقد تمَّ الأمر.

ـ ليغفر لنا الله، تمتم أكبرهم سناً.

نهض رجل طويل القامة ضعيف البنية متوجهاً إلى أحد النوافذ، أبعد عنها الستائر المزدوجة وبقي لبرهة يتأمل منظر المطر قبل أن يقول:

ـ لم يعد بالإمكان إيقاف العملية، من الآن فصاعداً، لقد نجحنا أخيراً في إتلاف نسخة وصية المجنون التي يملكها هيرتز.

طبعاً، عملاؤنا في فرنسا، فضلوا تصفية آخر الفاعلين المزعجين في هذه القضية التي تدعو للرثاء.

ـ نحن حراس الدم، أقسمنا وتعهدنا بالحفاظ على السرّ، قال أحد الكرادلة: لقد تأخرنا.

ـ لأننا كنا حتى الآن خاضعين إلى غيلليو، أضاف آخر، كان المحفل قد أُعلم بأن يَخرُج على سلطته.

تابع الرجل الطويل النحيف من حيث يقف، دون التوقف عن النظر إلى الخارج:

ـ لقد دخلنا في القرن الذي يمنعنا من تكرار أخطاء الماضي.

حلَّ الليل مع وابل المطر.

ـ بمطلق الحقد، ملأ مونتيني كأسه من سائل عنبري اللون كان الكرادلة الأربعة قد بدأوا بشربه:

ـ قال أحد الكرادلة: شيء ما يحيرني: أتساءل كيف ستكون ردة فعل المحفل الأول، عدُّونا القديم جداً! لقد أصبناه بضربة قاصمة بحرق الوصية.

ـ قال مونتيني: صبراً عزيزي، لندع إخوته يخرجون من التراب لنقبض عليهم واحداً واحداً! سيدنا سيهتم بهم في فرنسا.

ثم ساد الصمت في الغرفة. يبدو أن الزمن قد توقف بالنسبة لانتظار طويل.

مونيتي الكاردينال الضخم كان يرشف كأسه بشفتيه الضخمتين بقبلات صغيرة مخلّة بالحياء.

الكل يفكر بالحبر الأعظم الذي حكموا عليه.

* * *

ـ مساء الخير، أخت أنطونيتا، إنه لطقس مروّع، أليس كذلك؟

- مقيت... مساء الخير، أخت كارلا.

دخلت الأخت أنطونيتا للفور غرفة صغيرة مجاورة لشقة البابا، بهوٌ محوَّلٌ إلى غرفة ملابس منذ مرض البابا الأخير.

الراهبات الممرضات يبدلن ثيابهن فيها، مرتديات قميصاً أبيض ومشايتان.

فتحت أنطونيتا خزانتها الشخصية لتأخذ منها مشمَّعها مختبئة خلف الباب المعدني، دسّت بسرعة في جيب لباسها الأبيض الحقّة التي سلّمها إياها الكاردينال مونيتي.

- قالت كارلا: أخشى دائماً اللحظة التي أعود فيها إلى الخدمة، أقول في نفسي ستكون هذه هي الليلة التي يأخذ فيها الله إليه حبرنا الأعظم.

- هذه الليلة... الصباح القادم؟ من يدري؟

ارتجف صوت الأخت أنطونيتا قليلاً، مع أن الأخت كارلا لم تلاحظ ذلك.

ما أن أصبحتا جاهزتين غادرت المرأتان مكان تعليق الثياب، سالكتان ممراً قصيراً يؤدي إلى غرفة انتظار عبارة عن أثاث مكتب داكن جداً، مؤلف من ثلاث كراسي مريحة ومن ساعة جدارية تُحصي ثوانيها المعدنية.

خرجت من الباب راهبتان أخريان، اللتان ستحلُّ مكانهما الأختان أنطونيتا وكارلا.

- أعلنت إحداهما: الكاردينال دو غيلليو موجود في الغرفة، طلب أن يترك منفرداً مع الحبر الأعظم مدة ربع ساعة. في الواقع لا تنسيا توقيع السجل قبل أن تغادرا، غداً صباحاً.

- وعدت الأخت كارلا وهي تبتسم: سيتم ذلك، ليس لأننا نسينا التوقيع مرة واحدة، أن يصار إلى تكرار ذلك الخطأ.

- إني عازمة على ذلك، تؤنبها الأكبر سناً منهما، حظاً سعيداً، تشجعا أنتما الاثنتين. ورقة المعالجة موجودة في الغرفة، على طاولة الأدوية. لا تخشيا من القيام بسقايته الماء، خاصة، حتى ولو رفض!

- نعم، نعم قالت كارلا، نعرف كلَّ هذا.

* * *

يوحنا الرابع والعشرون جالس في سريره، ظهره مسنود بين وسادتين ضخمتين، ينتهي من توقيع الملفات التي يقدمها له الكاردينال دو غيلليو.

- سأموت إذن وأنا أوقع أكواماً من الورق!

- سوف توقع أوراقاً أخرى عديدة قبل أن تموت، أبتي، يجب أن تقرَّ أنك تشعر بالتحسن.

- هيّا، تعرف جيداً أن الراهبات يجملونني (ماكياج) غيلليو. بأمر منك! سوف أتقدم قريباً أمام الخالق مزخرفاً مثل مومياء مصرية!

استعاد غيلليو الملفات التي وضعها في القميص، دون أن يلاحظ أنه نسي واحدة منها على طاولة السرير.

ـ قال بهدوء للمريض: أتركك لتنام، لقد أضجرتك بما فيه الكفاية بهذه الأعمال البيروقراطية الصغيرة.

ـ أمسكه البابا من طرف كمّه.

ـ بالعكس، لقد سلّيتني قليلاً، غيلليو. هذا غريب.. حضورك يجلب لي دائماً الراحة والطمأنينة. قليل من الحياة تدخل معك في هذه الغرفة. أشكرك على كُلّ هذا.

غادر غيلليو الغرفة آسفاً، تاركاً العجوز مع آلامه، لمخاوفه الليلية، لوحدانيته، ماراً أمام الأخت كارلا وأنطونيتا، ليقول لهما:

ـ علمت أن طبيبه زاد من جرعة المنوِّم، مع ذلك، فإذا ما حصل له كابوس، أطلب منكما أن تستدعوني في الحال.

ـ سوف لن نتوانى، سيدنا، تعده الأخت كارلا.

ـ سأذهب لأتأكد ما إذا كان سيتناولها بشكل جيد، تعلن الأخت أنطونيتا وهي تدخل في الحال إلى الغرفة.

ينسحب الكاردينال مطمئناً، وملفاته تحت ذراعه.

* * *

ـ آه، هذه أنت أخت أنطونيتا... دائماً عُطْر البنفسج.

ـ نعم، هذه أنا.

عينا البابا مغلقتان. لم يتحرك منذ مغادرة الكاردينال غيلليو. شعر بنفسه أنه في صحة تقريباً جيدة، خف ألمه مع العادة، الخوف من الموت تبدد مع الصلاة.

ـ دون حراك، متذوقاً كلية هذا الخدر التوامي، في انعدام الجاذبية بين الحياة والموت، يسمع الأخت أنطونيتا وهي تصدر ضجة تصادم بين كأس وحقة صغيرة... أدويتي لهذا المساء!..

ببضعة حركات سريعة ودقيقة، أخرجت القارورة الصغيرة من جيب ثوبها الأبيض وصبَّت أربع قطرات في الشراب اليومي.

اقتربت من السرير وبصوتها الحاد، تقول:

ـ عليك تناول هذا الدواء قداستك. دون شك سوف تكرِّر على مسامعي أنه مُرّ. وسأجيب أنك سبق وقلت لي ذلك أمس وقبل أمس.

ـ أعتقد أنه سوف لن يكون في عروقي من الآن وصاعداً سوى المنتوجات الكيميائية!

انحنت الأخت أنطونيتا، والكأس بيدها، الكأس المقدَّم إلى شفتي العجوز الذي لم يشرب منه بعد، فتح عينيه من جديد، حدقته متوسعة.

- صحيح أنه تفوح منك رائحة زكية! هذا سيبعدني عن عفن المرض.

- اشرب، أيها الحبر الأعظم.

- البنفسج... يتابع البابا. هذا ليس مألوفاً، إنه عطر خارج زمانه، ألا تظنين ذلك؟ هذا ليس لوماً، بل لأتجنب ذلك، بالعكس، هذا يذكرني...

لكن الذكرى تعثرت للحظة في ذهنه وغابت عنه. تنهد البابا، لكن لا فائدة من البحث، من نبش ذاكرته. عطر البنفسج هذا الآتي من طفولته لا يخص سوى شبحٍ من الماضي، وللأخت أنطونيتا.

- إشرب أبتي.

الصوت ملح متلهف.

تلقي الراهبة نظرات خاطفة على الباب، خائفة من دخول الأخت كارلا في أي لحظة.

البابا يقدِّم شفتيه المجعدتين، المبيضتين. الأخت تُميل الكأس.

* * *

توجه غيلليو نحو شقته. بصورة آلية وهو يمشي ينظر إلى الوثائق التي قدمها للبابا لتوقيعها. فجأة يتوقف، يفكر، يحصي الملفات. يعاود ذلك. أدرك أنه نسي واحداً في غرفة الحبر الأعظم.

«الملف الذي عليه إرساله غداً صباحاً إلى الشؤون العامة!».

عاد على أعقابه، مغتاظاً لأن عليه إزعاج العجوز مرة أخرى.

«أغلب الظن أنه غطَّ في النوم».

* * *

- خذ.. اشرب، اشرب كل شيء!

- لكن لماذا ترتجفين لهذه الدرجة، ابنتي! هل أنت مريضة؟

- كلا، قداستك. كلا، أؤكد لك. هذا على الأصح لأنني آسفة لرؤيتك في هذه الحال.

- إذاً هل أخيفك؟

أنطونيتا لا تجيب، تنتصب. شرب البابا كل محتوى الكأس. تحركت قسماته أولاً بسبب مرارة المشروب، ثم أصيب بهقّة عنيفة وتشنجات شوهت وجهه، أصابعه الهزيلة، أظافره البيضاء تمسكت بأغطية السرير بينما كان يحاول استرداد نفسه الذي لم يتمكن منه.

فُتح الباب، شبح دو غيلليو الضخم يملأ العتبة.

كان لدى الأخت أنطونيتا متسع من الوقت لتخفي القارورة الصغيرة في ثوبها، تحاول كبح رغبة مفاجئة بالإقياء وبينما كان غيلليو يقوم بعدة خطوات في الغرفة، تصيح:

ـ آه، سيدنا، أعتقد أن قداسة البابا المسكين في حالة صعبة، فقد وعيه فجأة، بينما كنت أعطيه دواءه.

أسرع غيلليو نحو السرير. مكتشفاً مرعوباً من حالة المريض، الرأس مرتدّ إلى الخلف، زبد كثيف يخرج من فمه المفتوح.

ـ سيدنا! يا إلهي! كان عليك أن تقرعي الجرس أن تنبهي! يا له من ضياع للوقت!

البابا يوحنا يتنفس قليلاً جداً، إنه يغرق.

استدعي طبيبه فوراً، انظري إنه يختنق..

ارتمى غيلليو على السرير وبحركة بنويّة أبوية، عانق المحتضر، ضاماً إياه إلى صدره كما لو أنه يريد إخراجه من الظلمات.

ـ كلا! أرجوك.. تمسّك أيضاً، قداستك!

لكن البابا لا يسمع شيئاً. لا يرى. بل يحشرج. هنا بقايا آخر علامات الحياة التي تبقى فيه: هذا الصفير الخشن، المتألم. بخطى متوترة، نزقة، تغادر الأخت أنطونيتا الغرفة آخذة معها قليلاً من بنفسجها العطر.

* * *

الغرفة الآن غارقة في الظلام، مصباح خافت على طاولة السرير ينشر حوله هالة من النور المشؤوم. كان يسمع فقط صوت خرير ونفخ محرك المنفاس المتنقل. الحبر الأعظم ما زال يتنفس خلف قناع الأوكسجين الشفاف. لكن صدره الهزيل يتحرك بشكل خفيف، إنه يرقد مثل محتضر وسط نور مصابيح غرفته الذهبي، تحت لوحة من عمل فرا أنجيليكو، حلقة من حياة القديس نيكولا الذي بين الوجوه التي كانت تظهر في الظلمة.

حرك الطبيب الشخصي لقداسته رأسه، غيلليو يراقب.

ـ إنه يتنفس، هل يروق له التكرار منذ بضعة دقائق متمسكاً بهذه الحقيقة، يشرح الطبيب.

ـ وحدهما قلبه ورئتان تبقيانه على قيد الحياة، لكن انظر بنفسك! إنه غائص في حال سبات عميق. الصور الطبقية المحورية ستؤكد توقعي. أخشى ذلك: إنه لن يستعيد أبداً كامل عقله.

ـ لن يكون هناك تصوير طبقي محوري (سكانير)! أجاب غيلليو بصراحة. البابا لن يخرج

أبداً من هذه الغرفة، لقد قطعت لنا عهداً بالإخلاص، دكتور، لا تنسى ذلك. ما دام الحبر الأعظم سيملك نسمة حياة، فإنه سيبقى الحاكم!

ـ فعلاً لقد تعهدت، سيدنا. لكن كم من الوقت يمكن لجثة أن تحكم وتمسك بزمام الكنيسة؟

اقترب غيلليو من الطبيب ليقول له:

ـ هو الوقت اللازم لكي نتصدى لهجمات أعدائنا الكثيرين. فقط الوقت اللازم لمنع الكاردينال مونتسبا من تنظيم الانتخابات لصالحه. سنكذب دكتور.. وأكثر ضماناً للأمن، سأخفض عدد الفريق الطبي المكلف بتقديم العناية لحبرنا الأعظم، يجب علينا ممارسة استراتيجيات عديدة لنثبت للعالم قاطبة أن يوحنا الرابع والعشرين ما زال يدير شؤون الكنيسة، متابعاً فترة ولايته بالرغم من إعيائه الكبير.

صوت نفخ الآلة التنفسية كان يدوي في الغرفة، الرجلان يتأملان العجوز الجثة، بشرته المائلة للبياض.

كانا يشعران أيضاً بالرائحة الخاصة للأجساد التي تتعفن من ذاتها قبل أن تتكفل الأرض بذلك.

ـ بماذا كان يحلم؟ سأل غيلليو. أين ذهب فكره؟

أجهل، سيدنا. تخطيط دماغه الكهربائي مسطح تماماً لا يبدي نشاطاً، من الناحية الطبية سأكتفي بالظن أنه لا يحس ولا يشعر بأي شيء، وأنه فقد الاتصال مع الحياة، وأن هذه الحالة غير عكوسة.

ـ هل أنت مؤمن حقاً دكتور؟

ـ أنا كذلك، طبعاً على طريقتي، لأنني رجل علم، لكن باستطاعتي أن أؤكد لك أنني أؤمن بإله موصى به، ذلك الذي تخدمه يناسبني تماماً.

ـ نعم، ذلك الذي أخدمه والذي من أجله أخالف قوانينه (شرائعه)، الكذب، الخيانة، الإخفاء...

ـ الله لم يسبق له أن لقّن قوانيناً، سيدنا، البشر هم الذين صنعوها.

صوت ضجيج الآلة التنفسية، المؤشرة التي تظهر على شاشة جهاز المراقبة الإلكتروني كأرقام أو خطوط بيانية غير مطمئنة. رسائل تظهر ما تبقى من الحياة في الجسد المسكين للبابا يوحنا الرابع والعشرين. ومن ثم، يكاد لا يشعر بها، ساعة في الجو المشبع بروائح العقاقير الصيدلانية، رائحة بنفسج باعثة على الشك.

66

سرُّ الله

الأسبوع الثالث.

الاثنين الساعة الخامسة عشرة والنصف.

جرت مراسيم جنازة الأب جاك في مقبرة فيلليري الصغيرة بحضور عائلته وجميع سكان القرية الذين، حضروا بعد العزاء إلى منزل مارتن هيرتز محاولين التخفيف عنه ببعض الجمل التي تنم عن صداقة، وربت على الكتف حركات غير دقيقة لكنها صادقة، شفوقة وحميمة.

هيرتز وقبل العودة إلى سيفر، رغب في المرور بمزرعته ليطلب من إيميلي وموزيل مرافقته.

عندما وصلوا إلى المكان، اكتشفوا أن فريقاً من البوليس العلمي ينبش في الحصى التي حولتها ألسنة اللهب إلى وحل أسود متجمد.

أمام هذا المشهد، ترنح هيرتز، وبدأ بالرجفان والارتعاد كما لو أنه أُصيب بنوبة حمى مرتفعة. إيميلي وموزيل مدّا له يديهما. تقدم وهو يتمايل، على وشك الإجهاش بالبكاء، أقرّ قائلاً:

ـ لم أجرؤ حتى الآن على إخبار ليا بما جرى، لقد تكلمت معها هذا الصباح، كنت أفكر بأن آتي بها للنقاهة إلى هذا المكان.

قال موزيل مندهشاً:

ـ ألم تخبرها بوفاة جاك؟

ـ لم أجرؤ على ذلك، لقد لامتني كثيراً حول متابعتي لهذه القضية. فرنسيس، ارنستو، جاك.. ثلاثتهم قتلوا على أيدي حراس الدم. لا شيء.. كل كتبي المحروقة! يا إلهي، لا يمكنني الاعتقاد أن على رأسهم سلطة الفاتيكان. البابا على فراش الموت، لحساب من يتصرف الحراس الآن؟ من؟...

تقدم نحوهم الملازم رئيس الفريق العلمي. رجل قصير القامة لا عمر له، لطيف ومتفهّم:

ـ سنكون دون شك قد انتهينا من أخذ العينات والبقايا عند المساء. سيد هيرتز يمكنك بعد ذلك نقل كل ما وفرته النار.

ـ أجاب هيرتز كما تريد. صديق في القرية عرض علي الاهتمام بذلك، لكن لم يبق أي شيء يمكن أن تكون له فائدة ما بنظري.

ما كنت أحافظ عليه كان موجوداً في البناء الرئيسي الذي أحرق تماماً.

ـ أتفهم، قالها الملازم متعاطفاً... دون شك سنكون بحاجة إليك خلال تحقيقنا. كن مطمئناً بأننا سنقوم بالضروري لكشف المجرم الذي أضرم النار في منزلك.

ـ لا أشك بذلك، قالها المحامي العجوز بشكل آلي.

لم يتمكن من إبعاد ناظريه عن الأنقاض، الجدران المتسخة بالشحار، الجسور المائلة نحو الأرض، الآجر المنتشر في كل مكان.

ـ تعال مارتن، نصحه موزيل بقوله: لقد حان وقت العودة إلى المنزل، ستصعد معي، وستقود إيميلي سيارتك.

ـ قالت إيميلي: ديدييه محق، حالتك الآن لا تسمح لك بالقيادة.

قبل هيرتز بحركة من رأسه وسمح لنفسه بالذهاب نحو السيارتين المتروكتين على مدخل المزرعة. ما أن وصل إليها حتى أخذ يبدو وكأنه يستعيد قليلاً من إرادة الحياة.

ـ أرجوك ديدييه، افتح صندوق سيارتك.

ـ هل لي أن أعرف لأي سبب مارتن.

ـ أريد رؤيته، لمسه، أرجوك!

وافق موزيل على فتح صندوق السيارة، انحنى هيرتز.

إنه هنا، الشيء المقدس. ذلك الذي يبقى من وصية المجنون يوجد في كيس عادي من البلاستيك، إلى جانب الحلقة المسودة بفعل النار.

أمسك هيرتز بكيس البلاستيك، يفتحه، يخرج منه بعناية المخطوط الذي لم يبق منه سوى الغطاء الذي وفّرته النار وكذلك بعض الصفحات المتقرنة المتصلبة.

اقتربت إيميلي بدورها.

ـ لا فائدة من تعذيب نفسك، مارتن. أنت لست مسؤولاً.

ـ كنت المؤتمن على هذا الإنجيل.. كان عليَّ صيانته وحمايته!

بينما كانت إيميلي تعيد المخطوطة بقوة إلى الكيس، كان موزيل يساعد صديقه على الصعود إلى السيارة.

- هيا، لنعد!

بعد أن أخذ مكانه، طلب هيرتز من موزيل الذي كان يدير المحرك:

ألا تظن أنه كان علي القول لذلك المحقق أنني كنت ضحية اعتداء أصيبت أثناءه زوجتي بجراح.

- سيعلم ذلك سريعاً، مارتن. لدى البوليس أجهزة كمبيوتر ذكية بما فيه الكفاية لتكشف عن هذا النوع من التقاطع.

حواسيب ستربط عدة نقاط، أنت تعرف فرنسيس وقد مات وتعرف إرنستو، وقد مات، أنت تعرفني، ومكتبي قد تعرض للزيارة! سينسج البوليس قريباً شبكة ضيقة حولك. ولكن من الممكن أن يتغاضى أو يتجاهل بعض البديهيات.

- يجب أن لا يضيع الأمل في ذلك، قال هيرتز. كيف سأجيب على الأسئلة التي سيطرحها علي المحققون؟

- الإقرار بأننا نبحث عن قبر المسيح وأن شركة سريّة مرتبطة بالفاتيكان تصفي البعض منا تلو البعض؟ لا! لا يمكننا قول شيء من هذا القبيل من دون أن يُصار إلى تصنيفنا بين أخطر المولعين بالكذب.

استشف إذ ذاك أن عملي في مؤسسة ماير سينتهي بين ليلة وضحاها، نحن وحيدون، حقاً وحيدون! إلا إذا كان المحفل الأول الأسطوري الذي تتكلم عنه يقدر أن يمد لنا يد العون.

اكفهر وجه هيرتز، وغاص رأسه بين كتفيه، فيما جبينه ظهر مثلّر بتجاعيد عميقة.

- أنت لا تجيب مارتن؟

- ليس لدي سلطة لاتخاذ قرار، لكن مع ذلك يمكنني التأكيد على أنني قدمت التماساً يعنيكما وأنتظر الرد.

- محفل سِرِّي جداً، سري لدرجة أنني توصلت إلى الشك بوجوده. أليس هو على الأصح نادٍ بسيط توجد فيه حفنة من التسعينيين الذين يناقشون فيه حول جنس الملائكة؟

- ديدييه أنت لست رحيماً مع هذه الأخوية التي أسسها يسوع، والتي أتشرف بالانتماء إليها!

- أنا آسف، نسبها إلى المسيح يبقى افتراضياً بنظري، أقرُّ بأنني كنت مشوشاً بالروايات التي قدمتها لنا، لا يمنع أنني أندهش من أن لا يكون ذلك المحفل قد توصل إلى نقل سرِّه الرئيسي، وأن عليه اليوم حلّ هذا اللغز الكامن بفك الرموز الموجودة في إنجيل سِرِّي.

تابع هيرتز:

- قلت لك، لقد قاسى المحفل الأول بعد تعرضه لانقسام أيام حكم الملك فيليب لوبل. الذي أدى إلى فقدان جزء كبير من التقليد. نفكر أنهم وحدهم، معلمو المحفل الكبار، كانوا ينقلون

السِرَّ شفهياً لبعضهم. قبر جاك دو مولاي. مع ذلك نحن متأكدون أن الهيكليين كانوا قد دلوا على مكان وجود القبر في وصية المجنون.

رد موزيل بسخرية:

ـ في أحجية، لغزٌ رمزي، شيء من هذا القبيل؟

ـ لم لا؟

أبدى الشاب ملاحظته قائلاً:

ـ ومع ذلك، قد يكون فرنسيس اكتشف المكان، بحسب رسائله والشريط الذي أرسله لي.

ـ أظن أن ثمة طرقاً عديدة للوصول إلى الهدف.

ـ أسلافنا، الهيكليون، كانوا حذرين؛ لقد تركوا ظاهرياً بعض الدروب والطرق المرسومة من خلفهم ليستعملها ورثتهم.

الأخوة الأوائل الحاليين يملكون هذه الحقيقة التي لا يرونها أمام أعينهم.

هذا صحيح يبالغ موزيل، ذلك هو ما يقلقني؛ بما أنك من الأوائل، يا مارتن وتمتلك وصية المجنون، لماذا لم تتوصل إلى حل هذا السرّ؟

ـ لقد قادتني خطواتي دائماً إلى الكنيسة الصغيرة في غابة الشرق.. أتوقف هناك، لانقطاع الطريق. قبر المسيح أصبح قريباً جداً، وسط المستنقع، المكان الذي استثمره هوغس دو باينس وأنجز فيه العديد من الأعمال. نعم، أؤمن بداخلي أن يسوع يرقد فعلاً في هذا الوسط (المحيط).

ـ حدّد موزيل في قلب المثلث.

ـ مثلث رؤوسه محفل بايلي، العنزات، اللبوة.

* * *

اقترح هيرتز على إيميلي وموزيل قضاء فترة بعد الظهر برفقته في سيفر. اعترف المحامي العجوز يخشى الوحدانية ويرغب في أن نشاركه مأساته.

في المكتب، الغرفة التي أحبها جداً، والتي شاخت مثله، صَبَّ لنفسه كأساً من الويسكي، ولدى هبوط الليل، قررت إيميلي وموزيل قضاء الليل معه خوفاً عليه من الانهيار.

حاول موزيل إعادته إلى توازنه:

ـ أغلب الظن أنك لن تستطيع تحمل كأس جديدة، يا مارتن.

بما أن هيرتز رجل التحدي، أجاب بصوت ثقيل، وعينان محمرتان:

ـ لو كنت مكانك لما راهنت، ديدييه... أعتقد أنني هذا المساء قادر فعلاً على احتساء ليتر من شراب حبوب الشعير المنبتة!

تمسّك المحامي العجوز من الطاولة، مبتدئاً بحركات مالئة الجو بزخارف جسورة مكرراً بإلحاح أنه قادر على شرب قارورتين أخريين.

لم يمضِ وقت طويل حتى احتفظ لنفسه بكأس كبيرة بمساعدة إيميلي.

ـ في هذا الكأس ما يكفي لطرد خيال وصورة صديقي جاك وهو يحترق تحت نظري!

ـ قالت إيميلي عندما يزول السكر، ستعود ذكراه إليك عندها بأي حال ستكون؟

لم يعط هيرتز الجواب فوراً، بل فضّل متابعة الشراب، وإثبات أنه ليس بحاجة إلى أي سند ليحافظ على توازنه. أبعد يده عن الطاولة أيضاً ليقوم بخطوة، واحدة فقط، التي اعتبرها انتصاراً، هذا الانتصار الذي ينقله إلى التفاخر المضحك.

تهيأ موزيل للتدخل، ومن ثم الوثوب من كرسيه ليساعده في حال السقوط. القط الضخم يترنح في مكانه، الخدان قرمزيان، العرق يملأ جبهته، الحاجبان مقوسان.

أشار هيرتز بإصبعه باتجاه إيميلي قائلاً:

أنت.. أنت تفكرين بفرنسيس، أليس كذلك؟

ذلك المخطوط القاتل هو الذي قتله، من ذلك سيقتلنا الواحد تلو الآخر! هو وحقيقته الملعونة.. أحرقت الحقيقة! والحقيقة أضحت دخاناً.

أصبح قلق موزيل مبرراً في الحال، بدأ هيرتز يتمايل من الأمام إلى الخلف، الأرض تختفي من تحته، يبحث عن استدراك ذلك بالتمسك في الفراغ، «تباً لها»، تعجب وهو يقلب محتوى كأسه على وصية المجنون التي سحبها من الكيس البلاستيكي ووضعها على الطاولة إلى جانب الحلقة.

قفز كلٌّ من إيميلي وموزيل من مقعديهما، هرعت الأولى نحو البقايا المتكلسة للمخطوط المبللة بالكحول، واستطاع الثاني تثبيت ما يقرب من مئة وعشرون كغ من اللحم والعظم وهو يقدم كتفه بغية منعه من السقوط على الأرض. فقدان التحكم بالذات.

اعتذر هيرتز:

ـ أنا آسف، إنه فقد مؤقت للتوازن.

ـ أسف موزيل وقال: هذا غباء، مازلنا نستطيع إنقاذ بعض النصوص...

نظر الشاب بقرف إلى خرقة جلد العجل التي يتقطّر منها سائل بتي «شيء لم يعد له أي قيمة!».

جر هيرتز جسده الثقيل نحو كرسي مريح وارتمى عليه بائساً، مختل التوازن، يتصبّب

عرقاً. أدرك فقط أنه أنهى عمل حراس الدم، وهو الآن المؤتمن في المحفل الأول!

هذا التحقق جعله يستعيد قليلاً من وعيه. نظر إلى موزيل وهو يفتح الملف الأصفر الذي تحول إلى رقائق بالية سيئة المنظر، ويقلب صفحاته بدقة ليفصل بعضها عن بعض بحركة بطيئة أشبه بعمل طبيب جراح.

فجأة، توقف الشاب مندهشاً، انحنى عن كثب، وأنفه يكاد يلمس ما تبقى من المخطوطة: لكن، يا لله!..

لم يصرخ، ولم يتعجب. لقد أقسم فقط في داخله، بصوت غير معهود، وتعبير غريب ينير وجهه، بمزيج من العجب والذهول.

سألت إيميلي متشوقة ومتلهفة:

ـ ماذا؟

تابع هيرتز:

ـ حسناً، ديدييه، هل رأيت الشيطان وهو يبتسم لك في هذه القطعة من الفحم؟

التفت موزيل نحو صديقيه مبتسماً:

ـ ليس الشيطان مارتن، إنه أفضل من ذلك: عجيبة صغيرة جميلة، على الأصح! الصفحة التي تتضمن رسم آنيان دو بادو! صورة الله الخالق... زخرفة صغيرة ظاهرة في نسيج الورقة.

ـ ماذا تريد القول؟ دُهشت إيميلي ونهضت، متبوعة بهيرتز الذي ما تزال ساقاه ضعيفتين.

اقترب كلاهما من الطاولة وانكبّا بدورهما على بقايا وصية المجنون.

على الصفحة المتكلسة، المتآكلة، المبللة، حيث رسم آنيان دو بادو الله الخالق يقيس الأرض بفرجاره. اختفت الزخرفة بجميع ألوانها الحمراء، الزرقاء والذهبية التي التهمتها النيران.

لكن هناك تحت الطباعة، زخرفة مماثلة للأولى عادت إلى الظهور وفرضت نفسها كما لو كانت بأعجوبة، في حبكة النسيج المُدَرج المتفحم.

ـ قالت إيميلي كما لو أنها نيغاتيف (السلبية) لصورة عادية.

ـ انظر مارتن، هذا هو السبب الثاني الذي من أجله قتل الهيكليون نيكولا وآنيان دو بادو، فرضوا عليهما إخفاء هذا المخطط تحت الصورة التي رسمها آنيان.

ـ مخطط: قال هيرتز وهو يستعيد قدماه على الحقيقة. رسم أو مخطط باطني سرّي! هو ذا، إنه الآن تحت أبصارنا والذي لم يكن باستطاعتنا رؤيته! هوذا السبب الذي دفع فيليب.. فيليب أوغست أن يقدم للبابا النسخة الأخرى.. هذه النسخة لا تتضمن الرسالة التي تركها الهيكليون.

- كيف تمكنوا من القيام بذلك؟ سألت إيميلي، أي ظاهرة كيميائية استعملوا؟

- اقترح موزيل أنه نوع من الحبر مركب من أملاح معدنية، كبريتات النحاس أو كلور الكوبالت.. تحت التأثير المزدوج للحرارة والكحول، تتلون الأملاح المعدنية في ألياف الورق. يجب بأي ثمن أن أدرس هذه الوثيقة في المختبر.

- جازفت إيميلي بالقول هل ذلك هو المفتاح الذي ينقصنا؟

أجاب موزيل:

- علينا عدم المبالغة في الحماس، يبدو لي هذا المصوِّر محكم السوء يتطلب منا عملاً تقنياً كبيراً لنجعلها مقروءة بشكل واضح، فالكاهن جاك لم يجازف بنفسه عبثاً، مارتن هو من أخرج الوصية من الكهف (القبو) الملتهب، وهو من أنقذ هذه الرسالة التي أرسلها لنا الهيكليون عبر الزمن.

قال هيرتز تعزية صغيرة ومشجعة، ديديه.. يا لها من سخرية القدر.. حراس الدم أنفسهم الذين ساهموا في كشف هذه الأعجوبة!

الأمر متعلق الآن بجعل هذا الرسم يتكلم، ومقارنته بالألغاز السابقة: الإشارات المكتوبة على هامش المخطوط ورسالة هوغس دو باينس. أظن أنني سأكون بحاجة إلى ذكاء نوبرت سوفير، الذي لا مثيل له في فك رموز هذا النوع من الألغاز. إضافة لذلك: فهو ليس مغفلاً، لقد فهم ما الذي كنت أبحث عنه.

- وافق هيرتز: مترجمك العجوز...! إنها فكرة جيدة رغم أن إيميلي تحاول إبقاءه واقفاً، صب هيرتز مجدداً كأساً آخر من الويسكي قائلاً:

- لحظة احتفالية.. تتطلب كمية من كاردو اشربوا معي أعزائي، في ذكرى جاك.

مبادرة سيئة جداً، قالت له الشابة.

وثق هيرتز من مقاومته فأقدم على شرب محتوى الكأس دفعة واحدة، مدّ عنقه رفع عينيه إلى سقف الغرفة. بقي هكذا لعدة ثوان، كانت نظراته تائهة، لم يستطع البقاء واقفاً مرتمياً على ظهره إلى الخلف.

بينما كان راقداً على الأرض، وجة ابتسامة إلى إيميلي وديديه، قائلاً: آسف... لقد هوى الحوت على الرصيف. رهان ضائع، ديديه... لم أعد أتحمل الكحول! لا شك أنه التقدم في السن... وضع ديديه المخطوط على الطاولة محاولاً إنهاض المحامي العجوز.

مدَّت إيميلي يد المساعدة، لكن المهمة بدت صعبة للغاية.

- قال موزيل: سأساعدك للصعود إلى غرفتك، لا أريد أن تنام سوى هذه الليلة لتمحو منظر حريق الخشب والمكتبة.

ـ وتنال زنة قنطار من النوم.

* * *

سمع حراس الدم الثلاثة بواسطة أجهزتهم التي تحدد المكان، المشهد الذي جرى للتوفي مكتب هيرتز.

أقدم الرجل على تركيب رقم على هاتفه المحمول، رنتان، محادثه من الطرف الآخر يرفع السماعة.

قدَّم الرجل رواية سريعة للحدث.

ـ كلا، سيدنا، في النهاية، لم يقوموا بوصف الرسم. لقد تكلموا فقط عن فكرة مخطط. في الحال؟ نعم سأصل.

أغلق الرجل محموله وتناول معطفه المعلق إلى مفتاح ثم توجه نحو الباب المحرشف.

ـ قال وهو يلتفت إلى الخلف، هذا شيء غريب! اعتقدت أن سيدنا كان سيغضب غضباً كثيراً، في حين بدا مازحاً بما أخبرته به.

ـ هل أعطاك موعداً؟ سأل كارلو.

ـ نعم، أنا ذاهب، هذا الحدث يفرض دون شك ردة فعل فورية من طرف المحفل الكبير. حافظ على التنصت.

ثم خرج، هابطاً الدرج الخشبي المُسوّس، منتبهاً أن لا يضع قدمه على بعض الدرجات الضعيفة، توجه نحو سيارته. مخطط، يُظن أن الهيكليين وضعوا رسماً تحت الزخرفة! لقد تطلب الأمر تكاتف الظروف المدهش.. النار، الكحول ليكشف عنه مثل نيجاتيف الصورة السابقة قالت أرملة مارلان...

67

الرسالة الثامنة

ـ يمكنك أن تضع فيه رغبتك مارتن!

ـ أحاول... أنا لم أكن أعرف أنني هرمت بهذا القدر.

ـ التقدم في العمر ليس له علاقة بحالة السكر التي أنت فيها!

أمسك درابزين الدرج ولا تتركه، سأدفعك من مؤخرتك وأخشى أن تأخذني معك أثناء سقوطك.

يبدو صعود الدرج الذي يقود إلى الطابق الأعلى مهمة خطيرة، هيرتز يشخر مثل ثور متوقفاً بعد صعود كل درجة، لإصابته بدوار. ودقات تصل إلى قلبه على حافة شفتيه.

راقبت إيميلي من البهو، التسلق البطيء والمتعب، لم تتمالك نفسها من الابتسامة أمام الموقف المضحك، كان موزيل أيضاً على وشك فقدان صبره، حيث بذل قصارى جهده في العملية، رغم ذلك لم يسرع هيرتز ظل يسير ببطء. ما أن وطأت قدمه درجة جديدة، حتى شرع بخطاب، يخلط فيه بصورة غير واقعية بذكرى فرانسيس مارلان، ذكرى أرنستو بونتغليون والكاهن جاك، منهياً كلامه بالبكاء أو بالضحك المتوتر.

أخيراً، في نهاية مجهودات متكررة، وبتشجيعات وملاحظات عدم رضى، تمكن موزيل من إيصال صديقه إلى كرسي الدرج.

ـ متى الـ... الأخوة في المحفل الأول سيعلمون التضحية بأنفسهم، وأن وصية المجنون قد كشفت لنا حقيقة أكبر أسرارها.

ـ لاحظ موزيل أن ذلك هو المبدأ الفعلي لكيمياء الشعوذة، الموت ليعود ويولد من جديد وسط النور.

ـ يُذَكِّر المحامي العجوز. ما قاله يوحنا الإنجيلي بأن النور يسطع في الظلمات.

ـ صيغة لتمويه تعليماتهم الهامة. وبما أن خطر السقوط مستبعد، فقد عادت إيميلي إلى المكتب مطمئنة. لم تكد تنهي الخطوة الثالثة عندما لمحت شبحاً يراقبها من خلف النافذة، ظلٌّ منحن على الزجاج ينظر إليها من خلف نظارات كبيرة. رجل يضع قبّعة، وما أن لمحته حتى ابتعد فجأة وذاب في الظلام.

ـ آه، ديديه! صاحت، ديديه.

ـ ماذا هناك أيضاً؟ سأل موزيل من على كرسي الدرج العليا.

ـ شخص، رجل ذو قبعة!

ـ أمر موزيل هيرتز بالجلوس على الدرجة العليا وانتظاره.

ـ لا تتحرك، مارتن، تمسك بقضبان الحديد ولا تحاول شيئاً!

ـ سمعاً، ولن أتحرك.

نزل موزيل الدرج بسرعة، مجتازاً البهو، ثم الوصول إلى المكتب.

بدت إيميلي، شاحبة وهي تشير إلى النافذة التي رأت من خلالها الشبح.

ـ كان هنا! أنفه ملتصق بزجاج النافذة، هرب عندما تأكد أنني لمحته.

ـ تأفف موزيل قائلاً: دائماً هو! يضع نظارات، له شوارب؟

ـ أعتقد، نعم. هذا ما جرى بسرعة! لقد أخافني كثيراً.

ـ أعرف، أفترض أنني عانيت الأحاسيس نفسها حاول موزيل أن يفتح النافذة ليقفز فوق حافتها.

ـ تساءل منذ كم من الوقت كان هنا يراقبنا؟

قفز الشاب في الممر المغطى بالحصى، واجتاز الحديقة الصغيرة، ليهبط مجموعة الدرجات التي تقود إلى السياج حيث وجد نفسه يسير في شارع جاكارد... «أنت تهذي، لقد كان لدى حامل رسائل ما وراء الموت كل الوقت ليهرب.. ماذا كنت أتصور؟ طبعاً، يذهب ويأتي.. لا شيء أكثر إلفة في ليلة من هذا النوع...»

إنارة شاحبة لمصابيح الجدران. ضباب المطر يغشي الأرض ويموّض الاحتمالات. ألقى موزيل نظرة أخيرة مقرراً العودة على أعقابه ولدى مروره أمام سيارته الغولف، لاحظ وجود رسالة موضوعة تحت إحدى مسّاحات الزجاج. عرف مسبقاً طبيعة الأمر. أخذها. «ديديه موزيل مكتوبة بيد فرانسيس مارلان، أحرف الـ«ا» منحنية قليلاً هذه «الرسالة الثامنة! أيضاً، كنت أتوقع وصولها.

عاد إلى الجناح وأظهر الرسالة إلى إيميلي.

ـ لقد اختفى الشخص، كعادته، لكنه ترك لي رسالة موضوعة تحت مساحة الزجاج.

ـ كلمة من فرانسيس.. يا لها من فكرة مرضية لو كانت لديه القدرة على كتابة هذه الرسائل قبل الموت!

وكم كان يحبك لكي يجد نفسه مجبراً على كتابة هذه الرسائل لك!

فضّ موزيل المغلف وأخرج منه ورقة مزدوجة من ورق السخيم، اقتربت إيميلي منه، وقراها بصوت واحد:

عزيزي ديدييه

بما أنك ستقرأ هذه الرسالة، فذلك يعني أنك تستمر في بحثك، لا يمكنني مساعدتك إلا بالتوسل إليك:

لا تحاول أبداً كشف الأكذوبة!

انس ما قلته لك عن المسيح، الحقيقة هي الموت.

أخوك فرنسيس

صوت هيرتز المزمجر يدوي في كل الجناح، خوار متلهف:

- ديدييه! هل ستتركني أنام على الدرج؟

- صحيح لقد نسيت عملي كدجاجة على البيض.

دسّ موزيل الرسالة في الجيب الخلفي لبنطال الجنز وصعد إلى الطابق حيث ينتظره هيرتز، جالساً على الدرجة الأخيرة، ممسكاً بيديه إحدى قوائم الدرابزين.

- من النادر أن يتخلى هيرتز عن زبونه أثناء الصعود. ماذا جرى؟ لماذا نادتك إيميلي؟

لقد فاجأني ساعي البريد الذي سلّمني رسالة تحذير جديدة من فرنسيس.

- ذلك.. المجهول يتعقبك. كان يعرف أنه سيجدك عندي. ذلك ما يدهشني، إنه يعرف كل شيء عنا. لا يخفى عليه شيء!

تأبط موزيل هيرتز ليدخله الغرفة ومن ثم يأخذه إلى السرير حيث يتركه يستريح. لقد انحنى حديد السرير تحت ثقل وزنه أشعل الشاب أحد المصباحين عند السرير، لحظتها راوده إحساس غريب، العطر، أولاً، اللطيف والحلو، لماء الكولونيا والبياضات الطرية المكوية، البياضات التي رتبتها ليا في الخزانة الكبيرة من الخشب الأصهب، الأثاث، السجاد، لحاف الريش، الوسائد، الرسوم المائية المعلقة في الجدران، عالم جامد. عالم صغير منسي مهمل في صداقة موزيل مع الشعور باغتصابها.

- شكر هيرتز: يا إلهي، كم أنا منهك! الذراعان ممدودان بشكل صليب على السرير، مدثراً لحاف الريش الذي يبتلعه.

- نصحه موزيل: وهو يفك رباط حذاءيه، طبعاً، يجب أن تنام فكر بليا، يجب أن تكون قوياً من أجلها.

- ليا، التي كاد حراس الدم أن يقتلوها، هي أيضاً، أشعر أنني جلبت الموت لها.

- هنا، أنت تتلفظ بالحماقات، مارتن.

ـ الحذاءان المخلوعان على البساط، شرع بمساعدة صديقه ليدخل بين الغطاءين دون الشروع بخلع الثياب غير المحتمل.

سأطوي لك غطاء السرير يا أخي العجوز ومن ثم أعود إلى إيميلي.

ـ شكراً ديدييه.

ـ سآخذ معي ما تبقى من وصية المجنون لأتفحصها مع سوفير.

ـ لو سمحت، تقلّب هيرتز وهو على وشك النوم، أتعرف ذلك المجهول.. إنه شبح فرانسيس.

ـ أرقد، مارتن.

* * *

انتظار، انتظار حتى تهدأ خفقات قلبه، ويتلاشى توتره، وتتوقف يداه عن الرجفان.. سيتوجه إلى سيارته وسيعود إلى باريس.

نام على المقعد الأمامي لسيارته، للفترة اللازمة ليعبر موزيل الشارع باحثاً عنه، كما في الماضي، شارع بورت ـ برانسبون، عندما كان على وشك أن يفاجأ.

انتظر.

«لم تعد هناك سوى رسالة واحدة التاسعة!».

68

المؤامرة

هذه المرة أيضاً، كان الرجل أول من دخل إلى الكنيسة ليكسب من الأسقف شرف استقباله. كما في المرة السابقة، كل شيء، سيجري بسرعة. بضع جمل، ثم يعطي الأسقف أمراً.

لم تمض دقيقة حتى فتح الباب الغربي الصغير، وليدخل منه شكل ضخم كبير بصمت إلى الكنيسة. تبدو خطواته وكأنها تنزلق على البلاط، في معطف أسود طويل، يدنو الأسقف من الرجل ويتلو الكلمات الطقسية المعتادة باللاتينية:

- الله معكم.

- ومعك أيضاً.

العينان غائرتان وداكنتان تحدقان بالرجل الذي يجهد في تحمل هذه النظرة ويفضل البدء فوراً بالحديث. تكلّم، ثم صمت لحظة ليهيئ نفسه للكلام، والتملص من ذلك الامتحان المرعب. يقول:

- كنا نظن أننا انتهينا من نسخة وصية المجنون الموروثة عن الهيكليين من طريق المحفل الأول. كيف تمكنا من التنبؤ عن هذه الإثارة الجديدة للأمر؟

- لا تلوموا أنفسكم، ذلك الاكتشاف السماوي (الذي جاء في وقته) قد يخدم مصالحنا.

- لا أرى بأي طريقة.

- كنت تحلم بإخراج المحفل الأول من الظل، يجيب الأسقف مبتسماً، حسناً، ستبلغ مبتغاك! كل أوراق اللعبة ستكون مكشوفة قريباً.

- الأوائل يتقدمون علينا بشوط، زيادة، تلك الرهبانية سرّية جداً لدرجة أننا لم نتوصل أبداً إلى التسلل إليها! نعلم بالضبط أن هيرتز هو أحد أعضائها.

- هذا كافٍ.

- نحن نشك أيضاً بأنه يقيم علاقات مع بعض الكرادلة، هل تظن أن البابا كان باستطاعته معرفة أن...؟

- عملاؤنا في روما أبعدوا الحبر الأعظم عن هذه القضية التي كانت تتجاوزه.

ـ ألح الرجل، مع ذلك، يجب أن لا يعتبر غيلليو بيدقاً يمكن إهماله.

ـ إنه ليس سوى قطعة خارج رقعة الشطرنج، إنني من الآن وصاعداً أسيطر على كل محافل حراس الدم.

ـ قريباً سننتهي من معركتنا، وسيبقى السر محفوظاً في هذه الألفية كما كان عليه في الألفيتين السابقتين.

ـ مع ذلك فالذباب كثير العدد يحوم حول الجثة!

نهض الأسقف ومشى بعض الخطى، معطياً الشعور لمحدثه أن هذا الحوار يضجره. ثم توجه نحو شمعدان مشتعل، ترتجف لهبته الضعيفة في تيار الهواء، وبحركة سريعة، مرّر يده فوق اللهب وقال:

ـ أعرف.. نعم أعرف! يجب علينا كتابة الفصول الأخيرة في هذه القصة، هل سبق أن كلمتكم عن العناصر الأربعة؟

ـ كلا، لا أظن، اعترف الرجل وهو يقترب.

ـ لكي تدخل أو تعطي الأسرار، يجب على الماسوني أن يخضع لتجارب وامتحانات الأرض، الهواء، الماء والنار.

ـ أفهم، لقد سبق أن أمرتني باستخدام النار لإتلاف الوصية.

ـ هل أنتم جاهزون لتلقي أمراً جديداً؟

ـ من شفتيك فقط، سيدنا.

* * *

كلٌّ منهم منهمك بمعرفة مارتن هرتز الغارق في سبات في شبه سبات كحولي... بينما كان موزيل يصعد سيارته جاءته رغبة في الاطمئنان عن صحة صديقه:

ـ لا بأس سأتصل به هاتفياً غداً باكراً، حتى ولو أيقظته.

ـ أرجو أن توصلني إلى بيتي؟ طلبت إيميلي.

ـ متاعك في صندوق سيارتي أليس كذلك؟ الطلب ليس سراً علينا أن لا نخدع أنفسنا: يمكنك قضاء الليل في شقتي حتى نهاية الأسبوع فيما لو رغبت بذلك!

ـ بين صديقين قديمين!

جلست إيميلي في السيارة واضعة على ركبتيها وصية المجنون ضمن مغلف من ورق الصّر بعناية.

أشار موزيل إليه بذقنه وهو يدير المحرك:

ـ خبثاء جداً، هؤلاء الهيكليون، ومتبصِّرون! نسخة وصية المجنون التي يمتلكها الفاتيكان لا تحتوي على المخطط أو الملاحظات التي وضعها الإخوة الأوائل، فيما لو صحت هذه التسمية، على الهامش طوال قرون.

هذا ما يعطينا بعض السبق والتقدم على حراس الدم، أليس كذلك؟

ـ أخيراً توجه مطمئناً! يجب أن تكون لدينا القدرة على تجاوزهم وحماية أنفسنا بالقيام بأعظم وأروع الاكتشافات التاريخية، أراهنك أن المخطط الظاهر بنوع من السحر تحت الزخرفة يدل على مكان القبر، شرط فهم حيله الكيميائية (ألغازه).

* * *

الشوارب المستعارة والنظارات ذات الزجاج السميك موضوعة على المكتب إلى جانب الصندوق الصغير الذي لم يعد يحتوي إلا على رسالة. الساعة تشير إلى الدقيقة العاشرة بعد منتصف الليل. لم يتمكن من النوم. تناول قرصين من برومازيبام وقرص من ستيلنوكس، لكن عبثاً. اتجه نحو الكونياك، لكن الكحول يحرق معدته لأنه لم يأكل شيئاً طوال النهار.

فتح أحد دفاتر المذكرات الحمراء، ليتفحص صفحة الملاحظات الموضوعة بشكل غير منظم والممثلة لرسم بياني معقد مكون من خطوط تجمع أسماء. ما يشبه الشجرة، فرعها الرئيسي يحمل اسم وتحته مباشرة اسم يوحنا، مُبَدَّل، ثم تحت ذلك بقليل كلمة الأوائل التي منحها لها المحفل الأول، متبوعة مباشرة باسم هوغيس دو باينس، ثم خط مستقيم طويل يقود إلى هيرتز الذي أحاطه فرنسيس مارلان بالأحمر. إضافة إلى ثلاثة مخططات أو رسوم تتوضع فوق الشكل مكونة مثلثاً: رأس ماعز، أسد، وميزان عدالة. في أسفل الصفحة، أخيراً، نسخة عن رسالة هوغ دو باينس مرسلة إلى ابن عمه برنارد، حيث وُضع خط تحت بعض الكلمات:

بقداستك وصداقتك المخلصة، عليك معرفة أنه في أرض الظل يرقد منذئذ أخونا الأول، وضع بعنايتي في مكان آمن، لقرون عديدة، ممتدة بين الشرق والغرب، سيبقى إلى الأبد النور والظل، سيسهر عليه الاثنان اللذان يحملان اسم يوحنا من الظهر حتى منتصف الليل.

ـ وضع رأسه بين يديه، إحساس بقرب تساقط الدموع، دون شك سيبكي، أيضاً وأيضاً.. لم يتمكن أبداً من إيقاف البكاء وهذا يحصل له حتى عندما يكون خارجاً. سيحب البكاء ولكن أكثر قوة.

«ما العمل؟ أنا وحيد.. إذا كانت إيميلي تشك بأنني أخدعها بهذا الشكل؟ يجب عليهم الإقلاع!.. عليهم فعل ذلك.. قبل الرسالة الأخيرة...

نهض، نحو المغسلة ليسكب على وجهه بعض الماء.

لكن ما أن وقف، عاد وسقط جاهشاً بالبكاء، حاول الإمساك بمكتبه الذي لم يسنده، فسقط هو والمكتب في الظلمات.

إنه ممدَّد على الأرض، يتقيأ المرارة ممزوجة بالكحول دون أن يعي ذلك.

* * *

وضع موزيل الأمتعة عند المدخل.

ـ قالت المرأة الشابة، أتصور مع عودتنا من عطلة نهاية الأسبوع سنكون أكثر رومنسية، وأقل مرضيَّة!

ـ لدي الشعور أننا في حالة حكم مع وقف التنفيذ، مع تهديد يحلّق مؤقتاً باستمرار! عندما ساعدت مارتن في النوم، قال لي هذا الأخير أنه يجذب الموت، مما أعطاني شعور بالوثوق به جيداً.

ـ ألا يوجد ما يستدعي ذلك؟

ـ نعم، لا جدوى من إعادة الحساب، بالفعل يموت الكثيرون من حوله.

تخلع إيميلي نعليها وتذهب إلى الصالون بعد أن تضع وصية المجنون على طاولة صغيرة منخفضة وارتمت على الأريكة.

ـ بدأت إيميلي الكلام، أتعرف ديدييه، لدي الشعور فعلاً أن الماسوني هيرتز صديقك هو في مركز كل القضية، لستَ مخطئاً عندما تقول أن الناس يسقطون قتلى من حوله! خاصة، أصدقاؤه.. كل أولئك الذين جذبهم إلى حلمه.

ـ قال ديدييه: ممتع رائع، هل لديك فكرة عن حلمه الصغير؟

ـ حلمك ذاته، حلم فرنسيس نفسه، وقد يكون حلمي أنا أيضاً الآن. لكل منا أسبابه الخاصة، كل واحد يقحم في هذا الحلم استيهاماته الشخصية.

ـ تابعي سيدة فرويد!

ـ هذا الحلم هو نوع من مرض أو تصوّر المرض.

ـ هذا جديد بالنسبة لي.

ـ طبيعي، إنه من اختراعي، هذا يقضي بأن ينظر الشخص إلى نفسه في المرآة ويرى فيها نفسه في المكان. أتفهم؟ من أجل أن ترى صورتك غير المعكوسة، أن تكون توأمك الذاتي، هو أن تكتشف ذلك الذي لا تراه أبداً في نفسك.

ـ قال ديدييه: البحث عن قبر المسيح، سيكون إذن علامة من مجموع هذه العلامات؟

ـ من أجل أن تبحث عن الحقيقة، يا ديدييه عليك قبول الموت في سبيل ذلك، وفقدان كل شيء، تماماً مثل هيرتز الذي فقد كل شيء.

69

الأوّل

مؤسسة ماير، الثلاثاء، الساعة السابعة وخمسة عشر دقيقة، العينان محدقتان في منظاري جهاز كاشف للإشعاع، موزيل وحده في مخبر «الجرد» يتفحص الصورة الظاهرة تحت الزخرفة في وصية المجنون.

حتى عندما دفع، أحدهم الباب من خلفه دون أن يلتفت أشار بيده.

ـ صباح الخير نوربرت، شكراً لمجيئك... لقد حضرت القهوة!

ـ أنت شخص غريب الأطوار يا ديدييه! أمس، وجدت صعوبة في الاتصال بك لا بل مستحيلة لأننا كنا بحاجة ماسة إليك هنا، واليوم توقظني في الخامسة صباحاً لتطلب مني المجيء إليك!

أغلق سوفير الباب من ورائه متجهاً مباشرة نحو ركوة القهوة الكهربائية (إبريق القهوة) متابعاً الكلام:

ـ أين اختفيت؟ لم تكن هناك من وسيلة لتحديد موقعك، لقد اغتاظ المدير حنقاً، هل نسيت أنه كان لدينا اجتماع مع رجال المدير وسكرتير الدولة؟

ـ ساور القلق موزيل وقال: آمل أن تكون قد أمسكت لسانك.

ـ طبعاً. لقد جعلناهم يقبلون بعض الإشاعات المغلفة داخل الخطاب العلمي الذي أغفاهم سيكون عليك رؤية هيلين وهي تقوم بدور الإغراء! أعتقد أن حركات ساقيها كانت بالنسبة للكثيرين السبب في التجديد لكامل إعاناتنا المالية.

ـ أتصوّر... تعال وألق نظرة على هذا!.

رفع سوفير نظارته على جبهته وانحنى بدوره على الكاشف (الرّاسم).

صبّ موزيل فنجاناً آخر من القهوة وهو يراقب ردود فعل الباحث العجوز. استمر هذا الأخير أكثر من دقيقة وهو يتفحص الوثيقة. عندما نهض عن الجهاز، كانت ملامحه تخون فضوليته، وبحركة من إبهامه، أعاد النظارات إلى موقعها وسأل:

ـ ما الأمر؟ من أين يأتي هذا الرسم؟

ـ لقد انتهيت من كشفه كيميائياً، كان مخفياً تحت رسم زخرفة من القرن الثاني عشر.

سحب موزيل ببطء وخفة وصية المجنون المحروقة حتى ثلاثة أرباعها وحملها إلى طاولة التصوير الطبقي المحوري.

ـ لماذا أنا، ديدييه؟ لماذا جئت بي؟ كان بستطاعتك طلب ذلك من روغترز، وهيلين.

ـ أنت تعرف ذلك جيداً، يا نوربرت. من يكون أفضل منك قادراً على مساعدتي لفك رموز سرّ من هذا النوع؟

جلس موزيل أمام شاشة مراقبة السكانر وبدأ تحديد معايير التنظيم.

كما جلس سوفير أمام الشاشة، ينظر إلى موزيل وهو يقوم بإنهاء التعديلات اللازمة ويقول:

ـ البحث والتحقيق اللذين أجراهما فرنسيس، موت البروفسور بونتفليون.. هذا السر الرهيب الذي يقتل جميع الذين يقتربون منه!

ـ لقد قمتَ بترجمة مجمل 456Q4 -458 وكنت الأول في إدراك أن يسوع لم يمت على الصليب.

ـ لقد تكلمنا عن ذلك وبعد؟ هذا.. «المسخيل» الظاهر في مخطوطات البحر الميت طبعاً هو المسيح الذي يكون بالأحرى قد مات بفعل الشيخوخة في قمران!

ـ لقد سافر يسوع، نوربرت تعال وألقِ نظرة على هذه الشاشة.

انضم سوفير إلى موزيل على الطاولة، وضغط الشاب على أزرار المونيتور قائلاً:

ـ قبره في مكان ما داخل هذه المتاهة، غير بعيد عنا. الرسم الذي أخفاه آنيان ونيكولاس دو بادو بطلب من الهيكليين في بنية نسيج الملف، يمثل مثلثاً قائم الزاوية، قاعدته إلى الأعلى. كل رأس من رؤوسه له غطاء أو شعار شرف يحتوي على رأس المركز للأسد، الثاني يحتوي على رأس ماعز، الأخير على ميزان يرمز إلى العدالة ويلمح إلى المكان المسمى المحفل بيلّلي. على الخط المستعرض الذي يصل صورة الأسد بالميزان، رسم الناسخون متاهة أو دهليزاً معقداً، دائرياً، مصحوباً إلى اليسار واليمين بدائرتين فارغتين.

ـ نعم، إن قبره موجود هنا، يتابع موزيل.

ـ أعرفك جيداً، ديدييه، لم تقم أبداً بإطلاق نظريات من دون أن تدعمها مسبقاً، ذلك يعني أن هذا يجب أن يؤخذ على محمل الجد، أليس كذلك؟

ـ هل تساعدني على حل طلاسم هذا الرسم؟

أنهى موزيل عملية التصوير بالسكانير، سحب وصية المجنون من الجهاز وعاد ليضعها في محفظته بعد أن غلفها مسبقاً بورقة من البلاستيك.

ـ قال نوربرت: هل ستساعدني؟

ـ طبعاً، لنعد هذا المساء إلى منزلي، لدي قارورة ويسكي لذيذة جداً لدرجة أنني أرفض تناولها بمفردي.

ـ كنت أعتقد أنني توصلت إلى تمويه هذه الخطيئة الصغيرة. بالواقع سأكون بصورة مؤكدة مصحوباً بصديق أرغب في تقديمه لك.

أظهر سوفير ابتسامة صغيرة وقال:

ـ هل له علاقة بهذه القصة؟

ألا يتعلق الأمر بمارتن هيرتز الذي سبق أن كلمتني عنه أحياناً؟

ـ إنك ماكر يا نوربرت

ـ لقد احترق المنزل الريفي لشخص يدعى هيرتز في أيون، يوم الجمعة.

حريق إجرامي مقصود... في هذا الصباح تخرجني من السرير لأرى الملف المتفحم مع رسم عجيب غريب ظهر في الفحم! ألم يكن هيرتز حاضراً في مراسيم دفن فرنسيس؟ أجهل حقيقة هذا الرجل، لكنني أقسم أنه ليس مؤرخاً أو عالم آثار.

ـ قال موزيل: اعذرني، لم أحسب حساباً للملكيات الفكرية العالية.

ـ دعك من هذا الإطراء، لست بحاجة إليه مطلقاً لكني أهتم بهذا الجزء اليسير من الملف. أعطني إثباتاً عن ذلك، لأضعه في محفظتي ولن أخبر أحداً حتى ولو بكلمة من سرّنا الصغير.

ـ شكراً نوربرت.

ـ أفعل هذا من أجلك، ديدييه، لأنني أقدّرك وأنت تعرف ذلك جيداً، ولكنني أفعل هذا أيضاً كذكرى لفرنسيس.

ـ لهذا السبب شكرتك.

* * *

الثامنة والنصف.

وصل هيرتز إلى سيارته المركونة في المستودع أمام درج المدخل لمنزل جميل بورجوازي أدخل عنقه داخل قبّة معطفه بسبب المطر الذي بدأ يهطل برذاذ ناعم. صعد ست درجات ليصل أمام باب عريض ينفتح دون الحاجة لرنّ الجرس. رجل في الخمسين من العمر واقف على عتبة الباب.

ـ صباح الخير ميتر.

ـ صباح الخير آندريه، أجاب هيرتز مبتسماً ظناً منه أنه كبير الخدم الذي لم يتمكن التخلص من عادته، بمناداته مُعلِّم عند كل مقابلة.

أفسح أندريه المجال قليلاً ليسمح له بالمرور.

خلع هيرتز معطفه وأعطاه إلى أندريه الذي أشار إلى الدرج الكبير قائلاً:

ـ إنه ينتظرك في الطابق الأعلى الصالون الأزرق.

اجتاز هيرتز البهو ببطء مستغلاً وقته في التمتع بزخرفته ولوحاته، وبنوع خاص لوحة صغيرة لدياز دولابينا: إنها رسم سريع لمخطط طريق داخل غابة منخفضة الأشجار داكنة. جاهلاً لماذا هذا الدرب من الطبشور المختفي تدريجاً بين الأوراق الكثيفة موحياً له وموقظاً في داخله ذكريات طفولة معطرة بالتُّرَب.

كرّر القول في داخله، وهو يتأمله: من الأفضل أن يكون موته شبيهاً بهذه اللوحة، نزهة أخيرة نحو غابة مليئة بالأشجار.

مرّ أمام كرسي دوار موضوعة بانتظار مالكها، دخل في الدرج المجهز بمقعد للمعاقين مثبت إلى مُسَنَّن على طول الجدار.

ما أن وصل إلى كرسي الدرج، حتى توقف هيرتز قليلاً مرة أخرى أمام لوحة بحرية «لأوجين إيزابي» ذات السماء المحروقة بغياب شمس الصيف، ثم استقل ممراً انحنت جدرانه بفعل العديد من منحوتات القرن التاسع عشر.

بدا كل المنزل جامداً جاثماً في ماض لم يتوقف عن البقاء إلى الأبد، معلقاً على السجاد القديم، والستائر الثقيلة والمنحوتات والجدران الخشبية. كل شيء فيه مستقر، معفى عليه، وبالٍ.

دخل هيرتز الصالون الأزرق المضاء فقط بضوء النهار الذي يدخل عبر النوافذ الثلاثة الوحيدة التي لم تغطى بستائر مزدوجة مضاعفة زرقاء.

أمام تلك النافذة جلس، رجل في كرسيه السيار مديراً ظهره، مشيراً بيده اليمنى لزائره، داعياً إياه أن يتبعه. الذراع الأيسر لا يتحرك منذ أربع سنوات، من جرّاء احتقان دماغي.

ـ لفظ هيرتز شرق ـ أصل.

ـ أجابه مارتن بصوت ضعيف أدخل، تعال واجلس إلى جانبي.

وبينما هو يتكلم أدار العاجز كرسيه قليلاً باتجاه محاميه متحكماً بها بواسطة علبة كهربائية موضوعة على المسند الجانبي الأيمن.

دنا هيرتز وجلس على الكرسي الفارغ الذي ينتظره ظاهرياً والذي يطقطق قليلاً لدى استقبال وزنه الضخم.

الرجل عجوز هزيل ونحيل البنية، يسبح داخل بزّة سوداء رائعة، خداه غائرتان، الحاجبان داكنان، الشفتان رقيقتان وجافتان، العنق خفيف والشعر أبيض غزير بالرغم

من عمره، رأسه منحنٍ دائماً على كتفه الأيمن، الوجه مؤلم، ومُصاب بشلل نصفي، وقال:

أخونا الكاردينال أصرّ عليّ أن أستقبلك خارج الجلسة، لست متأكداً من أن ذلك سيكون حذراً جداً.

أجاب هيرتز:

ـ الأحداث تتطلب ذلك، يا أخي الأول.

ـ ألم يسبق أن قلت لي كل شيء على الهاتف، هذا الصباح؟

القدر أَلْهَمَ حراس الدم بالكشف لنا عن سر وصية المجنون. بالحقيقة، لقد جئت لأطّلع على ما تبقى منها؟

ـ لقد تركتها لدى ديدييه موزيل..

ـ حسناً فعلت، دائماً هذه هي طريقتك بالتصرف... بارعة، رشيقة.!

ـ بالحقيقة، أنا تعب، يا أخي، تعب من التمويه، من الإخفاء، من الكذب.. تعب من حيلي القديمة.

ـ نحن الإثنان تعبان يا مارتن، مع ذلك يجب علينا أن نصمد قليلاً أيضاً.

رغب المحامي في إشعال سيجار، شمَّ رائحته العسلية والجلدية، لكن الأول لا يحتمل التبغ.

ـ كان علينا أن نقول له عن فرنسيس مارلان، تابع هيرتز. نعم، كان علينا أن نخبر ديدييه موزيل.

ـ هذ بالضبط ما لا يجب أن تفعل! فرنسيس لم يفصح له عن أي شيء لينقذه، سنفعل الشيء نفسه، طبقاً لِقَسَمِنا.

اعترض هيرتز بحدّة:

ـ نحن نستخدمه كما استخدمنا فرانسيس.

ـ لا أرى الأشياء على هذا النحو، مارتن. كلاهما قد قام باختيار، كان فرنسيس مخطئاً في العمل بشكل إفرادي عندما اقترب من الهدف. لقد فقدناه، أما هذه المرة فالأمر مختلف، أنت تسيطر على موزيل، وقد شاءت الصدفة أن يأتي إليك.

رفع هيرتز كتفيه.

ـ الصدفة؟ إنني بتفويض من المحفل الأول، ومباركة منك، قدمت له دعماً هاماً! هل من الواجب قول ذلك؟ لم يكن هناك أحد غير موزيل لاستئناف تحقيق فرانسيس، كل الأوائل كانوا موافقين على ذلك.

ساد الصمت بين الرجلين اللذين ينظران إلى هطول المطر على موقف سيارات المنزل.

قام الأول بتمرير يده اليمنى على جبهته وأعاد إلى الخلف خصلة من شعره الثلجي، ويرُد الصمت، قائلاً:

ـ أنت تتمنى وترغب أن يفتح المخطط من أجل موزيل؟

ـ بالفعل...

ـ وتستقبله باللباس الداكن؟

الخّ هيرتز:

ـ علينا أن لا نكرّر الخطأ الذي اقترفناه مع فرانسيس مارلان.

ـ أفهم... أتظن أن المخطَّط يمكن أن يكون مكملاً بالذي اكتشفته تحت رسم أو زخرفة الإخوة دو بادو؟ إن هذا ما يدور في خلدك؟ أليس كذلك؟

ـ صحيح، إن تحقيقنا يشرف على نهايته. تحقيق كلَّف حياة عدة أشخاص، ألسنا مسؤولين عن بعض الموتى؟

ـ اعتقدنا أنه باستطاعتنا إدارة كل شيء بالسرّ، يا عزيزي. كنا نظن أننا الأكثر مهارة في لعبة الظل المعقدة هذه، أكثر مهارة من حراس الدم.. الحقيقة حسب ما رويته لي، كنت توصلت إلى هذه الحالة: حضور بيننا وبين الحراس... أحدهم كان مرتبطاً بمارلان! والذي يعرف أشياء كثيرة.. المجهول ذو القبعة؟

ـ لم يسبق أن رأيته شخصياً، كاد ديديه موزيل أن يفاجئة مرتين، هذا الشخص يتطاير، يختفي مثل شبح، ليس لديّ أي فكرة بشأنه.. لنقل: لا فكرة منطقية، أظن أنه نسخة عن فرانسيس مارلان الذي يتابع عمله. أخشى أن يلومني على كثير من الأشياء.

ـ أنت خيالي، يا مارتن. أنت موجَّه عجيب يقع بسهولة في عملية الشعور بالذنب.

ـ كلا، أنا رجل عجوز يحلم بكشف الكلام الضائع قبل الموت، مثلك تماماً أخي.

ـ سآخذ بعين الاعتبار إلتماسك، أنت محق، لقد حان الوقت لاستقبال هذا البروفسور الشاب في جلسة استقبال.. سأعلمك بذلك.

ترك هيرتز كرسيه، وانحنى ليعانق العجوز المريض ثلاث مرات.

ـ شكراً.

يرسم الأول نصف ابتسامة على وجهه.

قال مارتن:

ـ سنسهر على أمن ديديه، أعتقد أنك تحبه مثل الابن الذي لم ترزق به أبداً.

ـ هذا صحيح، أقرّ مارتن، أحبه، لكن أنت مخطئ، لقد كان لدي ابن.. مات بعد عدة دقائق من ولادته.

70

V.I.T.R.I.O.L

الساعة التاسعة عشرة.

باحة خلفية في الدائرة الرابعة عشرة في باريس، بلاط الطريق يلمع من تساقط المطر. منزلان منخفضان متقابلان، شبابيك موصدة، مطبعة ذات ستائر حديدية مسدلة، مكان لِسلال المهملات، بعض الأحواض من الجير المُصَفَر، الملتوي.

كان نوربرت سوفير يسكن أحد البناءين. في الداخل، وعلى الجدران، وفي كل مكان، حكاية حياة الرجل العجوز بالصور، معظمها بألوان الأسود والأبيض، تشهد على ماض بعيد جداً، مجمّدة شهودها إلى الأبد في مواقف وأوضاع متصنّعة. العائلة هم: الأب، الأم، الأختان وهو أي نوربرت الصغير. صور في فرنسا، قبل الحرب أمام دكان للخردوات، وداخلها، في الريف، على الشاطئ، مع بائع جوال. الأب وسيارته الأولى، ثم بعض الصور لزوجة نوربرت، بالألوان، هذه الأخيرة امرأة بابتسامتها الفرحة والعينان الكبيرتان المليئتان بالحرارة والدفء. ووسط الجدار في إطار أكبر من الأخريات، صورة الأسرى لحظة تحريرهم من المعتقل من قبل الأميركيين. أشباح تائهة تبتسم مثل الأموات أمام آلة التصوير.

سوفير في مكتبه، منكبٌ على نسخ رسم ظاهر تحت الزخرفة التي تمثل الله وهو يخلق الكون. نشر كدسات من الكتب على مخطط عمله وحتى مباشرة على الأرض. قام برسم مخططات، يشطبها، ويبدؤها من جديد.

المتاهة الدائرية. شبهها الرجل العجوز بتلك الموجودة في «سان فيتال دو رافين»، مع أن هذه الأخيرة لها مدخل بينما تلك العائدة إلى الهيكليين تبدو مغلقة تماماً، تدور حول نفسها وفق طريق مزدوج. ألا يجب تقريبها من متاهة كاتدرائية شارتر؟

بعد التفكير، يقول المترجم القديم إن هذه الشبكة المغلقة تخفي شيئاً فريداً: الدائرتان اللغز اللتان ترافقانها إلى اليسار واليمين يجب اكمالهما حتماً.

نهض الرجل العجوز ليحرّك ساقيه ويرفع ظهره، قضى كلّ هذه الأيام وهو منثن على نفسه مقابل شاشة الحاسوب أو على الملفات التي سببت له آلاماً في عموده الفقري.

كان يحرك نار المدخنة الصغيرة، يعيد الحياة إلى الجمر بواسطة المنفاخ، يفرك يديه

فوق ألسنة اللهب، لم يرغب أبداً وضع مدفأة كهربائية في مكتبه، سعيد جداً لتذوق اللذة التي تقدّمها قطعة كبيرة من الخشب وهي تطقطق، ناشرة روائح الراتنج اللطيفة.

* * *

ذهب موزيل ليبحث عن هيرتز في سيفر، وهما يدوران حالياً في البولفار المحيطي.

ـ لم تقل لي بعد أي شيء عن ليا، يا مارتن؟

ـ نعم، نعم. لقد رأيتها بعد ظهر هذا اليوم ورويت لها كل شيء. لقد أصيبت بنوبة عصبية حادة، على إثرها أعطاها الطبيب دواء مهدئاً.

ـ آسف.

ـ وجهت لي لوماً شديداً، فقد اعتبرت أن موت الأب جاك كان بسببي. اعتقدت البائسة أن قلبها كان سيتوقف، إنها على حق ألف مرة في لومي على وفاة الأب جاك فهي تحترمه كثيراً وأعتقد أنه حافظ أسرارها الوحيد الذي تتصل به كل مرة تصاب فيها بالانهيار العصبي، كان يعرف كيف يصغي إليها لساعات ويؤمن لها الراحة وهذا ما لم أتمكن من فعله في حياتي.

ألقى موزيل نظرة على صديقه، لاحظ هيئته التي تشبه هيئة كلب عجوز ضُرِب وعُوقِب، خدّاه متدليان، عيناه تائهتان. هل هو صادق؟

ـ سأل الشاب وشدقك الخشبي؟

ـ لقد تعافيت، مع احتفاظي بصداع رهيب.

ـ ستموت يوماً بسبب هذا الصداع، مارتن.

ـ أخشى حكم إيميلي، لقد قدمت مشهداً كبيراً ومع هذا لم يكن براقاً.

ـ لقد قبلَتْ. إن لدينا ظروفاً مخفَّفة. أنصحك بأن لا تشرب كثيراً هذا المساء عند نوربرت، قليل من الماء مفيد لصحتك، أتمنى أن لا يحسبك كل أصدقائي عجوزاً مدمناً الكحول ومنحرفاً.

ـ أنت تحرز تقدماً، قال ديدييه.

ـ آه؟ أي نوع من التقدم؟

ـ منذ أسبوعين، لم تكن تسمح لنفسك أن توصمني بهذا النوع من التوبيخ.

ـ منذ أسبوعين، كنت أجهل أننا سنصبح حميمين إلى هذا الحد، لم أضايقك، أمل ذلك؟

ـ كنت أستحقه.

* * *

نظر سوفير إلى ساعته، ديدييه موزيل وصديقه لن يتأخرا أبداً. حاول ترتيب بعض ملفاته.

شدّت انتباهه ضجة خفيفة ، تبعتها قرقعة، قُفل باب المدخل.

نادى بصوت عالٍ: ديدييه! سآتي لأفتح لك!

بينما كان يلتفت، سقط كتاب كبير، فانحنى ليلتقطه، وإذ به يسمع خطوات في الممر فوقف فوراً.

ـ هذا أنت ديدييه؟

قال في نفسه: «لكنت أقسمت أني أقفلت الباب بالمفتاح...» شعر فجأة بقلق غير مبرّر ينتابه، يصيبه في بطنه لو كان الأمر يتعلق بـ ديدييه لسمعت جوابه فوراً...

أمسك بالنسخة طبق الأصل لرسم هيكليين، ودعكها بقوة قبل أن يلقيها في ألسنة لهب المدخنة، ثم التفت.

ـ لم يفهم الوضع فوراً، فقد أضاع ذهنه لثانية أو ثانيتين قبل أن يستوعب المشهد.

دخل أول رجل بعنف إلى المكتب، ثم تبعه آخر، وكان كلاهما يضع أقنعة واقية من النار، ما جعلهما مضحكَيْن ومهدَّدَين في آن.

تراجع سوفير، مرعوباً. وقف وظهره إلى الجدار، سقطت بعض إطارات الصور على السجادة، فانكسر واحد منها. لماذا شعر بنفسه أنه مجبر على النظر إلى الصور التي تغطي الأرض؟

الأشباح المهووسة لمُسكر تجميع.

أبقى أحد المجهولين سوفير أمام الجدار ممسكاً إياه من عنقه. شعر عندها الرجل العجوز بصعوبة في التنفس، وبلع لعابه. ورأى صورته المشوَّهة من الخوف في عين قناع الغاز الذي يلبسه مهاجمه. حمل الرجل الثاني علبة ووجه بخّاخ منقارها نحو سوفير. لم يتمكن المترجم العجوز من الصراخ، فقد منعه بلعومه المخنوق من ذلك، أدرك أنه سيموت، فكّر بموزيل ومارلان.. تلقى دفقة جديدة من غاز البخاخ، وكان لديه الوقت ليرى وجهه الشاحب قبل موته. غيمة صفراء.. ثم سقط أرضاً، وانزلق على طول الجدار، منتزعاً صوراً أخرى. مع ذلك ظل مقرفصاً، رأسه إلى الأمام، ورغوة كثيفة تخرج من فمه الملتوي.

ظهر قناع ثالث، نظر الرجل إلى جسد صوفير الخالي من الحياة وأخرج قلم لباد أحمر من جيب معطفه.

* * *

بعد أن لاقى صعوبة في إيجاد مكان لإركان سيارته، توجه موزيل وهيرتز نحو رقم 17 من شارع داغير. ظلّ المطر يتساقط دون توقف طوال النهار، مما سمح بحلول الليل مبكراً جداً.

ـ قال موزيل، وهو يدفع أحد درفتي باب كبير ضخم، إنه هنا.

اجتازا باحة الدار المبلَّطة.

ـ حدّد الشاب: إلى اليسار لم آتِ سوى مرة واحدة إلى منزل نوربرت، غير أنني أتذكر أنه مؤطرّ ومحاط. سينال إعجابك.

لم يجب هيرتز، كان يفكر من جديد في مخطوطه، ومتحفه بمجموعاته التي جمعها بجد وكد، بألسنة النيران التي أخذت حياته في غضون دقائق.

صرخ موزيل:

ـ تبّاً.

ـ ماذا؟

ـ بقي باب منزل سوفير مفتوحاً، يا الله، لقد فتح بالقوة!

ـ علينا أن لا ندخل، ديدييه.

ـ بالعكس، اتبعني مارتن!

اندفع موزيل نحو البهو. دون أي ضجيج. ثم سلك الممر منادياً: «نوربرت!». بقي المحامي قليلاً إلى الوراء، ولكنه مع ذلك يتقدم.

جلس سوفير على أرض المكتب ، الرأس منسدل على الصدر، الزبد يبلّل قبة قميصه، يدّ موضوعة على قلبه.

ـ الأنذال، قتلوه! هو أيضاً!

ـ هل تشم هذه الرائحة؟...

ـ سأل موزيل بصوت عادي إنهم هم، أليس كذلك؟ إنهم قتلة الفاتيكان!

ـ طلب هيرتز، لا تلمسه! لا تترك أي أثر!

استجاب موزيل للأمر، توقف على الفور بينما كان يتحضر لإصلاح وضعية الباحث العجوز لإعطائه القدر والكرامة التي انتزعها منه الموت.

ـ يبدو لي أنه قضى نحبه بسبب نوبة قلبية، هل تعرض للضرب؟

قال ديدييه: ليسوا بحاجة للقيام بذلك، ليس بالضروري. تعال... من الحذر البقاء هنا. لقد نفّذ حرّاس الدم بالفعل جريمتهم لإفهامك أنهم سينالون من كل أصدقائه إذا كنت لا تتخلى عن اللعبة.

ـ ماذا نفّذوا؟ وكيف؟

دعا هيرتز موزيل للالتفات نحو الخلف، نفذ الأخير ما طلب منه منهكاً، غير مستوعب ما الذي ينتظره منه صديقه، إذ اكتشف الكتابة على الجانب الأيمن من الباب، مرسومة بأحرف كبيرة بشكل كاف لتُرى عند الخروج من المكتب:

(V.I.T.R.I.O.L)

ـ لماذا هؤلاء السفلة وضعوا اختزال رمز شعارنا الماسوني؟ لكي يهزؤوا منا؟

ـ قال هيرتز بصوت عذب وهو يضع يده على كتفيه ليجبره على مغادرة المكان: سأشرح لك.

في الممر، أدرك موزيل فجأة:

ـ الرائحة، لقد لاحظتها أيضاً وأنا أدخل، لم أعرها الكثير من الانتباه في تلك اللحظة. بالمقابل كانت واضحة جداً في المكتب.

ـ يتعلق الأمر إذن بالسُّمّ الطيار الذي استخدمه جيروم اليهودي لقتل واغتيال توماس توركيمادا. حراس الدم قتلوا صديقك باستعمال الغاز نفسه، كطريقة للثأر!

ـ ماذا يفعلون لمعرفة كل هذه الأشياء عنا؟

ـ أجهل، يقول هيرتز. لا يمنع ظاهرياً أنهم يملكون كل المعلومات حول أعمالنا وحركاتنا. هذا يدعو للظن أنهم علموا بوجود هذا الرسم في الوقت ذاته الذي علمنا بوجوده!

المطر يهطل في الخارج، ليملأ بلاط الشارع، استعاد هيرتز تفوقه على موزيل الذي يمشي مثل رجل آلي. المحامي العجوز يضمه تحت جناحه، يطمئنه، يخفف عنه بتأثيره، لا فائدة من الكلام.

الرجلان يفكران بنفس الطريقة، أكثر من أي وقت آخر، إنهما يعرفان أن الزمن محسوب.

71

رسالة الله

دهشت إيميلي لرؤية موزيل يعود باكراً:

ـ هل أنت عائد الآن؟ آه، وأنت هنا أيضاً، مارتن؟

دخل الرجلان إلى الشقة، خلعا مشمعاتهما، وتوجّها إلى الصالون.

ـ قال موزيل، أعود إلى ما نصحتك به منذ قليل، سنتناول قليلاً من الويسكي المصنوع جيداً.

ـ ماذا؟ تسأل المرأة الشابة، ماذا هناك؟ أنتما تبدوان بهيئة عجيبة، ماذا جرى؟

أجاب موزيل:

ـ إنه نوربرت سوفير... لقد مات! جاء حراس الدم إلى منزله وقتلوه مسموماً بالغاز!

ـ بالغاز؟

تدخّل هيرتز:

ـ لقد أخضعوه للمصير ذاته الذي سببه جيروم اليهودي لتوماس توركيمادا. طريقة لإفهامنا أنهم تجسسوا علينا في كل المرات التي نكون فيها معاً، بينما كنت أذكّر بالمغامرات التي تعرضت لها وثيقة المجنون على مرّ القرون.

أخرج موزيل قارورة من كاردو عمرها اثنى عشر عاماً، كأسين ملأهما في الحال.

ـ سألت، هل أخطرتم البوليس؟

أجاب موزيل:

ـ كلا اتفقت مع، مارتن على أنه من غير المفيد إعطاء شيء يلهي المحققين، سنتركهم يمشون في الوحل قليلاً بانتظار أن يطرحوا علينا بعض الأسئلة. كثير من المآسي حصلت من حولنا، سوف يقاطعون كل الأحداث، وهذا واضح!

قال هيرتز:

ـ مقتل سوفير يراد به تهديدان، في المقام الأول، يعني أن حراس الدم سيصفون كل المقربين من ديديه المتصلين من قريب أو بعيد بالقضية. في المقام الثاني، إنه إعلان حرب حقيقة ضد المحفل الأول، من حيث طبيعته.

بدا موزيل غائباً، نظراته التائهة تحدق بنقطة خيالية.

وإيميلي تنظر إليه:

ـ ديدييه! هل أنت معنا؟

أجاب، بالنهوض مجتازاً الصالون للذهاب إلى مكتبه، كان يلفظ «يا الله» على نحو متواصل.

اقترحت إيميلي:

ـ هيا بنا مارتن، لنذهب ونرى.

احتفظ المحامي العجوز بكأس الويسكي في يده ولحق المرأة الشابة. في المكتب، ضغط موزيل بعصبية على أزرار لوحة التحكم في حاسوبه، وبقايا وصية المجنون إلى جانبه.

ـ ما أن وصلت إيميلي ومارتن إليه، اكتشفت ما ظهر على الشاشة، صورتان: الأولى، الزخرفة، تمثل الله وهو يخلق الكون ويقيس الأرض مستعيناً بالفرجار، والثانية تعرض رسم الهيكليين الظاهر على النسخة السلبية في فحم الرُّق.

زمجر موزيل:

ـ تباً لهذا الرسم الذي كلَّف نوربرت حياته!

قال هيرتز:

ـ أرى أنكم كشفتم عن كل المعالم.

تابع موزيل:

ـ أنظرُ، يدلنا على اللبوة، الماعز وهناك ذلك الميزان الذي يرمز إلى بابلي.

الأماكن الثلاثة المذكورة التي تشكل مثلث غابة الشرق.

دلّ هيرتز على الشاشة.

ـ إلى أين تريد أن تصل، ديدييه؟

ـ الكل يصيح، مارتن! ذلك ما دوّنه الهيكليون على هامش الوصية، رسالة هوغ دو باينس وذلك الرسم... الله، الله، طبعاً! كل شيء يصح! كل شيء يتكامل ويتطابق!

وقفت إيميلي خلف الشاب مسندة يديها على كتفيه، محدّقة بالشاشة.

ـ إنه فعل الويسكي أو أنه حدثت لك رؤيا؟ غضب موزيل.

ـ إيميلي إنه إشراق... عدة مفاتيح لقفل واحد! دون وجود الزخرفة أو الرسم أبداً لما كنا قد تمكنا من الفهم!

ـ لاحظ هيرتز كان يجب إذن إتلاف وصية المجنون لنقترب من الحقيقة؟

ـ صاح موزيل طبعاً، وضرب باصبعه رسم الهيكليين على شاشته، الكيمياء والشعوذة الفكرية المرتبطة بكيمياء المادة.. عدة عناصر تشكّل العمل! لنأخذ المخطط في الصفحة المتفحمة التي أعطيتها رقماً هذا الصباح، أنا متأكد أنها تعود إلى إحدى الجمل الموضوعة بشكل واضح في وصية المجنون: «**في الظل يمشي من الخلف**».

أشعل موزيل سيجاره ثم تابع:

«**المانوي، في غابته، يتراجع سيقطع المثلث نحو الظل.**

قالت إيميلي:

ـ لقد وجدنا تمثال المانوي، حيث شرح لنا مارتن سبب وجوده في تلك الغابة. وبعد؟

تأوه موزيل:

ـ المانوي هو نقطة علامة، **انطلاقاً منه، إلى الوراء سنقطع المثلث نحو الظل**، إنه ظهر التمثال الذي يشير إلى الطريق الواجب سلوكه، وليس لمن ينظر إليه! ذلك ما تخبئه على الأصح.

ثم مظهراً على الشاشة فهرساً يدل على أسماء الملفات، ويضيف:

تذكروا رسالة هوغ دو باينس التي وجدتها في قصر تو Tau حول إشارات بونتيفليون:

قال هيرتز والاحمرار يصعد إلى خديه. صدغاه داخل كماشة صداع أليم:

ـ أنا أتتبعك وأتفهمك يا ديدييه.

قرأ موزيل رسالة مؤسس منظمة الهيكليين:

«**بقداستك وصداقتك الصادقة، عليك معرفة أنه في أرض الظل يرقد منذئذ أخونا الأول. بفضل اهتماماتي وضعته في مأمن، لقرون عديدة، ممدداً بين الشرق والغرب، سيكون النور في الظل إلى الأزل. الاثنان يوحنا سيسهران عليه من الظهر إلى منتصف الليل...**».

ـ يحدد هيرتز موجهاً الكلام إلى إيميلي: في الماسونية، الاثنان الملقبان بيوحنا هما: المعمدان والإنجيلي! يمثلان الظل والنور، القمر والشمس!

أظهر موزيل رسم الهيكليين على الشاشة مكرراً «**الاثنان يوحنا سيسهران عليه من الظهر حتى منتصف الليل**» ويضيف:

ـ المعلومات التي نقلها الهيكليون جُزّئت وقُسّمت لأسباب أمنية. لكنها كلها موجودة هنا، متفرقة تحت أعيننا. جميع قطع لعبة البناء هذه يجب جمعها وتركيبها مع بعضها حسب ترتيب مفروض.

قال هيرتز:

- لا شك في ذلك، لكن أين يجب البحث؟ فالمحيط المحدود من المثلث واسع جداً.

ينادي موزيل:

- يجب التنقيب، التنقيب أيضاً، اعثروا على هذين الشخصين المسميين يوحنا.

اقترحت إيميلي:

- بدلاً من شرب الويسكي، ألا تفضلان قهوة لذيذة قوية؟ إذا كنتم ترغبون المحافظة على صفاء الذهن، فسيكون ذلك أكثر فعالية، أليس كذلك؟

وافق موزيل:

- أنت محقة، فنجان واحد بالنسبة لي قوي جداً!

كما وافق هيرتز أيضاً:

- المقدار نفسه بالنسبة لي.

أسرعت إيميلي إلى المطبخ، تناول المحامي العجوز كرسياً وجاء ليجلس قرب موزيل الذي لم يوقف الضرب على الشاشة بسبابته وهو يدور حول المتاهة الدائرية قائلاً:

ما هو جلي ليس دائماً مرئياً، مع أن هذا هو المخطط لجزء من غابة الشرق... وهذا المثلث يقطع المتاهة الواقعة بين هاتين الكرتين.

قال ديدييه:

- يبدو لي أنني اكتشفت ما تعنيه هاتين الدائرتين.

- صحيح؟

- أليس لدينا الدائرتين نفسهما في المحفل؟ خلف المعلم المبجل، في ظهره! معلقتين على الجدار.

- طبعاً! القمر والشمس هما مرمَّزتان بقُرصين. ثم الشرق والغرب....

يؤكد هيرتز مبتسماً:

- المسمَّيان يوحنا! من المحتمل أن هاتين الدائرتين هما الحدود المقدَّرة لهما وتعلمانا عن الوضع الجغرافي للمتاهة.

- الأخوان دو بادو تلقيا الأمر بإخفاء هذا المخطط ـ لأنه ليس شيئاً آخر غير المخطط ـ تحت الزخرفة (المنمنمة). لقد وضعوا الرسم داخل نسيج الوثيقة.

- فيما بعد؟ سأل هيرتز، الذي ازداد فضولية، ومتابعاً بشغف مراحل شرح موزيل.

يتابع الشاب:

- الأرض كروية على الزخرفة.

قالت إيميلي:

ـ لقد كانت الأرض دائماً كروية على حد علمي! وهي تأتي بفناجين القهوة على صينية.

موزيل مازحاً:

ـ ليس في تلك الحقبة، إن تأكيد ذلك الشيء كان سيقودك فوراً إلى المحرقة. مع ذلك، الله يقوم بقياس خليقته، كما يفعل كل مهندس معماري.

تابعت إيميلي:

ـ ذلك ما هو منطقي، مؤكداً أن عمله لا عيب فيه.

سحب موزيل فارة الحاسوب إلى مكتبه، والتقط على الشاشة رسم الهيكليين وطابقها على الصورة الملونة في الزخرفة.

جاء المخطط مطابقاً تماماً على الرسم، مقدماً له خطوطاً قوية تغطيه بنسب مشابهة، الأرض لها نفس الطول ذاته الذي لدى المتاهة.

قال موزيل:

ـ مدورة مثل المتاهة، أنظرا: عندما نضعها فوق بعضها، الصورتان تندمج كليّة. وبالتالي ماذا يفعل الله؟ ما هو ذلك الذي يظهره لنا بفرجاره؟

صمت، وبحركة واحدة، انحنى إيميلي وهيرتز على شاشة الحاسوب.

تنحنح هيرتز، بلعابه الطبشوري، أدرك، أنه كان سيبكي لو كان وحيداً. حلم حياة كاملة يتحقق فجأة.

بجلاء عنيف جداً، شعر بدوران وصداع رهيبين، لدرجة الرغبة بالقُياء، أمام العين المتسائلة موزيل، ابتلع كامل محتوى فنجانه من القهوة دون أن يضع فيه شيئاً من السكر ودون أن يقدّر درجة سخونته. يداه ترتجفان، يد موزيل تحط على معصم يده. يقول الشاب:

ـ نعم مارتن، نعم، الله يشير بفرجاره إلى نقطة محددة على الأرض. على المتاهة الدائرية! يجب أن نقرأ الصورتين معاً.

بصوت أبح قال هيرتز:

ـ الله يدلنا على المكان حيث يجب البحث!

ـ تلا موزيل: قم بزيارة داخل الأرض وأنت تصحح ستجد الحجر السرّي، يتلو موزيل. الحجر السري هو المسيح. سنجده ونحن نصحح.. لكن نصحّح ماذا؟!

مزحت إيميلي:

ـ أتظن حقاً..؟

ـ أنا مقتنع بذلك، وبالمقابل، أتساءل.. كيف اكتشف فرانسيس ذلك لوحده، لم يكن يملك رسم الهيكليين، لأن هذا الأخير كان مخبأ بالدهان الذي وضعه نيكولا وآنيان دو بادو.

يا إلهي، من شدّ له يده؟

ـ قد يكون ذلك المجهول؟ الرجل ذو القبعة والنظارات؟

ـ إلا إذا كان قد استوحى ذلك من مصادر أخرى؟ أو أنه توقف عند المناوي؟ هل ستقدر على معرفة يوماً ما أين توقف بحثه؟

72

الياقوت الأحمر

الأربعاء، الساعة الثالثة عشر والربع.

إنه يقوم بفتح الدفاتر الحمراء الصغيرة، لم يمل من تأمل الرسوم المائية، لمسات خفيفة من الماء الملون، ملاحظات من الضوء وكتل من الظلال.

التلفاز يعمل، وهو يصغي إلى الأخبار دون أن يعيرها انتباهه حقاً، ينفصل عن الواقع كل يوم أكثر من الذي سبقه.

«تشريح الجثة هذا الصباح يؤكد أن البروفسور سوفير تنشق مادة سامة غازية بكمية كبيرة، إنه لمن المبكر الآن تحديد الطبيعة الحقيقية لذلك العقار، نعرف فقط أنه كان مركباً بصورة رئيسية من مستخلصات نباتية...».

أغلق الدفاتر، أعادها إلى درج طاولته، ثم نهض ليذهب إلى الغرفة التي أضحت قفصه. مشى مطأطئ الرأس، يطرق الأرض بخطواته العصبية، المتقطعة. يمشي في سجنه في كل الاتجاهات.

«بالنسبة إلى المحققين، لم يكن لديهم أي شك بأن الضحية تعرض للتعذيب وأرغم على تناول السم الذي شلّ بسرعة كل وظائفه التنفسية، أصيبت مؤسسة ماير التي كان يعمل فيها البروفسور سوفير بانتكاسة قاسية ثانية، نتذكر انتحار مارلان، الذي وجدت جثته في غرفة الفندق في باريس، منذ ثلاثة أسابيع...».

عاد إلى مكتبه، وفتح الدّرج، أخرج منه مسدساً.

«لكن هذه المرة، يتعلق الأمر حتماً بحادثة قتل، والسؤال كان مطروحاً حول كلمة (VITRIOL) المرسومة بالأحمر مكان الجريمة، ولوحة الدقة فإن هذه الكلمة تلخص صيغة أو دستوراً كيميائياً من القرن الخامس عشر الذي ما نزال نجده حتى أيامنا هذه في التقليد الماسوني...».

وازن السلاح، تفحصه، تأمله، قدر التماس الجليدي. بَرْدٌ كامد وأسود.

«رفض البروفسور موزيل رئيس القسم الذي كان ينتمي إليه فرنسيس مارلان ونوربرت سوفير في المؤسسة أي تعليق...».

عاد ليدور في الغرفة، محتفظاً بمسدسه الذي تركه يتدلى على فخذه، الذراع الأيمن يتأرجح، يمر أمام صور معلقة على الجدران، يعرفها عن ظهر قلبه وباستطاعته إعادة رسمها كلها من ذاكرته.

توقف أمام مرآة، وقف أمامها، يتحدى نفسه بالنظر، كارهاً تلك الصورة التي لم تعد تشبهه، عاودته حركات شفتيه اللاإرادية، يرى نفسه في ابتسامة ميكانيكية.

وضع المسدس ببطء على صدغه، وضغط سبطانته على العظم، قليل من الصبر والقوة يقيانه من موت محتمل، شعور بالإنهاك يصل حد طلب الموت، لم يكن عليه سوى الضغط على الزناد، فقط قليل من الشجاعة ليخرج نفسه من هذا الكابوس. بدأت سبابته بالحركة، عدة ميلليمترات تفصله عن الظلمات، الصمت والراحة، عدة ميلليمترات من الفولاذ يجب ضغطها.

لكنه أخفض السلاح، مبتعداً عن المرآة، تاركاً ذلك اللئيم (شخص يشبه الآخر تماماً) الجبان ذو الجبين المغطى بالعرق، يضع المسدس على المكتب قرب الصندوق الحاوي على الرسالة التاسعة والأخيرة.

تساءل لأي سبب لم يتدخل أخوة المحفل الأول.

جلس من جديد، الكتفان متراخيان، ثم بدأ بالبكاء.

* * *

وقف مارتن مذهولاً، خائر القوى، أغلق لتوه هاتفه المحمول. ناداه صديقة«جان كلود دوريس» من المستشفى ليعلمه أن ليا أصيبت بنوبة عصبية جديدة، هذا الصباح عند السادسة. توجب إعطاؤها جرعة قوية من «فاليوم»... من غير المفيد أن تأتي الآن، مارتن، هي مدروخة وستبقى مدة أربع ـ خمس ساعات غائبة عن الوعي.

ستتمكن من المرور بعد ظهر هذا اليوم، أتعلم لقد وجدت صعوبة في تقبل وفاة جاك وحريق منزلك الريفي.

سأل هيرتز:

ـ أتظن أنها ستتعافى من ذلك؟

مِمَّ؟ من جرحها أو من المرض العقلي؟ أعتقد أنها ستخرج بصورة أسهل من جرحها، يجب عليك أن تبدو أكثر صبراً، ومراعاة وودّاً، أتعي ذلك؟

ـ نعم، نعم، فهمت.

ـ سأطلب من زميلي وهو طبيب نفساني المرور لرؤيتها هذا المساء.

ـ أشكرك جان كلود.

نظر هيرتز إلى هاتفه بعين مغرورقة بالدموع والتي تجد صعوبة في التوقف، لكنها تؤلمه أكثر من البكاء. لقد قُضي على ليا، هذه الفكرة لم تفارق ذهنه، لقد قتلها.

رنّ هاتفه من جديد.. وبينما كان يحمله إلى أذنه، ظن أن جان كلود نسي أن يقول له شيئاً ما، لكنه فوجئ بسماع صوت موزيل.

ـ آه، ديدييه..

ـ مارتن، لقد وجدتها! لقد عملت طوال الليل وأعتقد أنني قد فككّت رموز رسالة «هوغوس دوباينس»، أعرف أين توجد أرض الظل.. التي جرى الكلام عنها في البريد المرسل إلى القدس. برنارد! مؤسس منظمة أو رهبانية الهيكليين كان ماكراً كبيراً... الاثنان المسميان «يوحنا» اللذان يتكلم عنهما في الواقع هما حجران، عمودان من الحجر (كتلة واحدة) موجودان على خارطة الأركان تحت أسماء فتيّة ومُسِنّة... الفتيّة تقع إلى الشرق، في الضوء، مجسّدة الإنجيلي. والمسنة ترمز إلى القديس يوحنا المعمدان وتمثل الكلام القديم... ممدّداً بين الشرق والغرب، والاثنان يوحنا يسهران عليه من الظهر حتى منتصف الليل... نعم، بين التقليد القديم والجديد يرقد المسيح.. كما يشهد بذلك القمر والشمس اللذان يحيطان به في معظم زخارف العصور الوسطى. رَسمُ الهيكليين يحدد بالضبط مكان قبره: تحت رأس فرجار الله. في العمود على خط يمر بين الحجرين.

قاطعه هيرتز: فرضية، وليست سوى وجهة نظر تخمينية بسيطة.

ـ كلا، يا مارتن، لقد اتصلت بمدير بيت غابة الشرق السيد بنشون.. وهو علاّمة كبير واسع المعارف. طرحت عليه بعض الأسئلة. حسناً، هل تعرف ما أعلمني به؟

ـ أسمعك.

ـ جزء من المستنقعات يقع جغرافياً تحت رأس فرجار الله، بالضبط تحت الرأس، وكانت تدعى في الماضي أومبرا أي ظل. إنها أرضنا «أرض الظل» مارتن! واقعة على مسافتين متساويتين من الحجرين (الاثنان يوحنا)، دون معرفة ذلك، فالماسونيون مايزالون يحتفلون اليوم بأعياد القديس يوحنا في الانقلابين الشتوي والصيفي وذلك امتداداً لعادة وُلِدَت في هذه الغابة. إيميلي وأنا سنغادر غداً إلى ترويس لنتأكد أن الخيط الذي نتبعه صحيحاً اعتذر لإخوتنا لغيابي عن الجلسة.

ـ صاح هيرتز: يا إلهي، لا تتحرك أرجوك! أنت تعرف جيداً أنه ليس باستطاعتك القيام ولو بخطوة واحدة دون أن يكون حراس الدم على علم بذلك!

خرج المحامي العجوز من سباته وبلادته، حيث غادرت ليا فجأة مركز أفكاره. وقد

سمح نفسه بالقول: ديدييه أحلفك: لا تعد إلى غابة الشرق..! هذه المغامرة تتجاوزك وتفوق إمكانياتك، لم يعد باستطاعتك العمل منفرداً من الآن وصاعداً. امنحني أيضاً قليلاً من الوقت سأساعدك. أقدر أن أطلب بإلحاح من المحفل الأول أن يضعك تحت حمايته.

ردّ موزيل: ألا تظن أنه كان باستطاعة أخوتك الأوائل السريين التدخل بصورة أبكر من الآن؟ في نهاية المطاف، أليسوا هم ورثة الهيكليين المباشرين؟ وحتى ورثة يسوع، إذا كان علي أن أصدقك. إيميلي وأنا اتخذنا قرارنا. المكان المشار له من قبل الله - أو المهندس الكبير للكون - على صورة نيكولا وآنيان دو بادو يوجد تحت ماء بحيرة غابة الشرق! سنذهب لنغوص في مائها ونبحث فيها.

- هذا جنون مطبق! جنون أشعر أنني مسؤول عنه. أعرف ما يدور في خلدك، يا ديدييه: فرصتك الوحيدة لخروجك من هذا الفخ هو اكتشاف القبر. سيكون عندئذ من الصعب التمكن منك هذا هو ما تعتقده، أليس كذلك؟

- بالفعل، مارتن. أنا آسف لعدم تمكني من اصطحابك معنا، لكني أراهن أنك لست من المتحمسين للغوص والغطس في مياه البحيرة، أنت تفضل طبعاً الصيد.

سأعلمك بكل شيء.

- ديدييه..

أغلق موزيل السماعة. لكن هيرتز أحدث رقماً في ذاكرته الرقم الذي سيمحو أثره فوراً ما أن تنتهي المحادثة.

رنّ الهاتف مرتين، رفع محادثه السماعة.

- قال هيرتز هالو، شرق - أصل. نحن نصل إلى الهدف.

أخيراً، ديدييه موزيل هو قيد الوصول إليه! ذهب من جديد إلى غابة الشرق.. نعم، نعم في المثلث اللبوة - الماعز، بايلي!

- بالقليل من الكلمات الممكنة، تحرك مارتن بسرعة.

- هذه المرة نحن نقدر أن نجد الكلام الضائع.. إنه ينام تحت أعماق الماء.

- في الماء؟ النظرية مسلية وتتطابق مع ما نعرفه من حيل هوغس دو باينس يجب أن نكون أسرع من حراس الدم.. أتكفل بالاتصال بكل الأخوة الأوائل. سأعود وأكلمك بسرعة.

لم يدم الحديث أكثر من ثلاثين ثانية. بعدها محى هيرتز الرقم من ذاكرة محموله.

أفكاره، في الصمت عادت تحدق به من جديد، ليا، جاك... فرنسيس مارلان.

* * *

أعاد الأول الهاتف إلى مكانه بذراعه السليم أدار كرسيه السيار، لقد وجد صعوبة في رفع ذقنه، رفع عينيه لينظر إلى شبح نيافته الذي يقول له:

ـ أعتقدت أنني أفهم..

ـ نعم، سيدنا، القبر هو في متناول اليد، مارتن هيرتز كان مصيباً: ديدييه موزيل وحده كان قادراً على متابعة بحث فرنسيس مارلان.

ـ ألا تجد أن الحظ ساعده نوعاً ما؟

ـ أوافق. ابق أنت في فرنسا لغاية انفراج هذه القضية؟

أظهر نيافته إشارة مبهمة.

ـ آمل. لكن موت الحبر الأعظم قد يجبرني على العودة إلى الفاتيكان بين لحظة وأخرى.

كبح العجوز نوبة سعال أشبه بالنهاق، قدم نيافته فوراً كأساً من الماء. شرب الأول منه جرعة صغيرة وتابع بصوت مخنوق:

ـ عليّ أن أسرّ لفكرة أن العدو القديم لمنظمتنا يغادر المسرح مغلوباً، مع ذلك فإنني لا أجد في ذلك أي لذة.

لا شك أنه كان بابا رائعاً، مع نيافته مع كل عذوبة لهجته الإيطالية.

صحّح الأول: إنه خصم مرهوب الجانب ! أكثر حماساً من كل السابقين. إنه لمن السعادة أن تخرِج من القبر بقايا المسيح وكتاباته قبل انتخاب البابا المقبل. ستكون قد ساعدتنا بشكل كبير في هذه العملية، سيدنا.

أنا أنتمي، قبل كل شيء، إلى المحفل الأول ولم أقم إلا بواجبي يا أخي. في الواقع، طلب مني مارتن التوسط لديكم من جديد لاستقبال ديدييه موزيل في جلسة منعزلة.

ـ لقد تكلمنا عن ذلك، فأجبته بالإيجاب.

ـ حسناً، أظن أنه قرار حكيم. هذا الصبي يستحق أن يعرفنا بشكل أفضل.

نيافته يستأذن الأول بالانصراف.

عبر الممر المفروش بالحصى ليصل إلى سيارته السوداء ذات الزجاج القاتم. على مقعد السائق، كان سكرتيره ينتظره وهو يصغي إلى الموسيقى.

قطع الصوت

قال نيافته وهو يلتفت نحو البناء الضخم:

ـ كلا، باستطاعتك إشعال المذياع.

في الطابق، هناك ستار قد سُحِب.. من خلف الزجاج يمكن التعرف على الشبح الهزيل وغير المتوازن للأول.

ـ هيا، لنعد إلى السفارة البابوية.

ـ لقد سمعت نشرة أخبار موجزة، سيدنا. البابا في أسوأ أحواله، ألا يقتضي الواجب العودة إلى روما؟

ـ لم يحن الأوان. إنهم يعلموني عن حالته كل ربع ساعة. عرفت أن نشاطاً كبيراً غريباً كان سائداً حول شقق قداسته. يبدو أنه يتعافى بصعوبة من الوهن الكبير الذي حدث ليلة الجمعة السبت. وحده طبيبه الخاص مخوَّل بتقديم العلاج له.

هذا ما يقودني إلى التصرف بسرعة، حتى الآن لم أُنهِ مهمتي بشكل كامل.

أدرك نيافته أنه أكثر عصبية من العادة المستهجنة التي يجد صعوبة للتخلص منها دون أن ينتبه إلى ذلك هي أنه يداعب بيده اليسرى خاتم الياقوت الأحمر الذي يحمله في الأصبع الرابع من اليد اليمين.

73

الهزيمة

الفاتيكان، الساعة اثنان وعشرون وثلاثون دقيقة. الكادرينال دو غيلليو يبحث في الملفات، يداه الثقيلتان تقلب الأوراق. نور مكتبه وحده كان مضاء مغيّراً القسمات العظيمة لوجهه. أما كل ما تبقى من الغرفة فبقي غارقاً في ظلام مريح يعزل الكاردينال عن العالم الخارجي ويساعده على التركيز.

فتح الباب فجأة على سكرتيره الخاص، الذي كان ظاهرياً عرضة لتوتر غير معهود. اضطرب الشماس داخل ثوبه الأسود متبوعاً على بعد خطوتين براهبة شاحبة الوجه.

ـ نيافة الكاردينال غيلليو، شيء ما يجري الآن في شقق البابا! يجب حضورك بسرعة. نهض دو غيلليو، تاركاً الملفات ومشى عدة خطوات باتجاه سكرتيره ـ الراهبة التي كانت واضعة يديها على صدرها. تنطق من أطراف شفتيها بصوت لاهث:

ـ هم... هم دخلوا إلى غرفة حبرنا الأعظم التي أحرسها حسب أوامرك.. وطلبوا مني الانصراف متذرعين أن ذلك أصبح الآن قضيتهم أو عملهم.

ـ سأل دو غيلليو بصوت ناشف: من فعل هذا؟

أجابت الراهبة وهي خافضة رأسها. لقد تعرفت فقط على الكاردينال مونيني.

ـ أحد الأكثر إخلاصاً لقضية أعدائنا! قال الكاردينال غاضباً وراكضاً خارج مكتبه، بعد أن كاد يسقط الراهبة أرضاً، والسكرتير من خلفه، مندفعاً في شبكة الممرات التي تقود إلى شقة البابا وصل قريباً من بهو يحتله نصف دزينة تقريباً من الكرادلة. «الحرس المقرب من مونيني تقريباً بالكامل ومونيني في المقدمة!».

بعدة خطوات واسعة، جاء دو غيلليو ليقف أمام مثيله البدين المتصبب عرقاً وشحماً.

سأل غيلليو ما معنى كل هذا الهياج هل أصيب البابا بنوبة تعب جديدة؟

ـ هيا، غيلليو.. إنك بريء حقاً، بينما أنت تخفي علينا حالة البابا المزرية التي غرق فيها!

لاحظ غيلليو عندئذ وجود رجل مجهول، يرتدي مئزراً أبيض حاملاً صندوقاً عريضاً، ويدخله خلسة إلى شقة البابا.

ـ قال مونيني: أترى، نحن عدة كرادلة اعتبروا ممارسين جدداً، كان يمكنهم مساعدة عجوزنا البابا في محنته المؤلمة.

ـ ردّ غيلليو في هذه الحالة ليس البابا بحاجة إلى أطباء، بل إلى الصلوات!

احتال مونيني مستغلاً ضخامة كتلته، وقام بدفع دو غيلليو تدريجاً خارج غرفة الانتظار. عندها أظهر الكاردينالات الحاضرون جميعاً وجوهاً كالحة تحت نور مصباح السقف الشديد. مسمرين في لوحة فريدة، شبيهين بمتفرجين غير مبالين ومتعالين يشعرون بأنهم كانوا دائماً حاضرين هناك وإرادة البقاء إلى ما لا نهاية.

ـ استأنف مونيني الكلام وهو يبتسم: أنصحك بالصلاة من أجل روحه، بينما نحن سنهتم بجسده، يمكنك الذهاب يا غيلليو.

ـ ألا يمكنني رؤيته لعدة ثوان؟

ـ غير ممكن! تُقدَّم له حالياً العنايات اللازمة.

ـ على هذا النحو أنت تصرفني؟ ينفعل غيلليو.

ـ لا أقول ذلك بهذا الشكل، عزيزي. نحن نعفيك من المهمة التي قمت بها بأمانة كخادم لمريضنا العزيز. لقد حان الوقت لتستريح.

تراجع غيلليو.

ـ دماثتك تهمني، سيدنا.

بينما اندار عنه، مرافقاً بسكرتيره والراهبة، التقى غيلليو بشخصيتين جديدتين في بزّة داكنة يحمل كل منهما حقيبة معدنية كبيرة.

ـ لم يتخلص من غضبه، أغلق على نفسه مكتبه، وفتح خزانة منخفضة أخرج منها كأساً وقارورة من الكونياك.

مناورة ثعلب ماكر! زبانية مونتسبا تنتهي من قضم بعض السلطات التي ما زالت لدي... بعد أن ابتلع كأساً مليئاً بالكحول، توجه إلى النافذة مبعداً ستائرها. تأمل في إنارة ساحة القديس بطرس وهي ترسم نصف قوس دائري على شكل نقط مضيئة في الليل الدامس.

لم يكن «مونتسبا! يظهر للعلن، تاركاً شرطته تنفذ رغباته الدنيئة. لقد ظهر فجأة في اللحظة المناسبة للعمل على انتخابه حبراً أعظم. لأنه بهذه الطريقة تجري الأمور. مإذا كان سيحرر الكنيسة من حملها، فإن الإدارة البابوية ستأتي لتأخذ الحب من كفيه. نعم، إذا ما أغلق نهائياً ذلك التحقيق... تحقيق يعود إلى ألفي سنة!».

* * *

أحاطوا بسرير البابا: كاردينال بملامح تشبه ملامح الكلب، رجل يرتدي مئزراً أبيض، والآخران يرتديان بذة داكنة لم ينس مونيني إغلاق الباب بالمفتاح من خلفه.

لقد أطفأ جهاز التنفس الاصطناعي وأجهزة مراقبة وظائفه الحيوية أيضاً، ومحركه لا يصدر أي صوت. مع ذلك فالغرفة تعج بالضجيج.

فتحت مزالج الصناديق المعدنية مونيني البدين يتنقل وسط البهو وهو يتنفس بقوة. جرى فرش غطاء من البلاستيك وضعت علية الأدوات والمحاقن.

توجه الكاردينال مونيني ذو الرأس الشبيه برأس الكلب، بيديه المرتجفين، وأجفانه المرتخية.

- اعتقد غيلليو أنه بإمكانه اللعب علينا ليبقي الحبر الأعظم على قيد الحياة، محتفظاً لنفسه بإمكانية استخدامه كورقة رابحة.

- قال مونيني مبتسماً لكنه دائماً على قيد الحياة!

فقط تغير حاملها وأصبحت في أيد أخرى. كما يتمنى مونتسبا، يوحنا الرابع والعشرون سيعيش! حتى لو كان ميتاً، سيعيش!

- الحبر الأعظم ينازع، الرأس ينقلب إلى الخلف، العنق مشدود لدرجة التمزق، بشرة وجهه شفافة، العينان غائرتان مغمضتان، إنه في هذه الحالة منذ قرابة العشرين دقيقة. ميت مخنوق بفعل السم الذي دُسّ له، ميت بعد احتضار سباتي.

- بدأ الرجل ذو المئزر الأبيض بالقول: أسيادي: سوف نقوم بتقديم العلاج. العملية ستبطئ مراحل التفكك، لكنها لا تحل مكان التحنيط.

- صاح مونيني ذلك ما نريده هذا معناه تأخير الإعلان الرسمي لوفاته عدة ساعات، أو يوم أو يومين على الأكثر!

اقترب الكاردينال من مونيني، طالباً بصوت منخفض:

- هل نحن متأكدون أن حراس الدم سيقدرون على إغلاق تلك القضية في الوقت المحدد؟

- لم يعد هناك من شك. سينتهون من تمهيد الطريق الذي سيوصل مونتسبا إلى عرش القديس بطرس!

كان غيلليو معتداً بنفسه معتقداً أنه ما يزال قادراً على التحكم بالأحداث. نحن باستيلائنا على جثمان البابا سوف نحرمه من سلاحه الأخير.

ضجيج امتصاص، استنشاق مخل بالحياء، مونيني يحيد برأسه. بدأ المساعدون الثلاثة عملهم على جثمان الحبر الأعظم. وضع الكاردينال الثاني منديلاً على أنفه وأبقاه وهو يحرك ويدور عينيه المرعوبتين.

- قالها مونيني مازحاً، عليك على هذه الرائحة عزيزي، قليل من الوقت.

- ألح، مونيني: مخططنا يرتكز من الآن وصاعداً على نجاح حراس الدم، مخطط مرسوم بشكل دقيق وواضح، دقيق لدرجة أن أي عثرة قد تقودنا نحو أكبر وأبشع فضيحة سوف لن ينهض الفاتيكان منها.

- حراس الدم لا يطيعون إلا رجلاً واحداً... ذلك الرجل سيصبح قريباً البابا!

- مع ذلك يبقى لدينا شوط أخير يجب القيام به. تابع سيّء الخلق، الشوط الذي يجعلنا في مواجهة الإخوة من المحفل الأوّل.

- أتفق مع هذا، لا ننسى أيضاً حالة موزيل، التي يجب أن نحلها في الوقت ذاته.

* * *

نادى الكاردينال غيلليو سكرتيره عبر الانترفون. حضر الشماس الشاب في الحال على وقع صوت حفيف ثوبه الطويل، وصلعته المكبرة اللماعة بالعرق.

- اجلس، كونتستانت، في نهاية الحساب، لا أرغب في الشرب لوحدي. هل تريد كأس كونياك؟

- أنت تعرف جيداً سيدنا أنني سأرفض.

- نعم، كنت أحاول مرة أخرى إغراءك سأقدّم لك إذن عصير فواكه.

ملأ غيلليو كأس سكرتيره.

- وقال: بالواقع، كان لدي الرغبة بالكلام، وأنت المحاور الوحيد الذي سيصغي إلي ولن يخونني. عصابة مونتسبا نجحت في عزلي وتجريدي من كل صلاحياتي.

هذا الهيجان المفاجئ يثبت أن الأمور قد تطورت في فرنسا.

علي القبول أن مونتسبا قد برهن على أنه مخطط ماهر استولى في البداية على كل المراكز الخارجية، ثم لجم مجمل المجلس البابوي، والآن يقوم بتنظيم موت البابا. متآمر وسياسي خطير يعمل منذ زمن بعيد ليضع على رأسه القلنسوة البابوية، سيدنا!

- أعتقد أنني حذِرتُ منه بعناية وخسرت. سوف يحصل بسهولة على أغلبية الثلثين من بين المئة والعشرين ناخباً في مجمع الكرادلة. لقد تمت اللعبة، كونستانت. أترى، أن ما يعذبني ويقلقني، هو...

- نعم سيدنا؟

رفع غيلليو يديه في الفضاء، راسماً، كعادته، شكلاً كروياً يبدو معه للحظة وكأنه يتسلى قبل أن يتركها تطير نهائياً، بعدئذ تسقط يداه، خائبتين ثم يستطرد القول:

- ذلك لأن كلينا نعمل للدفاع عن نفس القضية: هي إنقاذ الكنيسة! عاد وسكب كأساً أخرى من الكونياك ورشفه دفعة واحدة مثل سابقه، أخيراً، بدا فجأة منهكاً، متنهداً ؟؟

- من الآن وصاعداً ستبدو لي الحياة فارغة جداً، لقد فقدت صديقاً طيباً جداً!

- أنت تعني الحبر الأعظم، سيدنا؟ هل تعتقد أنه ميت؟

نظر غيلليو إلى الشماس الشاب بتعبير يملؤه الأسى.

- لقد مات، ليس في ذلك أدنى شك، كونستانت، وبرحيله ذهبت صداقتنا. الموت هو دائماً هزيمة، يا ولدي.

74

أرض الظل

الخميس الساعة الثانية عشرة وأربعون دقيقة.

إنها المرة الثالثة التي تتحقق فيها من سلامة العتاد، ديديه. سوف لن تقوم بنوبة هوس حاد؟

ـ أعرف أن هذا قد يبدو حماقة، أعرف...

حالة بذّات العمل نيوبرين 7ملم، أقنعة ومواد مضادة للغشاوة، قارورتا ضغط 200 بار، مخفض الضغط، والأخرى احتياطية، مجاذيف المطاط التي توضع في الأقدام، مشاعل خاصة بالغطس، جهازي تصوير + فلاش وسكاكين.

أريد أن يكون تعداد القائمة كاملاً، منذ كم من الوقت غطستِ للمرة الأولى؟

فكّرت إيميلي وأحصت ذهنياً.

ـ خمس .. كلا بل منذ ست سنوات.. مع فرنسيس وأنت عندما أمضينا العطلة في اليونان بالمناسبة كانت هنا أيضاً صديقتك السمراء الطويلة وجسمها المدرع مع شفتين تشبهان شفتي سمك الميرو.

ـ لا أتذكرها.

ـ كذاب! لم تكن تقبلك بل تمتصك!

أغلق موزيل الأكياس ووقف مبتسماً لإيميلي ببراءة كاذبة.

ـ قال، بالحقيقة كلا، لقد نسيتها تماماً. تعالي سوف نتناول طعام الفطور، سأحضر لك الطعام، ونشرب قارورة النبيذ الروماني وهي كل ما تبقى لدي، ونذهب إلى ترويس! لكن سنغطس ليلاً تجنباً أن يرانا أحد السواح أو أي عابر آخر.

* * *

تجوّل لأكثر من ساعة في الحي، يداه مبللتان مشدودتان على المقود، عليه أن يسلك شارع الماريشالات المزدحم، والعودة نحو الشارع المحيطي عبر شارع انطوان ـ مرسييه ـ والدوران حول ساحة برانسيون والرغبة في العودة إلى المنزل، من ثَمّ العودة إلى البحث على مكان للتوقف.

الوقوف أمام البناء حيث يسكن ديدييه موزيل، رؤية هذا الأخير وايميلي خارجة معه، عند التاسعة صباحاً مع الانتظار لرؤيتهما يعودان عند الحادية عشرة وسبع دقائق بالضبط أمر يثير الشكوك.

حمل موزيل كيسي رياضة ظاهرياً ثقيلين جداً.. إيميلي من ناحيتها، حملت كيساً واحداً فقط.

الانتظار أيضاً.

فتح علبة القفازات للمرة العاشرة، والعشرين. لمس المسدس الذي بداخلها، التأكد. عشر مرات، عشرون مرة التفكير بالشيء ذاته، القتل والموت. القتل.

الأخذ بالثأر.

تعيش إيميلي الآن عند موزيل، مع ظنها دون شك أنه سيتمكن من حمايتها، بينما هو وحده القادر على الدفاع عنها.

* * *

قام ديدييه موزيل بحجز غرفة في الفندق الوحيد في فاندوفر، الواقع على بعد ستة كيلومترات فقط من أرض الظل.

ـ قال لإيميلي، وهو يتفحص خارطة ميشلين، سوف نقيم فيه معسكرنا الأساسي.

ـ كنت أعتقد أننا سنعود فوراً بعد غطسنا.

سنتقيد ببرنامجنا، سنكون بحاجة إلى مكان للاستحمام وتغيير ملابسنا قبل العودة إلى باريس، وقبل أن يُقضى علينا سنتمكن عندها من الاستراحة بعد العمل.

ـ كنت أجهل أنك تملك هذا الحس من التنظيم.

ـ أنا أيضاً!

ـ ما أن تنتهي هذه القصة، فسآخذك في عطلة طويلة؟ عطلة حقيقية؟

ـ وعد! بعيد عن كتب المزامير، عن الوصايا ومخطوطات أخرى من البحر الميت... إلى القمر!

الساعة تشير إلى السابعة عشر تقريباً عندما اجتاز فاندوفر للوصول إلى الفندق المتواضع المسمى للتفخيم «الأسلحة الملكية»، بناء دون طابع معيّن ضخم، رمادي، يرتفع على مخرج البلدة. مع ذلك المفاجأة عندما يدخلان الصالة الواسعة المزخرفة المعطرة بأفضل روائح الراتنج، مع المطبخ ذو خزانة الأطباق المليئة والكثيرة، والطاولات ذات النمط غير المحدد لكنها كلها متوهجة وجذابة.

استقبلتهم كما لو كانوا نزلاء معتادين، امرأة مكتنزة الصحة، وجهها وردي تزرعه بقع من الشقار.

غرفتهما في الطابق الأول، صعدا إليها عن طريق درج من الخشب الأسود اللماع مثل الرخام.

ما كاد موزيل يدخل الغرفة حتى هرع إلى النافذة ليبعد الستائر وينظر إلى الخارج.

ـ سألت المرأة الشابة. هناك مسألة ما؟ المنظر لا يروق لك؟ ماذا ترصد؟

ـ هل يبدو لكِ غباء، فيما لو أجبتك أنني لا أعرف عنه شيئاً؟ أحد نتائج شخصيتي المزدوجة! من مسافة عدّة كيلومترات وأنا ألمح السيارة ذاتها في المرآة الجانبية، تجد في إثرنا. لقد تبعتنا في فاندوفر، ولديّ شعور أنها كانت تتبعنا قبل خروجنا من باريس.

توجهت بدورها إلى النافذة، وألقت نظرة سريعة.

الليل يأتي مع رذاذ مطر خفيف يشبه اللبن. على المرج الذي تحوّل إلى موقف سيارات، لا يوجد سوى سيارة الغولف. بعيداً، الطريق الضيقة تتلاشى بين أشباح بيوت حديثة، لا طابق لها.

سألته بشيء من القلق:

ـ بماذا تفكر، هيرتز؟ إنه الوحيد الذي يعرف أننا في هذا المكان لو كررت لك أنني لا أثق به، أخشى أن تُخرج لي نغمتك المعتادة حول الماسونية الأخوة.

أحاد موزيل نظره عن النافذة، مسدلاً الستائر، فاتحاً كيسه ويقول:

ـ عليَّ العمل! مراجعة أخيرة لخرائط رئاسة الأركان والطرق المعدة للنزهات الطويلة!

إيميلي ليست غبية، موزيل لا يتمكن من إعطاء البديل بشكل كاف وهو يبدي عدم التشنج ومظهراً ابتسامة مصطنعة، يبدو بالفعل منزعجاً، مغتمّاً.

ـ أتظن فعلاً أن فرنسيس عاش هذه المغامرة قبلنا؟ وحده، دون مساعدة أي شخص؟

الظاهر أن موزيل يشك بذلك.

ـ أطرح على نفسي دائماً السؤال الاحتمال أن يكون قد حدد مكان القبر، ولكنه طبعاً لم يغامر في مهمة تحت البحر. لا أراه في هيئة رجل ـ ضفدع!

ـ وأنا أيضاً، لا أراه كذلك. تقبلت إيميلي مبتسمة، هل تتذكر، في اليونان، طبعاً؟

ـ ذلك، أتذكره كان بالأحرى يحب القراءة على المركب أكثر من حبه للغوص معنا.

ـ بصحبة الشقراء التي كانت معك! أترى أن الذكرى تعود إليك، بمجهود صغير، ستكون قريباً قادراً على تذكر اسمها.

* * *

الساعة العشرون.

غير بعيد عن تمثال المانوي، أركن موزيل سيارته تحت شجرة ضخمة، على جانب درب في الغابة، يصعب على السيارات سلوكه.

أخرج من الصندوق الأكياس التي تحمل على الظهر وحقيبة الظهر التي تحوي أدوات العمل والغوص.

سحب من حقيبة الظهر مصباحاً مشعلاً وخريطة بسطها في الحال للاستعانة بها متذكراً المسار للمرة الألف. ثم قال وهو يدل بذقنه على الاتجاه:

ـ سنسلك هذا الطريق؟ وسنصل إلى الاثنين «يوحنا».

ـ أنا معجبة بثقتك التي لها مذاق المراهقة المتأخرة.

دخلا إلى الغابة. فتح موزيل المحفظة، مشعله موجّه إلى الأمام كاسراً أشعة النور على الجذوع الضخمة وتشابك الأغصان والعليق الصغيرة.

قال:

ـ لنحدد أولاً على هذه الخارطة الحجرين اللذين يحملان اسمي العجوز والشابة.

ـ متمنية أن تكون نظريتك صحيحة!

ـ وإذا لم تكن الحال كذلك، فهذا سيعني أن نظريتي لا ترتكز إلا على حزمة من التطابقات، العديدة، التي ستكون في مجال اللامحتمل. الصدفة قد لا تكون بهذا القدر من التشابه.

الطريق يصبح درباً ضيقاً، متعرجاً على حواف المستنقعات، العديد من العوارض المتكسّرة على يمينه، أحراش كثيفة قصيرة الشجر من على يساره.

أصبح التقدم أشد خطورة، والخطى أخذت تتثاقل على أرض مبلّلة.

أعلن موزيل:

الحجر الأول ليس بعيداً من هنا، هل هذا جيد؟

ـ لا يمكننا الكلام عن أرض صلبة... لكن ذلك مقبول.

الغابة تتسع عندئذ، متيحة للمستنقعات إمكانية التوسع نحو الأراضي.

تقاطع مخروط النور المنبعث من مشعل موزيل مع حواف حجر رمادي منتصب في الوحل.

صاح موزيل:

ـ العجوز! ها هي!

ـ كنت أتوقع شيئاً ما أكثر روعة.

صخرة صغيرة كتليّة (من قطعة حجرية واحدة) منحوتة بلا اتقان، مغطّاة جزئياً بطحلب رمادي، داعبتها ونحتتها الرياح، والمطر، والجليد، ومغطاة جزئياً بطحلب رمادي.

تفحص موزيل خريطة الأركان التي أشار فيها على رسم الهيكليين بالقلم الأحمر العريض.

الشابّة أمامنا مباشرة، على ضفة هذا المستنقع الذي سيصيب قريباً في واحد من المستنقعات العديدة المجاورة لبحيرة غابة الشرق.

لاحظت إيميلي:

ـ لا شك أن الخارطة الأرضية (الطبوغرافيا) قد تبدلت منذ أعمال هوغ دو باينس.

ـ وافق موزيل، مع ذلك لنتابع السير وفق خط مستقيم يصل بين الحجرين (الاثنان يوحنا). في منتصف المسافة سنأخذ الاتجاه العمودي الذي يجب أن يدلنا على أرض الظل...

استأنفا سيرهما، في الوحل الذي أخذ يزداد لزوجة تدريجاً، مما اقتضى المزيد من المجهود للحفاظ على التوازن.

من وقت لآخر، يطلق أحد عصافير الليل نداء. إلى اليمين حيوانات صغيرة تتبح إلى جوار الماء، مسببة حفيفاً لدى احتكاكها بأوراق الشجر المليء بالشوك.

قالت إيميلي:

ـ أكره التنزه في الغابة ليلاً، أكره المستنقعات، أحواض الضفادع، حيث التراب! أكره كل ما هو رطب تفوح منه رائحة العفن!

* * *

يجب أن يكونوا دائماً تحت أنظارنا.

تقدم متلمّساً طريقه، متخبّطاً في التربة الطميية، محدثاً الخدوش في وجهه ويديه بسبب فروع الأغصان الشائكة التي تضربه كالسياط لدى كل خطوة.

يتقدم تخميناً، لكنه كان ينظر أيضاً إلى خط النور الذي يرسمه مشعل موزيل في تلك الليلة الرطبة والدبقة. أما هو فلم يصطحب معه المصباح الكهربائي. قبل ذلك، نزل عن سيارته عندما رأى موزيل يركن سيارته تحت سنديانة ضخمة، كان يتبع سيارة الغولف من فندق أوزارم رويال، مطفأ الأنوار يسير ببطء. أخرج للتو مسدسه من علبة القفازات وانطلق خلف الشابين.

يجب أن يكونا دائماً تحت مرمى النظر.

مع ذلك انهار من طوله في الطين المبلل بسبب خطوة خاطئة.

ـ نهض، يتلمس حوله ليجد قبعته.

- يا الله، إنني لا أرى أبداً نور مشعلهما!..

- يجب عدم الخوف.. تذكر توضعهما الأخير، هناك في ذلك الثقب (الفتحة) بين كتلتي الشجر. برز شبحهما بوضوح في الشريط السماوي الضيق!

* * *

الحجر الثاني شبيه بالأول تقريباً، يخرج من بين القصب، الذي يشكل حاجزاً رقيقاً بين الغابة والمستنقع.. شجرة عارية من أوراقها، فروع ملتوية امتدت فوق الحجر وبدت كأنها تحميه.

هتف موزيل:

- الشابة، الصخرة الشابة! كان الهيكليون يشبهون الاثنين «يوحنا» بجانوس، ذلك الإله اللاتيني الذي يملك وجهين: وجه العجوز ووجه الفتى الشاب. جانوس يمثل الماضي والمستقبل. وفي المركز...

إيميلي وموزيل يلتفتان بالحركة نفسها. عبر ستار القصب يمتد مستنقع «أومبر» مستنقع الظل الكثيف، المحاط بشاطئ صغير مغطى بالحزاز. على بعد عشرين متراً تقريباً من الضفة، حزمة ضوء المصباح، ترتفع تلة صغيرة لا شكل لها يغطيها عشب عالٍ.

قالت إيميلي مندهشة:

- هل يعقل أن أرض الظل ليست سوى هذه الجزيرة البائسة؟؟

- هناك حظوظ كبيرة أن يكون ذلك كلُّ ما تبقى من الأرض التي أغرقها هوغ دو باينس وأتباعه. هذه الجزيرة تتطابق بالضبط مع موقع المتاهة الدائرية في رسم الهيكليين.

لم يعد بمقدورنا الشك في ذلك إيميلي، نحن قريبان من قبر المسيح، قريبان جداً.

عادت لتفكر بفرنسيس، تخيلته وحيداً، على ضفة هذا المستنقع، متأملاً هذا البروز المتواضع للأرض السوداء، مقتنعاً أنها تخبئ السر الذي من أجله يتحارب البشر منذ ألفي سنة.

نظرت إيميلي إلى موزيل وهو يفتح الأكياس ويبدأ يفرش عتاد الغطس، إنه يرتجف قليلاً، بحركاته العصبية جداً.

* * *

جلس القرفصاء، لمح حزمتين جديدتين من الضوء. لحظة قصيرة، اعتقد معها أنه وجد آثار موزيل وإيميلي، لكنه وقف في مكانه فجأة دون حراك مكتشفاً خطأه، لقد أحصى ثلاثة أطياف.

أخفض جسمه، قلبه يخفق فجأة بقوة، مذاق دم يصعد حتى حلقه.

القلق، الخوف الذي لا يمكن التحكم به، الحارق، كل جسده مكهرب بسبب الخوف.

سمع المجهولين الثلاثة يهمسون، بالإيطالية؛ لحظهم لعدة ثوان، عندما مروا على مقربة منه.

ثم انتظر حتى صاروا بعيدين عنه ليقف، ويتابع السير. الساقان مسمرتان، القلب مؤلم.

يده اليمنى تشد على أخمص المسدس البارد في جيب مشمّعه.

75

المجزرة

دقّق موزيل الوضعية الصحيحة للأحزمة الحاملة لقوارير الأُكسجين الخاصة بإيميلي.

قالت متذمرة:

- أنت تكاد تسحق كتفي، ليس من خطر فقدان القارورتين.

- ليتني أقدر على وصلها برئتيك... حذار عدم الاحتراس بخاصة!

- لا تقلق، لقد غطست في الماضي في أماكن أعمق وأخطر من مستنقع البط هذا!؟

لكنها بعد وقت قليل، استأنفت الكلام:

- ذاك لا يمنع أنه لدى التفكير، عليَّ الإقرار بأن هذا ليس حماسياً جداً أعتقد أنني لم أغطس أبداً في الليل، وفي مستنقع من هذا النوع بخاصّة.

- المخبأ المثالي، أعتقد أن الهيكليين أعدوا غرفة كاتمة ليحفظوا فيها بقايا يسوع (رفات المسيح)، لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.

ثبّت موزيل جهاز التصوير في حزامه، أضاء المشعلان الخاصان بالغطس.

- ألا تشعر برهبة صغيرة، ديدييه؟

- بل برهبة كبيرة، هائلة... أنه أكبر خوف مُنيت به في حياتي!

إنهما يواجهان المستنقع، وغير مجترئين على ولوجه، متنصتين إلى الأصوات المنبعثة في الليل.

الريح في القصب. نعيب البوم، سقسقات الماء السائل على الطين. بعض خشخشة الأوراق في ظهريهما.

خطا موزيل الخطوة الأولى، ماداً يده إلى إيميلي. تقدما متحدين ببطء في المستنقع وغطسا فيه تماماً، يقرصهما الماء البارد بالرغم من سماكة ثياب الغوص.

فوران الفقاعات من حولهما، الظلمات التي تبتعد أمام مرورهما، مضاءة بالمشاعل. أشنيات طويلة حلزونية تبطئ من تقدمهما، صخور بارزة يجب تجنبها.

تركت إيميلي يد موزيل، عندما فتح لها هذا الأخير الطريق سابحاً مترين أو ثلاثة أمتار

إلى الأمام. السابحات (البلاستيك الموضوع في القدمين) تتحرك بشكل منتظم.

* * *

أخفض الرجل نظارته العاملة بالأشعة تحت الحمراء:

ـ لقد غطسوا! نرى هنا هالة مشاعلهم تحت الماء.

قال لورنزو:

ـ لا شيء أسهل من هذا للكشف عن وجودهما، فهم بهذه الطريقة يصبحون أهدافاً سهلة المنال.

بالفعل، اعترف كارلو، إن صاحب السيادة قد وقَّع اتفاقاً مع الشيطان ليقول بالضبط كيف يمكن رفع كبَّة الغزل للوصول إلى أرملة مارلان وموزيل! إن محادثات هرتز، التي سجلناها لم تكن كافية لتتبع أثرهما بصورة دقيقة بهذا القدر.

ـ تابع الرجل: إن لديه مخبرين أفضل مما لدينا أو لديه قرون!

تنهد لورنزو وقال:

ـ أدفع غالياً لمعرفة من أخبره بهذه الطريقة.

كان باستطاعة سيدنا إعطاء دروس لمكيافيلي، كنت أشك بأنه لن يدعني أضع أجهزة التنصت داخل مكتب هيرتز! كان يعد مخططه منذ زمن بعيد.

ابتسم الرجل.. منذ زمن طويل، منذ سنوات، عشرات السنين، عمل منهجي لا غبار عليه! صداقة متينة يجب بناؤها من سيكون ضحيته: مع هيرتز...

* * *

أساس أرض الظل يشكل جداراً عريضاً من الحجر الدائري. موزيل وإيميلي يقتربان منه، يكافحون ضد خيوط طويلة من العشب اللاصق.

كانت المشاعل تسمح بتصفيف الدبش (قطع الحجارة) التي بُنيت في الفواصل وبينها الأشنة القصيرة المتبترة.

كانت المنارتان تلمسان الجدار وفجأة، وقع بصرها على كتابة منحوتة بشكل مقعّر، رسم متآكل لكنه مفهوم، دائرة كبيرة تحوي مثلثاً.

نظر إيميلي وموزيل واحدهما إلى الآخر، تحادثا بعينيهما. المفاجأة في المقام الاول، ثم، وبعد ذلك مباشرة، الإعجاب والانبهار. هذا السحر الذي يولد عادة في الأحلام والذي يرفضه الواقع.

أمسك موزيل بيده الحرة، بالدائرة العملاقة متتبعاً محيطها المحبب (على شكل حبوب) مداعباً هذه الصخرة المكشوطة التي طبعها الهيكليون بختمهم قبل ذلك بعشر قرون. الآن، أصبح يعرف.

التفت نحو إيميلي، التي بقيت إلى الخلف من شدة التأثر، (الخوف أيضاً)، أشار لها بالاقتراب، عيناه تضحكان، مغرورقتان بالدموع، يضحكان كشخصين حلّت عليهما رؤيا، يضحكان لتلك الأسطورة التي تحولت إلى حقيقة.

ـ في غمرة حماسه، أخذ موزيل عدة صور للجدار، الحجارة الضخمة الدائرة ومثلثها.

انخفض فرح إيميلي بسرعة، صورة فرنسيس فرضت نفسها في ذهنها..

الرجل الطويل ذو الرقبة النحيلة، والرأس الثقيل، والعينان قصيرتا النظر، الذي يرتدي ثيابه دائماً على عجل، أزراره في غير موضعها. القبة موضوعة بشكل مقلوب، الكنزة نصفها تحت حزام البنطال ذو الجيوب المنخفضة عند الركبتين. ذلك الشاب الكبير الذي كانت تفكر بالانفصال عنه يلازمها في تلك اللحظة على شكل شبح.

فرنسيس المشتاقة إليه أكثر من أي وقت مضى.

ناداها موزيل بإشارة ثابتة، ردّت عليه بحركة صغيرة من يدها وأشارت بسبابتها إلى كتلة مائلة للبياض مخبأة جزئياً في سرير من الأشنة الذي اكتشفته فجأة تحت قدميها، على عمق مترين أو ثلاثة. اقتربت منه بجهد إضافي، أظهر ضوء مشعلها حجرة مسطحة ومربعة متجاوزة بعشرة سنتيمترات الأرض الموحلة، الحاوية في وسطها حفرةً أو طبقة دائرية مقعرة.

فكرت إيميلي مباشرة بالحلقة. بعد عدة ثوان من التفحص، اقتنعت بإصرار أن هذه الحفرة والحلقة لهما المحيط نفسه.

«قفل!».

أخذت للحفرة عدة صور وتهيأت للحاق بموزيل عندما كاد ضجيج قوي يمزق طبلة أذنها، انفجار، مصحوب ببرق مبهر، انفجار أحدث فقاعة كبيرة، دافعاً إياها بعنف نحو الخلف في الاشنيات التي انغلقت عليها.

* * *

هيّأ لورنزو سلاحه قاذف الرمانات اليدوية مصوباً نحو أحد مصادر النور العائمة. أوقفه كارلو واضعاً يده على الذراع قائلاً: «انتظر!». ثم وجّه كارلو مصباحه الكهربائي على القصب.

سأل الرجل:

ـ ماذا هناك؟

قال كارلو:

ـ لقد هدأت الريح منذ عدة دقائق.

ـ حسناً؟ نفذ صبر الرجل.

تابع كارلو: حسناً، ليس طبيعياً أن تتحرك نباتات القصب.

رفع الرجل كتفيه.

ـ لا شيء سوى حيوان من نوع الثدييات أو أي حيوان من هذا القبيل. لا يوجد أحد غيرنا.

ألحّ كارلو:

ـ أخاف، كل شيء يتسلل في الليل. الدود يحاول أن يلتهم ساقيك!

أعلن الرجل:

ـ لننتهي من هذا! الأشياء الغريبة التي يقوم بها الكاردينال هي مضحكة، إرادة القتل أو القضاء على أعدائه باستعمال العناصر الأربعة يشير إلى انتباه جميل. هؤلاء الماسونيون اللعينون والمدربون بالهواء والنار والماء والتراب، لقد سبق أن استعملنا الهواء والنار، وهذه الليلة فإن هذا الماء القذر سيكون قبرهم. الله معك.

ـ ومعك أيضاً، ختم لورنزو وهو يلقي قنبلة ثانية.

في الحال انتفخ المستنقع وخرج منه ماء دفّاق.

لاحظ الرجل أن مشاعلهما بدلت أماكنها، إنهم يبحثون عن الفرار.

أكد لورنسو:

ـ لن يكون لديهما الوقت الكافي، وهو يصوّب للمرة الثالثة.

* * *

قوة الانفجار مزّقت بذّة الغوص التي يرتديها موزيل دافعة إياه على جدار القبر، فاقداً وعيه، كاد يغرق في قعر المستنقع وقد تخلّى عن مشعله الذي ضاع في كتلة من الأعشاب الطويلة. جهاز تصويره بقي ممسكاً بالعلاقة الموضوعة في معصمه، ثم هوى.

رأته إيميلي، وهي تتخلص من الاشنيات التي غمرتها، يهبط، ذراعاه على شكل صليب، مبهوراً، يغوص في الظل. كانت بحاجة إلى النور ولنجدته. سيختفي قريباً في ليل المستنقع الجليدي.

لكن القتلة يعتمدون على المشاعل ليوجهوا قنابلهم، فإذا ما تحركت إيميلي، فإنه سيقضي عليها، إذا ما أطفأت مصباحها، فإن موزيل سيلقى حتفه، وستكون غير قادرة على العثور عليه في هذه الظلمات.

* * *

القتل.

أخيراً التصميم. التصميم على الخروج من نباتات القصب، الانتصار على الخوف. قتلهم الثلاثة.

كان راكعاً على ركبتيه في الوحل، واقفاً، يبعد نبات الجونك الشائك بيده، مسدسه مشدود باليد الأخرى، مصوّب إلى الأمام عندما يظهر مكشوفاً، لمحه أحد الدخلاء وصاح بالإيطالية. الرجل قاذف القنابل يوقف رميه، يلتفت بدوره مفاجأ، يأخذ اندهاشه في الموت. اخترقت طلقة رقبته ودفق من الدم انبثق من جرحه راسماً قوساً مائلاً للسواد الذي يرافق سقوطه.

ـ القتل من جديد، بسرعة..

رأى الرجل الثاني وهو ينتفض من مكانه، واضعاً يده على جبهته بحركة مشدوهة، مدركاً أن جزءاً من جمجمته قد انفجر والسقوط بتثاقل في الوحل.

كل شيء يسير بسرعة فائقة، أعمال تجلب الإغماء كما لو كانت خارجة عن الواقع، «التأثير المتضافر للمهدئات، الكحول والصوم» على ما يظن.

أخرج الرجل الثالث، الذي يرتدي معطفاً، سلاحه بسرعة من جيبه، وجهه باتجاهه.

عرف بأن لا وجود للوقت للتفكير. وقت ضائع، استغله الرجل ذو المعطف ليصوب نحوه، ويضغط على الزناد.

ألم في المغبن، وخزة في الجلد تخترق لحمه وعظمه في الناحية اليمنى، التي أفقدته توازنه.

غير أنه لم يسقط، ظلّ واعياً، في جنونه. صحوة خاصة به والتي كانت تفصل كل حركة عن سابقتها، سكتت الأصوات، تفككت الأحداث إلى آلاف الصور الذاتية. لا يوجد ضجيج، سكون حاقد، فرحاً لرؤية إصابة خصمه، الذي انكسر إلى اثنين (ينحني) وأصيب بالفواق محطماً سطح المستنقع بظهره فقد الرجل سلاحه أثناء سقوطه.

تقدّم وهو يعرج، شاعراً بألم خفيف بينما كان جرحه في المغبن يبلل دمه الساخن بنطاله كما لو بال فيه.

تقدم، مصمماً، فوهة المسدس موجهة إلى الأمام. إلى أن بلغ الرجل شبه المستلقي في

الماء، بثوبه الملطخ بالدم، ومدّ عنقه محاولاً التعرف على ملامحه. ماذا رأى؟ قبعة، شظية على عدسة نظاراته، بصيص نور على وجنته، شوارب مستعارة.

- من أنت؟ سأل الرجل بلغة فرنسية سليمة، قل لي على الأقل من أنت، قبل أن تجهز علي.

نظر إليه بازدراء، تذوق هذه اللحظة، تلذذ بها بانشراح شاذ غير طبيعي الذي يطبعه بشعور العظمة. هو المجهول الذي تدخل في معادلة حراس الدم والأخوة من المحفل الأول...

يجيب:

- يجب أن يذكرك اسمي بشخص كان البابا قد سعى إلى قتله، واحد يدعى مارلان!

قهقه الرجل ذو المعطف ضاحكاً ببلاهة، كان يعود إلى التفكير دون شك بملفاته، في بطاقات المعلومات التي كان يعدُّها أعوانه، ويقول في نفسه أنه كان عليه توقع ذلك. جسده الذي اختلج تحت وابل من الرصاص الذي ملأه بالثقوب. مات بضحكة مقهقهة مخنوقة، وفمه ينفث دماً ومرارة.

«أنا مجرّد شخص يأخذ بثأره».

76

الرسالة الأخيرة

لم يعرف أسباب توقف الانفجارات، لكن إيميلي استغلت هذه المهلة لتلتحق بموزيل بعد أن نجحت في تحديد مكانه في قعر المستنقع، ممدّداً على ظهره.

وضعت مشعلها في حزام سترتها للغوص، واحتضنت بذراعيها إبطي صديقها لتصعد به إلى السطح.

إنه وزن مُعطّل ميت تحاول رفعه بصعوبة، مجدّفة بكل ما لديها من قوة في الماء الموحل. خائفة أن يكون القتلة ينتظرونها على الضفة، مع ذلك تابعت صعودها، مظهرة إرادة لم تكن تعتقد أنها تملكها. البقاء على قيد الحياة، حتى لبضع دقائق، بانتزاع الحياة بما تبقى من زمن الموت.

لم يبق لها سوى المترين أو ثلاثة أمتار لتقطعهما وتنجو من هذا الوحل الشديد البرودة. بينما تجدّف بقدميها صدمت برأسها جسماً على مستوى السطح. وجه نظر إليها وابتسم. الشفتان مشدودتان بتشنج مضحك، توجب عليها إبعاد جثة المجهول لتخرج من الماء، وتسحب موزيل على الحصى الموحل، واستعادة تنفسه.

نزعت قناعها ومخفض الضغط، فاكتشفت رجلين آخرين ممدّدين على الأرض، أحدهما اقتلعت نصف جمجمته، والآخر نزف كل دمه نتيجة جرح عميق في العنق.

ثم كشفت وجود شخص، سرعان ما عرفته: الرجل ذو القبعة والشاربين المستعارين والنظارات المحرشفة. الرجل الذي فاجأته تلك الليلة أمام نافذة مكتب مارتن هيرتز. يراها ولا يتحرك، يقف بطريقة غير مباشرة، مخلّع الوركين.

لاحظت إيميلي بقعة الدم الكبيرة على بنطاله، مع مسدس يتدلى من طرف ذراعه الأيمن.

ـ آه، هذا أنت! هذا كلُّ ما بوسعها قوله، مدركة أنه ارتكب مجزرة لينقذها مع موزيل.

لم يجب بشيء، ولم يتحرك، وكأنه يبدو وكأنه ينتظر بلا مبالاة.

انحنت إيميلي على موزيل.

ـ ساعدني. إنه غير واعٍ...

تمتت رفع المريض ووضعه على العشب، وتمديده لفحصه، لأن ساقيه ما تزالان في الماء.

ـ لماذا؟ لماذا لا تتكلم؟ أنت تخشى أن أتعرف على صوتك، هل هذا هو السبب؟

ما من جواب، ولا أي إشارة حياة من قبل الشبح. عزمت إيميلي على أن تستمد مصادر أخرى للقوة من نفسها لرفع جسم موزيل العديم الحركة. تخلصت من مجدافيها الموضوعين في قدميها العاريتين اللتين تغوصان في الطين، وتنزلقان، مما شلّ طاقتها...

ـ أنا تعبة من أسرارك، ومن كل ألغازك، أطلب منك فقط مساعدتي لحمله وإخراجه.

أخيراً وبعزم، أخرجه صوت إيميلي وهي على حافة البكاء من هذا الحلم، الحلم اليقظ الذي يراوده، كفيف البصر وأصم، يقرر أخيراً مساعدة المرأة الشابة، رأسه مطأطأ، متجنباً إظهاره، اقترب وهو يعرج، مثل رجل آلي معطّل، شدّ على قبضتي موزيل وأخرجه من العشب.

بعد أن انتهى من عمله، تراجع المجهول خطوتين إلى الخلف، رافعاً قبة مشمّعه ليخفي القسم السفلي من وجهه ويقف مجدّداً مواجهاً بلا حراك.

حررت إيميلي موزيل من قناعه، فتحت سترة الغوص الممزقة، اكتشفت آثار حروق ثم وضعت أذنها على صدره متربصة لسماع خفقات قلبه.

ـ إنه يتنفس، يجب نقله إلى السيارة، أحلفك، كائناً من كنت، ساعدني!

لكن المجهول التفت بقوة نحو شجيرات القصب. رفعت إيميلي نظرها، أضواء (أنوار) العديد من الحزم الضوئية تتوجه نحوهم باحثة في الليل.

ـ هل هم حراس دم آخرون؟

كانت إيميلي منهكة، مثبطة العزيمة. هل توصلت إلى رفع موزيل من قعر هذا المستنقع لكي تُقتل هنا، على عدة أمتار من قبر يسوع؟

أمسكت رأس صديقها بين يديها، رفعته لتضعه على فخذها مداعبة شعره.

شجيرات القصب تتحرك تصدر ضجة، المشاعل تقترب، يبدو المجهول وكأنه يفكر، يضطرب بعصبية، يخطو خطوة إلى الأمام، يفكر أيضاً، يخطو أخرى، ثالثة، أخيراً أصبح قريباً كفاية من إيميلي ناولها مغلفاً أخرج على عجل من جيبه.

نظرت إليه إيميلي، دون أن تجرؤ على الفهم «راقبت حدقتين من خلال العدستين اللتين غشّاهما زجاج النظارات الضخمة، أخذت الرسالة «التاسعة»!

عينا المجهول كانتا مملوءتين بحزن كبير وعزم رهيب، إنهما عينا رجل محطّم نتيجة حزن قاده إلى الجنون.

دار على عقبيه وهرب بالاتجاه المعاكس لجهة الغرباء الذين يدوسون على القصب ليتقدموا.

اختفى عندما سمعت إيميلي، ليس دون مفاجأة أن ثمة من يناديها، هي وموزيل. من بين هذه الأصوات المتلهفة تعرفت على صوت واحد. صوت مُواء قويّ.

إذ ذاك ظهر من داخل شجيرات الأسَل الشائكة، مسبوقاً بأنوار باهرة للمشاعل الكهربائية، سبعة أطياف، تتقدم وتشكل خطاً، بخطى منتظمة وبطيئة، مارتن هيرتز ينفصل

عن المجموعة ويدنو من إيميلي التي كانت تضع رأس موزيل المغمى عليه، على فخذها.

كان المحامي هو الوحيد الذي لا يلبس التول الأسود (قماش شفاف) على وجهه بعكس الآخرين الذين يموهون معالم وجوههم خلف حجاب شفاف.

قال هيرتز وهو يخفض مشعله حتى لا يبهرها:

- لا تخشي شيئاً، لا تخافي، نحن جميعاً أصدقاء.

ثم أضاف:

- أنا دائماً مخلص وفي، مثل ملاكك الحارس العجوز طفيلي نوعاً ما! لكن... ديدييه مجروح؟

أجابت إيميلي:

- إنه مغمى عليه، مُتَرَنِّح! لقد أطلق علينا القتلة القنابل بينما كنا تحت الماء، وكان من الممكن القضاء علينا، ولولا تدخل الرجل المجهول ذي القبعة ...

- قام ساعي بريد فرنسيس بجولته البريدية واستغلها لينسب إلى نفسه هذه المذبحة؟ عامل يعمل بمفرده هرب لدى وصولنا؟

- نعم، لقد ظن أنكم حراس الدم، كما ظننت أنا من جهة أخرى.

- إنهضي إيميلي. أصدقائي سيهتمون بديدييه.

- إنهم إخوة من المحفل الأول؟ لهذا السبب يضعون حجاباً على الوجه؟

عمل مسرحي نوعاً ما، أوافق، أطلب منك أن تعذريهم، إنهم يفضلون الاحتفاظ بسرية هويتهم، ثقي بي. إنهم يخاطرون بما فعلوه هذه الليلة.

أمسك هيرتز إيميلي من ذراعها وساعدها على الوقوف بينما قام الأخان بفحص موزيل.

أشار هيرتز بذقنه إلى الرسالة التي تمسك بها إيميلي بيدها اليمنى.

- إذا كنت أجيد الحساب، أقول، بحسب ما أعرفه عن فرنسيس، أن هذه الرسالة ستكون الأخيرة. لم يكن من الواجب أن توجه إليه إلا في حالة الخطورة الشديدة فهي سُلّمت لك. أنت.. ألا تريدين فتحها؟

- ليس الآن، إنها موجهة إلى ديدييه وأرغب أن يكون هو أول من يقرأها مهما كان محتواها رهيباً.

- يجب أن يكون فضولي أقل أدباً من فضولك، إيميلي. لو كنت مكانك، لمزقت هذا المغلف!

ثم أشار إلى المستنقع، متسائلاً:

- ماذا رأيتم تحته؟

- صحيح أنك قط عجوز، يا مارتن عنيد، متشبث بالرأي، وماكر.. حتى أنني أتساءل ما إذا كانت صحة ديدييه تُهمّك. كل ما تريد معرفته، ما وجدناه!

- القطط غالباً ما تكون ثابتة في صداقتها. ألم أثبت لك صداقتي مراتٍ عديدة؟ فيما يخص ديديه، أنا متأكد أنه سيستعيد عافيته بسرعة بعد هذه المغامرة الفاشلة.

لم يتطلب مني الأمر سوى نظرة خاطفة لأتأكد من أنه لا يشكو من أي جرح خطير، ولا حتى من أي رض، سنحصل بسرعة على التأكيد.

عقّبت المرأة الشابة ساخرة:

- كنت أجهل أن لديك مهارات طبية. قام الآن الإخوة الأول بتسكيل نصف دائرة، إنهم يراقبون الجوار وهم يمسحون الليل بمصابيحهم.

- ماذا وجدتم؟ كرر هيرتز، ملحاً على الجواب.

- من المحتمل جداً أننا اكتشفنا قبر يسوع، في صخرة جدار كبير منحنٍ، مستنداً إلى جدار الدائرة.. في المكان الصحيح الذي أشار إليه هوغ دو بابنس وبالرسم المكتشف في وصية المجنون.

سمعهم الأخوة الأوائل، لم يبدوا أي ردة فعل مناسبة بل تابعوا سبر أعماق شجيرات القصب والغابة.

سألت إيميلي:

- كيف عرف الفاتيكان أننا ننقب بالضبط في هذا الجزء من غابة الشرق؟ من هو الذي يمدّ حراس الدم بالمعلومات منذ البداية؟

أجاب هيرتز:

- لا أعرف إيميلي، أقسم لك أنني أجهل ذلك.

توجه هيرتز إلى إخوته.

- لنعد إلى السيارات وليبقَ واحد منا لمراقبة الأماكن، سنعود قريباً لنقل الجثث ومحو كل آثار مرورنا.

خذوا الأكياس مع متاع إيميلي وديديه، يجب أن يظهر الأمر وكأن شيئاً لم يحدث هنا هذه الليلة.

لاحظت إيميلي التحول المفاجئ لمارتن هيرتز: بدانته، فتوته نبرته البشوشة... قد زالت لتظهر مكانها شخصية أقل طيبة، متصلّبة، شخصية رجل معتاد على إعطاء الأوامر على أن يفرض احترامه وتنفذ أوامره.

التفت نحو إيميلي:

- ستبدلين ثيابك فيما بعد، علينا أن لا نتأخر.

الأخوان اللذان كانا يفحصان موزيل أمسكاه من ساقيه وذراعيه بينما اهتم الثالث بإسناد رأسه.

قالت إيميلي:

- لا آثار أبداً! أقنعة، أحداث جرى محوها، أموات مجهولي الهوية!

- نعم، إيميلي. المجازفة كبيرة إلى درجة أننا نحارب في الظل منذ ظهور هذه القضية. إنه بناء ألفي سنة من التاريخ نقوم بضرب أسسه وتدميرها.

بدأ الموكب بالسير، مصابيح المشاعل تمد حزمها بين القصب. بدأ هيرتز:

- لقد فعل ديدييه جيداً بالاتصال بي هاتفياً يوم أمس، ليعلمني بقراركما، قمت في الحال باستنفار إخوتي وأيقظنا المحفل الأول. مع ذلك آمل أن لا نكون قد وقعنا في فخ!

- أتظن أننا استُخدمنا، موزيل وأنا، كطُعم؟

لقد كان محفلنا يعتقد دائماً أنه مسيطر أو متوقع على نوايا الفاتيكان التي توصل أحد عملائنا من التسلل إليها...! لاسيما أن حراس الدم يتعقبوننا كظلّنا!

عندما دخل الموكب في الغابة بدأ موزيل يستعيد وعيه، لم يتمكن مباشرة من التعرف على الأصوات التي تتحدث على خطوات منه، ولا إدراك أنه محمول. طبلتا أذنيه ما تزالان تؤلمانه إضافة إلى تأخر وعيه في إعادة تكوين الواقع. شعور بالبرد والخوف.

- إيميلي؟

- أنا هنا ديدييه.

لنضعه برفق على العشب، يجلس، يتعرف على مارتن هيرتز الذي ينحني عليه ليقول بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق، لقد بقيت فاقد الوعي لبضع دقائق، لكن لا يبدو أن هناك جروحاً بليغة.

- ماذا تفعل هنا؟ ما هذا السيرك؟

لمح للتو الأطياف والأشباح المقنعة.

- نصحته المرأة الشابة بالهدوء، سأشرح لك كل شيء.

قال هيرتز:

- أنت من يريد معرفة المحفل الأول، فيمكنك أن تظهر نفسك أكثر احتراماً حيال إخوتك!

هل تعرف أنه من النادر جداً أن يخاطر هؤلاء بمغامرة على شكل مجموعة خارج معبدهم؟

همس موزيل:

- المحفل الأول؟ آسف!

وقف الشاب يساعده الأخوين اللذين كانا يحملانه ويساعدانه على استعادة توازنه.

تابع هيرتز:

- لسنا بعيدين جداً عن سياراتنا حيث ينتظر أخوة آخرون. علينا أن نضع عصابة على أعينكما، ثقوا بنا.

دهش موزيل:

ـ كيف يمكننا أن نفعل غير ذلك مارتن؟ أليس أنت من يتحكم باللعبة وأخرجنا من هذه الخطوة المتعثرة؟

ـ ستروي إيميلي لك كل شيء... لكن، هذه المرة، ليس أنا من قتل حراس الدم الذين رموكما بالقنابل.

ـ إنه المجهول، تتابع إيميلي، الرجل الذي يوصل لنا رسائل فرنسيس.

لم يبد موزيل وإيميلي اعتراضاً على وضع عُصابة سوداء على العينين، واقتيدا نحو الأخوة الأوائل.

وصلت المجموعة إلى فسحة داخل الغابة حيث تقف سبع سيارات، إحداها من نوع متسوبيشي. ذات الدفع الرباعي في المؤخرة، الأخ الأول ونيافته يظهران الرضى بعودة إخوتهم، محيطين إيميلي مارلان وديدييه موزيل.

ثلاثة أخوة آخرون غير مقنعين كانوا ينتظرون على مقربة من السيارات هرعوا إلى مقدمة القادمين.

أحدهما طبيب، بدأ يهتم على الفور بموزيل ثم أعلن هيرتز:

ـ أدعك للحظة بين يدي طبيب ممارس بارع، يا ديدييه، إنه لن يكلمك، لأنه ليس عليك أن تسمع صوته.

ابتسم موزيل.

ـ لقد تعلمت فضائل السر بصحبتك، مارتن.

نُقل إلى مؤخرة إحدى السيارات. كما نُقلت إيميلي إلى سيارة أخرى في حين استقلّ هيرتز سيارة الدفع الرباعي المخفض زجاجها. مال نيافته نحو المحامي الذي بقي خارجاً.

ـ ماذا هناك، مارتن؟

لخّص الأخير بإيجاز ما يعرفه.

قال الكاردينال:

ـ يا إلهي، لقد أوشكوا أن يجدوا ما كنا نبحث عنه منذ قرون!

أجاب هيرتز:

ـ هذا مؤكد تقريباً، سيدنا.

انحنى الأول بدوره، ماداً وجهه الشاحب نحوه، قائلاً:

ـ هذه المرة، لم نقطع الخيط الذي كان يصلنا بموزيل، مثلما قطعنا ما كان يربطنا بفرنسيس مارلان، الفضل في هذا يعود لك، مارتن.

طلب نيافته من هيرتز:

ـ ماذا تقترح في الحالة الحاضرة؟

ـ نقل جثامين حراس الدم الثلاثة لكي لا نتسبب في تحقيق للشرطة في المكان عينه، وأدعو ديدييه موزيل إلى جلسة ظلامية عندما تسمح له حاله المشاركة فيها.

قال نيافته:

ـ كنت قد حدثتنا عن تلك الرسالة التاسعة..

ـ أخشى من أن تكشف ما كنا نرغب في الحفاظ على سريته إلى الأبد.

تساءل الأول قلقاً:

ـ أتظن أن فرنسيس مارلان وصف العلاقات التي كان يقيمها معنا؟

تره هيرتز:

ـ اعتراف أخير، طبعاً! طلب مغفرة موجهة إلى صديقه ديدييه عن كذبه.

قال الكاردينال:

ـ نحن جميعاً أخطأنا، علينا طلب المغفرة من أولئك الذين نحبهم والذين يحدث أن نخون صداقتهم، هذا هو ثمن انتصاراتنا.

* * *

الألم يعض جنبه الأيمن ويمنع أي حركة في ساقه التي عليه أن يجرها كحمل مُرْبِك. مع ذلك تمكن من تعقب، ولو عن بعد، تقدم موكب مصابيح المشاعل.

أسند ظهره إلى شجرة، غير بعيد عن السيارات، شاهدهم يأخذون موزيل، وعيناه معصوبتان، في آخر سيارة وإيميلي في أخرى. تعرّف على مارتن هيرتز الذي توجه نحو شبحين بقيا على متن السيارة.

من مكان وجوده، لم يستطع سماع ما يقال، لكنه رفض التقدم أكثر إلى الأمام خوفاً من فضح أمره.. تمكن من معرفة الوجهة التي كان الأولون يريدون الذهاب إليها.

العودة إلى سيارته.. نسيان الألم.. استمداد طاقته من الرضى لقتله ثلاثة من حرس الدم وإنهاء مهمته.

77

اعترافات فرنسيس مارلان

بعد أن ساروا طوال ثلاث ساعات، طلبوا من موزيل وإيميلي الترجل من السيارة، وقدموا لهم المساعدة بسبب العصابة الموجودة على عينيهما وأخذوهما إلى داخل المنزل الضخم البورجوازي الذي يملكه الأول.

قام أخوان بمساعدة العاجز على النزول من سيارة الدفع الرباعي وحملاه إلى كرسي سيار التي جاء بها كبير الخدم إلى درج المدخل.

نزل الإخوة من سياراتهم، رفعوا الأقنعة الشفافة السوداء عن وجوههم والتي كانت تخفي معالمهم، ثلاثة منهم لم تتجاوز أعمارهم الأربعين سنة، أما الباقون فقد تجاوزوا جميعاً الستين. أما نيافته، فقد بلغ السبعين سنة خلف قامته الفارعة، وشعره الطويل الأبيض المردود إلى الخلف، نظراته الحادة، البراقة والخضراء، الصافية كالماء.

شاهد الكاردينال السماء، تتقشع على زرقة فوق أشجار الساحة نظر إلى ساعته، النهار سيطلع قريباً. شعر بقليل من التعب، رطوبة مستنقعات غابة الشرق ملأت مفاصله بالصدأ.

قال له أخ قريب منه:

- سنذهب لتناول قهوة ساخنة.

- وتدخين سيجار بالنسبة إلي.

أمسك نفسه عن القول إنه كان يحب تقاسم هذه اللحظة مع مارتن هيرتز. أن يتبادل معه مشاعره حول سيجار كوهيبا أو هويّو ودمونترّي. كورونا مزدوج يروزانها بين أصابعهما قبل أن يقطعا طرفه ويشعلانه بطريقة دينيّة، متنشقان بدفعات صغيرة أريجهما، الذي يتركانه أخيراً ليذوب بين شفتيهما، ويهويان كلاهما في الأحلام اللذيذة. لكن نيافته يعرف أنه لن يكون لديهما متسع من الوقت، سيكون عليهما تحضير جلسة الظلام التي ستستقبل ديدييه موزيل. ومن ثم سيفترقان، إلى الأبد، هذه المرة، سينفصل عن صديقه القديم، سيتخلى عن أخيه المحكوم سلفاً.

* * *

الجمعة، الخامسة وأربعون دقيقة.

إيمِلي وموزيل دُعِيا للاستحمام، وتبديل ملابسهما وتناول الطعام، دون رؤية أي أخ آخر غير هيرتز الذي كان شبه وصيف بتصرفاته الأبوية التي يجب استخدامها في مثل هذا النوع من المناسبات.

هما الآن في غرفة واسعة ذات ورق مُلَوَّن أصفر، ستائر مزدوجة مترهلة، وأثاث ثقيل وداكن.

رائحة القهوة تبدّد روائح الخشب المسوس، الجبس القديم، والغبار المتراكم.

تلقى موزيل ضمانات حول صحته، رغم أنه يشكو من صداع قوي، بعض الكدمات الزرقاء في المرفقين تذكره أن قوة انفجار القنبلة قد ألقته بعيداً عن جدار القبر.

سألت إيميلي:

ـ الآن يمكننا معرفة أين نحن؟

أجاب هيرتز:

ـ قرب باريس، في ملجأ حيث لا قلق ولا خوف عليكما.

سخر موزيل قائلاً:

ـ مخبأ أو عرين الأخوة الأول؟

قال هيرتز:

ـ يمكن النظر إليه بهذه الطريقة، ومع ذلك، اعتبرا أنفسكما ضيوفاً، لأنه لا يوجد أي شخص يمنعكما من المغادرة فيما لو رغبتما بذلك، لكن، أنتما بحاجة إلى قليل من الراحة يا ديدييه.

ملأ المحامي العجوز من جديد الفناجين الثلاثة بقهوة سوداء كثيفة، مضيفاً:

ـ لتشرب نخب الشخص العجيب الذي سهر عليكما، مثل شبح! بدونه، لما كنتما في هذا العالم، في هذه الساعة.

سأل موزيل:

ـ قلتِ لي إيميلي أنك رأيتهِ؟

ـ لثانية واحدة، المشعل الذي وضعته تحت حزامي أضاء أعلى وجهه وحدقت في عينيه.

ـ حسناً؟

ـ هذا ليس سوى شعور... عبثي! كنت خائفة جداً، مرعوبة... أخيراً رأيت عينيه... كما لو كانتا عيني فرنسيس!

مخلوق ثلجي يفرز مخالبه في جمجمة موزيل. عودة كابوس.

ـ هذا يمكن تفسيره، فرنسيس لا يتوقف عن ملازمتنا ويفرض نفسه علينا من طريق رسائله التي يوجهها لنا من وراء الموت.

قالت إيميلي:

ـ حقاً. افتح هذا المغلّف، هيرتز يبالغ:

ـ افتح هذه الرسالة المشؤومة، ديدييه! هذا يدعو إلى الاعتقاد أنك تخشى الاطلاع على ما بداخلها.

ـ بالفعل، قَبِل موزيل إخراج الرسالة من مغلّفها.

جلس على حافة السرير، بينما اختارت إيميلي كرسياً إلى جانب النافذة ذات الستائر المسدلة، وبقي هيرتز واقفاً، مستنداً بمرفقه إلى الطاولة.

أخيراً بدأ موزيل القراءة. الشيء المتجمد استمر ناشباً أظافره في دماغه، يمزّقه.

قرأ بصوت غير واثق، الرسالة الأخيرة من أخيه فرنسيس مارلان:

عزيزي الغالي ديدييه.

كنت أخشى عنادك ـ لهذا حذرتك لمرات عديدة. لكنك تقرأ الآن هذه الرسالة الأخيرة مما يثبت أنك في خطر كبير، حتى وصولك إلى ما تظن أنه الحقيقة!

هل تغفر لي لأنني أخفيت عنك الشيء الأهم؟ لقد تخيلت دائماً أنني كنت أعمل منفرداً متخذاً كأساس أعمال البروفسور بونتيغليون ومخطوطات 4Q456-458 العائدة إلى البحر الميت والتي كنا نعيد ترتيبها في مؤسسة ماير كأساس لعملي.

مع ذلك يوجد هناك المحفل الوهمي أو الأسطوري والسري الذي يقال عنه إنه وريث يسوع. قد يكون يسوع أسسه مع يوحنا، هذه الرهبانية، المنظمة، عرفت بأبحاثي، وتعاطت معي من طريق أحد أعضائها: صديقنا مارتن هيرتز!

قالت إيميلي:

ـ كنت تعرف ذلك!

سأل موزيل:

ـ هل كان فرنسيس ينقل لك كل شيء؟ لقد جعلت منه عميلاً لك؟ لقد تلاعبت به مثلما تتصرف معي وتحركني!

ـ تابع، يا ديدييه، قال هيرتز، إنه ليس ذلك بالضبط.

قالت إيميلي:

ـ أية أخوّة مُرائية!

استأنف موزيل القراءة:

في مساء أحد الأيام، بعد واحد من اجتماعاتنا في المحفل الكبير، دنا مني مارتن هيرتز، دعاني لإنهاء السهرة في منزله. أمضينا طوال الليل نتكلم عن دراساتي، التشابهات المربكة الموجودة بين مخطوطات البحر الميت وإنجيل يوحنا. تكرر هذا النوع من النقاش لأشهر عدة إلى أن كلمني مارتن عن المحفل الأول والفائدة التي سأجنيها من الانتساب إليه. متمكناً بهذه الطريقة من الولوج إلى بعض أسرارها.

بتوحيد مجهوداتنا، كان مارتن يأمل بأننا سنكون قادرين على إعادة ترتيب وتركيب لغز وصية المجنون.. لأن المحفل الأول كان المؤتمن على هذه المخطوطة الأسطوري!

أرخى موزيل العنان لغضبه.

ـ لقد سخرت مني فعلاً، بصمتك وتلفيقاتك، وأكاذيبك: لقد ألقيت فرنسيس في هذه القضية لكي ترمي بي في الهاوية بعد أن فقدته!

دافع هيرتز عن نفسه:

ـ أنت ظالم، يا ديديه، بالعكس! فرنسيس اختار بملء حريته وقبل بتوحيد جهوده مع جهود الإخوة الأوائل. حماس حقيقي وبحث وهمي كانا يحركانه، كان من الواجب إرشاده وتأمين الحماية له حتى لا يسقط تحت ضربات حراس الدم الذين حركتهم أبحاثه.

لامته إيميلي:

ـ مع ذلك هذا ما حصل، تظاهر هيرتز بعدم سماع ما تفوهت به إيميلي، توجه نحو موزيل:

ـ تابع القراءة، ديديه.

كان ممنوع علي أن أكشف لك عن العلاقات التي قمت بها مع المحفل الأول الذي كنت سأصبح عضواً فيه عما قريب، بدافع الزهو، لو أنني لعبت أو قمت بالجزء الأخير من مغامرتي منفرداً. في الساعة التي أكتب لك، أعرف أنني مطارد. مع ذلك فلن أتراجع، لأن الرغبة في المعرفة هي أقوى من كل شيء.

قال هيرتز:

ـ نعم، لقد توقف فرنسيس عن إخباري عن التقدم في أبحاثه وتحرياته، لقد فقدته إلى أن جئت أنت لتجدني في منزله، في تلك الليلة الشهيرة، حيث كنت مرعوباً.

ـ أعطيتني العَظْمة نفسها الذي يجب قرضها والتي أعطيتها له قبل ذلك: إنها وصية المجنون!

قالت إيميلي بازدراء:

- كان من الضروري جداً إنهاء العمل المتوقف! ماسوني حتى النهاية، مارتن... عندما يسقط أخ تستبدله بآخر في الحال، كما في الحرب!

تابع هيرتز:

- كنا جميعاً نبحث عن الشيء نفسه، على طريقتنا، أنا كذبت، وكذب فرنسيس! وبعد؟ هل فعلنا ذلك بدافع الصداقة أم بدافع المنفعة؟

همس موزيل بصوت منخفض:

- الاثنان معاً طبعاً!

ليس لدي متسع من الوقت ديدييه. لقد سجلتُ على شريط، كتبتُ هذه الرسائل وأتحضر لأختفي. أحلفك بأن تقوم ما بوسعك لتبقى حياً، إيميلي ستكون بحاجة إلى صداقتك، معرفتي أنك ستكون إلى جانبها تسمح لي بالمغادرة بسلام. أخ سابق؟

لم تتمكن إيميلي من حبس دموعها تركتها تسيل على الخدين وتصل لتملّح شفتيها. قالت ملاحظة:

- يعطيني الشعور بأنه يودعني أمانة لديك ويختفي.

قبل موزيل:

- أعتقد أن مارتن على حق، كان حماسه وحلمه ينهشانه!

قال هيرتز:

- الحقيقة كانت ترعبه، مع ذلك فقد طاردها ولاحقها بكل قواه.

قالت إيميلي باكية:

- تصرف انتحاري! لكن فرنسيس مسكين.. لم أكن أتصوره أبداً يتصرف مثل دون كيشوت؟

قال موزيل وهو ينهض من على السرير ليدنو من إيميلي ويضع يديه على كتفيها:

- إنه بيدق صغير على رقعة شطرنج حراس الدم. قضوا عليه دون القدرة على محو ظله بشكل كامل.

بهاق متكرر كان يهز جسم الشابة.

اقترب هيرتز بدوره، وبحركة مطبوعة بالحنان، وبهذه الحركات التي وزعها بشكل نادر طوال حياته، أمسك بذقن المرأة الشابة بيده الضخمة ورفع وجهها، لتنظر مباشرة في عينيه، لأنه هو أيضاً يبكي موت فرنسيس مارلان.

- فرنسيس أعطانا الشعور بأننا قهرنا الموت بفضل رسائله إيميلي.

ابتسمت له، حزينة، لكنها مع ذلك ابتسامة إقرار بالشكر على الدموع التي ذرفها على فرنسيس، هذا المراهق السابق الذي فقدته.

* * *

ترجل من سيارته، ساقه الأيسر متيبسة ودون حياة. جرّ جسمه بصعوبة حتى السياج الخاص بجزء من المسكن الأول، كل خطوة كانت تجعله يشد على شفتيه من شدة الألم.

شاهد السيارات متوقفة أمام درج المدخل. لاحظ أن سيارة ديدييه موزيل «الغولف» قد جلبت من غابة الشرق، لا شيء يتحرك، الأوّل جميعاً في الداخل.

تابع طريقه، سيتبدل الشَّبك قريباً بجدار من الصخور تحيط بساحة موقف السيارات، رغم جرحه، سيتمكن من التسلق حتى قمة الجدار، ومن ثم يترك نفسه لينزلق من الجهة الأخرى.

قدّر ذهنياً الجهد الذي ما زال عليه أن يبذله.

* * *

دخل الأوّل إلى الغرفة، دون قناع متحكماً بكرسيه المتحرك بمهارة، شرح لإيميلي وموزيل أنه لا يخشى من إظهار وجهه بصورة غير مقنّعة.

هذا أقل ما يمكن أن يفعله المضيف!

سأل موزيل:

- هل علي أن أناديك بالمعلم المحترم؟ هل أنت من يرأس المحفل الأول؟

- لدي الآن هذه المسؤولية، وسيشرفني استقبالكم في الجلسة، كما استقبلنا المرحوم أخ فرنسيس، لكن، قبل اتخاذ هذا القرار، أرغب في معرفة ما إذا كنتما ستتعهدان على التعاون معنا، أنت وإيميلي، طبعاً!

نحن بحاجة ماسة وكبيرة بعضنا إلى البعض الآخر.

تبادل كلّ من موزيل وإيميلي النظرات في عملية تساؤل متبادل.

قالت المرأة الشابة على إثره:

- نعم، ديدييه... وحدنا كنا سنضيع ويُقضى علينا.

مد موزيل جهاز التصوير إلى العاجز الذي أمسك به بيده السليمة ووضعه بين ركبتيه، على الغطاء الموضوع على فخذيه.

قال له موزيل:

ـ خذ، إن هذا الجهاز يحوي على صور اللقطات التي أخذناها للقبر حيث وضع أسلافكم بقايا المسيح.

لقد اكتشفنا آلية الفتح، مزلاج دائري بحاجة إلى الحلقة التي تحتفظون بها منذ دفن يسوع.

ـ هكذا، منذ البدء، كان الأوائل يملكون كل العناصر التي سمحت لهم الوصول إلى القبر المقدس.

صحّح موزيل:

ـ لكن كل هذه العناصر كانت متفرقة مبعثرة، خلص الأول إلى القول: إنها شبيهة بشظايا كلام محطم، مكسّر.. لحقيقة متفجرة.

78

الباب الأخضر

يوم الجمعة، بدأ المطر بالهطول حوالي الساعة السادسة، وهبت الريح مقتلعة الأشجار وأوراق الحديقة الصفراء.

إيميلي وموزيل تركا لوحدهما ما يقرب من ساعة، حتى عودة هيرتز، ليعلن للشاب:

ـ كل أصدقائنا جاهزون وهم بانتظار استقبالك في جلسة مظلمة، ديدييه.

ـ في هذه الساعة؟

ـ يجب أن يأخذ الإخوة قراراً هذا الصباح بالذات.

سألت إيميلي:

ـ أفترض أنني لست مدعوة إلى اجتماعكم الصغير، فهو لا يستقبل فيه سوى الماسونيون؟

اعتذر هيرتز:

هذا صحيح، إيميلي، نحن آسفون.

أعرف أنك تتفهمين الوضع، زوجك كان واحداً منا و..

أجابت إيميلي بصوت أجش:

ـ وكان يكرر لي الشيء نفسه.

سرُّ الطقس، احترام التقليد! كل هذه الأشياء الموجودة لدى الكشافة الشباب التي مات من أجلها!

غادر موزيل وهيرتز الغرفة، ينتظرهما الأول في الممر. توجه الرجال الثلاثة نحو الدرج حيث صادفوا أندريه، حاملاً طبقاً كبيراً مليئاً بوجبة طعام خفيفة.

أندريه: قال الأول، بعد أن تُقدّم ما يلزم إلى إيميلي، وبعد أن تتأكد أنها ليست بحاجة إلى شيء أبداً، عليك بتحميض الشريط الذي سلمناك إياه منذ قليل.

ـ سأنفذ في الحال.

نهض هيرتز وموزيل ورفعا العاجز عن كرسيه ليضعاه على كرسي مسنن لصعود الدرج العريض.

شرح الأول:

- يقع المعبد في القبو، سترون، إنه كهف أعدّ للمناسبة.. لنقل: بطريقة رمزية جداً.

بدأ الكرسي بالانزلاق بمحاذاة الجدار مع ضجيج ميكانيكي خفيف.

أضاف هيرتز:

- ستفاجؤون قليلاً، المكان ليس له سوى علاقة بعيدة مع المشاغل الماسونية كالتي تعرفونها.

قال الأول:

- لقد سبق لأخوتنا أن استقروا في أماكنهم.

دُهش موزيل:

- سأدخل دون صيداري أو قفازات؟

ابتسم هيرتز:

- كلا، لا قفازات ولا صداري، ودون معطف كبير أبيض مطبوع بصليب أحمر!

نوّه الأول:

- الظل فقط، وقليل من النور.

ما أن وصلا إلى البهو، حتى كان على موزيل وهيرتز أن يرفعا العاجز من جديد ويضعاه على كرسيّ سيار، أقل تقنية ودون محرك، على المحامي العجوز أن يدفع به حتى بلوغ الباب الأخضر.

لاحظ هيرتز شحوب لون موزيل.

- لا أتذكر أن سبق لي أن رأيتك متخوفاً إلى هذا الحد، ديدييه.

أقر موزيل:

- لم يسبق لي أن تقبلت أن كل هذا يمكن أن يكون له أي حقيقة، ما تمثله كان بالنسبة إلي يخصُّ مجال الوهم والخرافة.

مدّ هيرتز ذراعه نحو قبضةِ الباب، وقال بصورة احتفالية:

- سوف تدخل إلى المحفل الأوّل ذاته الذي أسسه يسوع!

أكمل الأول:

- محفل الكلام الضائع!

فتح هيرتز الباب الأخضر الذي يفضي إلى مستوى مائل متيحاً للأوّل النزول إلى المعبد.

* * *

وصل إلى الأرض بصورة غير صحيحة بعد أن ألقى بنفسه من على الجدار. عضَّ الألم جنبه الأيمن ولم يتمالك من الصراخ.

إنه يختنق، يبكي ويتأوّه.

بعد دقائق طويلة قرّر اجتياز الساحة ليتوجه نحو البناء الضخم.

ساقه اليمنى يابسة وفي حالة سيئة، يحملها ويجرّها كحمل ثقيل جارفاً أوراق الشجر الميتة التي تغطي الطحالب المشبعة بمياه المطر. عليه العثور على مكان يستريح فيه قليلاً، يجلس على شيء ناشف، ويغفو قليلاً بطريقة تمكنه من نسيان آلامه الجسدية ولو مؤقتاً.

79

المحفل الأول

طلب هيرتز من موزيل الانتظار على مدخل المعبد دافعاً الكرسي السيار العائدة إلى الأول خلف مذبح مضاء بثلاث شمعات.

تأقلم الشاب مع هذا الديكور المؤلف من مظاهر غير مصطنعة، ومن أشباح لا تتحرك، ظل أو ظلام مغلّف، سميك، يحيط بمصادر نادرة للنور. في كل ناحية من المعبد، من الشمال والجنوب، تنتصب مقاعد خشبية يجلس عليها الإخوة الأول. أحد عشر مقعداً، أحدُها فارغ: ذلك الذي لن يستعمله مارتن هيرتز.

منع الظلام موزيل من رؤية وجوه المشاركين في الاحتفال، لم يلحظ سوى أيديهم الموضوعة على المساند الجانبية. في أحدها حجر ياقوت أحمر يسطع كنجمة صغيرة.

على الأرض، رقعة الضامة المؤلفة من مربعات سوداء وبيضاء تتمتع ببعض الوضوح.

ساد مزيج غريب من السر والرصانة والصفاء. صمت احتفالي يُنعِشه أحياناً زفرة تنفس.

عاد هيرتز دون ضجيج، إلى الرجل الشاب، أمسكه من ذراعه وقاده إلى منتصف الصالة، عندئذ قطع صوت الأول الصمت والهدوء الذي كان يقلق موزيل، طارداً أي همٍّ لديه من ذهنه.

- **بما أن الساعة قد أزفت، وأننا بلغنا من العمر عتيًا، لنفتتح أعمال محفلنا.**

رفع الأول يده السليمة باتجاه المذبح. نهض واقترب أخ، - رئيس الاحتفالات - لاحظ موزيل عندها أن ثمة كتاب موضوع على المذبح.

قال الأول:

- ليظهر الكتاب!

فتح الأخ سيد الاحتفالات الكتاب في الحال، اكتشف موزيل باندهاش أن صفحاته بيضاء. صوت الأول يدوي، قوياً، مجزءاً بوضوح كل مقطع لفظي:

- الكتاب فارغ، لأن كلماته ضاعت، الظلام طرد النور، حلَّ الكاذب أو الدجال مكان أخيه.

همس هيرتز في أذن موزيل:

- الباقي إلى جانبك ديدييه.

همس موزيل:

- كل شيء أعدّ بطريقة لا أستطيع بها تمييز وجه أخوتنا.

- الأمور تتم دائماً بهذا الشكل، يجب أن لا تعرفهم قبل أن تُعطى الأسرار كافة. قلت لك ذلك.. هذا مختلف بالنسبة إليّ وإلى الأوّل.

لم يتوقف نظر موزيل عن الانجذاب نحو لمعان حجر الياقوت الأحمر الساطع في الكرسي الثالث من الجدار الجنوبي، أدهشه حامل هذا الخاتم بسبب عدم حركته بينما أخوته يبدلون أحياناً موقعهم، يحركون يداً، يضربون بأصابعهم على المساند الجانبية... بينما هو لا يتحرك مطلقاً. يده الخارجة من الظلام شاحبة، لا تتحرك، مثل حيوان عند التوقف. عنكبوت أبيض عينه الوحيدة تبقى متربصة.

حضر رئيس الاحتفالات لينقل الكتاب الأبيض من مكانه ويضع حوضاً مسطحاً على المذبح.

همس هيرتز في أذن موزيل: «بعض الرماد!».

قال الأول:

- نحن نرسم المخطط مثلما نقله لنا أسلافنا، احتفظت ذاكرتنا الرسم منهم، نحن نعرف الرسم المنجز غير الكامل منذ أن كان أخونا جاك دو مولاي قد خُدِعَ.

وضع رئيس الاحتفالات سبابته اليمنى في الرماد وشرع برسم عدة خطوط.

همهم موزيل:

- يرسم في الرماد!

- بعد فرنسيس أنت المدعو «الثاني» إلى هذا المحفل الذي له الحق بحضور هذه الإشارة. هل تدرك الآن؟ كل عناصر السّرّ كانت مبعثرة، وأنت جمعتها!

أكمل رئيس الاحتفال الصورة الممثلة لمثلث تعلوه كرتان يتوجان الحرف (ل).

استطرد الأول:

- إنه جزء من النور الموضوع في هذا الرماد. صدى للكلام الضائع. «أُكتب إذن الأشياء التي رأيتها، وتلك الموجودة فعلاً وتلك التي ستكون أو تحصل لاحقا».

أدرك موزيل أن المخطط المنقول عبر التقليد كان حتى الآن مجتزأً من رسم الهيكليين. حريق المنزل الريفي لمارتن هيرتز، الذي أتلف ودمّر بشكل شبه كامل، وصية المجنون، ومن ثم كأس الويسكي المنقلب على مواطن الزخرفة للراهبين الناسخين دو بادو، كشفت عن الحلقة الناقصة للأخوة الأول.. فرنسيس، بفضل ذكائه الخارج عن المألوف، وحذاقة ومهارة حاسة الشم عند كلب الصيد، توصل إلى حل رموز اللغز دون اللجوء إلى القطعة المرسومة.

تابع الأول:

ـ نحن، المحفل الأول، ورثة المخطط، المؤتمنون على وصية المجنون والحلقة، نحن ملتزمون بالعثور على حقيقة معلمينا السابقين لنكشفها إلى العالم. معركتنا ضد الدجل لن تكون لها نهاية أبداً.

الأخ رئيس الاحتفال الذي لم يتمكن موزيل من تمييز ملامحه، عاد وجلس في مكانه.

قال الأول:

ـ طقس مقبول ومُنجز، لندخل في المناقشة، إخوتي. وليكن الظل وحده شاهداً على ما سيقال في هذا المكان.

تناول هيرتز الكلام ليقول:

ـ نكرِّر هذا الطقس ونرسم المخطط منذ قرون، واعين أن كليهما كانا يحدَّان طريق بحثنا نحو القبر. لكن وبفضل تضحية فرنسيس، وبفضل عمله وعمل ديدييه موزيل، عرفنا في نهاية المطاف، وفي هذه الليلة، أين خبئ جسد المسيح بعد أن نقله هوغ باينس من مكانه.

* * *

في الطابق الأرضي من المنزل، في مغسل الثياب الذي تحوّل إلى مخبر، قام أندريه بتحميض الشريط المفضض الذي استعمله موزيل في مستنقع أومبرا «الظل» الشريط يعمل تحت الضوء الأحمر الصادر من مصباح معلق بالسقف مخصص للمناسبة.

عُولج الشريط في حوض يحتوي على كاشف، ثم غُسل بالماء الغزير لدقيقتين، ثم وُضع في حوض التثبيت.

أغلق آندريه النافذة الوحيدة الموجودة في هذا المخبر الظرفي، لا يمكن لأي نور التسلل إلى الداخل.

لم يتمكن إذن من رؤية مجهول يعبر الساحة المغطاة بالحصى بخطى متثاقلة مباشرة أمام النافذة.

كان مأخوذاً بقطرات المطر التي تقرع درفات النافذة.

* * *

أكلت إيميلي البرتقالتين اللتين جاء بهما أندريه مع ثمار مجفَّفة وقطعة خبز بالزبيب التي لم تلمسها، شعرت بإعياء، وبالحاجة إلى النوم فعلاً، دون كوابيس.

تمدّدت على السرير، عندها رنّ جرس في الغرفة، جرس هاتفها المحمول، المتروك في حقيبة الظهر، قفزت من سريرها.

رنّة ثانية، فتشت بين أغراضها الموضوعة دون ترتيب.. دقة ثالثة، حملت الجهاز إلى أذنها، تنتظر، لا تسمع سوى تنفس مخنوق.

ـ آلو؟

التنفس أيضاً، أقوى، ثم صوت رجل وهذه الكلمات:

«أنا موجود في الحديقة».

أغلق المتكلم الخط.

وضعت إيميلي هاتفها النقال على طاولة السرير، بدأت ترتجف من قدميها حتى رأسها، لدرجة فقدان التوازن، ثم مشت خطوتين، وجلست على حافة السرير، تحاول تهدئة روعها، ثم نهضت وارتدت كنزة واجتازت الغرفة.

لقد تعرفت على صوت المجهول: ساعي بريد فرنسيس، خرجت من الغرفة، سالكة الممر المظلم، فكرت من جديد بعيني الرجل وقبعته، على ضفة المستنقع، بنظراته الكئيبة.

80

الرجل المجهول

خرجت إيميلي من المنزل، المطر الذي تقطعه عصفات الريح يصفع وجهها مبللاً كنزتها.

خرجت لتبحث عن الرجل المجهول بنظرها، لمحته مبتعداً عن جذع الشجرة التي كان يستند إليها، لم تعد قبعته على رأسه، لم يكن مشمَّعه سوى خرقة من الوحل والدم، يمشي وهو يتعثَّر، ساحباً ساقه اليمنى، مهرّج يثير الشفقة.

جرت إيميلي نحوه، اعتقد أن كل ما لديه من طاقة هي بانتظار هذه اللحظة، حيث ينهار بين ذراعي المرأة الشابة، كما لو كان هذا الشيء مكتوباً.

- هل أنتِ لوحدك؟ سأل وهو يذرف الدموع.

- نعم، لا تخف... أنت مغطى بالدم!

- لقد أصبت في المستنقع.. في المغبن أسفل البطن، أعتقد أنني قتلتهم! لقد دفعوا الثمن، الآخرون سيدفعون أيضاً.. كل الآخرين..

إنه يتلجلج، يخلط المقاطع، يتوقف للحظات طويلة من التردد.

- لقد بدأتُ أثأر لابني! وأردت حمايتك... أنا... كنت حذرته، لكن...

- نعم، أنت تعرفين كل شيء، أليس كذلك؟ فرنسيس كان يثق بك ويعلمك بكل شيء، أكثر يثق بي أو بديدييه.

أنت منهك، حَماي العزيز.. استند إلى كتفي.

تملك مارلان الأب نفسه ثانية، وقف يرفع الشوارب المستعارة ونظاراته الضخمة بحركة سريعة، ألقى بهذه الأشياء المكملة في الأرض وأخذ إيميلي من كتفيها لكي لا يسقط، لأنه كان متعباً جداً.

- فرنسيس... كان يخبرني عن أبحاثه.. لم يكن يريد التوقف أبداً.. كان محكوم عليه باكتشاف الحقيقة... لم يكن يتحمل كذب الكنيسة منذ ألفي سنة، كنا نتكلم ونتحادث مراراً.. أصبحت كاتم أسراره، كان يثق بي ثقة عمياء.

- اهدأ.. أنت تحترق من شدة الحمى! لا يمكنك البقاء على هذه الحال، سأقودك إلى داخل البيت.

ـ كلا! كلا.. خذيني إلى ذلك الملجأ في الحديقة، هناك.

* * *

قال الأول:

كَلّف هوغ دو باينس والهيكليون التابعون له، من قبل القديس برناردو بحماية القبر. لقد أنجزوا أعمالاً كبيرة في غابة الشرق، تاركين الاعتقاد أنهم كانوا يستولون بهذا الشكل على أراض قابلة للزراعة يروونها بفضل البحيرات الاصطناعية.

في أحد الكراسي الخشبية، صوت يسأل:

ـ بالواقع، كانوا يخبئون في قلب ورشتهم شيئاً ما لاستقبال بقايا رفات المسيح؟

ـ صوت آخر:

لم نكن نتصور أبداً أنهم أغرقوا القبر في أعماق المياه.

فجأة، ولدهشة موزيل، تحركت اليد الحاملة للياقوت الأحمر، حركة بسيطة فقط تجعله يترك المسند، لعدة ثوان فقط، تكلم الرجل عندها بلهجة إيطالية:

والحلقة... تلك الحلقة التي أغلقت بلاطة قبر يسوع كانت تتنقل من يد إلى يد، على مدى الأزمنة، وسط محفلنا.

بالنسبة إلى الأخ ديدييه، قال هوغ دو بانيس: مهندسين استخدموا الحلقة ليصنعوا منها المفتاح القادر على فتح القبر.

نوّه هيرتز:

ـ بالحقيقة هذه هي المهزلة بكاملها لمسيرتنا. كان باستطاعتنا بلوغ هدفنا منذ زمن طويل، لكننا كنا جميعاً عمياناً! مع أننا كنا نملك كل قطع المخطط.

تابع موزيل:

ـ لقد جزّئت قطع المخطط وبعثرت هنا وهناك، متناثرة أثناء المعارك التاريخية التي خاضها الفاتيكان ضدكم، دون معرفة أنكم كنتم تحتفظون بها جميعها في اقتلاد مَحفَلكم.

* * *

أجلست إيميلي مارلان بأفضل ما تستطيع، على كيس من القنب، مفروش على الأرض، مستندة على حاجز من الخشب.

الكوخ مملوء بأنواع عديدة من أدوات البستنة، مرشات الماء، وأحواض التراب الفارغة،

وعلب الحبوب والبذار، صناديق وألواح زجاج، وخرطوم سقاية ملفوف مثل أفعى ملتفة حول نفسها.

ـ كيف فعلت لتبقى واقفاً؟ لتمشي؟

ـ لأساعدك.. لأسهر عليك وعلى ديدييه.. فرنسيس كان يخشى أعداءه وكان ناقماً على ديدييه.

أبعدت إيميلي أطراف مشمع مارلان، بنطاله محمر بالدم مثقوب عند مغبنه. التصق القماش على محيط اللحم الممزق.

ـ فعلاً.. يجب الذهاب لطلب مساعدة رينيه.

ـ كلا! ثم كلا!

ـ لماذا؟ هل أنت مصرّ على الموت؟

ـ أنا الشاهد الأخير المجهول الاسم على المأساة.. الصلة الأخيرة بين ابني والحقيقة.. احذريهم أنت أيضاً.

ـ من هم؟ عمّن تتكلم؟

وضع يده على جبينه. يجب أولاً أن ينطق الجمل ذهنياً قبل أن يدعها تخرج من فمه. إيجاد الكلمات، ترتيبها، عمن تتكلم؟ هم؟ يتذكر ما قاله له فرنسيس.

ـ عمّن تتكلم؟ كررت إيميلي.

ـ عن الأخوة الأول! فرنسيس كان يظن... أخيراً.. أنه توجد علاقات متينة بينهم وبين الكنيسة... على الأقل البعض منهم.. أنا.. لم أعد أعرف أبداً... أنا متعب جداً!

* * *

علينا اتخاذ قرار هذا الصباح، قال الأول، أن نتأكد من الاكتشاف الذي قام به ديدييه ليس خديعة من صنع الهيكليين.

سأل هيرتز:

ـ كم من الوقت لدينا؟ حراس الدم يتعقبون أثرها.

أضاف الرجل ذو الخاتم من الياقوت الأحمر:

نحن نخشى اعتباراً من الآن إسراع الفاتيكان في حل هذه القضية. لنسرع، بالفعل. كثير من الناس ماتوا من الجانبين في هذا النزاع.

تدخل موزيل: أنا مصمم على العودة والغوص في مستنقع أومبرا في أسرع وقت ممكن، بحثاً عن البرهان الذي لا يمكن دحضه الذي سيسمح لي أخيراً النداء بالحقيقة وإعلانها.

ـ تمتم هيرتز موجهاً الكلام إلى موزيل فقط: الثأر لذكرى فرنسيس وكل أولئك الذين قتلهم حراس الدم.

* * *

رفع مارلان عينيه المبهمتين الكابيتين، بدا وكأنه يرى ما وراء جدران خشب الكوخ. العرق يتصبب من وجهه ذي القسمات البارزة، والخدين الغائرتين.

ـ قال لي فرنسيس... يجب أن أتبع ديدييه وأراقبه.. لقد فعلت ما بوسعي.. قبل السفر إلى القدس ترك لي دفاتره الصغيرة، وأقراصه، وبطاقة المرور في مؤسسة ماير.. كان يشك.

ـ فهمت كل هذا، حماي العزيز.. واستأنفتما البحث من ناحيتكم!

ـ لم أكن أتمنى سوى العودة والوصول إلى طريق القتلة.. في نفس الوقت الذي أحترم فيه نواياه.. تسليم الرسائل التي كتبها عندما كان يشعر بنفسه مهدداً.

ـ وأنت تتصرف بطريقة لإخفاء هويتك على حراس الدم. لو كنت تعلم كم تساءلنا ديدييه وأنا، حول هذا المجهول الذي لم يكن ليفارقنا ولو للحظة!

ـ آسف، صغيرتي إيميلي... ذلك لم يكن حقاً أنا... أنا لست موجوداً منذ وفاة فرنسيس!

ـ ارتمى على ذاته والمرأة الشابة راكعة قربه، تضمه إلى صدرها مثل طفل مريض.

نطق ببطء:

ـ لقد أصبحت فرنسيس!

* * *

سأل الأول:

ـ هل يمكن أن نعتبر أنك اتخذت قراراً نهائياً، ديدييه؟

أجاب موزيل في الحال:

ـ نعم، أنا متمسك على فعله!

قال هيرتز:

ـ في هذه الحال، سأرافقك، لا أحد آخر غيري! أنت تغطس وتتأكد من أن الحلقة تفتح القبر فعلاً، وتصمد!

قال موزيل:

ـ قد لا يكفي ذلك.

ـ بالحقيقة يجب أن نكون متأكدين من أن القبر ليس فوقعة فارغة.

قال موزيل:

ـ سأدخل فيه وسآتي منه بصور كافية قصد القيام بأكبر وأغرب اطلاع إلى العالم أجمع!

* * *

ـ إبق هنا وانتظرني.

ـ لا تعودي إلى ذلك المنزل، استدعِ موزيل واهربي!

توتّر مارلان، صارخاً تقريباً، مُمسكاً بكتفي إيميلي، ليرغمها على البقاء راكعة.

حاولت طمأنته:

ـ ليس علينا أن نخشى شيئاًأؤكد لك. إنهم أصدقاء.

قالت إيميلي:

ـ لم يكن فرنسيس يثق بهم.. كلمني عن ذلك.. لا ثقة... كلهم متلاعبون... نحن جميعاً يتلاعبون بنا!

ـ أنت تهذي، رونيه.

ـ لا أهمية.. اهربي! وفاء لحب فرنسيس، أُهربي.

ـ أنت لا تجهل أننا كنا على وشك الطلاق، وكنا مفترقين!

ـ كان ما يزال يحبك... كان يحبك كثيراً!

كانت تفضل لو أنه لم يقل لها ذلك، ليس الآن، ليس بهذه الطريقة. تشنجت، وأغمضت عينيها لثوان، تراءى لها فرنسيس، ابتسامته، صلعته المبكّرة، نظرته اليقظة دائماً، حادة وفضولية.

تابع مارلان مكرراً الشيء نفسه:

ـ متعب... لنذهب... مع موزيل.

ـ لا يمكنني الاتصال به الآن، إنه حالياً في اجتماع مع الأخوة الأوائل. انفعلت وتأسفت لذلك في الحال، ثم نهضت.

ـ أين تذهبين؟ تساءل بقلق.

ـ سأحاول إيجاد ما يلزم لتنظيف وتعقيم جرحك وتضميده.

من المستحيل البقاء على هذه الحالة.

خرجت من الكوخ، بدأ المطر يهطل عليها بقوة.

81

مونتسبا

قام أندريه بتعليق آخر تكبير على خيط ممدود بين جداري السقيفة، تفحص الصُّور العشرين للجدار التحت مائي مع زخرفته، دائرة تحيط بمثلث، الأشنيات بين الأحجار. تخلى عن قفازيه من الكاوتشوك مشعلاً النور لينظف ويرتب عتاده، ثم تهيأ لفتح صنبور الماء عندما سمع أحدهم يمشي في الطابق، فوقه تماماً.. الأرضية القديمة تتقصف خلف الطبقة الرقيقة من السقف «في غرفة الحمام» على ما يظن.

فتح أندريه الباب وخرج إلى البهو، لاحظ آثار خطى رطبة تقود إلى الدرج، بعد آثار الخطى على السجاد الذي يغطي الدرجات الأولى.

قلق أندريه على المرأة الشابة الباقية في الغرفة، فهو كان ماسونياً، تشارك مع الأول في بعض الأسرار.

«أحدهم دخل للتو إلى المنزل! إيميلي مارلان وحيدة في الطابق..».

اجتاز البهو بسرعة، ذهب إلى المطبخ، فتح خزانة أدوات المطبخ، وضع يده فوق عمود من الصحون المكدسة وتناول المسدس الذي كان دائماً مخبأ في ذلك المكان.

أصبح مطمئناً لأنه يحمل سلاحاً، يمكنه تسلق الدرج، الصعود بسرعة، دون ضجيج، ثم الوصول إلى الممر، وبلوغ الباب شبه المفتوح لغرفة الحمام.

بقي لبرهة وظهره ملتصق بالجدار، مصغياً لضجيج الحوجلات التي كانت تتحرَّك.

دفع الباب بصمت.

أصابته الدهشة عندما لاحظ إيميلي مارلان تقوم بسرقة خزانة الصيدلية: كحول، شاش، ضماد.

ـ عمَّ تفتشين في هذه الخزانة سيدة مارلان؟ سألها وهو يدنو منها.

التفتت إيميلي وذراعاها محملان.

ـ لقد أرعبتني.

أخفض سلاحه، وقام بخطوة أخرى.

ـ يا إلهي، هل أنت مجروحة؟ ماذا فعلت؟

قالت إيميلي:

ـ إنه ليس دمي، سأشرح لك.

ـ آمل ذلك. إذا لم يكن دمك، فدم من هذا؟ من الذي تتحضرين لتقديم العناية له؟

ـ دعني.. ثق بي!

ـ آسف، سيدة مارلان، عليك أن تقدمي لي بعض المعلومات التي ستشجعني على الثقة بك. حدثيني عن هذا الدم الموجود على ثيابك.

حاولت إيميلي التراجع، قامت بخطوة على الجانب، لكن آندريه أغلق عليها الطريق.

ـ لا يمكنني أن أقول لك شيئاً، علي رؤية ديدييه! هذا أمر عاجل، الأمر يتعلق بحياة رجل.

ـ يمكنني بكل تأكيد مساعدتك فيما لو شرحتِ لي لماذا تريدين عودته، ألا تجدي أن الوضع يحتاج إلى بعض التوضيحات؟

بحسب الخطوات التي تركتها في البهو، أستنتج أنك كنت قد خرجت إلى الحديقة لتعودي ملطخة بالدم الذي ليس دمك.

أقرّت إيميلي بهزيمتها.

ـ الأمر يتعلق بحماي والد فرنسيس، لقد تلقى رصاصة في أسفل بطنه في الناحية اليمنى.

* * *

قبل ذلك بعدة دقائق علّق الأوّل، بمساعدة الأخ سيد المحفل أعمال المحفل الأول.

حرَّك سيد المحفل الرماد الموجود في الحوض بظهر يده بينما كل الأخوة ينطقون بصوت واحد هذه الجملة: «**سنمحو المخطط ونحفظه في ذاكرتنا وقلبنا حيث سيشهد على إخلاصنا وبحثنا اللامنقطع عن الحقيقة**».

ثم أطفئت الشمعات الثلاث، في ظلام كامل تقريباً، نهض الأخوة الأول ليتوجهوا نحو شرق المعبد. قام أحدهم بالكشف عن باب خلف ستائر سوداء.

ـ مخرج آخر! قال موزيل في نفسه، لكي ينسحب أخوتنا بهدوء. مثل المحلّفين!

من المفضل أن لا تعرفهم، ديدييه، أجاب هيرتز. ليس بعد. تقدم الأول في كرسيه السيارة وقال:

ـ فيما يخصنا، لنصعد. يجب علينا أن نضع اللمسات الأخيرة حول تفاصيل مهمتك في غابة الشرق.

قال موزيل:

ـ في أقرب وقت ممكن! أنا متعجّل للانهاء من ذلك.

ـ فضولية يمكن تفهمها! قال هيرتز. بعد كل هذا، فإن قتلة الفاتيكان ماتوا جميعاً، نحن الآن الوحيدون الذين يعرفون مكان القبر، ونحن نملك مفتاحه.

* * *

تجاوز موزيل وهيرتز والأول الباب الأخضر لحظة نزول إيميلي وأندريه الدرج.

لاحظ ديدييه في الحال الكنزة الملطخة بالدم التي ترتديها المرأة الشابة، أسرع نحوها.

ـ إيميلي ماذا حصل لك؟

ـ يجب التدخل بسرعة، هو معرض لخطر الموت.

ـ لكن عمَّن تتكلمين؟

أجابت:

ـ المجهول، لقد لجأ إلى كوخ البستان، لم يكن يرغب في إخبارك، جرح وهو يقدم لنا العون، مساء أمس.

تكلمت بسرعة، وصوتها مليء بالقلق.

اكتشف موزيل عندئذ أن آندريه وضع مسدساً في حزامه ويحمل علبة صيدلية.

سأل موزيل بلهفة:

ـ من هذا؟

أجابت إيميلي وهي تذهب نحو الباب الكبير للبهو:

ـ إنه رونيه مارلان، والد فرنسيس! لنساعده، أرجوك.

إنه من أجلي وأجلك تصرف بهذه الطريقة، كذكرى لابنه.. إني أعتقد أنه فقد عقله.

بدأت عينا مارتن هيرتز الشبيهتان بعيني الهر تلمعان.

ـ ماذا تنتظر ديدييه؟ أمره. اتبع إيميلي! التفت الأول بصعوبة نحو المحامي العجوز الواقف خلف الكرسي السيار كقيِّم المنزل خدوماً:

ـ أستطيع البقاء منفرداً. أندريه، اخرج وافتح الشبك لإخوتنا. مارتن وديدييه سيتكفلان بهذا الزائر.

خرج الجميع، مرّت لحظة، ظن الأول نفسه خلالها وحيداً فعلاً.

ثم لمح حضوراً خلفه، دون شك أخ باق عند مدخل الباب الأخضر، في الظل صامتاً.

دنا ذلك الحضور ببطء. خطواته الخفيفة لا تصدر سوى ضجيج خفيف على بلاط

الأرض. تزحلق حتى بلغ الكرسي السيار. امتدت يدان على كتفي المريض بحركة أخوية. أحنى الأول رأسه قليلاً، فرأى ياقوت الخاتم.

- لم تغادر بعد؟ هل سمعت؟

أعطى الجواب بصوت ذي لهجة إيطالية متراخية:

سقط قناع آخر:

- الأمر هكذا إذاً، أب يثأر لابنه.

- إنه أشبه شيء بالشبح.

أضاف نيافته:

- السيدة مارلان محقة طبعاً، لقد جعله الألم يفقد عقله. يمكنني العودة إلى روما صافي الذهن، أقرُّ أن هذا المجهول قد حيّرني لفترة طويلة.

- لأنه كان قطعة من رقعة الشطرنج التي لا تسيطرون عليها، نيافتكم. من الآن، كل شيء قد أنجز! القبر في متناول يدنا.

سحب نيافته يديه من على كتفي الأول.

- الكنيسة القديمة ميتة، بالفعل، أعترف بهذا. فلن تنهض من هذا الهجوم الأخير.

- غداً سيخسر الفاتيكان المعركة، كيف ستشك الكنيسة أن واحداً من خدمها الأكثر إخلاصاً كان يعمل لصالح الإخوة من المحفل الأول؟

وقف نيافته على مستوى الأول بطريقة يتمكن بها هذا الأخير من رؤيته.

يبدو وكأنه يتأمل لبضعة ثوان ثم يقول:

- ماذا سأكون سوى خائناً بأعين أقراني وزملائي؟

جاسوس مُباعٌ للعدو؟ خائن، مخادع.. مثل توما الدجال الذي أحب أخاه يسوع بدل أن يكرهه.

- لقد اخترت معسكر الحقيقة، كنت واحداً من الصانعين الرئيسيين لنصرنا، مونتسبا.

الرجل الطويل والرفيع، المرتدي السّواد، ذو الهيئة الأنيقة، الوقورة، وشعره الطويل الأبيض المردود إلى الخلف، كان يتميز بسطوة واضحة وبكثير من الرحمة كحبر أعظم قادم بثوبه الأبيض.

الكاردينال مونتسبا واعٍ، في هذه اللحظة بالذات، أنه سيضع القلنسوة لكي يخلف يوحنا الرابع والعشرين، البابا الذي سُمِّم بأمر منه. المضحّى به مثلما كان فرنسيس مارلان ونوربرت سوفير وكثيرين آخرين.

قبل أن يعود من ذلك، يوجه نيافته كذبة أخيرة إلى المريض الذي كان معجباً به والذي كان يحترمه منذ أكثر من خمسة عشر سنة:

ـ أنا راض من كون ديدييه موزيل ومارتن هيرتز قد تمكنا من الإفلات من حراس الدم.

ثم، كما جاء في الأناجيل الموثوقة والمسموح بتداولها دون غيرها، ينحني ويطبع قبلة على جبين الأول، كما فعل يهوذا بيسوع.

أصبح يعرف أنه لن يراه بعد الآن وإلى الأبد.

82

الجَدَلُ

بينما كان الأول يتحادث مع الكاردينال مونتسبا، كان كلٌّ من إيميلي، وموزيل وهيرتز قد ذهبوا إلى الكوخ الصغير أما آندريه فقد توجه ليفتح الشبك الكبير (السياج) المحيط بالساحة إلى الإخوة الذين ركبوا سياراتهم.

المطر ضاعف من شدته، ثقيلاً ومائلاً ضارباً بقوة على الوجه والصدر، كانت إيميلي أول من دخل إلى البيت المتواضع لتجد حماها قد اختفى منه. استشاطت غيظاً حيال أندريه الذي أخّرها. بالرغم من حضور هيرتز، لم تمنع نفسها من القول:

ـ كان مرعوباً بفكرة طلب المساعدة من إخوة في المحفل الأول، لأن فرنسيس نصحه بعدم الوثوق بهم.

انحنى موزيل.

ـ انظري ماذا ترك على الأرض، إنها إحدى دفاتر مذكرات فرنسيس! التي فتشنا عنها عبثاً بينما أودعها عند أبيه.

التقط الدفتر الصغير الأحمر المودع قرب كيس القتب الذي كان جالساً فوقه مارلان الأب. كان الدفتر مفتوحاً، على صفحة مزدوجة كتب للحظتها بقلم اللباد الأسود، مخترقاً الرسم المائي، هذه الكلمة البسيطة: «اهربي!».

قالت إيميلي:

ـ حماي ما زال يحاول حمايتنا.

ـ أنتما في أمان، يطمئنها هيرتز، لا تشكي أبداً بإخلاص الإخوة الأُوَل ولا تتركي نفسك تنساقين خلف تصرفات ذلك الرجل الهذيانية.

ـ نحن بالحقيقة محكومون ومجبرون على أن نضع أمرنا بين أيديكم، يا مارتن.

ـ وافق هيرتز: أعرف، لديكم الحق في توجيه بعض اللوم لنا، لقد استخدمناكما لبلوغ الهدف.

ـ مثلما استخدمت فرنسيس!

غادرت سيارات الإخوة المنزل في موكب.

كان أندريه يحيي كل سائق بإشارة من رأسه، عندما مرَّت السيارة الأخيرة وبعد أن أغلق أندريه سياج الساحة، توجه إلى كوخ الحديقة حيث علم بهرب مارلان.

قالت إيميلي:

ـ لاشك إنه ليس بعيداً، يراقبنا، إنه ناقص عقلياً، بدت لي جراحه خطيرة.

فتش أندريه حول الكوخ، منادياً مارلان بصوت قوي، دون نتيجة. حاولت إيميلي الاتصال به من طريق المحمول، عبثاً. تركت المرأة الشابة رسالة على جهاز الإجابة الآلي.

بأسف قرروا العودة خائبين.

* * *

تأكد موزيل أن الباب الأخضر قد صفق في اللحظة المحدّدة التي ولج فيها مع أصدقائه إلى الردهة، من الباب المؤدي إلى المعبد... ومع ذلك ظنَّ أن الإخوة غادروا جميعاً، لأن أندريه كان قد أغلق السياج.

الأوّل لم يغيِّر مكانه، كان يجلس دائماً على المقعد الذي غادره قبل فترة قصيرة. الجذع مائل، بالرغم من مشدِّ الظهر، الوجه نصف مشلول، نصف منسدل والآخر يظهر تشنجاً ثابتاً.

أخبره هيرتز باختفاء مارلان واكتشاف إحدى الدفاتر الحمراء العائدة إلى فرنسيس.

دعا الأوّل إيميلي وموزيل وهيرتز للذهاب إلى مكتبه قصد تفحص الصور التي حمَّضها وثبتها أندريه.

حمل المحامي العجوز وموزيل الأوّل وأجلساه على الكرسي ذي الدولاب المسنن.

بدأ يتسلق الطابق، الساقان منسدلتان في الفراغ، مثل دُمية في حالة انعدام الجاذبية.

عندها سمع موزيل ضجَّة محرك آتٍ من باحة المنزل، مع صرير الحصى تحت الدواليب. تأكد له أن واحداً من إخوة المحفل الأول تأخر عن الخروج.

لم يتمكن من معرفة أسباب هذا التأخير، لكن هذه المعاينة أقلقته.

* * *

ـ الخط في مأمن، أليس كذلك؟ سأل الكاردينال مونتسبا.

ـ طبعاً، أجابه عبر مكبر الصوت الموجود في سيارته.

ـ هل وصل العملاء الجُدد؟

ـ لقد حطّوا هذه الليلة في باريس سبق أن نفَّذوا جزءاً من تعليماتكم. إثنان من حراس الدم متمركزان قرب بناية موزيل. وآخران أمام منزل إيميلي مارلان. وثالث متخفٍّ أمام جناح هيرتز. مؤسسة ماير تحت السيطرة. الباقون ينتظرون أن تحددوا مهماتهم.

- سأقوم بذلك هذا المساء. من جهتك هل أنت مستعد، مونيني؟

- أنت تتكلم عن الكاردينال دو غيلليو؟ المسألة ستحل منذ هذه الليلة. لقد وضعت الآلية والكيفية.

- والبابا؟

- لقد كلفنا أعضاء الفريق الطبي وكذلك الراهبات الذين يهتمون بنظافته وعنايته، لا يدخل أبداً إلى غرفته إلا بعض الأشخاص المخلصين لنا كلية. سنعمل مع ذلك على خنق الإشاعات التي تدور في الصحافة.

- لنصمد يوماً آخر أو يومين إضافيين. أو أقل.. آمل ذلك. أما بخصوص المجهول الذي قتل عملاءنا الثلاثة في غابة الشرق...

- نعم؟ صاح مونيني الضخم في الطرف الآخر من الخط.

- يتعلق الأمر بإلكترون حُر كاد أن يهدم بناءنا بجنونه وحقده. إنه والد فرنسيس مارلان.

- آه، ألا تظن أن تدخل ذلك العنصر سيكون مضراً بنا؟

مونتسيا لا يرد بصورة مباشرة. يفكر، تاركاً ذهنه يذهب ويجيء على وقع حركة ماسحات الزجاج. أعمدة ماء تتساقط الآن، مبطئة حركة السير على الطريق السريع. أشعل السائقون جميعاً أنوار الالتقاء.

سأل مونيني:

- سيدنا، هل أنت دائماً معي؟

- أنا هنا. كنت أتساءل ما إذا كان مارلان الأب سيكون في المقدمة... لا يروق لي الأشخاص غير المتزنين من هذا النوع. هذا الرجل بالفعل يعكّر نهاية عمليتنا. يعمل كذئب شارد، يصعب الإمساك به. لا يمكن توقّع تصرفه! إنه تصرف غير واقعي يمكن أن يسبب لنا الضرر في كل لحظة. لدينا القليل من التأثير على مهووس مجنون! مع ذلك يجب أن نكون مستعدين لمحاصرة أي بداية مهما كانت صغيرة لأي حريق قد يسببه.

- أو الوقاية منه؟ مازحاً مونيني.

- إذا ما تمكنا من العثور عليه. عندما غادر الأول، سمعتهم يقولون أنه اختفى من الكوخ الذي التجأ إليه. إن مارلان الأب يعرف الكثير عنا، علينا وضع منزله تحت المراقبة.

* * *

في مكتب الأول، تم بسط الصور التي التقطتها إيميلي وموزيل على الطاولة، هيرتز وأخاه يتصرفان بها كما لو كانت الذخائر المقدسة. تصفح موزيل دفتر المذكرات الأحمر الذي تركه والد فرنسيس لهما.

وقفت إيميلي قرب النافذة، تنظر إلى باحة المنزل بصورة متواصلة أملاً في تمييز شبح حماها، نادته مرة ثانية بواسطة هاتفها المحمول، لكن عبثاً.

سأل هيرتز دون أن يحيد نظره عن الصور:

ـ هل اكتشفت شيئاً ما في هذا الدفتر؟

ـ ليس حقاً، بعض الملاحظات التي لا أهمية لها ورسوماً مائية رائعة رسمها في المناطق المجاورة لغابة الشرق. خاصّة الكنائس، وتماثيل القديسين.

قالت إيميلي:

ـ إنه هو! متنزّه على الطريقة القديمة الذي يعتبر التصوير بالنسبة إليه شيئاً حديثاً عصرياً أكثر من اللازم! عزيزي المسكين فرنسيس لقد احتذى الجزمات الضخمة كمغامر.

تخلى الأوّل عن تفحص الصور وقال:

كيف يمكن التصوّر أنه كان يحاول مفرداً حل هذا الاستقصاء؟ بعد أن استقبلته في جلسة مظلمة، كنا مقتنعين أنه سيبقى على صلة بمارتن.

قالت إيميلي بحدة كافية بصوتها لكي لا يساء الظن بها من هيرتز أو الأوّل وبمشاعرها حيالهم:

ـ من المحتمل أن يكون قد ساوره الشك تجاهكم.

أسف هيرتز:

ـ يا لها من خسارة! يا لها من خسارة مريعة.

قال موزيل:

ـ حسناً، لنصحح أخطاءنا! لنُتِمّ ما كان فرنسيس قد بدأه، لنجعل هذه الصور تنطق.

اقترب الشابان من الطاولة أشار أحدهما بسبابته إلى إحدى الصور الواضحة بشكل خاص الموضحة للتقعّر الدائري الذي اكتشفته إيميلي في قعر مستنقع أومرا (الظل).

نحن الآن مصممون أن ذلك التضيُّق هو قفل، سأكون متأكداً تماماً بعد أن أضع فيه المفتاح أي الحلقة.

قفزت إيميلي لدى سماعها هذه الكلمات، وغادرت الغرفة لتأتي وتقف أمام موزيل الذي تراجع خطوة إلى الوراء، متفاجئاً بردة فعلها.

سألته:

ـ ماذا قلت؟ لقد فهمت جيداً؟ لديك النية في الغطس من جديد في مستنقع أومرا؟ هذه، هي فكرتك؟ هذا ما قررتموه خلال اجتماعكم المشؤوم! اجتماع «حاملي الأقنعة؟».

يحاول الأوّل تهدئتها:

- بالفعل لقد صوتنا هذا...

لم تتركه إيميلي يكمل جملته رافعة نبرة صوتها:

- اقترع، لا أبالي باقتراعكم، بمشاوراتكم وبكل قراراتكم! يجب عليكم فوراً أن تسلموا الطفل إلى الجمعية العلمية، نعم!

إنه دور هيرتز في التدخل:

- كلا إيميلي، كلا. أولاً سنرى ما يحتويه القبر ومن ثم سنقوم بنشر إعلان أو إطلاع.

قال موزيل:

- أشاطر مارتن الرأي.

اغرورقت عيني إيميلي بالدموع، مع ذلك تمكنت من السيطرة على الموقف. غضبها حاجز ضد الهلع والبلبلة. درع هش يتفتت بين ثانية وأخرى. لقد فقدت فرنسيس الذي كانت تظن أنها لم تعد تحبه، وتخشى فقدان ديدييه الذي ستحبه.

- أنت مثل فرنسيس، رمت ذلك في وجه صديقها، أنتم جميعاً مثله! متبجحون، ومتباهون...

شرح هيرتز:

- بقايا يسوع تعود شرعاً إلى المحفل الأول، ملطفاً صوته ما أمكن، ولنا الحق بتقديم الحقيقة إلى العالم.

وجهت إيميلي اللوم له قائلة:

- يا له من ادّعاء، مارتن. هل حماسكم هو حربكم ضد الفاتيكان! نحن لا نعرف أي فتح يمكن أن يخرجه هذا القبر الغاطس تحت الماء. لم تفكروا ولو للحظة أن الهيكليين تمكنوا من ملئه بالأفخاخ؟ إنه ضرب من الجنون! من الأفضل تكليف فريق متخصص بالغطس... عشرة أشخاص متمرنين بارعين في الغطس!

- هكذا هو! وبخها موزيل. وكيف سأرفع هذه المفرزة؟ وأي ملفّ سأظهر؟ إلى من سأعرض المشكلة؟ ومن سيقدم لي الأموال اللازمة؟ سأذهب وأقف على باب وزارة الثقافة وأقول: صباح الخير سيدي الوزير، الأمر هكذا أنا باحث في مؤسسة ماير وماسوني.. أعلن لك أن المسيح لم يمت على الصليب وأنه يرقد في قلب غابة الشرق، إليكم الإثبات؟

طبعاً إنها... بين سطور الأناجيل، في مخطوطات البحر الميت، في وصية المجنون.. التي حُرِقَت، في رسم نيكولا وآنيان دو بادو...

سأكلمه فيما بعد عن موت فرنسيس، بونتيغليون، سوفير، وعن المؤامرة الكبيرة التي استمرت منذ ألفي عام، وأنت تتصورين أنه سوف لن يرسلني إلى ملجأ المجانين؟

أمسكت إيميلي دموعها. التي كانت ستفيض بعد قليل، أحسّت بغشاوة على عينيها. هرعت نحو باب المكتب لتهرب قائلة:

ـ هذا يدعو للظن أنك تبحث عن الموت، ديدييه! لكي تغفر لنفسك أي خطيئة؟

أغلقت الباب بقوة خلفها، تاركة موزيل مسمَّراً في مكانه وذراعاه مسدلتان، بغباء.

نصحه هيرتز:

ـ اذهب والحق بها، صديقي. إنها منهكة، على حافة الانهيار مثلك. أرجوك انهض وصالحها.

بقي واقفاً وسط المكتب معطياً الشعور بأنه لم يسمع كلام المحامي العجوز، ثم حزم أمره وخرج بدوره، سالكاً الممر المظلم حيث العديد من الصور، توجه بعدها نحو الغرفة حيث أغلقت إيميلي الباب على نفسها. بدا له هذا البيت حزيناً، كل شيء فيه ساكن، مغطى بالغبار.

دخل الغرفة، وإذا بإيميلي تبكي وهي ترتب أغراضها في كيس الظهر.

تصنّع الاندهاش.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ أنت ترى أمتعتي! سأعود إلى باريس، هذا كفاية! هل أعاد إخوتك سيارتك؟

ـ نعم... لكنني أعتقد أن.

ـ إذا لم يكن لديك الرغبة بإعادتي، فاطلب لي سيارة أجرة.

ـ ألا يمكن الانتظار؟ يمكننا النوم هذه الليلة هنا، ثم نسافر غداً صباحاً.

ـ هل تعتقد أنني سأبقى دقيقة إضافية في هذا البيت الحقير؟ أريد العثور على حماي لأعتني به، لكي يحدثني عن فرنسيس.

أمسكت كيس الظهر وهمّت بمغادرة الغرفة، أمسكها موزيل من ذراعها قائلاً لها:

ـ انتظريني، سآتي معك. إنها حقاً لحماقة كبرى أن نتشاجر، أليس كذلك؟

أنا تعبة، ديدييه، تعبة من كل هذه القصة، مع كل هؤلاء الأموات لم أعد قادرة على الاستمرار.

ـ أنا أيضاً، إيميلي. لهذا السبب أرغب وضع حدٍّ ونهاية لذلك وسنستريح بعدها.

ـ لندع ذلك للآخرين.

تركت كيس الظهر يسقط على قدميها، ونظرت إلى موزيل عبر دموعها ورمت بنفسها بين ذراعيه اللتين مَدّهما نحوها، لتطلق إجهاشة بالبكاء طال كبتُها.

إطلاق العِنان لدموعها أدّى إلى إراحتها... إنها لم تعد الآن تبكي سوى فرنسيس، إن كل جسدها، وكل عقلها وَعَيا ضياعه وخسارته بشكل نهائي.

عزّاها موزيل بجملة من الكلمات التي كانت تعقد معناها ما أن تخرج من شفتيه.

بعد ربع ساعة من ذلك، أعلن الأوّل وهيرتز أنهما قرّرا إعادة إيميلي إلى باريس. عندئذ أظهر له المحامي العجوز خارطة الموقع الجغرافي للمنزل (مقر المحفل الأول) والسبيل الواجب سلوكه للوصول إلى الطريق السريع.

سأل موزيل:

- هذه المرة، لا عُصابة على العينين، لا سِرّ؟

ابتسم له هيرتز وهو يجيب:

- ذلك التمثيل هو غير ضروري، كنا فرضناه عليكما بشكل رئيسي لمنعكم من رؤية وجه الإخوة من محفلنا. هل استوعبت كل شيء؟ ستذهب حتى مونتراي، وهناك تدخل إلى الطريق السريع، باريس ليست إلا على مسافة ثلاثين كيلومتراً فقط.

- سأجد الطريق، شكراً.

رافق هيرتز الشابين إلى سيارة الغولف، حاملاً رزمة من القماش داخل كيس الظهر ما لبث أن وضعه موزيل في الصندوق.

- لقد وضعت الحلقة في الكيس، عليك الاتصال بي عندما تنوي العودة إلى غابة الشرق. أتقسم لي، أليس كذلك؟ أُصِر على أن أكون إلى جانبكما.

- نعم، مارتن، لكن أنت توكل إلي بالحلقة.

- كل شيء يرتكز عليك اعتباراً من الآن، ديدييه.

- الخاتمة ستسقط ألفي سنة من الدجل والكذب.

الاكتشاف الأكبر في تاريخ البشرية!

دخلت إيميلي السيارة بوجه عابس، بينما جلس موزيل خلف المقود. ذهب ليغلق البوابة عندما أوقفه هيرتز للحظة أخرى وتابع:

- بالفعل شيء ما يشبه زلزالاً مريعاً! إنه الثمن الذي ستدفعه الكنيسة فدية لقتلانا: هيكليون، مانويون، إخوتنا...

تساءل موزيل:

- وإذا كان القبر غير فارغ، نفترض إذا لم يكن فارغاً!

هزّ الرجل العجوز رأسه تاركاً صديقه يغلق البوابة، ويدير محرك السيارة وينطلق.

وقف أندريه إلى جانب السياج، ملقياً تحية مقتضبة على موزيل لدى مرور سيارته.

أعيد إغلاق السياج في الحال، بينما بقي هيرتز لفترة في الرواق، والمطر يطرق جمجمته.

- نصحه رئيس الخدم عندما وصل إليه قائلاً: يجدر بك الدخول سيدي.

صعد هيرتز من جديد إلى الطابق وانضم إلى الأول الذي قاد كرسيه السيار حتى النافذة.

- قال عندما دخل هيرتز إلى الغرفة: لقد رأيتك تتصرف.

- نعم، الحلقة غادرت المحفل، لصالح هذا الأخير.

- يجدر بي أن أكون مرتاحاً، صديقي، لماذا أنا قلق فجأة لهذا الحد.

ـ دون شك لأنها المرة الأولى في تاريخ محفلنا الطويل لم يبق هناك أعداء لنا.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

لنقل بأننا قلّمنا أظافرهم وتقدمنا عليهم مسافة طويلة.

لقد وجدنا حلاً لكل أسرار هذا اللغز القديم.

اقترب هيرتز بدوره من النافذة، يمازج نظره مع نظر الأول، يفكران بالاتفاق، غائصان في الماضي عبر خيوط المطر الذي ينهمر على الباحة.

لماذا الكلام؟ القول لماذا؟ كلاهما يعرفان بعضهما منذ زمن طويل، متوأمان بإسّرارهما الذي تمّ في هذا المحفل الهامشي، اللازمني، إنهما أكثر من أخوين يتحابان بذلك الحب الذي يشده بحثهما المشترك.

يتحابان كما يحبان الأخوة العشرة الآخرين، مونتسبا الذي كانوا يوزعون عليه بقدر ما يريد لقب سيدنا؟ لوسترلاك، الذي يسمونه الصيدلي، غرانفيل رئيس الاحتفال، جدي جداً صامت، سيلاس، أمين السر، محبوب دائماً، مجامل غالباً، وبإفراط، هيرتيغ، أمين الخزينة، محب وغريب الأطوار، خدوم وكريم مثل قدّيس، كووارد الإنكليزي، هش ومتروٍّ، كتلة من العظم، ومن الزوايا، دولاكروا، المؤرخ، قطعة قديمة من الخشب ذو القشر المصبوغ، بحّاث طفيلي، مهرّج، وكثير الكلام، بوسّيه، العالم بالاشتقاق، متروٍّ، متزن ومتواضع بشكل كاذب، غولدشتاين، آبنوسي (نجار الخشب)، صارم، دقيق مثل آلة ميكانيكية، آرماند، أخيراً الذي يلقبونه بكيبلينغ دون معرفة السبب في ذلك، قد يكون بسبب شاربيه الرائعين على الطريقة القديمة.

هيرتز يكسر الصمت:

ـ يبدو لي معقولاً أن نستريح قليلاً، أرغب أن تراني ليا بعد قليل أقل بشاعة.

لام الأول نفسه قائلاً:

ـ نسيت أن أسألك عن صحتها، آسف بصدق.

ـ حالتها مستقرة، المهدئات تقوم بدور كبير في ذلك، أحب كثيراً أن أكمل الدرب معها.

ـ أجدك مكتئباً جداً، ليس هذا من عادتك.

ـ لقد وصلنا إلى هدفنا، فأنا أمضيت الجزء الأكبر من حياتي بحثاً عن قبر يسوع.. لقد أكل هذا الزمن مني العظم واللحم والروح!

ـ تناقض مدهش، أليس كذلك، تجد نفسك مجرداً في لحظة تجسيد حلمك!

ـ قال هيرتز: هيا، نحن نضحي بأنفسنا في فلسفة السوق! نحن منهكان، الواحد والآخر.

ـ ذلك لأننا عجوزان، مارتن. عجوزان، مع أحلام ثقيلة!

83

العودة إلى باريس

الجمعة، الساعة الثانية والعشرين وخمس وخمسون دقيقة.

- بعد خمس دقائق، ستنامين إيميلي، ولا تناقشي، تأخذين سريري بعد تناول قرصين من هذه القذارة التي وضعتها على طاولة السرير.

- لقد تحوّل ذلك إلى عادة، هَوَس، على الأصح! سوف لن تمضي بقية حياتك على الأريكة؟

- ليس الأمر كذلك مطلقاً. سأتخلص منك ما أن أصبح مشهوراً بعد إعلاني للعالم قاطبة عن اكتشاف قبر شخص شهم مات منذ زمن طويل، مدفوناً مع وصيته.

أبدت إيميلي ابتسامة بائسة للمناسبة إلى موزيل.

- لدي الشعور أنه مضى قرن منذ مغادرتنا هذه الشقة. أتساءل أين يختبئ والد زوجي ولماذا لا يرد على هاتفه المحمول.

- سنرى فيما بعد. أطلب منك أن تستريحي. تعالي! يدفعها نحو الغرفة.

- ألا تظن أنه يجب إخطار البوليس؟ تقلق متسائلة. إصدار إعلان بحث؟

- سيكون الشيء الأسوأ الواجب فعله، وتعرفين ذلك جيداً.

رونيه مارلان لا يتمنى أبداً أن يحرّك رجال الأمن هذه المقذرة، إنه لأمر مبكر جداً!

جلست إيميلي على السرير، وأمسكت رأسها بين يديها، ثم تنهدت.

- قد تكون مُحِقاً. لكن ألا يقوم البوليس بالتحقيق حول مقتل سوفير نوربرت.

- قبل أن يدخل هذه القطعة في اللغز، آمل أن تكون قد حُلّت كل الأمور المعلّقة.

يناولها كأس ماء وقُرصَيْن.

- ابلعي هذه الحماقات، ونامي.

- اعتذرت بطاعة، رافعة جذعها، تسأل موزيل بنظرتها الرمادية الحمراء.

- تساءل الشاب: ماذا هناك؟ أو ما الأمر؟

- ألا يداخلك الرِّيب إذن؟ وإذا لم تكن سوى أداة الثأر بالنسبة إلى المحفل الأوّل؟

- أرجوك، لا تبدأي بهذا!

أمسكته إيميلي من رقبته، وانحنى ليكون وجهه قرب وجهها.

ـ اعذرني، هامسة. قبلني ومن ثَمّ نَمْ أنت أيضاً.

عانقها واضعاً قبلةً ناعمة على الشفتين، أغمضت عينيها.

عاد موزيل إلى مكتبه، أشعل سيجارة أحرقت أول فجّة منها بلعومه. فرش الصور المأخوذة خلال الليلة السابقة في المستنقع.

نسخة مصورة عن رسم الهيكليين، خريطة الأركان.

أشعل حاسوبه وانتقل من شاشته إلى الوثائق، يستعرض بنظره كل العناصر الموجودة، يسألها أيضاً، دون توقف، بعناد.

إنها هذه المتاهة التي ستشكل معضلة بالنسبة إلي ، واضح أنها تحمي القبر! لا يوجد مدخل أو مخرج مشار إليه على هذا المخطَّط. أي نوع من المفاجآت السيئة يخبئه لي هذا الشيء؟

* * *

صعد مونتسبا الدرج ذي الدرجات غير ثابتة في البناء المحول إلى غرض آخر والذي يستخدم قاعدةً لحرّاس الدم.

المكان مليء بالرطوبة، والجبس المعفّن، الخشب المسوس... رائحة كثيفة تكاد تسبب الاختناق.

دخل نيافته الغرفة. كان بانتظاره ستة رجال، شبان رياضيون حليقو الرأس أو مقصوصي الشعر على شكل فرشاة، رقبة غليظة، فكوك مشدودة، أكتاف عريضة.

ينتمي حراس الدم الستة إلى فرع القوة التابع للمنظمة.

مرتزقة، صليبيون عصريون، مدججون بالسلاح والعتاد مثل الـ G.I في مهمة. إنهم من جنسيات عدة، يتكلمون عدة لغات، منها الفرنسية. لقد أسف الكاردينال مونتسبا لأنه لم يدخل العملية مع المجموعة قبل ذلك بكثير. لكن هذه المعركة بدأها غيلليو عندما كان يمسك بمقاليدها.

ـ (دومينوس فوبيسكوم) الله معكم قال الكاردينال.

أجاب الستة على شكل جوقة:

ـ مع روحك أيضاً.

ألقى مونتسبا نظرة خاطفة على الجوار، لاحظ اللاقط الذي استخدم للتنصت على مارتن هيرتز فتذكر اللحظة التي وضع فيها المضخم في مكتب صديقه.

ـ أنت تعرف الجزء الأكبر من الملفّ لأنك استبدلت بالكاردينال مونيني قبل مغادرتك روما، أتّكل عليكم لإنهاء هذه المسألة البائسة التي كلفت حياة أربعة من أنصارنا.

ـ نعرف أنه يجب التحرك والتصرف بسرعة، قال أحدهم الذي خرج من المجموعة مجيباً بالرقم فورزا ـ 1.

ـ توه مونتسبا، أنه سيعلن عن موت البابا قريباً، لا يمكننا الإبقاء طويلاً على السر، نعم، بسرعة كبيرة! كل مهماتكم موجودة في هذا الملف.

أخرج مصنفاً سميكاً من محفظته الجلدية التي وضعها على الطاولة.

اقترب حراس الدم على شكل دائرة، فتح فورزا ـ 1 المصنف وأخرج منه إحدى عشر بطاقة.

قال الكاردينال:

ـ هذه هي الأهداف.

ـ إحدى عشر بطاقة، أحد عشر اسماً، صور شخصية وجهية وجانبية لكل هدف بشري، مخططات، تقارير حول التصرفات، أرقام لبعض اللوحات المعدنية (للسيارات) أرقام الهواتف والرموز الإلكترونية للأبنية.

هيرتز، لوسترلاك، غرانفيل، سيلاس...

جرى استعراض الأسماء الاثنا عشر أمام عيني نيافته، وجهية وجانبية وأموات قضوا نحبهم.

سأل قائد المجموعة:

ـ وحال موزيل؟

ـ إنه مرتبط بحالة مارلان الأب وزوجة الابن. إليكم مختصراً مكتوباً بخصوصهم.

أخرج مونتسبا من محفظته مصنفاً آخر، أقل سماكة من السابق، وقدّمه إلى فورزا ـ 1.

بدأ بالقول: كما تعرفون، الحلقة سلّمت إلى موزيل الذي وصل إلى منزله مع أرملة مارلان، هذا الصباح، حتى هذا المساء لم يتحركا. ما أن يخرج أحدهما سيكون محط مطاردة وتتبع. البعض منكم عليهم التدخل كقوة دعم.

نحن نجهل حالياً متى سيعود موزيل وهيرتز إلى غابة الشرق.

قال فورزا ـ 1:

ـ سنبقى آذاناً صاغية، هيرتز اتصل هاتفياً بموزيل حوالي الساعة الثالثة عشرة قبل أن يذهب إلى المستشفى ليرى زوجته. لقد سجلنا المكالمة بالرغم من أنها غير ذات أهمية.

قال مونتسبا:

ـ مع ذلك سأتنصت عليه، يمكن أن يكون الحديث مُرَمَّزاً. يجب علينا أن لا نقلّل من شأن أعدائنا.

ـ فيما يخص السيدة هيرتز؟ سأل أحد من الحراس، فورزا ـ 4: ألا تشكل جزءاً من الأهداف؟ لا توجد أي بطاقة لها.

ليا.. مونتسبا يستعيد ذهنياً شبح تلك المرأة النحيلة التي عيناها لم تشيخان فقط، الرفيقة المخلصة والمطيعة لذلك الدب الضخم هيرتز.

ليا...

قال نيافته:

ـ ليا ليست ضمن الأهداف.

لم يتوقف لإعطائهم أسباب ذلك: ماذا سيقول لهم؟ أن تلك المرأة لا يمكنها أن تسبب لهم الضرر أبداً وأنه من العبث التضحية بها؟ لن يكون ذلك سوى جريمة مجانية، لا فائدة منها. التي كانت ستثقل حساب كل أولئك الذين أوصوا بها.

وزّعت الصور على حراس الدم بينما مونتسبا يتلقى تسجيلاً للمحادثة الأخيرة بين هيرتز وموزيل.

بعد الاستماع إلى تنصتين، وبما أنه لم يلاحظ أي شيء غير طبيعي، اطمأن لهذا الموقف، وطلب من حراس الدم بأن يشكلوا تجمعاً صغيراً.

اقترب الرجال أكثر من الطاولة حيث وضعت البطاقات المتعلقة بالأحد عشر أخاً من المحفل الأول.

ـ مدّ مونتسبا ذراعه فوق الوثائق، وأصابعه مضمومة، أجابه حراس الدم بحركة مشابهة موجهة نحو ذراع الكاردينال الممدود.

قال مونتسبا:

ـ نحن نعمل من أجل مجد ونصرة الكنيسة المقدسة وحدها.

صالب يديه على صدره، فأخفض الحراس أذرعتهم وأحنوا رؤوسهم كعلامة احترام.

تابع الكاردينال:

ـ من أجل بيت الله ومملكته، **عندما يحرس رجل قوي وجيد التسليح بيته فإن كل ما ي ملكه يكون في مأمن** (كما ورد في إنجيل القديس لوقا الفصل 11)، ثم رسم بيده اليمنى، إشارة الصليب في الفراغ فوق رأس الحراس مضيفاً: خلّص يا رب شعبك، وبارك ميراثك.

ـ باسم الصليب! تنادت الأصوات الستة مطبوعة بقناعة شديدة.

84

الفصل الأخير في الفاتيكان

الكاردينال روزيرو قصير القامة، كل شيء فيه صغير: اليدان القزمتان، الذراعان صغيرتان، الساقان مقوستان. بشع شنيع كما الجرذان. غير أنه رجل مجلس وفي، محترم في الدين، متساهل في السياسة. هذه الشمائل الثلاثة جعلت منه شخصية مرموقة في منظمة حراس الدم. لهذا كلّف بالسهر على البابا الميت الذي لا أحد يحاول اعتباره على فراش الموت.

جلس قرب البابا، رأسه منغرس بين كتفيه، عيناه مدورتان مثل كرات زجاجية ممغنطة مثبتة على جثة يوحنا الرابع والعشرين. لا يرف له جفن إلا نادراً، كما لو أنه مجذوب من قبل المنازع. عندما يُفتح باب الغرفة، يخرج روزيرو بأسف من فتوره المزمن، ويدير رأسه ذو الشدق البارز قليلاً.

- يقول: آه، هذا أنت، مونيني.

- يجدر بك أن تنام قليلاً روزّيرو، أنت تقوم بمهمتك بكثير من الجديّة، ماذا تخشى؟ الغرفة محروسة بشكل جيد من رجال موثوق بهم، هل من المفيد أن تضجر من جراء وجود هذا الجثمان؟

اقترب الكاردينال البدين من السرير، ممسكاً بملفّ أسود على كرشه وهمس قائلاً:

- قام أخصائيو حفظ الجثث بعد الموت (المحنّطون) بعمل جيد، ورائحة الفورمول هذه أصبحت تقريباً محتملة!

- هذه الملهاة لم توضع لتدوم، فيما إذا سرّ موت البابا خرج من الجدران.

أصدر مونيني عواء قصيراً.

- حقاً، يمكنني طمأنتكم، لقد تلقيت على الفور أخباراً من فرنسا. تفيد باجتماع المحفل الأول باكراً هذا الصباح في جلسة ظل (مظلمة) ليستقبل فيه ديديه موزيل، سألخص لكم حالة الوضع.

- احتفل هؤلاء الماسونيون كما يجب بوفاة عملائنا الثلاثة في غابة الشرق!

شرح مونيني:

ـ لقد علمنا بمقتل حراس الدم هؤلاء، يشرح مونيني، إنه والد فرنسيس مارلان. انظروا.

أعطي الملف الأسود إلى روزّيرو، الذي فتحه على ركبتيه ليخرج منه صورة.

اقترب مونيني وأشار بسبابته الضخمة إلى الصورة قائلاً:

ـ هذا هو، مع إيميلي، كِنّته (زوجة ابنه). أخذت هذه الصورة من قبل أعواننا في فرنسا. أثناء دفن مارلان الابن.

من كان يمكنه أن يشك؟ قريباً سنخلي المأجور، روزيرو. يجب سفك القليل من الدم، وسنضع على رأس مونتسبا القلنسوة بكل سكينة واطمئنان.

ـ أنت تنهي العمل بسهولة، مونيني!

ـ ما أن علمنا بوفاة أسلافهم، حتى طار حراس الدم الجُدد إلى فرنسا.

أعاد روزيرو الصور إلى المصنف وأغلقه مطالباً:

ـ هل نحن متأكدون من أن الأخوة الأول لا يشكون مطلقاً بخلو منظمتهم من المندسين؟ ألم تفكر بأنهم قد يتمكنون من نصب فخ جديد لنا؟

بدا مونيني مُطمئناً: كلياً، إنهم هم الذين وقعوا في الشباك التي نصبناها لهم. لقد تلاعبنا بهم، وخدعناهم كليَّة، لقد سقطوا في شباكنا. أكرر لك، يكفينا تصفية آخر الشهود في هذه الكوميديا.

بكى روزيرو بصدق وهو يهز رأسه ويتنهد قائلاً:

ـ أموات كثيرون سيسقطون في المستقبل أيضاً!

ـ لا يمكننا التصرّف بصورة مغايرة، إنه الثمن الواجب دفعه للحفاظ على الكنيسة المقدسة، منعاً من الانهيار ملتهمة كامل المسيحية معها، قبر المسيح سيختفي قريباً، عزيزي، قريباً جداً.

لم يرق لـ روزيرو أن يناديه مونيني: عزيزي، فهو متأكد أنه لا يكنُّ له سوى الازدراء بسبب هذا المتسلط الماكر، الماكيافيلي ذو القدم الصغيرة، خادم مونتسبا. ما المانع أن يتعاون معه، هنا تكمن بحق واحدة من شيمه، عدم التوقف بسبب الضعف الذي يثيره بعض الحلفاء، بل التكيّف مع عيوبهم.

ـ في الواقع، سأل روزيرو، لم تقل لي بعد...؟

ـ بخصوص أي موضوع؟

ـ أنت تعرف جيداً. لقد توافقنا خلال آخر اجتماع لنا...

قال مونيني:

ـ أنت تلمح إلى الخطر الذي يهددنا من الداخل؟ هل تجد صعوبة في لفظ اسمه؟

أعاد روزيرو الملف الأسود إلى مونيني، يصلّب يديه، مرفقاه على ركبتيه وذقنه على سلامياته المليئة بالعقد.

ـ بالفعل، هكذا قال. لأنه كان من أنصارنا ولأننا أبعدناه عن مصالحنا منتزعين مقاليد السلطة من يديه.. نعم أتكلم عن الكاردينال دو غيلليو.

* * *

شبح يخرج من غابة كثيفة.

رجل يرتدي دثاراً مختصراً، وجهه مخبأ تحت قناع من القماش يضع نظارات تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

اجتاز حديقة خضراء صغيرة بخطى خفيفة رشيقة، مقدراً كيفية الوصول إلى أسفل الجدار العالي.

جاء ليتعرف على الأماكن لمرتين خلال الثلاثة أيام الأخيرة. قام ذهنياً ببرمجة الصعود وعرف مسبقاً أقل التفاصيل والنتوءات: المزراب، مفاصل الحجارة، الشرفات الصغيرة، استوعب الواجهة كاملة في ذاكرته.

قفز، والصدر ملتصق بالجدار، ذراعه امتدت نحو مجرّة الميزاب، اليدان المقفزتان تتمسكان بالمأخذ، تسلق مثل العنكبوت، بمهارة، ونظره متوجه إلى الأعلى.

تسلق بهذا الشكل أربعة طوابق دون إظهار أي علامة شك بالتعب أو التردد. متوصلاً إلى رفع نفسه إلى إحدى الشرفات (بالكون) التي تجاوزها. أمام الدرفات الموصدة، بدأ يفتش في أحد من الأكياس الجلدية المعلقة بحزامه ليخرج منها علبة أدوات.

دون ضجيج، وبصبر، بدأ يحِلُّ مسألة منظومة إغلاق الدرفات.

بعد ربع ساعة، دخل شقة الكاردينال دو غيلليو، نظاراته العاملة بالأشعة تحت حمراء سمحت له برؤية تامة في الظلام. توجه مثل هرّ، سائراً في الممر الذي يصل بين ثلاث غرف، الأخيرة منها هي غرفة الكاردينال.

دخلها بخطى خفيفة، بنعليه من الكاوتشوك على موكيت سميكة لم تكن تخونه، بعد بضع خطوات وجد نفسه أمام السرير. الكاردينال نائم، مستلق على الجانب الأيمن. شكل ضخم مغطى بشراشف، يتنفس ببطء، ولا يكاد يسمع زفيره.

دسّ الزائر يده في كيس أدواته الثاني ليخرج منها محقناً (سورنغ) تحت جلدي. هل أثار ضجيجاً خفيفاً؟ أي احتكاك مهما كان الصوت ضعيفاً جداً ناتجاً عن فتح حقيبته؟ أليس الاقتراب من الخطر هو من أنذر النائم؟ والتحذير من أن الموت قد دخل لتوه في غرفته؟

فتح الكاردينال أجفانه. جلس بصعوبة، نظر إلى رأس الابرة التي يمسكها شبح أسود. رأى النظارات بالأشعة تحت الحمراء التي تحدق به بنظرة عمياء.

عندها استفاق ذهنه، ترك الحلم ليجد نفسه أمام هذا الواقع المريع، ثم تساءل: «لماذا؟»

يغرز الرجل الإبرة في عنق ضحيته الذي فتح عينين مليئتين بالرعب، عينان متوسعتان بسبب انتظار موت بغيض والذي يجمد الدم له مسبقاً، ويجعله يتشنج ويختنق.

دفع القاتل مكبس محقنه حتى آخر قطرة. تشنجت يدا غيلليو المتادتان على التحرك في الفضاء لتدعما حديثه، ثم سقطتا بيأس في الفراغ، باحثتين عن شيء أو كائن لتتمسك به.

ما زال وعيه في أحسن حال، للحظة قصيرة جداً، بينما توقف قلبه عن الخفقان. وفي تلك الذرة من الحياة، طلب غيلليو المغفرة من خالقه عن كل الأعمال السيئة الشريرة التي قام بها خلال رسالته التبشيرية.

هذا الجزء اليسير المختلس من الموت هو الأكثر رعباً من كل الكوابيس: سؤال يبقى دون جواب.

* * *

من غير اللائق في الجو المغلق، المليء بروائح الصيدلانية، في تلك الغرفة حيث الحبر الأعظم بانتظار أن يوضع في تابوت يعطي الشعور بالنوم، ويعلو صوت الهاتف النقال الرفيع: وضع مونيني الجهاز فوراً على أذنه.

ـ نعم... نعم، قل فقط. نعم...

بعد أن أغلق محموله من جديد، التفت نحو روزّيرو ليقول له:

ـ لقد تم الأمر، عزيزي، الفاتيكان يؤيدنا كلية، الكاردينال دو غيلليو مات بفعل نوبة قلبية أثناء نومه.

رسم روزيرو إشارة الصليب وأمال رأسه ليخفي وجهه في كوب مكون من يديه الاثنتين. اختنق صوته، قالها بصوت خافت جداً: ليأخذ الله روحه! من الآن وصاعداً، ستجري المعركة الأخيرة في فرنسا.

دار مونيني على عقبيه، وقبل أن يغادر الغرفة يضيف:

ـ لقد أنقذت الكنيسة، حان الوقت لأذهب إلى مونتسبا لأكون حاضراً عند انتهاء آخر مشهد.

سأطير هذه الليلة بالذات لأصل إلى السفارة البابوية في باريس.

85

التصفيات

السبت، السابعة وخمس وأربعون دقيقة.

موزيل لم يغمض له جفن، لقد وَسَنَ فقط لعدة مرات في مكتبه، رأسه بين ذراعيه، هدوء الشاطئ يسبب له القلق دون الراحة، مقتطفات من كوابيس حاضرة لا تتوقف على هامش وعيه.

حضّر لنفسه القهوة منتبهاً أن لا يصدر أي ضجيج حتى لا يوقظ إيميلي. ثم اتخذ قراره.

قام بتحضير لباس الغوص الجديد الذي اشتراه مساء أمس منذ عودته إلى باريس ووضعه في كيس الظهر مع القوارير، والمشعل الكهربائي (مصباح)، القناع، منظم الضغط، المجاذيف البلاستيكية التي توضع في القدمين والحلقة.

ثم كتب رسالة خاصة إلى إيميلي، وضعها بشكل واضح على طاولة البهو.وأغلق باب شقته خلفه واعياً أن إيميلي وهيرتز سوف يلومانه بمرارة لأنه اتخذ هذه المبادرة، لكن لم يعد باستطاعته الانتظار، الانتظار أكثر من ذلك.

صعد الدرج ليحرك الدم في ساقيه، ثم عبر الباحة، ماشياً عدة عشرات من الأمتار في شارع بورت ـ برانسيون ليصل إلى سيارته.

رجلان، على متن سيارة لاغونا رمادية، يتحضران لتتبع خطاه، أحدهما يبعث فوراً إشارة إلى الكاردينال مونتسيا.

* * *

الثامنة واثنتا عشرة دقيقة.

رن جرس الهاتف، دفع مارتن هيرتز نعاسه وانتظر برهة ليتحقق أن مصدر الصوت من هاتفه المحمول. تذكر أنه ترك الجهاز في إحدى جيوب بنطاله.. أخرج جسمه الضخم من السرير.

ـ آلو؟ سأل في الحال.

صوت الأول في نهاية الخط، معبأ بتوتر غير معهود.

ـ شرق ـ أصل... الإنكليزي قتل نفسه، مارتن! هذا الصباح عند السابعة... لقد علمت ذلك في هذه اللحظة.

أصيب هيرتز برعشة برد وتساءل ما إذا فهم جيداً ما قاله له الأول منذ لحظة. طالباً منه تكرار ذلك.

ـ يا إلهي، استيقظ، أقول لك أن كوارد قد مات! لقد تعرض لحادث على الطريق السريع المحيطي وهو في طريقه إلى دراسته.

سأل هيرتز:

ـ كيف حصل ذلك؟ نوبة فقدان وعي؟ لقد تعرض على ما اعتقد إلى احتشاءين في القلب.

أجاب الأول:

ـ حقاً! لم يكن يدخن، أو يشرب منذ أن أجريت له عملية زرع ثلاثية (ثلاثة شرايين قلبية)، إذن، لماذا كان ثملاً وهو يقود السيارة؟

ـ ثمل؟ اندهش المحامي العجوز، في تلك الساعة؟

ـ نعم، لقد كان ثملاً! على الأقل هذا هو التشخيص الأولي الذي في حوزتنا. طبعاً سيكون هناك تشريح للجثة الذي سيحدد فيما إذا تناول مادة أخرى.

ـ هل تفكر بالتسمم؟ هذا غير معقول.

ـ أنا تحت الصدمة. كوارد لم يكن ثملاً. سأتصل بك لاحقاً عندما يتوفر لدي أي جديد، أفكار كثيرة تخطر في بالي، بعد كل هذا. آمل ذلك.

بقي هيرتز متسمراً في مكانه لبضع ثوان طويلة بعد أن أقفل الأول الخط. قشعريرة البرد التي انتابته قبل ذلك انتشرت إلى كل عروقه وأوردته، إلى أصغر أوعيته الدموية مثل انتشار السم.

* * *

بدأ فورزا ـ 6 ببعض تمارين التقوية على حافة النافذة. شرع بفتح ثقب في الزجاج مستعيناً بقطعة من الألماس، ثم مرّر يده عبر الفتحة الدائرية. فتح النافذة، ودخل إلى الغرفة. مخطط الطابق في ذاكرته. كل المعلومات الضرورية كانت مذكورة ومدونة على البطاقة رقم 2 للأهداف.

عندما دخل إلى الصالون الأزرق، حيث ينهي المعوق محادثة هاتفية بالقول: «**سأتصل بك ما أن تكون لدي أخبار جديدة، أتوهم أفكاراً، أخيراً. آمل ذلك...**» الهدف بادٍ من ناحية الظهر، وصل إليه فورزا ـ 6 بأربع خطوات دقيقة ورشيقة.

يد ترتدي القفاز توضّعت فجأة على شفتي الأول لمنعه من النداء.

كل شيء يجري بسرعة إلى درجة أن الأول لم يتمكن من الإدراك تماماً أنه سيموت، وأن كل الإخوة في المحفل الأول سيموتون. كان يستكشف ذلك، ويتوقعه فقط. فكرة خطرت في ذهنه

بينما كرسيه السيار مدفوع بقوة في الدرج. كصورة: صورة جسم المومياء المحنط في قبر غاطس تحت الماء... «يسوع!».. أثناء سقوطه، قفزت الكرسي، قاذفة الجسد شبه المشلول بأطرافه الفاقدة للحياة والتي تتحرك في كل الاتجاهات.

كسر الأول عنقه على حافة الدرجة الأخيرة، وتدحرج للمرة الأخيرة ليتوقف أخيراً على بلاط الرّدهة.

ـ في الأعلى، فورزا ـ 6 غادر كرسي الدرج.

خرج آندريه، الذي نبهه الضجيج، في الحال، المشهد يظهر له على شكل لقطات. أحد دواليب الكرسي المنقلب ما زال يدور في الفراغ مصدراً صفيراً، حذاء يتدحرج في الهواء على إحدى الدرجات، الأول ممدَّد محطّم مهشّم، رأسه متجه نحو السقف، عيناه متوسعتان بسبب الاندهاش.

ـ صاح أندريه وهو يهرع إلى الجسد: عمل دنيء.

التنفس متوقف، وجه الضحية مجمد في قناع غير متناظر.

ـ ماذا دهاك؟

انهار آندريه على صدر صديقه الأوّل.

* * *

اجتاز فورزا ـ 6 ساحة الدار بخطوات واسعة مرنة، وصل إلى جدار صحن الدار في الموضع نفسه الذي عبره قبل ربع ساعة تقريباً ثم قفز فوق الحاجز ليسقط على الرصيف حيث تنتظره سيارة بيجو 407 جاهزة للانطلاق.

ـ انطلق، اختفِ!

فورزا ـ 7 ركّب علبة السرعة، لتقفز السيارة متوارية عن الأنظار.

تكلم فورزا ـ 6:

ـ كان العجوز يتكلم على الهاتف عندما تدخلتُ، كان يعرف مسبقاً، بالنسبة للهدف الأول. سمعته يلفظ اسم محادثه: مارتن.

ـ مارتن هيرتز، المحامي! الطريدة الأثمن.

ـ إنه لا يتعاطى المحاماة منذ زمن طويل.

ـ أعرف، لكن هكذا يناديه نيافته.

* * *

العاشرة وخمس وثلاثون دقيقة.

ارتدى موزيل بذة الغطس الجديدة، تأخر قليلاً في وضع قناعه. ثم جلس على الضفة

الموحلة للمستنقع، يتأمل تلة التراب والقصب الخارج من الماء، أرض الظل.

لعب بشكل لا إرادي بالحلقة التي بين يديه. أفكاره تائهة في فوضى، متذكراً كل واحدة منها. فرنسيس، نوربرت سوفير، ارنستو بونتيغليون... والراهب جاك... والمحفل الأول.. أكاذيب البعض والآخرين. أسرارهم أو صمتهم.

ضباب رمادي يغلف الغابة المحيطة بالمستنقع، مطلقة بخاراً كثيفاً أبيض على سطح الماء.

تذوق في تلك اللحظة العسيرة، متمتعاً بالوحدة والصمت والهدوء، متنفساً بلذة هذا الهواء المليء بالرطوبة الذي تمتزج فيه رائحة الطحلب، ورائحة الطين ورائحة قشور الأشجار المتفسخة.

سوف يغطس، ذلك أكيد، لكنه يجهل متى، حالة الحذر التي يتمتع بها تسمح له باستجمام وخشوع غير معتادين. تأملٌ يفرض نفسه رغماً عنه، على عقله.

صفاء قريب من الغفلة.

سوف يغوص ويغطس، لكن فيما بعد، لديه الوقت، كل الوقت.

* * *

الثانية وست وأربعون دقيقة.

وجدت ليا صعوبة في إبقاء عينيها مفتوحتين. تناضل ضد رغبة لا تقاوم في النوم. تعرف أن حالتها هي نتيجة لعلاجها، هذه المهدئات العصبية العديدة والنفسية التي تعطى لها منذ أن علمت بموت الراهب جاك والحريق الذي أتى على المنزل الريفي.

هذه المآسي انتزعت منها قلبها، لم تعد سوى عجوز كسولة فارغة من كل شيء.

مارتن، الجالس قرب سريرها، ينظر إليها وهي تناضل ضد الخدر، أجفانها تتثاقل أكثر فأكثر في كل رفَّة. تساءل فيما إذا كانت تكرهه الآن.

تجهد في الكلام، بصوت غليظ:

ـ لديك سحنة مريضة.

إذن ما زالت تفكر به، حتى أنها قلقة على صحته.

ـ كل شيء على ما يرام، أقسم لك... ليست فعلاً نائمة، هذا كل شيء.

ـ عيناك تكذبان، مارتن. وأنا أعرفهما جيداً، عيناك عينا مُراءٍ!.

ـ لم آت لرؤيتك لكي نتكلم عني، بل عنكِ، سندعك تخرجين قريباً، أليس كذلك؟ أظن أنني سأقوم بدور حاضنة البيت بشكل رائع.

نهزت كتفيها.

ـ أنت حاضنة؟ أتساءل ما إذا كنت أفضل البقاء في المستشفى.

غطى جرس هاتف هيرتز المحمول على صوتها.

ـ خاصة، إذا كنت سأنزعج باستمرار من قبَل هاتفك المحمول!

قالت ذلك بجفاء.

وضع هيرتز، هاتفه على أذنه، شحب وجهه فوراً، ففر فمه محاولاً التنفس، الصدمة التي تلقاها للتو جعلته ينهار على كرسيه مثل ملاكم في آخر الجولة.

ـ نعم، آندريه... مارك مات.. كرسيه السيار... نعم.. في الدرج...

ليا تحدق به؛ تشنج وجهه، طوى محموله، وأصابعه ترتجف.

ـ ماذا يجري؟ من الذي مات؟ هيئتك متعبة.

ـ صديق قديم... لا تعرفينه. لا أظن أنني كلمتك عنه يوماً، أعذريني، يجب أن أتركك، سأعود قريباً، هذا وعد، عزيزتي. لكن علي الذهاب.

نهض على ساقيه المرتعدتين، وبلعومه المشدود والمتشنج.

ـ إنها القضية التي لا تنتهي، أليس كذلك؟ سألته قلقة. عند مخرج الغرفة، التفت نحو ليا التي بدت له أكثر هزالاً وهشاشة من المعتاد.

ـ فيما بعد، سأقول لك كل شيء فيما بعد.

دخل الممر، متوجهاً نحو المصعد.

مارك ماسكيت الأول.. مات بعد وقت قليل من وفاة الإنكليزي.

هذا ليس مصادفة، أغلب الظن أن حرّاس الدم بدأوا برنامج تصفية، الإخوة في المحفل الأول كلهم في خطر. موزيل أيضاً، لكن كيف؟ كيف يعرف حراس الدم هوية كل إخوتي؟

وصل المصعد، أجرى الاتصال بواسطة محموله، مع ديدييه موزيل، يجب أن يحذره في أسرع ما يمكن.

* * *

العاشرة وثمان وأربعون دقيقة.

المطر الخفيف ينقر على وجه المستنقع. وعلى الضفة، في كيس الظهر، جرس هاتف موزيل المحمول، يبث أنغامه المعدنية، أربع مرات.

«أنت هنا على رقم ديدييه موزيل، المشغول حالياً اترك رسالتك وسأناديك في أسرع وقت ممكن».

اكتشف موزيل الطريق مستعيناً بنور مشعله، ثم سبح بين أعشاب طويلة سمراء، الحلقة في يده اليسرى، وفي زناره (حزامه) سكيناً في غمدها، كذلك كيس من البلاستيك خال يأمل أن يضع فيه بحماس قريباً إنجيل يسوع.

86

اكتشاف موزيل

العاشرة وخمسون دقيقة.

رنين جرس، جرس الهاتف الثابت. خرجت إيميلي من الغرفة، ذهنها مشلول من تناولها المنومات مساء. نادت ديدييه، لم تحصل على أي جواب، توجهت نحو البهو، طلبت الرقم على جهاز التحكم. ولفظت من طرف شفتيها «آلو» الرخوة.

تعرفت على صوت هيرتز، طلبت منه التكرار، استغرقت عدة ثوان لاستيعاب ما يقوله لها.

ـ أحاول الاتصال بديدييه بكل سرعة، هل هو معك أو أنه ذهب إلى المؤسسة؟ محموله لا يجيب.

ـ أعتقد أنه نائم في مكتبه... انتظر! توجد رسالة هناك، نعم، نعم، إنها كتابته فعلاً.

ـ لقد ترك لك كلمة؟ اندهش هيرتز بقلق، لماذا؟

ـ أقرؤها: «**صغيرتي إيميلي، لا أتقيد بوعدي، أعود لأغطس في مستنقع الظل، معرفة أن الحقيقة قريبة بهذا القدر والبقاء دون فعل أي شيء هو أمر لا يطاق بالنسبة لي. أخبري مارتن أن يغفر لي لأنني لم أف بتعهدي، سأكون حذراً، لكنني أريد رؤية، رؤية! قبلات.. ديدييه**».

صراخ في الطرف الآخر من الخط:

ـ المجنون!

ـ ماذا يجري مارتن؟ ديدييه، هل هو في خطر؟ أعتقد أننا تخلصنا من حراس الدم...

ـ يوجد منهم آخرون، إيميلي. وأكثر عدداً بكثير هذه المرة! إنهم يتعقبوننا. أجهل منذ كم من الوقت.. يكذبون علينا... أعتقد أنهم كانوا ينتظرون أن نقوم نحن بحل اللغز لكي يطبقوا علينا. كان هذا، مخططهم. طبعاً! والآن ينظفون البيت بجمع الرُّهّن. لقد قدمنا لهم السر على طبق جاهز. سحقاً! لقد وضعوا حبلاً في عنق ديدييه.. وأنا ساعدتهم في عقده بإرساله إلى الحرب! كما بالنسبة لفرنسيس مارلان.. لقد حكمت عليهما بالموت!

إيميلي متوسلة والهلع يأخذ قلبها:

ـ وضّح قولك، لا أفهم شيئاً مما تقوله.

ـ لقد قتلوا الأوّل «رئيس المحفل»، وأخاً آخر، سوف يقومون بقتلنا جميعاً، سأمر لآخذك، لنذهب ونبحث عن ديدييه في غابة الشرق، لا أخبار عن حماك؟

ـ لا شيء.

أغلقت إيميلي الخط، إحدى يديها التي تمسك بالسماعة رطبة مبللة. إنها ترتجف. خوف دفين، مزمن، مؤذ ومضر، يصيبها في معدتها. «ديدييه!» تنادي دون فائدة وهي تذهب إلى المكتب الفارغ.

تفكر بماء المستنقع الأسود الموحل، وترتعد كما لو أنها غطست فيه عارية.

* * *

العاشرة وسبعة وخمسون دقيقة.

بعد عدة ضربات من ساعديه وصل موزيل إلى قعر المستنقع، تفحص الثلم الدائري المحفور على البلاطة البيضاء، نفس محيط الحلقة ذاته. فقل..

تصوّر موزيل آلية العمل بسهولة، يجب أن يتلقى الميزاب الحلقة التي فيها. يجب أن تدخل بالضبط لتنزلق على شكل سدادة أو آلة أخرى تؤدي إلى تشغيل مجموعة آليات.

وزن الحلقة، قطرها، السرعة التي ستسقط بها، الكل محسوب بدقة من قبل هوغ دو باينس لكي يتمكن من الشيء، فقط هذا الشيء، من تشغيل آلية ذكية لفتح الجدار.

دون معرفة السبب في الواقع، كان على الإخوة الأول أن ينقلوا هذا الشاهد من جيل إلى جيل، الحلقة وحدها كانت ستفتح قبر المسيح. الطقس، الذي لو لم يكن محترماً، لمتعَ إلى الأبد الأمل بالدخول إلى القبر.

دو باينس، وريث التقليد، صمم هذه المنظومة المعقدة جداً لعدة مئات من الغرامات من النحاس والقصدير.

بعد فترة تفكير، وضع موزيل الحلقة في ثلم أو ميزاب الحجر.

عدة ثوان من الانتظار، القلق: ومع مرور الزمن كانت آلية الهيكليين قد صدئت... عدة ثوان طويلة قبل وعند قاعدة الجدار بدأ قسم من الدبش (الحجارة) يرتجف، وينفتح ببطء وفعالية كاشفاً عن مدخل عريض بما فيه الكفاية ليسمح لأي رجل الولوج فيه.

دخل موزيل فيه مصاباً بالدهشة. طريقه معاق بوجود جدار آخر يبعد عن الأول مسافة متر تقريباً. بدأ السير في محاذاته بشيء من الخشية، يوفر له مشعله في هذا الشبكة من الطرق سطحاً صغيراً من الإنارة.

هذا الجدار يدور حول نفسه، يتطابق انحناؤه مع الأول معطياً للغاطس طريقاً ضيقاً يمكن لكتفيه الانزلاق على الجدار. نوع من مادة هلامية تفرزها بعض الطحالب تلتصق على وجهه، معصمه، كاحليه وتشد على جسده بشكل مخيف.

عندئذ وبعد فترة طويلة من عدم الفهم اكتشف أنه لسلوك هذا الطريق المفروض من هذه الهندسة العجيبة، يجب النزول تدريجاً، مدركاً أنه بدأ يدخل في متاهة مرسومة من قبل الأخوين الناسخين دو بادو.

متاهة شاقولية، بئر مؤلف من لولبين من الحجر مقطّع على عدة مسطحات محكمة الإقفال الهدف منها إبطاء تقدم المستكشف. أجواف، مصنوعة هنا وهناك دون نظام خاص، موفرة الممرات، صدفة، اختار موزيل منها واحداً يقوده على بعد عمق مترين إلى مسطح على شكل جيب.

يجب عليه الصعود من جديد والبحث عن ممر أو طريق آخر. لكن، قبل ذلك، مستعيناً بخنجره، واستعداداً للرجعة حفر سهماً فوق هذا المنفذ الأول دون مخرج.

ثم عاين فتحة أخرى وانزلق فيها.

متاهة شاقولية! «**وأنت تصحح اختيارك، ستجد الأخ المستور!**» يسوع بنفسه صمم مخطط القبر...

* * *

الحادية عشرة والدقيقة الثانية عشرة.

حلّت القوتان فورزا 8 و9 مكان فورزا 4 و5 وقامتا في الحراسة في شاحنة صغيرة لتبييض الملابس أمام البناء 33 من شارع بورت ـ برانسيون. يراقبون سيارة السيتروين التي يملكها مارتن هيرتز وهي تتوقف بمحاذاة صف آخر من السيارات، أنوارها للحالات المستعجلة مشعلة.

ترجل المحامي العجوز من السيارة، مرتدياً قميصاً رياضياً سميكاً، وبنطالاً من المخمل، معتمراً لبادة مضحكة على شكل جرس، منتعلاً زوجاً من الجزمات.

اجتاز الباحة بسرعة بالرغم من ضخامة جسمه.

ـ فورزا 8 إلى المركز.. تأكيد لنداء فورزا 11 الكامنة في شارع جاكارد! مارتن هيرتز وصل الآن إلى منزل موزيل. ماذا لديكم حول هذا الأخير؟ أخبار؟

في سماعته، لم يتأخر الرد. إنه يأتي من فورزا 1 الذي يتحكم بكل المعلومات ويوصل الأوامر الواردة من الكاردينال مونتسبا:

ـ لقد مضت أكثر من ساعة على غطسه. فورزا 4 و5 لا يفارقان المستنقع بنظرهما، بالنسبة لهم، وبحسب حجم قوارير الأكسجين التي لديه، فإنه يتمتع باستقلالية ذاتية طويلة.

ـ وفيما يخص الأهداف الأخرى؟

ـ الهدف غرانفيل أسقط من رصيف قطار الأنفاق لدى مرور إحدى عرباته منذ أقل من ربع ساعة.

ـ هذا الشخص تقطع إرباً إرباً. العملية ستنتهي هذا المساء.

* * *

الحادية عشرة وثماني عشرة دقيقة.

بعد خمس محاولات فاشلة، تمكن موزيل أخيراً من إحداث الفتحات في السقف المنخفض والمنحني على شكل قنطرة.

من أحد الجدران انبثق مقود من الفولاذ الصدئ، المتآكل ذو اللون الأصهب الأسود.

فوق هذا المقود، سمكة يعلوها صليب نقشت على الحجر، لا مجال للشك أن هذا المقود يشغل منظومة أخرى ستسمح بالدخول إلى القبر. وضع مصباحه في زناره، مجدفاً بقدميه لمرتين وممسكاً بالمقود. كان مجبراً على البقاء مقرفصاً، قدماه على الأرض، طرف المجذافين مستندان إلى الجدار للحصول على نقط استناد ميتة قصد تدوير أو تشغيل المقود الذي تثبته قرون من التآكل في الحجر.

نظر إلى ساعته ليقدّر كمية النيتروكس (أكسجين ـ آزوت) الباقية لديه، الاختيار لهذا المزيج من الأكسجين والآزوت المخصب بالاكسجين يقدم له زمن غطس أطول فيما لو استعمل الهواء المضغوط.

* * *

الحادية عشرة وأربع وعشرون دقيقة.

فورزا ـ 8 إلى المركز.. الهدفان مارتن هيرتز وإيميلي مارلان خرجا من البناء، صعدا في سيارة هيرتز. أكرّر: لقد استطعنا تمييزهما بشكل منفصل. أطلب تأكيد تتبعهم.

ـ تفويض من المركز، لا تدخل جسماني قبل الموافقة، نيافته سيذهب إلى عين المكان.

ـ هل سيكون الكاردينال وحيداً؟

ـ كلا، مصحوباً بالكاردينال مونيني، فورزا ـ 9 ستقودهما، صيد موفق، فورزا ـ 8.

فورزا ـ 8 يلتفت نحو رفيقه.

ـ أراهنك أن المحامي والمرأة سيأخذوننا إلى غابة الشرق.

ـ صيد سهل، نظراً لقيافة العجوز! لقد تبهرج لصيد الضفادع!

* * *

الحادية عشرة وست وثلاثون دقيقة.

تفتت الصدأ إلى قسيمات تتطاير في الماء من حول موزيل.

منذ عدة دقائق، المقود يتحرك ويهتز حول محوره.

ـ وأخيراً يدور.

حركته متبوعة مباشرة بدوي وصوت السلاسل، محاور معدنية، دواليب مسنّنة، الأرض تهتز، يفقد ارتكازه ويبدأ بالميلان. باب أرضي، باب يميل فجأة، جارفاً موزيل في تيار ماء عنيف.

يهوي الشاب في غرفة جديدة، يجد نفسه ممدداً في عدة سنتيمترات من الماء، كتفه الأيسر صدم الأرض بقوة، نهض بصعوبة من تحت دوش ماء يسيل من الغرفة الأولى. أحس بالدوي الذي يرافقه صرير الحديد القديم المتحرك. أغلق الباب، بهذه الطريقة حمى الغرفة من الطوفان.

غمر موزيل الماء حتى وسط ساقيه وجّه حزمة النور أمامه وتأكد مكتشفاً مقوداً آخر هو مقود التحكم بالخروج!.

رفع قناعه على جبهته ونزع جهاز التحكم بالضغط من فمه ليتنفس ملء رئتيه.

الظلمات. إنه الليل على جانبي مخروط الضوء، يدور حول نفسه، ببطء متحذراً وآملاً ما سيراه.

ذلك ما يجب أن يراه، هناك، دعامة قصيرة تشكل جسماً واحداً مع الجدار. هنا، دعامة سقف قنطرة مع مضلعات القبة. هناك، في وسط تلك الكنيسة، قبر من الحجر متوازي المسطيلات بسيط مختوم ببلاطة ضخمة، وسط غرفة رخام سميكة التي يعطيها مشعل موزيل ألوان قوس قزح.

التقدم لبضع خطوات أخرى بالرغم من عضلات الساق المتشنجة، والقلب المتجمد من الخوف، حتى بلوغ ذلك القبر المتواضع ليقرأ على سطحه الصورة المنحوتة الكاملة للمثلث.

الركوع مثل حاج وصل متعباً بعد سفر طويل، البكاء على نفسه، على العالم وعنفه، حقده وعظمته، على الحروب العديمة الفائدة وفترات السلام القصيرة، على الأصولية وعصابات المجانين، على الله الذي لا يوجد إلا في الحب الذي يكنّه البشر، على الله الذي لم يتمكن من خلق نفسه وأن يولد من الله.. البكاء فرحاً أو إعياء، الفرح لاكتشاف الأكثر قلة للاحتمال من بين الأسرار، التعب من تحويل إيمان الملايين من البشر إلى رماد لدى الكشف عن هذا السر.

وضع موزيل يده على رخام قبر يسوع بمثابة تحية أخوية. تحت هذا الحجر يرقد صديق قديم ذهب في رحلة لا متحركة عبر القرون محتفظاً كمتاع سفر بإنجيله الموضوع على صدره. شرع موزيل بدفع البلاطة التي توصد القبر.

87

قُبلَة المسيح

الحادية عشرة وثلاث وأربعون دقيقة.

خلف حاجز القصب، ظلت عيون فورزا ـ 4 و5 ملتصقة بمنظاريهما، سمع فورزا 4 أن المركز أخبره أن مارتن هيرتز وإيميلي مارلان مراقبون منذ خروجهما من باريس وأنهما يسيران بطيش على الطريق السريعة، اتجاه ترويس.

سأل فورزا ـ 4 عن تقدير ساعة الوصول في الميكرو المثبت في معصمه.

ـ إذا لم يقتلا نفسيهما بحادث، فإنهما سيصلان في أقل من ساعتين، فورزا ـ 8 و9 يجدون صعوبة في البقاء قريبين منهما!

ـ ونيافته؟

ـ الكاردينال في طريقه إليكم. سيعطينا الأمر بالتدخل بعد قليل من الوقت. إنه يبقى على تردّدي نفسه. موزيل؟

ـ موزيل لم يصعد بعد، هذا يصبح مقلقاً.

* * *

الحادية عشرة وأربعون دقيقة.

ـ مارتن، تريد فعلاً أن يحدث لنا حادث سير؟

ـ لو كنت أقدر على الذهاب بأسرع من هذا...

حاولي الاتصال بديديبه مرة أخرى، لا تتوقفي عن فعل ذلك. أعيدي الكرَّة! دون توقف.

ـ في كل مرّة تجيبني علبته الصوتية لا جواب. كنت قد تركت له عشرات الرسائل، أتظن أنه غطس؟

قام هيرتز بحركة عنيفة على مقود سيارته ليتجاوز سيارة عن يمينها التي لم تترك له المجال بالتجاوز، بالرغم من النداءات عبر الأضواء الكاشفة المتكررة، تصدم السيتروين من الخلف على أرضية الطريق المبللة.

ـ مارتن! تصيح إيميلي.

هيرتز يستعيد مساره بالتحريك بالاتجاه الآخر ويعطي سرعة إضافية إلى سيارته ليعود إلى الطريق اليساري. يرد عندها على المرأة الشابة:

- نعم، أنا مقتنع أن هذا الغبي هو في ماء هذا المستنقع اللئيم! لأنني أتخيل مع ثلاثين سنة أقل عمراً، وبنيته الجسدية، لكنت في مكانه، حالياً.

- شكله! إنه يدخن عشرين سيجارة في اليوم وأعتقد أنه قبل يوم أمس لم يمارس الغطس تحت الماء منذ عدّة سنوات!

- يطمئنها هيرتز: هذا ليس سوى مستنقع صغير! رجل مثله، حتى مع رئتين مليئتين بالسخام، ليس عليه أن يخشى هذا المستنقع اللئيم.

- صوتك يَرنّ بشكل كاذب مارتن.

* * *

الثانية عشرة واثنان وأربعون دقيقة.

خاض موزيل معركة قاسية مع صفيحة الرخام (بلاطة). سنتيمتراً بعد آخر، انتصار صغير في غزو صغير، دفع الحجر بكامل قواه، عضلات ذراعيه متوترتان إلى أقصى درجة، إلى حدّ التمزق. أوتار مؤلمة، الخاصرتان تلتهبان، الفخذان قاسيان بسبب التشنج، لقد انتصر.

عاد وأمسك المصباح بيده بعد أن وضعه تحت حزامه.

أنار داخل التابوت ورأى.

- بقايا المسيح، جثة المسيح التي حنطتها الأيام لتحولها إلى شيء رمادي، تجمّع من البشرة الجافة، والعظام ونسيج جلدي رقيق.

نور المصباح يغوص في المحجرين ويعطيهما ما يشبه النظرة. حياة فائقة للطبيعة. البَشرة الممدّدة على الأسنان ترسم ابتسامة متشنجة التي تأكل كامل أسفل الوجه ذو الأنف المختفي.

«جثمان عجوز، جسد من غبار؟».

على صدره تجثم رزمة من الجلد الأسمر المبقّع، مغطاة بمسحوق من العفن. امتنع موزيل عن لمس هذه الشهادة الحقيقة، هذا الإثبات لدجل ديني.

ثم عَزم على إمساكها، ما كان يدفع به إلى أن يشد إليه هذا الشيء الذي التصقت ذرّاته بذرات الجثة. إنه تمزُّق، تماماً كما لو كان ينزع قليلاً من لحم الميت... الذي يرفض أن يُسلب منه سرُّه.

بحركات دقيقة، فتح موزيل الرزمة التي يتفتت جلدها وينكسر.

وجَّه حزمة من النور على الورقة المغطاة بكتابة ناعمة، مضمومة إلى بعضها منتظمة وفكّر في نوربرت سوفير الذي كان يريد إطعام لارجهيد بهذا النوع من الخط والكتابة ليأخذ منه حتى سِرَّه الأخير.

نوربرت، فرنسيس، بونتيفليون..

وضع موزيل برفق المخطوطة في كيس كاتم للماء والهواء الذي جهز نفسه به.

أعاد وضع قناعه، وناظم الضغط في مكانه ليدير المقود الذي يجب أن يحرره من تلك الغرفة الخاصة بالمتوفى.

ولدهشته الكبرى، فإن المقود الآخر تحرك بسرعة وسهولة خلافاً للسابق، السبب في ذلك هو الجو الناشف الجاف لذلك الجزء من البناء.

انتظر الغاطس رؤية فتحة السقف تنفتح ويتهيأ ليتلقى طوفاناً من الماء. سينتظر إلى أن تمتلئ الكنيسة تماماً لكي يعود ليسبح ويسلك الطريق في الاتجاه المعاكس في المتاهة العمودية، واللولبية.

توجه بفضل العلامات التي نحتها من قبل على الحجر.

لكن لم يحدث شيء.

مع ذلك فإن ضجيجاً طويلاً للسلاسل العاملة على تشغيل آلة بعيدة.

استولى القلق على موزيل الذي تيبس منتظراً، كل جسده ينادي بالخلاص، يجب أن تنخفض البلاطة الكبيرة! يجب أن يملأ دفق المياه هذه الغرفة... لا يهم فيما لو غرق جثمان يسوع. يظهر جسده بشكل جيد. ما يهم فقط هو إنجيله! وهذه الوصية هي التي يريد موزيل إصعادها إلى السطح.

كلا، لم يحدث شيء. لا شيء أيضاً، باستثناء تساقط، احتكاكات، وتصادمات، في أعماق القبر في جدرانه التي تهتز. قليل من الغبار يتطاير من مفاصل الحجارة.

تحول القلق إلى رعب، تخيل موزيل الأسوأ. لأن القبر بكامله يهتز الآن.

ثم وبدوي خشن قوي، سقط حجر كبير من الجدار، مقذوفاً خارج تجويفه بعمود ماء. حجر آخر يسقط، كاد يصيب الشاب في رأسه، دوي حجارة، صفير انبثاق المياه. سبعة أو ثمانية حجارة اقتلعت من أماكنها لتملأ بسرعة القبو الضريحي بماء موحل في حالة غليان.

الفخ المصمم من قبل هوغ دو باينس وإخوته ينغلق على موزيل الذي اكتشف بخوف أنه كان ينقصه عنصر في بحثه: المفتاح للخروج من القبر.

* * *

الساعة الثالثة عشر وإحدى عشر دقيقة.

نظرت إيميلي إلى ساعتها بطريقة إطلاعية، الدقائق تمر، خارج الزمن العادي، على هامش الواقع. لأن هذه السيارة المندفعة مثل قنبلة على طريق سريع مبلل، هذا الرجل العجوز البدين الذي لا يصبر إلا لكي يقسم بصورة فظة، رسائلها العبثية التي تغذي العلبة الصوتية التابعة لديدييه موزيل تشكل المواد الأولية لكابوس متوهم. معادلة مجنونة تتداخل فيها العديد من العناصر المجهولة.

غطس ديدييه، أصبح ذلك شيئاً مؤكداً، أدركت إيميلي أنها تقوم بحساب سريع: اعتباراً من مغادرة منزله والوقت الذي استغرقه ليصل إلى أرض الظل، الكمية القصوى من الهواء الموجودة في قواريره، إنه لحساب يائس.

* * *

في الكنيسة المقبرة، بلغ الماء البلاطة العليا. سبح موزيل بمحاذاة الجدران ليسبرها. باحثاً عن اكتشاف ممر يعرف أن احتياطه من مادة نيتروكس لن يكون كافياً ليغذي رئتيه، وهذا القبر هو في طريقه ليصبح قبره.

فجأة حدث ما هو مريع، ورائع! ترك جثمان يسوع نعشه الحجري، أضحى خفيفاً جداً في هذا المجال المائي، يطير ويرسم صورة إيقاعية جنائزية مدهشة، ثم ينتعش بحركات بطيئة غير متناسقة.

تأمل موزيل هذه القيامة المدهشة الرائعة بواسطة حزمة مصباحه. الطيف الشاحب يُنتزع من كفنه الشفاف كما لو كان يقوم بانسلاخ طال انتظاره، منذ عشرين قرناً.

يسوع مع حركة فمه المبتسمة، يسوع، مدفوعاً بتيار الماء يمد ذراعيه الهزيلتين إلى موزيل.

الظهر مستند إلى الجدار، بذل الغطاس جهده محاولاً السباحة، لم يتمكن من دفع تمسك المسيح به.

تذكر موزيل عندئذ كابوساً كان فيه فرنسيس يشده إليه في الأرض المبللة في غابة الشرق ليعانقه بصورة غير صحية وغير بريئة.

88

الصديق

الثالثة عشرة وثلاث وخمسون دقيقة.

ـ من المركز إلى جميع قوات فورزا الموجودة في ساحة العمليات في الغابة. مارتن هيرتز وايميلي أركنا سيارتهما ويقتربان من المستنقع. فورزا 8 و9 لا تتركا الهدفين، على فورزا 4 و5 الانضمام إليكما للتصفية النهائية. أمر أعطاه نيافته. وفيما يخص موزيل؟

فورزا 4 أجب:

ـ لم يخرج بعد من الماء. لقد أصبح من الواضح الآن مشكلة ما غير منتظرة قد اعترضته، محتمل أن يكون قد مات.

ـ علينا التأكد من ذلك، قال فورزا ـ 1 الموجود في المركز، من المحتمل أن يكون الهيكليون قد أعدوا غرفة في القبر.

* * *

الثالثة عشرة وثمان وخمسون دقيقة.

جرت إيميلي عبر شجيرات القصب، تغوص خطواتها بثقل في الوحل، يتبعها هيرتز على مسافة عدة أمتار منها، منهكاً لهثاً، صدره يكاد يحترق، تتناقص ضربات قلبه أحياناً، ومن ثم تتسارع.

نادت إيميلي ديدييه. نداء في الجهة المعاكسة للريح التي هبّت ليصبح المطر مائلاً يضرب بقوة.

وصلت إلى حافة المستنقع، وجدت كيس الظهر مع الهاتف المحمول موضوعين على ثياب موزيل الملفوفة، التفتت نحو أومبرا «الظل» المحاطة بالماء الأسود الذي يفرقع تحت المطر الشديد.

لحق بها هيرتز، وهو مقوس الظهر على نصفين من شدة الجهد، واضعاً يديه على فخذيه ومعطياً الشعور أنه سيتقيأ، لكن بعد عدة ثوان، وقف منتصباً متفحصاً المكان.

وبحركة آلية، نظر إلى ساعته.

قالت إيميلي:

ـ يجب أن يكون قد خرج، لا يمكنه البقاء أطول من هذا في الماء.

لم يجد هيرتز جواباً، قلق المرأة الشابة واضطرابها مزقا فؤاده.

سألت:

ـ ماذا هناك ـ في الأسفل؟

التفت المحامي العجوز نحو خط القصب، لقد سمعت منذ لحظة حفيف أوراق القصب. أصوات.

ـ أعطني يدك إيميلي.

قامت بدورة نصف كاملة.

ـ حراس الدم؟ سألت لدى رؤيتها أربعة من الرجال المرتدين السواد يتوجهون إليهما، أقنعة ومسلحون.

كرّر هيرتز:

ـ أعطني يدك.

مدّت له أصابعها المتجمدة والمرتعدة. رطوبة راحة يد هيرتز أراحتها قليلاً وهي تنقل لها بقية من الحياة.

وجد صوتها صعوبة في الخروج من حنجرتها؛ الكلمات تلفظ بشكل آلي، قالت.

ـ لقد خُدعت مارتن.

ـ نعم إيميلي أبدأ بالفهم. فقط الآن! لكن من المستحيل بالنسبة لي معرفة ذلك.

ـ من خانك أو خدعك أنت وكل المحفل الأول؟

شدّ إيميلي إلى صدره وضمّها بصورة أبوية، مجيباً بحزن لا يمكن قياسه:

ـ هذا لن يكون إلا واحداً من إخوتي. ذلك الذي باستطاعته الدخول أو الاتصال مع الفاتيكان ومع المحفل الأول. لا يمكن أن يكون أحد سواه، صديقي... أحدهم مثل يهوذا!

عانق المرأة الشابة مثلما يفعل الأب. سيحميها لعدة ثوان بجسده. سيكون درعاً مؤقتاً لها، ثم ستصاب بعد أن يكون قد سبقها إلى الموت.

نظرت إلى وجه الرجل العجوز، القريب جداً من وجهها، لم يسبق لها أبداً أن لاحظته ينطبع بهذه اللطافة، تساءلت إلى ماذا أو إلى من كان يفكر في هذا الجزء من الزمن الذي أوقفه الموت.

يفكر بـ ليا... وبها، إيميلي التي تفكر بفرنسيس وديدييه.

لا هيرتز ولا إيميلي يفكران بيسوع.

رشقة من طلقات الرصاص أرعبت عش البط الذي يطير وهي تصيح خائفة.

* * *

الرابعة عشرة وسبعة عشر دقيقة.

سيارة سوداء ذات الجوانب، الملطخة بالوحل والدوالي المتفسخة تتوقف على جانب الطريق المليء بالحفر، يبقي السائق محرك السيارة وهو يعمل.

رجل رياضي يخرج من غابة القصب متوجهاً نحو السيارة. ما أن وصل إلى مستواها، انتظر حتى يخفض الزجاج الخلفي.

قال سيدنا:

ـ الله معكم، لقد انتهى كل شيء، اثنان من رجالنا سيغطسون، قد يكون موزيل تعرض لحادث منعه من الظهور والخروج.

ـ ومعك أيضاً. قل لي فورزا 4 ـ بالنسبة لهيرتز والسيدة مارلان.

توضع خاتم مونتسبا على حافة الباب الخلفي.

ـ لقد شكل المحامي درعاً واقياً بجسمه، وبعد أن سقط قمنا...

ـ نعم؟

أريد القول:

ـ قمنا بتصفية الهدف الثاني بينما كان الأول ميتاً على الأرض.

ـ ذلك لا يدهشني من مارتن، هو وإباؤه الفروسي!

توجه الكاردينال بشكل خاص إلى جاره الجالس جانبه والذي يشغل ثلاثة أرباع المقعد: سيدنا مونيني، الذي يمكن التعرف عليه من رائحة عرقه.

مكملاً موجهاً الكلام إلى فورزا 4 ـ يقول مونتسبا:

ـ اذهب وتصرف بشكل تكون فيه الجثث وقورة ولائقة، ضعهما ممدودين في وضعية مناسبة: أريد رؤيتهما.

ـ تعجب فورزا أربعة! سيدنا هل هذا مبيَّن؟ لقد تلقى المحامي رصاصة في رأسه.

بنبرة ناشفة صارمة، بلا جدوى، تابع نيافته الكلام:

ـ نفذ أمري، فورزا ـ 4 ـ أريد رؤيتهما! هيا اذهب، سآتيك بعد دقيقتين.

عاد حارس الدم نحو الكتلة الضخمة الكثيفة من القصب التي يحركها الريح المشبع بالمطر.

أعاد مونتسبا إغلاق زجاج الباب.

ـ سنجد موزيل، سيدنا، أكد مونيني بصوته الخشن، سنجد موزيل، سيستغرق بعض الوقت لكننا سنجده...

ـ والمسيح، نعم! قم بزيارة داخل الأرض وستجد الأخ السرّي.

مونيني يفاجئ الدموع في عيني جاره.

ـ لماذا تبكي، كاردينال مونتسبا؟ ألأننا سنناديك قريباً بالحبر الأعظم؟

ـ كلا، مونيني، أبكي صديقي مارتن هيرتز، الذي خنته. أبكي أخي مارلان، بونتغليون، سوفير، موزيل، غيلليو.. أبكيهم جميعاً، وولايتي كبابا لن تكفي تعزيتي لرؤيتهم وقد ضُحّي بهم. أحبهم وأكرههم لأنهم أجبروني على فعل ما قمت به!

لأحمي الكنيسة المقدسة، لأحمي وأصون حضارة، لأتجنب فوضى مريعة.. وأخيراً أبكي هذا المسيح الذي جردناه من حقيقته.

فتح الكاردينال مونتسبا الباب، وعدّل من وضعية قبعته، ثم رفع ياقة معطفه متوجهاً نحو القصب الذي يصدر موسيقى وحيدة الوتر في صياح الريح.

تقدم دون الاكتراث بمصير حذاءيه المبتلين في كل خطوات بالوحل. ألا يقوم بهذا المسير على ركبتيه كنادم تائب!

قبل ذلك بخمسة وعشرين دقيقة، علم أن رجلاً وُجد في سيارته في مساحة معدة للوقوف على الطريق السريع ترويس ـ باريس، ميتاً خلف المقود، بعد أن فرغ من دمه بسبب جرح ناتج عن طلق ناري في مغبنه الأيمن.

غرابة هذا الموت تعود إلى اسم عائلة الضحية، كان الأمر يتعلق برونيه مارلان، والد البروفسور فرنسيس مارلان، الذي انتحر قبل ذلك بثلاثة أسابيع.

مدّ الكاردينال مونتسبا وجهه نحو المطر مستمداً منه البرودة والطراوة مثل علامة المعمودية.

سيكون حبراً أعظماً، وستتابع الكنيسة رحلته التبشيرية مع الكتب المقدسة (الأناجيل) كمرشد ودليل.

الحقيقة ليست إلا سوى ما يُلقن.

* * *

يطفوان في فقدان للجاذبية، ملتحمان معاً، يدوران في دائرة عريضة وبطيئة في الكنيسة حيث القبر المظلم. أحياناً كانا يقعان في مجال نور المصباح الساقط على الأرض. يظهران عندئذ شبيهين بأخوين توأمين فرقهما الزمن، ثم جمعهما.

يبدوان وكأنهما يبتسمان.

89

خاتمة يوحنا

هكذا المسيح الذي لم يمت على الصليب، وبعد أن أصبح عجوزاً، سيأتي بعدي. أعلن لي أن كتاباته ستكون محرَّفة، وأن الحقيقة ستخان وتخدع. أنا، يوحنا، الذي يقال أنه الأكثر تنويراً ومعرفة من التلاميذ، «الفرع الحقيقي للمهندس المعماري» سأقدم للخلق وصية ستنقل بطريقة منافقة، وسنحاول جاهدين بأن لا نخونه في موته كما فعل توأمه أثناء حياته».

ـ توأم؟ طلب الشاب من يوحنا.

العجوز الذي كان يحمل دائماً الحلقة الثقيلة من البرونز على صدره ابتسم له.

ـ نعم. مولود من البطن ذاته، في الساعة ذاتها، وسمي توما.

الشاب الذي كان منتمياً جديداً إلى المحفل الأول كان يجهل الكثير من أسرار أسلافه، لكنه كان متشوقاً لمعرفتها، فضولياً ليفهم بشكل أفضل من كان حقيقة ذلك الرجل المدهش الرائع الذي وضع في التراب.

يقول العجوز:

أحب الأخوان بعضهما طوال شبابهما، ثم شكا وتألم توما من قوة شخصية يسوع، من ذكائه من نقاوته الكبيرة من تشدده.

يسوع كان سائحاً دون كلل أو ملل. يسافر بانتظام إلى مصر لدى معلمين من المكان الأول، الحاملين لعلم هندسة البناء.

ـ في دير المدينة؟ كان المراهق.

ـ بالفعل، ليتعلم فيه قواعد وقوانين المخطط، لأنه هكذا كان يسمى التعليم القديم الذي يفرض على الرجل أن يعيد في أعماله توازن الطبيعة الذي لا يتغير.

ـ قال الشاب: وتوما؟

ـ أصبح غيوراً، حاسداً للنور الذي جاء به أخوه من معابد المعرفة. حتى أنه حاول أخذ مكانه في قلب المؤمنين به أثناء غيابه. كان يقلده بصورة سيئة، مثل ثنائي باهت، غير مكترث لذلك، ونظراً لأنه جمَّع الكثير من الحقد، أراد اغتيال يسوع. ذهب إليه. يسوع، الذي كان يكتب في غرفة من منزله، لم يحترس فاستقبله بصداقة وحب. ضربه توما ثلاث ضربات بخنجره في رقبته، في ثديه الأيسر وجبهته. تركه شبه ميت، يسبح في دمه، وهرب. كان

الوقت ليلاً، اجتاز المدينة مثل المجنون، تائهاً، سار دون وجهة معينة لعدة ساعات. بينما، زوجة يسوع وابنه، اللذين عرفا بسبب صراخ يسوع، ذهبا إلى مكتبه ووجداه يحتضر على الأرض، حملاه إلى غرفته حيث غسلاه وغطياه بكفن، شرشف أبيض بسيط. المرأة والرجل كانا مقتنعين أن يسوع مات متأثراً بجراحه، ثم ذهبا يبحثان عن نيكوديم (نيقوديموس) ويوسف من آريماتي ليساعداهما في تحضير الجسد للمدفن.

كانا يظنان أن الرومان أرسلوا قاتلاً ليقتل ويصفي النبي (الرسول)، متخلصين منه دون أي مقاضاة أو محاكمة. يسوع كان مهدّداً منذ شهور.

ـ أعرف جيداً أنه ما زال حياً! قال الشاب.

تابع يوحنا:

ـ كان يعيش بالفعل، رجلاً قوي البنية، وقف على فراشه خرج من المنزل وهو يتمايل. كان يعرف كيف يجد توما في المكان، حيث يذهب غالباً ليتكلم معه عندما كانا ما يزالان أخوين. جبل الزيتون.. الجبل الذي يطل على المدينة. لكن قبل أن ينضم إليه، عاجل القدر يسوع.. إليكم كيف تم الأمر بالواقع...

ـ جثا توما على ركبتيه عند جذع شجرة زيتون، نظر إلى كمّ معطفه الملطخ بدم يسوع وشرع بالبكاء.

نهض فجأة منجذباً بدفع خطى، في مكان أقل ارتفاعاً.

شاهد شكلاً يتسلق الجبل، متمايلاً مترنحاً، نصف عار. عندها شرع توما بالهرب وهو يتوسل من هذا الشبح بالعودة إلى الظلمات. تعرف لتوه على شبح أخيه الذي يلفه الكفن. ركض الهارب مثل محكوم متعثراً بحجر. سقط ولم تكن لديه الشجاعة للنهوض. ظل الرجل الشاب ذو الكفن يقترب.

قال له الظل:

ـ أردت أخذ حياتي، يا توما. أقدّم لك موتي. تلعثم توما قائلاً:

ـ لقد قتلتك! لقد غرزت لمرات ثلاث خنجري في جسمك. أكرهك كثيراً!

تابع يسوع:

ـ أخي المسكين، طعناتك لم تكن محكمة كفاية. لكن بما أنك أردت القيام بدوري، أكمله هنا، هذه الليلة.

صرخ توما:

ـ سأقول إلى الرومان أنك أنت، المسيح! أنت الذي سيوقفونه.

ابتسم يسوع:

ـ أنت مخطئ، يا توما. اعتقدت أن يهوذا كان سيخون من أجلك وأنه سيدل عليّ أنني ابن

الإنسان. لكن يهوذا تصرف حسب إرادتي. لقد خدعك. اسمع... فرقة الجند تصعد لتعتقلك. على رأسهم يهوذا ليأتي ليتعرف عليك. أنت المسيح، من الآن هذا بالفعل ما كنت تريد، أليس كذلك؟

انهار توما على الأرض، عندما سمع فرقعة السلاح، ووقع خطى الجند والأصوات.

ـ يسوع، أرجوك... لا تتركني!

ـ لقد كنت أخي، توما. كنت أحبك وأنت تحسدني. ستحاكم بدلاً عني وسيكون كل شيء قد أعدّ لتُقدَم. يجب أن أعيش، لأنني حامل الكلمة.

ترك يسوع توما، وهو يغوص في ظلام الليل، يضيف المسيح:

ـ هكذا سيكتب تاريخي (قصتي)، توأمي. على المبتدئ أن لا يعمل في النور، بل في الظل والصمت، في التواضع والسرّ! في القبر...

أصغى المراهق إلى رواية يوحنا، هل كان عليه أن يصدقه؟ حقيقة، كان يوحنا الصديق الأكثر إخلاصاً ليسوع وكان يتقاسم معه معرفته. مع تلك، المغامرات التي تخص الرجلين التي كانت عديدة وتختلف أحياناً وفق الراوي.

هل كان يجب قبول هذه الحقيقة؟ أو أنها ما تزال رواية خيالية خرافة يجب أن تساعد في التفكير حول المعنى من محاولته المسارّية (المدرّبة قصد إعطائه الأسرار)؟ كان الشاب يعرف قصائد يوحنا التي كان يرددها أتباعه أحياناً أثناء المآدب، عندما كان العجوز يذهب للنوم بسبب سنه الطاعنة:

«أنا يوحنا أخ من الاثني عشر
إلى باتموس المنفي بسبب حب يسوع
السّرّ حفظته
الأخ الأول
ابن النور والمهندس
جاء إليّ
كان حياً ولم يكن ميتاً
مثلما ظنه الشعب
ثلاث قبلات أعطاني
رأسه وشعره أبيض
مثل الصوف الأبيض
مثل الثلج الناصع البياض

يقول كونه الأول والأخير

كان حياً بعد الموت

كان حاملاً مفاتيح الموت

فرع حقيقي من المهندس المعماري

إليك أيها النسر المقال

الحقيقة ستلفظ بصورة غير صحيحة».

هكذا فالمسيح الذي لم يمت على الصليب، طعن في السن، وذهب إلى صديقه يوحنا الإنجيلي. أعلن له أن كتاباته ستكون محرَّفة، وأن الحقيقة ستخدع وتخان. يوحنا الأكثر استنارة ومعرفة من التلاميذ الفرع العقلي للمهندس، سيسلم للخلق (بعد الموت) وصيته التي ستنقل بصورة محرَّفة مخادعة.

«ابن الإنسان يقول من ألمه

ما بناه قد هدم

وما أحبه كان ضائعاً

أنا يوحنا أخوه من بين الاثني عشر

مع ذلك سأبكي إخوتنا الموتى

وسأبكي على الأرملة ذات الأولاد المفرقين

يقول لي أن آمل أيضاً

محفلنا سنرفعه

في ظل المهندس (البناء)..

يقول لي أن أتبعه

لأنه كان أخ الحياة

ذلك ما كنا نظنه ميتاً

الحجارة ستزرع

القمح الذهبي سينبت

لقرون وقرون».

بقي الشاب في الصمت لدقائق طويلة، ماشياً إلى جانب معلّمه، يوحنا ينظر إليه من زاوية عينه يستكشف تسلسل أفكاره. سبقه إلى القول:

ـ سيجد يسوع ملجأ له في قمران مع عائلته، هناك حيث يوحنا المعمدان أسرّه بين الاسّينيين فيما مضى. يتابع كتابة إنجيله. أخيراً، جاء ليجدني ويطلب مني أن أتبعه.

يقول لي أنه كان ميتاً بالنسبة إلى الجميع. ترك زوجته كأرملة مع ابنه الراشد إلى جانبها. بقيت له مهمة يجب إتمامها قبل أن يغادر هذه الأرض. كان بحاجة إلى الأخ الذي كنتهُ، ليقوم بمهمته على أكمل وجه. قال لي: «البشر لا يعمرون كفاية ليحفظوا بعض أسرار التلقين، لكن المجتمعات، المنظمات التلقينية، الرهبانيات تحفظ تقاليدهم وحقائقهم.

الموكب الذي دفن يسوع في الغابة وصل الآن إلى قرية أبنيتها صغيرة سطوحها مصنوعة من القش. إنها مكان طائفتهم.

اقترح يوحنا على الشاب أن يرافقه إلى منزله، وضع العجوز حلقة البرونز على طاولة، الحلقة التي أغلقت قبر المسيح.

جلس يوحنا وتابع:

ـ لقد غادرنا أرضنا وسافرنا أيضاً، كلانا على شكل مبشرين ورسل، كنا نبحث عن أولئك الذين سيكونون جديرين بتقاسم الكلام المقدس. كنا نريد تكوين محفل كامل لا عيب فيه، متوازن متناغم. محفل حيث الأخوة والأخوات كانوا سيقبلون التعليم السلفي الذي سيوزعونه فيما بعد من حولهم، زُرّاع المستقبل. المحفل الأول! أنا، كنت حارس الكلام، الخطيب... وصديقي، أخي العجوز يسوع، كان الكلمة. ناظراً إلى الشاب بحنان ورفق، وتابع يوحنا القول:

ـ والمحفل الأول اتخذ له مقراً هنا، على حافة هذه الغابة، قرب هذه البحيرة، يسوع وأنا كنا طاعنين في السن، وكان من الصعب علينا متابعة طريقنا بسبب العمر. مع إخوتنا، بنينا معبداً. بضعة ألواح خشبية، باب، ثلاثة نوافذ.. ووضعنا فيه كل الرموز المفيدة لأعمالنا. تلك الآتية من الأزمنة الغابرة.

مثل القنطرة المرصعة بنجوم المقابر المصرية، مثل الأعمدة هيكل سليمان، مثل الرمان، قصائد الحب... رسمنا فيها ذاكرة البشرية. وأظهر لنا يسوع الإنجيل الذي أمضى حياته في كتابته. قدّم لنا فقط الملفات أوراقه. وضعها على مذبح صغير لنؤدي جميعاً قسم الأخوَّة إلى الإنسان واحترام منظمتنا.

ذلك هو ما فعلته عندما أسرّيت، يا ولدي.

دون شك أنت لم تفهم بالضبط المعنى العميق لحركاتك وتساءلت لماذا كنا نجعلها تعبر المعبد مثل عبور غابة خطيرة. لماذا أنزلناك في الأرض لتطلب فيها موتك، مثلما فعل ألعازر الذي أنهضه يسوع من القبر. يسوع نفسه أعطاك النور وقبلك ثلاث مرات، طارداً من ذاكرته الطعنات الثلاث من خنجر أخيه.

قاطع الشاب العجوز:

ـ أشك في نفسي أنني سأكون بحاجة إلى حياة كاملة لأفهم وأستوعب ما أعطاني إياه يسوع. وأنت مع ذلك، لست مغفلاً، لقد رأيت بأم عيني، منذ قليل عندما وضعنا ابن الإنسان

في قبره، إنك كنت تضع رزمة على صدره، ذلك كان إنجيله! لقد تعرفت على شكل الرزم، لا أفهم، لأي هدف دفنت كلام المسيح معه؟

بمثابة الرد، تلا يوحنا القصيدة الأخيرة التي لم يكشف عنها بعد لإخوته:

«يقول إن ساعته قد أزفت

هو الأول من بين الاثني عشر

قال أنه سيموت

عندما يشيِّد المحفل

عندما ستأوي جسده

في ظل البنّاء سيرقد

أنا يوحنا سأحافظ على السر

سأرسم الأحرف على القبر

سأضع علامة على صخرة الأخ الأول

يقول لي أنه ليس ذلك الذي على الصليب

وفهمت أنه لم يكن ذلك المصلوب

كان الأوّل والأخير

قال لي أنني سأكون النسر

في الظل سأبقى

لأن الأخ خان الأخ

أنا يوحنا سأغلق عينيه

سأضع الكتاب المقدس الإنجيل بين يديه

وسيضيع الكلام».

قفز الشاب:

ـ هذا غباء! الكلام مفقود ضائع! سنكون في الظلمات إلى الأبد!

ـ أنت مخطئ، تابع يوحنا، الكلام موجود فيك، في داخلك في إخوتك، في الإنسان! هناك، في الأرض، في قبر مجهول الآن، حيث لا توجد سوى عظام الجسد والورق الذي سيفتّته الزمن ويُحوّله إلى ذُبال.

لم نضع يسوع وسط الغابة، بل في أعماق ذهننا، ولدينا جميعاً حلقة لفتح القبر السرّي متى شئنا. من يملك ويحتفظ بالمعرفة. مفتاح! نحن جميعاً إخوة يسوع عبر مُسَارَّتنا (إعطاء الأسرار)، إذن أخ الإنسان. يتعلق الأمر الآن، بشكل توأمي، بأن لا نقلّد أو نقتدي وأن لا نخون

أبداً أخينا من جديد. أن يدعى هذا الأخ يسوع، زكريا، بولص أو بطرس، يعود إلينا أن نكفّر عن خطيئة ديديم! أن نصبح ما كان يريده يسوع أن نكون، أي بنّائين. لنفترق ونذهب عبر الدروب. سنبني محافل أخرى، ستكون كلها على شاكلة هذا المحفل، الذي أطلق عليه حكيم اسم الأول.

تشبع الشاب بكلام يوحنا، وكان على وشك أن يغادره عندما أبقاه العجوز وهو يقول له:

ـ ألم تنسى شيئاً؟

استدار الشاب، مندهشاً. أخذ يوحنا الحلقة الموجودة على الطاولة وناولها للشاب الذي أضحى مُسَاراً.

ـ حلقة البرونز، يا ولدي، أنت الأقل عمراً بيننا. إنها تعود لك، ستكون أقل ثقلاً في يديك.

بقي يوحنا وحيداً، يفكر بصديقه الراقد في صلصال الغابة اللزج، إنجيله بين ذراعيه المتيبستين والباردتين.

لم يكن يوحنا قادراً على التخيل أن بعض البناة سيقيمون كنيسة على كذبة. لم يكن بمقدوره التنبؤ في البعيد.. أو استكشاف الرائحة المريضة من الأجساد المحروقة على المحارق، صياح وصراخ المعذبين في غياهب سراديب المحققين، ضجيج الحروب حول قبر فارغ في القدس، الديانات، السياسة، الزهو والتبجح، السلطة...

مضى الوقت، يوحنا لم يكن يفكر إلا بصديقه، بمعلّمه المخلصي لم يكن ليتذكر ما إذا كان يدعى يسوع. إلا إذا كان أوزيريس أو حيرام، أو يوحنا المعمدان...؟ ذهنه مشوّش بسبب بلاء العمر يخلط أسماء الإخوة في البشرية. يتذكر بحق براحة تامة أنه كان لديه أخ أحبه وشاركه في تشييد محفل. معبد مع مخطط في تطور مستمر.

وعندما مات يوحنا، رأى أشباحاً صديقة آتية من الظل يعتقد أنها اختفت منذ زمن بعيد، تعرف على واحد منها، إنه الرجل الذي كان يحمل حلقة البرونز.

يقول الرجل:

وبما أن الساعة قد أزفت وبلغنا من العمر عتياً، لفتح أعمالنا، كان لدى يوحنا الشعور بأن الأشباح كانت تشكل سلسلة حوله لترسم دائرة لتستقبله بحرارة الحب الذي كان يسمح له مغادرة الحياة بفرح وحبور.

بموته، وباجتيازه الحد الذي لا يمكن وصفه أو تحديده والذي يفصل اثنان من عوالم الوحدة، فهِمَ يوحنا أن الأعمال المعلّمة أو المنقولة سِرّاً من قبل الأخ الأول لن تنتهي أبداً.

غادر يوحنا الأبعاد البشرية ليدخل في المَسارّة السامية العليا.

ـ لا خيانة، لا حرب، لا دجل، لا يمكن للبشرية من الآن وصاعداً إطفاء صدى الكلام، كلام يوحنا، خطيب المحفل الأول الذي رسمه في قصيدة طويلة مضيئة.

مراجع مختصرة

Les Saints Évangiles, traduction annotée par l'abbé L. Cl. Fillion.
L'Histoire de l'Église, par F. G. M. (1899).
AMBELAIN (Robert), *Jésus et le mortel secret des Templiers*, Robert Laffont, 1970 (Les énigmes de l'univers).
AUGÉ (Claude) sous la dir. de, *Le Larousse universel*, Larousse, 1924.
AVRIL (François), *L'Enluminure à l'époque gothique, 1200-1420*, Bibliothèque de l'Image, 1998 (Éditions bibliographiques).
BENAZZI (Natale) et D'AMICO (Matteo), *Le Livre noir de l'Inquisition*, Bayard, 2000 (Questions en débat).
BORDONOVE (Georges), *La Vie quotidienne des Templiers au XIIIe siècle*, Hachette, 1990 (La vie quotidienne).
BOUCHER (Jules), *La Symbolique maçonnique*, Dervy, 1990 (Bibliothèque de la Franc-Maçonnerie).
BRILLANT (M. Maurice) et NEDONCELLE (M. l'abbé Maurice), *Apologétique : nos raisons de croire, nos réponses aux objections*, Bloud & Gay, 1937.
COLINON (Maurice), *L'Église en face de la franc-maçonnerie*, Fayard, 1954 (Bibliothèque Ecclesia).
CZMARA (Jean-Claude), *Sur les traces des Templiers : circuit des possessions templières dans l'Aube*, Association Hugues de Payns, 1993.
DELORT (Robert), *Le Moyen Âge*, Seuil, 1983.

FEDOU (René) *et al.*, *Lexique historique du Moyen Âge*, Armand Colin, 1999 (Cursus).

FLEIG (Alain) et LAFILLE (Bruno), *Les Templiers et leur mystère*, 2 tomes, Genève, éditions Famot, 1981.

GOLB (Norman), *Qui a écrit les Manuscrits de la mer Morte?*, Omnibus, 1999 (Feux croisés).

HÉRON DE VILLEFOSSE (René), *Les Grandes Heures de la Champagne*, Librairie académique Perrin, 1871.

LA CROIX (Arnaud de), *Les Templiers au cœur des Croisades*, éditions du Rocher, 2002 (Documents).

LEROY (Béatrice), *L'Espagne des Torquemada : catholiques, juifs et convertis au XV^e^ siècle*, Maisonneuve et Larose, 1995.

NAUDON (Paul), *Histoire générale de la franc-maçonnerie*, Charles Moreau, 2004.

OLDENBOURG (Zoé), *Le Bûcher de Montségur*, Gallimard, 1959.

PRACHE (L.), *La Pétition contre la franc-maçonnerie à la 11^e^ commission des pétitions de la Chambre des députés*, Hardy & Bernard, 1905.

THIERRY (Jean-Jacques), *La Vie quotidienne au Vatican au temps de Léon XIII à la fin du XIX^e^ siècle*, Hachette, 1963.

فهرست

المثلث السري

عزيزي ديدييه، حين تسمع هذا الشريط أكون بالتأكيد قد غادرت هذا العالم. هؤلاء الذين يطاردونني، سيلقون قريباً القبض عليّ، ولن يبقَ لدي سوى القليل من الوقت لأروي الأحداث الأخيرة التي قادتني إلى حافة الموت... إن القتلة يجدّون في إثري منذ زمن طويل...

أترك بحثنا! أتوسل إليك، أغلق الكتب، أحرقها جميعاً وانثر رمادها في الهواء! إنسَ كل ما قلته لك، إنسهُ تماماً! أشك في أن تتوقف عند ختم الطابع البريدي الممهور في آخر الرسالة، لا تكن واثقاً كثيراً! إبق خارج هذا المزاح المميت!

نحن لسنا سوى أقزام أمام هذا اللغز، ديدييه. لسنا سوى أطفال مكفوفين وعاجزين، يجب أن يُهشموا لكي يدوم الكذب ويخلد.

الناس ليسوا عقلاء كفاية ليعرفوا... فالعالم يتأرجح؛ والقيم والأخلاق والشرائع تصبح كلها هباءً منثوراً أمام عاصفة تغرق الإنسانية في الهاوية.

أتوسل إليك أن تتلف هذا الشريط بعد سماعه وأن لا تتحدث قط عن كل هذا لأي إنسان. باسم عهدنا كماسونيين، أطعني، أخي!

إبق خارج هذا المزاح المميت! أحرق الظرف الذي احتوى الشريط، باسم «تكريسنا» وعهدنا، لا تتبع مثالي، لا تترك شيئاً من آثاري سوى الأحرف التي يقرأها للمرة الأولى، وفي ظل المعبد، كل دنيوي يصبح ماسونياً... هذه الأحرف V.I.T.R.I.O.L التي تختصر جملة فهمت معناها الحقيقي:

Visita Interiora Terrae, Rectificandoque Invenies Occultum Lapidem

لا تصحح شيئاً على الإطلاق، ديدييه! لا تبحث عن الحجر ولا عن الأخ! وداعاً أخي العزيز.

صديقك التائه فرنسيس


ISBN 9788874634-9
9 789788 746348



بناية بعقوسان - بلوك ب - طابق 3 - شارع الكويت - المنارة - بيروت 2036 6308
لبنان - تلفاكس 009611-740110 E-Mail: alkhayal@inco.com.lb